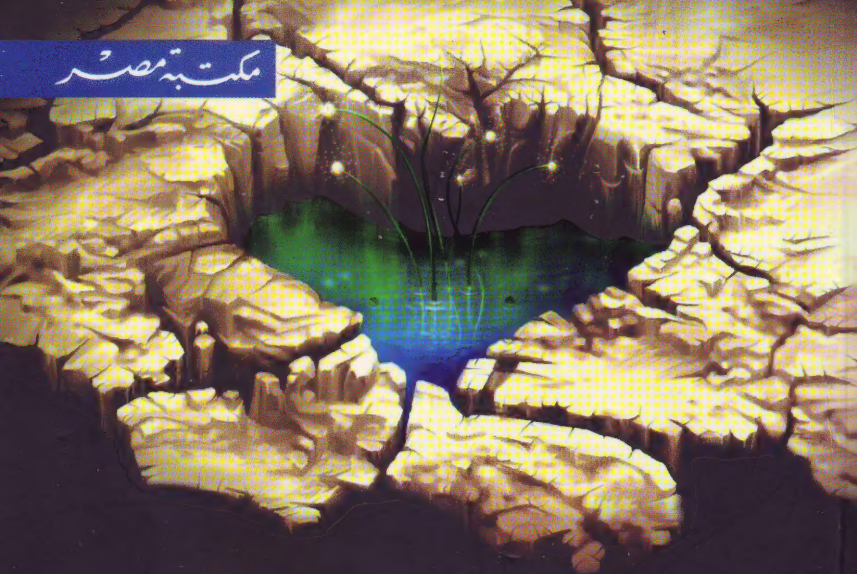


مكتبة مصر



# عرب الهمور

وليفريد ثيسينغر

ترجمة الدكتور  
سلمان عبد الواحد كيوش

مؤسسة مصر من نضي للكتاب العراقي

*The  
Marsh Arabs*

by  
**Wilfred Thesiger**

**Longmans, Green And Co Ltd  
48 Grosvenor Street, London W.1**

**Wilfred Thesiger 1964**

# عرب الهور

ولفريد ثيسيفر

ترجمة الدكتور

سلمان عبد الواحد كيوش

مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي

## محفوظة جميع الحقوق

اسم الكتاب : عرب الهور  
نـالـيف : ولـفـرـيد ثـيـسـيـفـر  
الـقـطـع : ٢٢ × ١٦  
عـدـه الـصـفـحـات : ٣٥٣ صـفـحـة  
سـنـة الطـبـع : ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م (الطبعة الأولى)  
الناشر : مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي  
المطبعة : دار مصر للطباعة

رقم الایداع فی دار الکتب و الوثائق ببغداد ١٠٣ لسنة ٢٠٠٨

رقم الایداع بدار الکتب و الوثائق القومية - مصر

٢٠٠٩/٤٢٩٨

الترقيم الدولي : 2- 1600 - 11 - 977

مؤسسة  
مصر  
للكتاب  
العراقي  
مرتضى

العراق - بغداد - شارع المتنبي

المطبعة : (+964) 07902632131 أرضي (+964) 1) 4168730

المكتبة : (+964) 07702697982 أرضي (+964) 1) 4154574

مصر - القاهرة - زهراء مدينة نصر

(+2) 0113331238 / (+2) 0120776471

E-mail { misr\_mrtdda@yahoo.com  
thaeresam@yahoo.com  
ahadi88@yahoo.com



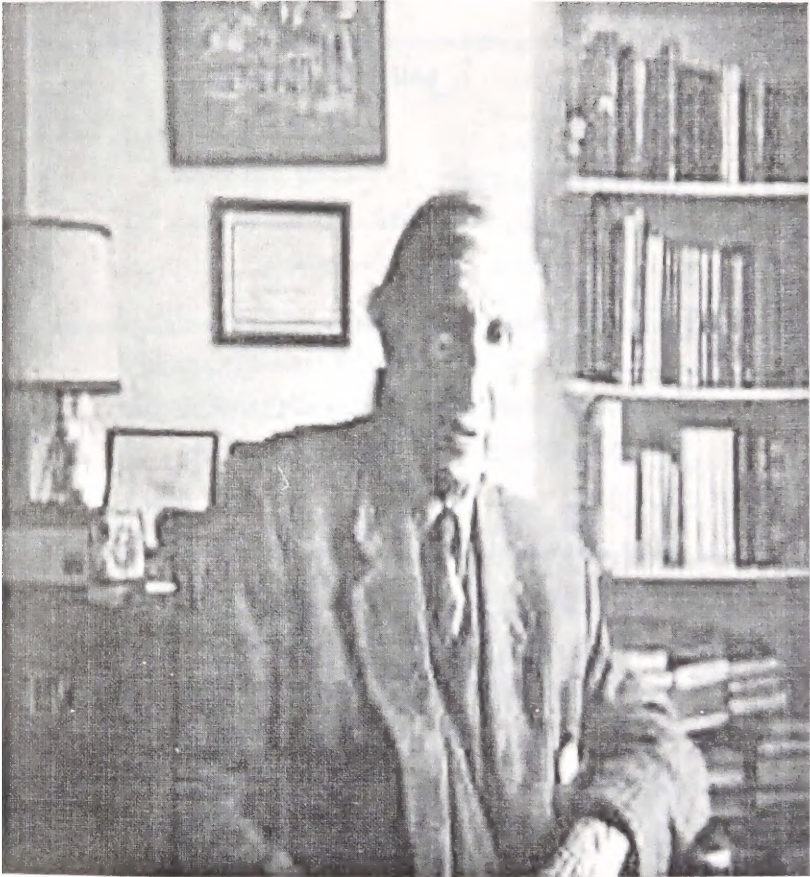
## كلمة الناشر :

منذ أن بدأنا بتأسيس «دار مصر» و«دار المرتضى» كان شغلنا الوحيد نشر الثقافة الجادة والصادقة من خلال نشرها للقيم من الكتب، وجمع أكبر عدد ممكن من المؤلفات والترجمات لأهم الكتب التي تهتم بالأدب والتاريخ، والفلسفة، والسياسة، لأنها الكتب الوحيدة التي تظهر ثقافة الشعوب ولغة التفاهم بين مجتمعات العالم.

وكان جل اهتمامنا موجهًا إلى نشر الكتاب العراقي وإيصاله إلى أبعد دار نشر في العالم وليكون بيد كل إنسان يهتم بالثقافة الجادة والصادقة وبدأنا الرحلة بخطوة ولن تكون الأخيرة لأن سباق الألف ميل يبدأ بخطوة.

وستبقى «مؤسسة مصر مرتضى» تضيف إلى رصيدها الثقافي نتاجات أخرى بأمل المشاركة في تفعيل الكتاب العراقي الجاد طبعًا، ونشرًا، وتوزيعًا.

راجين أن تكون مطبوعاتنا سفيرًا للحركة الثقافية العراقية.



ولفريد ثيسغر ..... في أواخر أيامه ١٩١٠م - ٢٠٠٣ لندن

في ليلة .. قبل القصب،  
قبل رسو المشحوف  
تسللت ذكورة الأنهار، وضاجعت .. بشهادة القمر  
رحم الأرض الخفيض، فأولدت الأزل.

---

المدخل النثرية التي تُستهل بها الفصول هي محاولات إثرائية للمترجم.

## تحريره بالمؤلف

ولد ولفريد ثيسغر في دار المفوضية البريطانية في أديس أبابا في الثامن من حزيران عام ١٩١٠م حيث كان أبوه المندوب السامي البريطاني في الحبشة ليبدأ تعليمه في مدارسها. كان منذ صغره هاوياا للتجوال فجاب عدة مناطق نائية في أفريقيا وابتداء من عام ١٩٢٩م إلى عام ١٩٣٣م درس في كلية ماكداين في جامعة أوكسفورد.

دخل العراق أول مرة في شهر مايو عام ١٩٤٨م ليزور الشمال العراقي ومن ثم بغداد في حزيران عام ١٩٥٠م وانحدر باتجاه الجنوب فوصل الأهوار في شهر تشرين الأول من عام ١٩٥٠م لتستمر إقامته فيها إلى حزيران عام ١٩٥٨م تخللتها زيارات متقطعة لمدد قصيرة إلى أفغانستان وبعض البلدان الآسيوية وإلى بلده بريطانيا.

عام ١٩٥٧م العام الوحيد الذي لم يزر فيه العراق.

زار معظم الأقطار العربية إلا أن إقامته في العراق أخذت حصة الأسد تليه الجزيرة العربية فقد أمضى فيها معظم الشهور الممتدة من عام ١٩٤٥م إلى عام ١٩٥٠م.

### أبرز مؤلفاته:

١ - رمال عربية، منشورات لوجمانز ١٩٥٩م.

٢ - عرب الهور، منشورات لوجمانز، ١٩٦٤م.

٣ — صحراء هور جبل عالم البدائية، منشورات كولنيز ١٩٧٩م.

٤ — كثير من المقالات في المجلات لاسيما المجلة الجغرافية البريطانية واصفا فيها رحلاته إلى العديد من مناطق العالم النائية لاسيما العربية والآسيوية والأفريقية.

٥ — آخر البدائين.

٦ — عبور الرمال.

٧ — بين الجبال.

٨ — أيامي في كينيا.

٩ — حياة من صور.

١٠ — عالم زائل.

توفي ثيسيفر في ٢٤ من أغسطس ٢٠٠٣م بعد عزلة فرضها عليه المرض دامت قرابة خمسة أعوام قضاها في شقته في لندن.

مات صديق العراق... مات صديق الأهوار... هكذا نعته هيئة الإذاعة البريطانية صباح يوم ٢٥ من أغسطس ٢٠٠٣م.



## مقدمة المترجم

في بواكير عام ١٩٨٦م دعاني أحد أقاربي لأصحبه في زيارة لقريّة (أم الهوش) على مشارف الهور على نهر (الواديّة)، وافقت على مضض بسبب طبيعة المهمة الثقيلة الختم على أدائها.

انطلقنا من المعهد الذي كنت أدرّس فيه في مدينة العمارة مركز محافظة ميسان وانطلق بعدها شغفى.

كانت بدلتى النيلية، وقميصى الأبيض، وربطة عنقى اللماعة نقاطاً ناشزة في فضاء المضيف الذى حللنا فيه، زاد في نشوزها شاربي الحليق، فكان الرجل والشباب ينظرون في وجهى ويترقون. تمتيت ساعتها لو أنى بقيت على إصرارى في رفض تلك الدعوة التى كانت مهمتها فوق طاقتى وخارج قناعاتى.

لم أكن لأزيد على ردّ السلام شيئاً مكتفياً بصمتى مراقباً لما حولى. وحين انفض الجمع تماماً ولم يبق سوى مضيفنا، الذى لم يتورع عن تنبيهى إلى ضرورة إطلاق شاربي، بادرت في السؤال: هل نحن في الهور؟ فقد كانت طبيعة المنطقة غريبة لا يمكن تصنيفها. ضحك مضيفنا وقال: "لا، الهور هناك" وأشار بيده إلى جهة الجنوب. ومن وقع الكلمة (هناك) عرفت انه قريب. أبديت رغبة ملحّة في رؤيته، رؤية هذا الانبساط الجميل، فتعهّد مضيفنا بمرافقتنا في جولة (بالشختورة) صباح الغد الباكر... دارت في رأسى أخلية ذلك المارد الذى سمعت عنه الكثير حين جفانى النوم بسبب تغير فراشى وبسبب أصوات الكائنات التى لا أستطيع تمييزها بسهولة.

وفي الصباح سارت (الشختورة) التي توسطتها، بهدوء شاقة مياه (الواديّة) إلى أمواج متصلة تنتهي بارتطامات لابلطة على الضفتين. كنت أنظر في عيني (السكّاني) على المبح فيها بريق دنونا من الهور. وحين توقفت أخيراً عرفت أننا فيه دون أن يصرح أحد بذلك، ذلك أني تمعنت في رقة الماء وشفافيته التي تحاكي شفافية البلور. كم أدهشني اتساع العالم المتحرك في قاعه. ورغم توسلاتي التي بدت صبيانية بالاستمرار والتوغل أكثر غير أن مضيفي رفضوا المكوث لأكثر من ساعة. غمزني الرجل الذي من أقاربي، وحين سألته عن دلالة غمزته فيما بعد، أوضح لي تفاصيل كثيرة أوجزها بكلمة واحدة (مطلوبين) (\*). تساءلت بلوعة: كيف يمكن لهذا الجمال ألا يفعم قلوب ساكنيه بالحب؟ لم أكلّف نفسي عناء البحث عن إجابة، فربما كانت وفرة الجمال واتساعه وعمومية الخير وسهولة مناله هي أسباب خشونة قلوبهم وقسوتها أحياناً، ربما!.

منذ ذلك التاريخ وأنا أبحث عن فرصة أخرى، فرصة أطول وأكثر هدوءاً وبلا مهمات يكلفني بها غيري، فرصة أقياً فيها وأطلق لها شاري لأغوص في أعماق الامتداد اللامحدود للجمال والسحر.

لم تسنح لي تلك الفرصة وضاعت أحلامي سدىً، لذا وجدتني حريصاً كل الحرص على زيادة درايتي بالهور من خلال كثير من المطبوعات العراقية ومؤلفات أجنبية صدمتني دقة إخراجها وبراعة المصورات التي توثق لهذه الحياة البدائية التي لا تختلف كثيراً عن نمط حياة السومريين وغيرهم من الأقوام

(\*) مطلوبين: تعني أن في ذمتهم ثأراً لم تتم تسويته بعد.

الغابرة ممن بنوا محلات سكناهم فوق الماء. والذي صدمني أكثر خلوا المؤلفات العراقية من الصور، ولو حصل واحتوت على عدد قليل منها فهي بعدسات مصورين أجانب زاروا المنطقة عرضاً أو جاءوا لغرض الإيغال في المعرفة.

فوجئت أن هذا الكتاب الذي بين يديك عزيزي القارئ لم يترجمه أحد، على الرغم من أن كتاباً قبله صدرت بالإنكليزية قد ترجمت كما هو الحال مع كتاب (الحاج ريكان) لفلانين، وكتاب (قصبة في مهب الريح) لغافن ماكسويل، وكتاباً أخرى صدرت بعده (كالعودة إلى الأهوار) لغافن يونغ.

أسعدني جداً، قدر ما كذرتي، أن هذا الكتاب لم يترجم من قبل، فقد أتاح لي فرصة تقديم شيء لعاشقي هذا الأفق المائي الممتد ليعانق بخضرتة السماء، ولحبي الاستزادة فيه من عراقيين وعرب وغيرهم. وحين خضت في الصفحات الأولى للكتاب مترجماً لها، توقف لدى هاجس قديم أرقني لسنين طوال، هاجس كتابة شيء عن الجنوب العراقي الزاخر بالسحر. لذا كانت أوقات ترجمتي أجمل أوقاتي وأكثرها حيوية. وحين كنت أفك ما يستعصى عليّ من الجمل الغامضة ذات التراكيب المعقدة أشعر بديب السعادة والغبطة في ثنابا روحى.

لن أضيف شيئاً إن قلت: إن الكتاب مهم، وتأتى أهميته — بتقديرى — من سلاسته وعفويته، فهو يتناول عموم منطقة الجنوب العراقي تقريباً واصفاً إياها في مدة امتازت بشدة التحولات السياسية التي توجت بثورة ١٤ من تموز الجيدة سنة ١٩٥٨م، وما ترتب عليها من تغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، وصف المؤلف انعكاساتها المتمثلة بالسلوك الشعبي العام وإن كانت المنطقة التي عاش فيها بطينة التأثير بما يدور في مراكز المدن العراقية المهمة.

يمكن عدّ الكتاب سجلاً توثيقياً لشعبنا في الأهوار، فهو يصف كل شيء، بكاءهم وضحكهم، ورقصهم وغناءهم، وماكلهم ومشربهم، ومنامهم وبيوتهم، ويصف خوفهم



ورجاءهم، إنه باختصار يصف كل شيء يراه المؤلف ويعتقده مهماً بأسلوبه البسيط الشيق، مكملاً تلك التسجيلية الدقيقة بعدد وافر من الصور التي توضح طبيعة تلك الحياة. فهو لذلك صورة ناطقة لكل مفردات حياة امتازت بالبساطة والتلقائية والجمال.

بيد أن ما يجب التنويه إليه أن ليس كل ما كتب عن سكان الأهوار في هذا الكتاب صحيحاً على الإطلاق. وإن كانت ثمة هنات هنا وهناك متمثلة ببعض الآراء الجاهزة غير المتأنية والأفكار المسبقة التي لم يكلف المؤلف نفسه عناء البحث فيها وفي مظانها، إلا أنها لا توهم من عزم الكتاب في نواياه الكشفية شيئاً.

اعتقد أن هذا الكتاب هو أفضل ما كتب عن الأهوار العراقية على الإطلاق، فعلى حد علمي هناك ثلاثة كتب مهمة أجنبية حديثة نسبياً كتبت بالإنكليزية لمؤلفين بريطانيين عن هذا الموضوع، إلا أنها لا ترقى إلى أهمية هذا الكتاب، وذلك لعدة أسباب: يقف على رأسها شموليته واتساعه، ولتناوله مدة طويلة جداً بمقاييس الحالين. هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا تقل عن الأولى أهمية: هي حساسية المؤلف الشديدة الرهافة أمام تفصيلات على درجة عالية من الدقة الوثائقية لا يعرفها إلا سكان تلك المنطقة أشبع فيها مؤلفه حد التخمّة.

أستطيع طمأنة القارئ أنه أمام النص كما هو بلا زيادة ولا نقصان إذا استثنينا الزيادة في الهوامش التي ابتغيت من ورائها إثراء الترجمة وإغنائها خاصة وأن الكتاب من أدق الكتب التي قرأتها عن هذا الموضوع، وأكثرها شمولاً وإحاطة بموضوعه الهور. ورغم ادعاء المؤلف في مقدمته أنه ليس انثربولوجياً إلا أن قراءة الكتاب تفضح أنه انثربولوجي مهم. فقد اطلعت على دراستين عراقيتين انثربولوجيتين لنيل شهادات دراسية عليا في الموضوع نفسه، فلم أرَ فارقاً ظاهرياً سوى اعتماد الباحثين العراقيين على لغة الرقم في قياس الظواهر قيد البحث يقابلها افتقار هذا الكتاب لهذه اللغة. إلا

أن ما يسجل للمؤلف خوضه في نفس الخطوط العريضة والمبادئ الأساسية لأية دراسة من هذا النوع وتوصله إلى نتائج وصفية كانت على جانب كبير من الأهمية إذا عرفنا شمولية الكتاب لكل ما يحيط ببيئة الأهوار، وهي نقطة جوهرية أحاط بها المؤلف زائداً طول مدة إقامته فيها.

فالمعروف أن ضوابط الدراسة الانثربولوجية تحتم على الباحث الإقامة وسط المجتمع قيد الدرس مدة يجب ألا تقل عن سنة، بينما امتدت إقامة المؤلف لأكثر من ست سنين تقطع أحيانا بزيارات طارئة مدة أشهر لبلده بريطانيا أو لمنطقة آسيوية أو أفريقية.

ثمة نقطة جوهرية أخرى تميز الكتاب عن أية دراسة انثربولوجية متخصصة أكاديمية هي الأسلوب، فقد اختار المؤلف لغة قصصية شيقة يضمناها توصيفاته لكل ما يرى مهما ضؤل بينما تنحو الدراسات الأكاديمية إلى لغة جامدة لا تحيد عنها لعلها من مقتضيات أصول الدراسة في هذا الموضوع، بمعنى أن المؤلف كان حراً في اختياراته. للنقاط التي ينطلق منها كتوابت لبحثه. ولعل حريته هذه هي التي أكسبت الكتاب تلك البراعة والتشويق في الوصف، مضافاً لذلك — وهذه نقطة غاية في الأهمية — حبه واستمتاعه بما يفعل. فهو رجل يختلف اختلافاً جذرياً عن مكونات البيئة التي عاش فيها إلا أنه يقول عنها وفي أكثر من موطن انه حين يعود إليها كأنما يعود إلى وطنه، فكيف استطاع التوصل إلى مثل هذا الإحساس إن لم يكن فعلاً يجب تلك البيئة؟ فهو الحسب الحقيقي إذاً الذي أحسه في نفسه فأفصح عنه، ولم يجده لقوم عراقيين آخرين فأعلن عن ذلك صراحة. إن المؤلف رومانسي حالم، هذا صحيح، فقد تبين ذلك في مقتله لحضارته المادية وما أنتجته من وسائل الغرض منها خدمة الإنسان وجعله أقدر على مواجهة مشاكله على الأرض، غير أنها تسلبه شيئاً أثمن آخر هو التصاقه بالطبيعة وإحساسه بها، ومن قلقه الشديد من دخول التعليم المنظم إلى الأهوار الأمر الذي يبدو غاية في الغرابة والتطرف، غير أن تلك الغرابة تتبدد حين نتعرف على أسباب المؤلف.

لن نستطيع فهم غرابة موقف المؤلف إن لم نضع الحب شعاراً وتوجيهاً لكل سعى وجهد بذله، فكيف نستطيع فهم سلوك أوربي متحضر جداً من عائلة نبيلة معروفة يتحمل عناء البعوض والذباب ودرجات الحرارة اللامعقولة في بيئة تتعدم فيها وسائل الاتصال مختاراً، متنقلاً بصناديقه من قرية إلى أخرى معالماً لطواير من المرضى والمتمارضين حتى ساعات متأخرة من الليل؟ شطح عقل البعض وأجاب إجابة تنم عن ضيق الأفق — وربما عن حسد — لنجاحات المؤلف وشهرته وسط المعدان ليقول "جاسوس". لا أريد التعليق على هذا القول الهش الذي يفصح عدم إيمان قائله بالحب سبيلاً لتجاوز اللغات والألوان وكل العوائق الحضارية، بل أترك المؤلف يدافع عن نفسه ضد الذين لا يستطيعون فهم سلوكه ودوافعه وضد الذين يصرّون على عدم تبرئة نواياه. لقد حرص المؤلف غاية الحرص على أن يظهر متوازناً واقعياً رافضاً لسلوك غيره من أبناء جلدته حين عجز عن العثور على مسوّغ لشكل من سلوكهم المحابي الذي لا يخلو من غرض، لذا نجد أنه يرفض أن يصيح بصوت عالٍ "الفاتحة" في العزّاءات التي كان يحرص على الذهاب إليها معزياً أصدقاءه، لكي لا يبدو متناقضاً رغم أنه قرأها مرات في قرارة نفسه وهو يخطط لجراح المعدان ويوقف برح آلامهم. نام على الجبايش بعد ساعات طوال من العمل في خنق الصبية، مقتسماً بطانياته مع عائلة لا قاسم مشترك بينه وبينهم غير الإنسانية والحب. سار حافياً وراء فالخ بن مجيد المصاب بطلق نارى في قلبه، وقلبه مع ابنه عبد الواحد لأنه ما تعود السير حافياً. كان بإمكانه أن ينتعل، إلا أنه آثر التحفى مواساة بعد أن وجد البكاء بصوت عالٍ كما فعل محبو فالخ أمراً فوق قدرته، فاكفى ببكاء صامت نبيل على شخص أحبه.

سحرته طقوس الماء وأساراه ومخلوقاته، فها هو ذا مشدوه أمام خفق الأجنحة لآلاف الطيور الملونة التي أفزعها مردى عماره بن ثكب ومجذاف حسن بن مناتى،

فطارت من بين القصب اليناع الخضرة. وها هي (الدهلة) توقف قدرته على الوصف فيقول عنها كالشوكولا، كأنه يريد القول أن لوها امتزاج رضا الرب العظيم عن هذه الأرض بذرات تراب حباها الله بنعمه المغدقة، وبحب أهلها للحياة وامتلائهم بنبضها حتى ابتعدت عنهم عقد التصحر التي عانى منها غيرهم.

لا يفوتني هنا أن أتقدم بمودة إلى كل من لديه معلومة عن أى من الشخصوس الذين وردوا في هذا الكتاب جهراً أو ضمناً، مهما كانت ضئيلة أو أية معلومة يرى أنها تسلط ضوءاً على أية زاوية من زوايا الكتاب أن يسعفني بها، فيكون بذلك قد أسدى للمعرفة فضلاً.

الله أسأل أن أكون قد أسديت خدمة لأبناء بلدى، العراق العظيم، وهو ولى التوفيق.

الدكتور

سلمان عبد الواحد كيوش

بغداد ٢٠٠٢ / ٨ / ٢٠ م

Salman-kayoush@yahoo. Com



## شكر

منهم مَن فهم مهمتي مباشرة ورحّب بها وأبدى إعجاباً بإصراري على نبش تأريخ عدّه البعض هامشياً وثانوياً، ومنهم مَن تأخر عنده هذا الفهم. منهم مَن بقى على عفويته وتلقائيته، ومنهم من خاتلني وضاق بي ذرعاً بعد أن شطّت به الهواجس المريبة وأصبح فحشاً للظنون. ولكنهم جميعاً مدّوا أيديهم أخيراً، باسطيها كل البسط مبدّين مساعدة أصروا على أن تكون كبيرة وفاعلة بعد أن أنعشت ذاكرتهم التي طغت عليها مستحدثات زمنهم الثقيل بالمسؤوليات، ونشطوا مستمتعين وهم يزيلون صداً قرابة نصف قرن عن ذاكرتهم فأدهشوني وهم يحدّقون بي وكنت أعلم أنهم إنما يحدّقون بوميض الذاكرة. لقد كان شيئاً رائعاً يحدّدون عليه تذكّره الأسماء والتفاصيل التي تصرّمت عنها سنين نصف قرن. إلى هؤلاء... وإلى الأصدقاء الذين سعدوا بي وبجهدى وتحلقوا حولي مؤازرين أتقدم بالشكر والامتنان.

١ — الحاج عبد الحسين بن اكيوش الفريجي.

٢ — حوشي بن دعيش بن بطييط الفريجي.

٣ — الشيخ خلف بن مجيد الخليفة.

٤ — الشيخ فالح بن جاسم بن محمد العريبي.

- ٥ - الشيخ عبد الواحد بن فالخ بن مجيد.
- ٦ - الشيخ أبو ريشه بن خريط بن فالخ الصيهود.
- ٧ - محمد علي بن رضيو بن عسكر المنشداوى.
- ٨ - محمد بن رضيو بن عسكر المنشداوى.
- ٩ - بائي بن صحين بن كاظم الفريجي.
- ١٠ - خريط بن سفيح بن مكنزى الفريجي.
- ١١ - دهيش بن نافل الحميداوى.
- ١٢ - عماره بن ثكب بن لجلاج الفريجي.
- ١٣ - عماره بن محسن بن رميس الفرطوسى.

### والى أصدقائى وأحبتي؛

- ١ - الدكتور عباس عبد الحسين / معهد الفنون التطبيقية.
- ٢ - الأستاذ محمد الكنانى / كلية الفنون الجميلة.
- ٣ - الأستاذ سعد السودانى / معهد إعداد المعلمات.
- ٤ - الأستاذ عايد مطر / كلية الآداب جامعة بغداد / قسم اللغة الإنكليزية.
- ٥ - عادل صدام جويعد الأزيز جاوى.



## مقدمة المؤلف

عشت في أهوار جنوب العراق ابتداءً من نهاية عام ١٩٥١م وحتى حزيران من عام ١٩٥٨م، وتستمّر إقامتي أحياناً لسبعة أشهر متواصلة. عام ١٩٥٧م هو العام الوحيد الذي لم أذهب فيه إلى هناك. وعلى الرغم من كوني دائم الترحال تقريباً، غير أن هذا الكتاب لا يُعدّ كتاب رحلات بالمعنى الدقيق للكلمة بسبب محدودية المنطقة. ولا ينوئ الكتاب تقديم نفسه على أنه دراسة تفصيلية لسكان الأهوار الذين عشت معهم لأنني لست انثربولوجياً، وفي الحقيقة لست متخصصاً في شيء من أي نوع. لقد أمضيت تلك السنين في الأهوار لأني أجد متعة في ذلك. وخلال هذه السنين عشت بين سكان الأهوار واحداً منهم، وأصبحت بشكل محتوم ألفاً طرفهم إلى حد ما. ومن خلال مذكراتي التي كنت أدونها بشكل يومي حاولت أن أعطي صورة عن الأهوار وعن الناس الذين يعيشون هناك. إن الاضطرابات السياسية الحالية<sup>(١)</sup> في العراق قد حالت دون زيارة تلك المنطقة. قريباً ربما ستجفف الأهوار، وعندما يحدث هذا، فإن غطاً في الحياة — استمر لآلاف السنين — سوف يختفي.

تغطي الأهوار حوالي ستة آلاف ميل مربع من المناطق التي تحيط بالقرنة حيث التقاء دجلة والفرات شمال البصرة ليشكلا شط العرب.

(١) فترة نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات.

تتألف الأهوار من الهور الدائم، حيث الحياة النباتية التي يغلب عليها القصب، ومن الهور الموسمي الذي يغطي معظمه البردى الذي يجف في الخريف والشتاء، ومن الهور المؤقت، الذي تغمره المياه خلال الفيضانات، الذي أفرط البردى أخيراً في النمو فيه.

يمكن تقسيم الأهوار بسهولة إلى الأهوار الشرقية التي تقع شرق دجلة، والأهوار الوسطى أو مركز الأهوار التي تقع غرب دجلة وشمال الفرات، والأهوار الجنوبية التي تقع جنوب الفرات وغرب شط العرب.

وهناك أيضاً هور دائم أدنى الشطرة على شط (الغراف) الذي يتفرع من دجلة عند الكوت ويتجه إلى الجنوب الغربي باتجاه الناصرية. وهناك خور آخر في السهول الواقعة شمال شرق العمارة حيث الفيضانات التي مصدرها (الطيب) و(دويريج) <sup>(١)</sup> المنحدرة من التلال الإيرانية لتشتت في تلك السهول، وهو موسمي آخر في أراضي (البو دراج) الواقعة على نحو خمسة عشر ميلاً شمال العمارة غرب دجلة.

وحيث تبلغ الفيضانات العظيمة أوجها فإن أصقاعاً واسعة من الصحارى المجاورة للأهوار تغمر بطبقة من المياه المكشوفة الواسعة تتباين مساحتها من سنة لأخرى ولكنها تمتد إلى مسافة تربو على المائتي ميل من ضواحي البصرة حتى الكوت تقريباً. ومع تراجع الفيضانات فإن معظم الأراضي التي كانت مغمورة بالمياه تعود إلى صحارى. وفي الربيع، حين تذوب الثلوج في قمم الجبال الإيرانية والتركية تسبب في فيضان دجلة والفرات. والأهوار هي نتاج لقرون قديمة من الفيضانات وتشتت مياه هذين النهرين. يتزود مركز الهور

(١) نهران ينبعان من الأراضي الإيرانية.



والهور الشرقى بمياههما من دجلة، وأن ٨٠% من تصريف المياه المارة ببغداد تشتت فيهما. وتوزع مياه الفرات نفسه أدنى الناصرية من خلال عدد كبير من القنوات تتبدد مياهها تدريجياً وتتلاشى في هور (السناف) ومن ثم في شط العرب أسفل قناة (كرمة على) التي تقع على بعد بضعة أميال شمال البصرة.

مازالت القناة القديمة بين (سوق الشيوخ) والقرنة تعرف بالفرات، ولكن الحقيقة أن الماء فيها يأتي من الضفة اليمنى لدجلة. وحتى وقت قريب كان الاعتقاد أن دجلة والفرات اعتادا الجريان منفصلين ويصبان كذلك في الخليج العربي، وأن ما يجلبانه من غرينهما قد دفع ساحل الخليج تدريجياً إلى الجنوب. إن النظرية الحديثة التي قدمت من قبل الدكتور (ج. م. ليز) و(ن. ل فالكون) عام ١٩٥٢م تؤكد أن ثقل الغرين المتراكم قد سبب ترسباً متشابهاً في سطح الأرض بحيث بقي خط الساحل ثابتاً بشكل كبير منذ الأزمنة التوراتية. وفيما يخص دجلة، فإن الفيضان السنوى يصل ذروته في شهر مايو، وشهر حزيران (يونيو) هو ذروة فيضان الفرات. وابتداءً من شهر حزيران يبدأ كلا النهرين بالانخفاض ويصلان أدنى مستوى لهما في شهرى أيلول وتشرين الأول. وفي شهر تشرين الثاني تظراً زيادة طفيفة على مستوى مياه النهرين تزداد طوال الشتاء، ربما ساهمت في فيضانات مفاجئة خلال الشتاء والربيع.

ولان مسيرتى بدأت في الأهوار الوسطى فهي المنطقة التي أعرفها جيداً. حقيقة، لقد شعرت كما لو أنى في بيتى ووطنى. وعلى مرّ سنوات، كان على زيارة كل القرى الصغيرة تقريباً مهما كانت صغيرة، وتكررت زياراتى مرات ومرات للكثير منها. وعندما حزت على مشحوف كان مساعدى، الذين يتولون الدفع والتجذيف، من هذه المنطقة. وحين تقبلونى فقد تقبلنى أفراد عشائهم. لقد بقوا معى طوال مدة إقامتى وكانت قراهم هى الأماكن التى

أعود إليها بعد كل رحلة. لقد كانت رحلاتي شاملة لكل الأهوار الغربية لكنى لم أتعرف على أهلها جيداً، فقد بقيت غريباً رغم المعونات الطيبة التى قدمتها لهم وكانوا يرحبون بها. أما الأهوار الجنوبية فلم أرَ فيها إلا القليل.

حرىّ بى تقديم امتنانى للذّين العظيم الذى أسداه لى (جون فيرنى) المتمثل بالمساعدة والنصيحة لإخراج هذا الكتاب فى الشهور التى كنت معه فى فلورنسا. لقد قرأ مخطوطة الكتاب بصبر لا حدود له وساهم بشكل كبير فى تطويره. كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى (فال فرينج بلاك) و(جورج ويب) لاقتراحهما القيمة ولفضلهما فى قراءة وتصحيح التجارب المطبعية، وإلى (كراهام واتسن) الذى حفزنى لكتابة هذا الكتاب وشجعنى وأسدى لى النصيحة. وشكرى أيضاً إلى (ك. س. جوردن) الذى تولى رسم الخرائط و(شركة جيمس سنكلير أوف وايت هول) التى أولت عناية بتطوير وطباعة صوري والتي قدمت الطبعات لهذا الكتاب، وإلى فريق العمل فى متحف التاريخ الطبيعى، والكثير من الآخرين الذين ساعدونى فى جمع المعلومات.

**ولفريد نيسيفر**

# الفصل الأول

## لمحة عن الأهوار

تعالوا نرسم ثدى الأرض فحملته الغرين،  
أرضعتها جذور القصب واحترقت.

قضينا طوال اليوم على ظهور الخيل، في سهل منبسط، يتطاير الغبار تحت حوافرها بصورة خانقة. كانت الأمطار قد انسحبت كما هي غالباً، وتفتت النباتات، وتناثرت في التربة المتشققة. لم تكن هناك شجيرات ولا صخور لتقوم مقام علامة لكى نقيس مدى تقدمنا البطيء نحو الأفق. كانت سروجنا ذات النمط العربي صلبة كأفـسـ ألواح خشب، وكان الركاب المعلق بعيداً إلى الخلف يجبرنا على الجلوس مائلين إلى الأمام مبتعدين إلى القسم المقوس من السرج الذى ينتأ إلى الأعلى كما نراه في سروج الكاوبوى. لقد استوقفنى في الحقيقة أن السروج الأمريكية ربما كانت مستلهمة من هذه السروج، فقد استقدم العرب هذه السروج إلى أسبانيا وقام الأسبانيون بدورهم بأخذها معهم إلى العالم الجديد.

كان سير الخيل خبيئاً لأن رفيقى لم يسبق له امتطاء جواد. إنه (دوكالد ستوارت)<sup>(١)</sup> نائب القنصل البريطانى في العمارة. على الرغم من أنه في التاسعة والعشرين من عمره وموهوب جداً غير أنه دائماً ما يؤكد أن لا طموح لديه سوى إنهاء خدمته كقنصل في (سبليت)<sup>(٢)</sup> حيث يستطيع نيل كل ما يريد. لقد تبادلنا

(١) دوكالد ستوارت: Dugald Stewart: رغم السعى والبحث لم أعثر له مع الأسف على أى ذكر في المصادر التى تيسر لي الاطلاع عليها.

(٢) سبليت Split مدينة على الساحل الدلماسى الكرواتي في الشمال الغربى من يوغسلافيا تعود إلى القرن السابع الميلادى. يبدو أن لهذه المدينة مواصفات محبة في نفس ستوارت.

ذكرياتنا الخاصة بـ (ايتون) كما يفعل قدماء الأيتونيين<sup>(١)</sup>. لقد كان تلميذاً موهوباً بالرغم من عرجه الذى ساء نتيجة عمليتين جراحيتين فاشلتين فقد حاز على الكثير من الشارات المدرسية، فى حين، — رغم وجود ساقين سليميتين — لم أحز على شىء. حططنا رحالتنا تلك الليلة عند (البزون)<sup>(٢)</sup> وغننا على الأرض فى خيمة الشيخ الخاصة بالضيوف بعد وجبة دسمة من الأرز ولحم الغنم.

وفيما عدا كونها مدعومة ومستندة إلى أحد عشر عموداً ومتسعة بإفراط، فإن الخيمة التى تحيطنا لا تختلف عن بقية السقائف السوداء المصنوعة من شعر الماعز التى تفتح كلها إلى الاتجاه نفسه. وكان يقف أمام معظمها حصان أو اثنان مربوطان إلى الأوتاد من أرجلهم الأمامية. لقد تابعت تلك الأغنام وهى تُساق قبيل الغروب من قبل رعاة شباب تحيط بكل قطع هالة ذهبية من الغبار. كان غاؤها المتواصل طوال الليلة يشكل صدى من ضجيج مقابل نباح الكلاب المقطع.

أنا فى طريقى إلى الجنوب قادماً من كردستان العراق حيث كنت هناك محاولاً استرداد سلام روحى الذى عرفته فى جنوب الجزيرة العربية. كنت قد عشت هناك مع البدو مدة خمسة أعوام وقطعت بينهم عشرة آلاف ميل عبر أراضٍ لم تمر بها سياراً، حتى قدوم الفرق الزلزالية<sup>(٣)</sup> متمثلة بطلاع التقدم الحديث، التى بدأت تتوافد للبحث عن النفط.

كردستان العراق، المكان الذى طالما رغبت بزيارته، كنت قد اجتزته على ظهر جواد من أقصاه إلى أقصاه رافقنى فى ذلك كردى شباب. كان المشهد عفويّاً وجميلاً، والأكراد الذين يسكنون هناك مازالوا يلبسون الملابس التقليدية المبهرجة والعمائم المزركشة والسراويل الفضفاضة والصدارى القصيرة وأوشحة للخصر من كل لون وجنس،

(١) ايتون Eton مدينة قديمة فى بريطانيا. والمؤلف هنا يرمز للإعدادية التى تخرج فيها وتحمل اسم المدينة.

(٢) البزون: اسم لقبيلة عراقية عربية تسكن غرب الأهوار باتجاه الجزيرة العربية وهم فرع من القبيلة الأكبر (العيسى) التى تنحدر من الجاز.

(٣) الفرق الزلزالية: تسمية لفرق جيولوجية تتولى عملية البحث عن النفط بطريقة التفجيرات.

تحتبى تحتها الخناجر والمسدسات وتصابلت فوقها أحزمة عريضة مزخرفة مليئة بالذخيرة. أنام ليلتي في قرية تنحدر بيوتها بعضها فوق بعض بمحاذاة سفح الجبل بسطوحها المنبسطة، وفي الخيام السود للأكراد الرحل على قمم الجبال المكشوفة حيث تنمو أزهار الجنطانيا بين الحشائش، وترقد الثلوج طوال فصل الصيف. كنت قد تتبعته الأنهار المتعرجة خلال غابات البلوط حيث تنقب الدببة في الأدغال، واسترعى انتباهي قطيع وغول متخذاً طريقه على طول حاجز يرتفع إلى ثلاثة آلاف قدم من الصخور، بينما النور العملاقة تطوى السماء هازة الري بأجنحتها. لقد رأيت بهاء الربيع في كردستان حيث تغطي السفوح شقائق النعمان، بينما اكتست الجبال حلة قرمزية بأشجار التوليب. لقد اتخمت عنياً طازجاً لَوْحَتِه أشعة الشمس وأنعشته برودة الجداول القريبة.

انعدمت عندي الرغبة في العودة إلى كردستان حين رأيته. فقد كانت رحلتي فيها مقيدة جداً كأنها مطاردة بخلصة في غابة أياثل اسكتلندية. عبر هذا الجدول تقع تركيا، ووراء بركة الأمطار تلك تقع إيران حيث ينتظر رجال الشرطة بجلهم الرسمية عند الممر مطالبين بجواز السفر الذى لا أملكه.

قبل نصف قرن<sup>(١)</sup> كان بإمكانى الذهاب عبر راوندوز إلى أورميا<sup>(٢)</sup> ومنها إلى فان<sup>(٣)</sup>، والإعاقة الوحيدة الحقيقية ربما تكون قطاع الطرق والعشائر المسلحة. والشيء المؤكد أن الأهوار، التى أتجه إليها الآن، تغطي مساحة أقل من مساحة كردستان العراق، لكنها عالم كامل قائم بذاته وليست جزءاً من عالم أكبر يتنكر لى ويرفض وصولي<sup>(٤)</sup>. بالإضافة إلى ذلك، فإن كوني مولعاً بالعرب ربما هو الذى حال دون

(١) يشير المؤلف هنا إلى حقيقة انعدام الحرم في الدخول والخروج إلى هذه البلاد قبل نصف قرن، ربما بسبب الحروب.

(٢) أورميا Uremia بحيرة كبيرة في الشمال الغربي لإيران قرب الحدود مع تركيا. تبلغ مساحتها ٢٣١٧ ميلاً مربعاً.

(٣) فان أو وان Van: بحيرة ملحية في الجنوب الشرقى لتركيا. تبلغ مساحتها ١٤٥٠ ميلاً مربعاً.

(٤) ربما كانت إشارة إلى إيران أو تركيا حيث لا يمتلك تأشيرة مرور.

استلطفاني للأكراد. وبالرغم من إعجابي بالمناظر الطبيعية التي راقت لي، لكنني لم أتلصص هذا الإعجاب في نفسي بالأكراد.

لا أستطيع أن أذكر أني مشوش بسبب عدم قدرتي على إتقان اللغة الكردية، وحتى لو استطعت فما كان هذا ليؤنسني بهم. ولأني اعتدت على اعتبار الناس أهم من الأماكن لذا قررت العودة إلى العرب.

امتطينا خيولنا صباح اليوم التالي باتجاه الجنوب، هذه المرة نحو الأهوار عبر سهل لا يكاد يتغير وتوقفنا منتصف النهار عند بعض الخيام للتزود بالطعام ولتستبدل الخيول. إن (دوكالد) ممتط لجواد فخم حرون ذي لون أشهب. وحين اعترضت على أن (دوكالد) ليس بفارس لمثل هذا الحصان ظن الشيخ أن بي رغبة لركوبه دون غيره، لذا قال: "لقد اشتريته خصيصاً للقنصل".

وبعد مدة وجيزة وعلى حين غفلة، قام (دوكالد) بوخز الحصان بعقب قدمه فانطلق. ولكي ينقذ (دوكالد) نفسه رمى الرسن وتشبث بالقسم المقوس من السرج بكلتا يديه، فبدأ رفاقنا يعدون بسرعة لملاحقته ولكنني حين أدركت أن هذا التصرف لا يزيد إلا في استثارة الحصان فقد صرخت طالباً منهم التوقف. كان (دوكالد) قد فقد كلا الركابين، لقد لاح أنها مسألة وقت فقط لسقوطه. كانت الأرض صلبة فانصرف ذهني إلى حادث مروع، ولكن بعد قرابة ميلين توقف الحصان منهكاً بينما بدا (دوكالد) مازالتا تقبضان على السرج. حينما لحقنا به كان قد ترجل وهو ينظر في يديه المدميتين من مسامير زخرفة السرج.

— "الآن وأنا قدمي بهذا الشكل فسأكمل ماشياً".

قال (دوكالد) ذلك في الوقت الذي لم يكن هناك أي تأكيد بأن خيولنا هادئة لكي نقتعه بتغيير رأيه والعدول عن قراره ليركب أحدها.

مازالت الشمس في كبد السماء، وامتألت الأرض بالشقوق العميقة نتيجة الفيضانات السابقة. وفي الوقت الذي استمر الشيخ في سيل اعتراضاته واحتجاجاته كان (دوكالد) يمشي مترنحاً مضطرباً. ناشدني (دوكالد):

— "إكراماً لله، اطلب منه أن يسكت".

مالت الشمس باتجاه الغروب ولم تبد أية إشارة للأهوار ولا للقرية التي نقصدها. كان الظلام قد حلّ حين رأينا أنواراً تتحرك من بعيد. كانت عشيرة (البزون) قد أخبرت (مزيد بن حمدان) <sup>(١)</sup> شيخ عشيرة (العيسى) <sup>(٢)</sup> بتوقع قدومنا لذا فقد أرسل فريقاً للبحث عنّا عند الغسق وسرعان ما اهتدوا إلينا وقادونا إلى مخيم الشيخ الواقع على حافة الأهوار. بإمكاننا أن نستشعر وجود الماء لكننا لم نكد نراه.

كان الشيخ (مزيد) نفسه على رأس المستقبلين. رجل ضئيل القامة ذو بنية مألوفة لكنه يقف باستقامة تامة ويعطيك حالاً انطباعاً بالاحترام والثقة والجلال. كانت الخيمة مضادة بفانوس نفطى وملئية برجال، تسلح أغلبهم بالبنادق. ما أن دخلنا الخيمة حتى نهض الجميع. أشار لنا الشيخ (مزيد) إلى مكان جلوسنا قريباً من الموقد. وفي الوقت الذي كانت تقدم لنا فيه فناجين القهوة والشاي كانت أسئلة الشيخ المتمسكة بالمعرفة عن صحتنا ومتاعبنا في رحلتنا التي لا تنقطع. جلس الجميع ساكنين ولم يكن أحد يتكلم سوى الشيخ. نحن بحضور عرب الصحراء الذين يكونون دائماً شديدي التمسك بأعرافهم أمام الملأ ويتضاعف إحساسهم بوقارهم وجلالهم.

وأخيراً أكلنا، لقد بدت لنا الساعات طويلة ونحن ننتظر طبقاً كبيراً وقد تكوم فوقه الأرز ولحم الغنم المعتادان. إنها ليست وجبة لذيذة، لكن العرب يقدرّون ويحترمون الكمية على حساب النوعية. أكلنا في البداية مع رجال مستين وما أن انتهينا من أكلنا حتى بادر الشيخ (مزيد) إلى دعوة الآخرين بالأسماء ليحتلوا أماكننا. وبوصفه مضيفاً فإن الشيخ (مزيد) نفسه كان واقفاً حتى أطعم الجميع. لقد تناولوا وجبتهم على

(١) مزيد بن حمدان: شيخ عشيرة العيسى، متوف وخلفه طاهر بن عبد الله بن سكر، لم استطع تعيين تاريخ وفاته بالضبط غير كونه بعد ١٩٦٨ م.

(٢) العيسى: عشيرة عربية يعود نسبها إلى طين القحطانية، موطنها البر الغربي للأهوار.

مراحل، وعندما انتهى آخر رجل، دعا الشيخ (مزید) الأطفال من خلال الظلام الذى كان يلف الخيمة. كان أصغرهم عارياً تماماً لم يزد عمره على ثلاث سنين. لقد أُنْخَمُوا بما فضل من الأرز وقضمو العظام التى أُنْثَمَ لحمها، ثم مسوا الأطباق مفرغين ما فضل فيها فى الطاسات التى جلبوها معهم. ورُميت العظام للكلاب. وأخيراً اذخر المسؤول عن القهوة حصة من الطعام من على الفرش وانزوى أمام صحنه. تقدم الشيخ (مزید) ببطء واحتل مكانا بعيدا بعض الشيء وتناول وجبة غاية فى البساطة والاقتصاد فى نفس الوقت الذى أعيدت علينا فناجين القهوة والشاي.

بوصفه مضيفاً، يجب عليه ألا يأكل حتى يتيقن من أن آخر ضيوفه قد شبع. وفى اليوم التالى عند أحد الوجبات راقبته عن كثب فرأته يقف أمام الخيمة ليتأكد ألا أحد يمر قريباً دون أن يدعوه. كان يذبح خروفين يومياً لضيوفه الذين قد يصل عددهم إلى المائة. إن هذه العشائر الرعوية مازالت أمينة على عاداتها وتقيم الآخرين بما تحمله من معايير جاهزة معروفة جاءت معهم من الجزيرة العربية.

وفى سنين لاحقة، عدت إلى الشيخ (مزید) مرات ومرات فى خيمة ضيافته، وزرت العديد من المخيمات لعشيرته نفسها. خلال أسوأ شهور الصيف، كان لابد لى من الهرب من الأهوار مستعيراً بعض الخيول متجهاً إلى عشائر الرعى، وقد عرفت أغلبهم: (بنى لام)<sup>(١)</sup>، (البزون)، (العيسى)، (البو صالح)<sup>(٢)</sup> وآخرين غيرهم. كان البعض منهم يتجاوز الحدود فى الربيع متوغلاً عبر التلال الإيرانية حيث نماء العشب الأخضر الطرى المقعم بشقائق النعمان، بينما يتجه آخرون نحو الجزيرة العربية وإلى أطراف الكويت لحين انتهاء فصل الشتاء. يقود الرجال والصبيان قطعان الأغنام والماعز

(١) بنى لام: يرجع نسب هذه العشيرة إلى طى القحطانية وتقع مواقع سكناها إلى الشمال من مدينة العمارة على ضفتى نهر دجلة.

(٢) البو صالح: الفرع الرئيس لاتحاد عشائر بنى مالك، يسكنون فى الشمال الشرقى من هور الحمار على ضفتى قناة البدعة.



بينما تقود النساء المشحات بالسواد الحمير الحملة بالخيام والأعمدة، والسجاد والأفرشة الأرضية وفرش النوم، وصناديق خشبية صغيرة، وعدة الطبخ، وصحون وغلايات. غالباً ما كنت أراهم يدبّون خلال السراب عبر سهل موحش بنباته كأنه البحر.

بعد أن تناولنا وجبتنا أرشدنا الشيخ (مزيد) إلى كوخ قريب مبنى بإتقان من أعمدة القصب و(البواري)<sup>(١)</sup> حيث الحشايا واللحف الملونة قد أفردت لمنامنا. كانت خلوة غير متوقعة لي ولـ (دوكالد) جعلتنا نشعر بالامتنان. طوال الليل، كانت الريح الباردة المارة على عتمة المياه تهب خلال مشبكات الكوخ الزخرفية، كنت ما بين البقطة والنوم وأنا أنصت لموجات المياه ترتطم بالشاطئ.

وحين خرجت من الكوخ عند الفجر، رأيت على بعد ما مسافة طبقة الماء، شكل ظلي لأرض متباعدة عن بعضها ومعتمة أمام شروق الشمس. لمعت في مخيلتي صورة (الحفيظ)<sup>(٢)</sup>، الجزيرة الأسطورية حيث لا أحد يمكن أن يراها وتسلم حواسه، ثم أدركت أني انظر إلى (جزر القصب)<sup>(٣)</sup>. كانت هيفاء، معتمة بسوادها، بمقدمة عالية

(١) البواري: جمع (باريه) وهي حياكة زخرفية للقصب بعد تقشره وتكسره. تستخدم لعدة أغراض أهمها تسقيف البيوت وفرش أرضيتها وغيرها أما أبرز أنواعها فهي: ١ - النعمان، يستخدم هذا النوع في تسقيف البيوت الكبيرة والمضاييف. ٢ - جنكلي ويستخدم في تسقيف البيوت الكبيرة. ٣ - مفرش، تكون كبيرة عادة وتستخدم في فرش أرضيات المضاييف. ٤ - ستر، وتستخدم في ستر البيوت عند الجوانب القريبة من الأرض، ترفع صيفاً وتسدل شتاءً. ٥ - طريده، بعرض متر وأقل وبطول مترين تقريباً تستخدم في فرش الأماكن الصغيرة. ٦ - كعيده، تستخدم في حفظ الشلب منقوعاً بالماء قبيل شتائه. لها شكل يشبه التنور.

(٢) الحفيظ: جزيرة موهومة، تقول نخيلة أهل الأهوار عنها إنها محروسة من قبل الجن وتحوى كنوزاً عظيمة، ومن يصادفها لا يعود، وإن عاد فهو إما مجنون أو فاقد لإحدى حواسه.

(٣) جزر القصب: أو (التهول) كما يسمونها محلياً جمع (كهل) هي تشابك للقصب مختلف المساحات، فهناك (قُله) صغيرة وهناك أخرى كبيرة، وهناك من هي كثيفة جداً بالقصب يستحيل المرور خلالها وهناك من هي أخف. والهور بشكل عام يشبه إلى حد ما حتى سكنى تقوم فيه (التهول) مقام تشابك البيوت، بينما تكون (الكواهين) جمع (كاهن) أشبه بالشوارع والأزقة. واكتفيت على طول هذا الكتاب بالإشارة إلى المفردتين بجزيرة قصب Reedbed ، وممر مائي Water way.

سامقة مديبة ممددة على الشاطئ عند قدمي، كانت (طرادة)<sup>(١)</sup> الشيخ الحريبة بانتظارنا لنقلنا إلى حيث الأهوار. قبل بناء القصور الأولى في أور، خرج الرجال عند الفجر من بيوت كهذه وعوموا زوارق كهذه وراحوا يتصيدون.

هنا اكتشف (وولي)<sup>(٢)</sup> بيوتهم وطرار زوارقهم المظورة تحت أطمار سومر، أعمق حتى من شواهد الطوفان. خمسة آلاف سنة من التاريخ هنا وما زال الطراز نفسه كما هو لم يتغير.

لا تكاد تبرح مخيلتي ذكريات الزيارة الأولى للأهوار: نور المواقد المنعكس على الوجوه، وصراخ الإوز، وطيران أسراب البط إلى البعيد من أجل الطعام، وصوت غناء طفل في مكان ما في العتمة، وحركة المشاحيف في موكب عبر ممر مائي، واللون القرمزي للشمس وهي قبط للغروب عبر غمام الدخان لحرائق القصب، والممرات المائية الضيقة تزداد حركة تعرجها كلما أوغلت في الهور، ورجل عار تماماً و (فالتة)<sup>(٣)</sup> بيده، وبيوت القصب المشيدة في الماء، والجاموس الأسود يقطر منه الماء يبدو كأنه خرج من رحم المستنقع عند أول أرض جافة، وصور النجوم في عتمة الماء، ونقيق الضفادع، وعودة الزوارق إلى الديار عند المساء، والسلام والديمومة، والسكون الذي لا يعرف للمحركات من أثر<sup>(٤)</sup>. عاودني حينئذ وتوفى مرة أخرى إلى أن أعيش هذه الحياة وأن أكون أكثر من مجرد متفرج.



(١) طراة: War-Canoe يميل المؤلف إلى عد الطراة زورقاً حرياً على الرغم من أن وظيفتها الرئيسة سليمة.

(٢) وولي: Woolley السير ليونارد وولي ١٨٨٠م - ١٩٦٠م، عالم آثار بريطاني معروف نقب قرقمش، أور، تل انجانا وهي مواقع أثرية عراقية.

(٣) القالة: أداة صيد السمك المعروفة والشائعة في الأهوار بالإضافة إلى استخدامها الأخرى العديدة، تتكون من عصا من نوع (الجن) تتميز بالقوة والصلاية بسموها (عود). وعلى العموم هناك ثلاثة أنواع من القالات هي سبيغ، خميسه وثلييه تبعاً لعدد أصابعها. يسمى أطول هذه الأصابع (لتي) أما الأصابع التي تتوزع على جانبيه فيسمى كل واحد منها (جفت). أما الزعانف التي ينتهي بها كل إصبع فهي (رواشين) مفرداها (راشن). أما نقطة اتصال العود بهيكل القالة الحديدية فيسمونه صمغ.

(٤) المحركات، إشارة إلى أية وسيلة خدمية بديلة عن عضلات الإنسان.

## الفصل الثاني

### الرجوع إلى حافة الأهوار

يُوخزني هذا الدبوس، دبوس رُقيتي، كتبها  
عرّاف أسمر يدم لبوة عاقر ليرضى عني  
ضيّفى.

ها أنذا ازتحل بعد ستة شهور، في أحد فروع دجلة نحو الأهوار في مشحوف  
مثقوب تتسرب إليه المياه، يجذف فيه عربيان، أحدهما رجل مسن هزيل يرتدى  
(دشداشة) مرقعة بلونها اللامحدّد التي لا تكاد تصل ربلة ساقه، أما الآخر فكان شابا  
ربعة في الخامسة عشرة من عمره، أحول، يرتدى سترة أوربية رثة فوق (دشداشة)  
بيضاء جديدة وقد علّق طرفها في حزامه لكي لا تجر على الأرض. وكان كلاهما  
يرتدى كوفيّة<sup>(١)</sup> من النوع الشائع الاستعمال من قبل العشائر الشيعية في جنوب  
العراق، وهي عبارة عن مربع بمساحة ثلاثة أقدام تتخلله شبكة من نقاط سود على  
أرضية بيضاء. ولأنهما لم يكونا يرتديان عقالاّ على رأسيهما، فقد لفا الكوفيّة بحيث  
تبدو كمثالث حول رأسيهما. جلس الرجل المسن على الجزء المرتفع من مؤخر

(١) الكوفيّة: لها تسميات أخرى تبعا للمنطقة فهي: جفّيه وشطفه ويشماغ وغره. وهناك تسميات لطريقة لفها أو وضعها على الرأس إن كانت مع العقال أو بدونه، فوضعها بلا عقال يسمى (تشمير). الجدير بالذكر أن ظهور الشخص، الذي اعتاد على لبس العقال، بدونه في المجالس أو بعيدا عن بيته، مكثفا بالكوفيّة فقط إشارة إلى وجود غم وحزن شديدين أو إحساسا بالفا بالانقاص أو العار. ولم تعد هذه الكوفيّة شاهداً على شيء مذهبي أو ديني كما كانت سابقاً.

المشحوف<sup>(١)</sup>، بينما كان جلوسى فى القاع عند قدميه مصالباً ساقى على قطعة (بساط) مهلهل، تنكدس أمامى أمتعى التى اشتملت على صندوقين من صفيح أسود احتوى الأول أدوية، واحتوى الآخر كتباً، وأفلاماً فوتوغرافية، وخراطيش عتاد وأشياء أخرى متنوعة، تربعت فوقهما حقيبة سرج كردية محاكة بألوان زاحرة فى تنوعها، ملئت ببطانيات وملابس. كنت متكئاً على بندقيتى من نوع (٢٧٥، ٠ ركبى) بغطائها من قماش الكانفاس.

كان عرض النهر نحو ثلاثين ذراعاً وكان سريع الجريان<sup>(٢)</sup>، وعلى ما يبدو عميقاً. كانت أناملى تلامس الماء وأنا أقبض على جانب المشحوف وكانت الريح قاسية وهى تهب عكس التيار رافعة موجات صغيرة نائرة قطراتها فوق أمتعى. كنت أجلس كأن على رأسى الطير متيقناً أن أدنى حركة منى قد تقلبنا. كان العربيان يغيران اتجاههما بسهولة وبلا أدنى اهتمام ولا يقلقون توازن المشحوف فى حركته أبداً.

أوقف الشاب التجديف، أدار وجهه ثم جثم منحنيًا جاعلاً جسمه مصداً للريح لكى يشعل لفافته، بينما وقف الرجل العجوز باحثاً عن أى صديق يعمل فى الحقول. من قعر المشحوف، كنت لا أرى شيئاً سوى ضفاف النهر شديدة الانحدار التى ترتفع من نحو ثلاثة إلى أربعة أقدام، يقطع استمرار هذه الضفاف قنوات سقى مختلفة الاتساع تنحدر عن المجرى الرئيسى، وكانت ضفافها محاطة بشجيرات الشوك التى ترتفع نحو من قدمين أو ثلاثة بلونها المغبر المائل للزرقة. كانت السلاحف تنزلق إلى الماء من بين الضفاف وتختفى فى الماء الضارب لونه إلى البنى. كان البعض مسطحاً فى شكله بتسر ناعم متسع

(١) مؤخر المشحوف يُسمى (أخير) ومقدمه يسمى (سَدر) أى صدر. أما مكان جلوس المجذف سواء كان فى المقدمة أو المؤخرة فيسمى (دومنه).

(٢) نهر (الواديّة) الذى يكون مع (العدل) شطرى نهر البحر الكبير المنفرع من ضفة دجلة اليمنى.

إلى قدمين<sup>(١)</sup> يظهر تموجاً حين يتحرك، والآخر أصغر وأكثر شبهاً بالسلحفاة التقليدية. وكان خاطف الذباب الأبقع (Pied Flycatcher) يندفع كالسهم أو يسكن في الهواء بحقق جناحيه السريع قبل أن يسقط غائصاً في الماء. حامت (حُدِيَّة) فوقنا، بينما راح سرب من الغربان يقلع وسط نعييه من أحد الحقول خلف الضفاف. بهت زرقه السماء بتأثير الغبار واكتسى كل شيء بلون الأرض الكئيب.

اجتزنا مجموعة صغيرة من الصرائف القصية بدت كأنها أكداس أحالت قسوة الجو لوفاً إلى الرمادى وظهرت النسوة بملابسهن المعتمة وهن يغسلن الأواني على حافة الماء قرب أسطول من المشاحيف السود التى استقرت على الضفاف الطينية. خرج رجل من أحد الصرائف فبادر الرجل المسن إلى تحيته:

— "السلام عليكم".

فردّ الرجال:

— "عليكم السلام".

وأضاف:

— "افلحوا".

فأجبناه:

— "كفو، الله يحفظك"<sup>(٢)</sup>.

كانت ستة كلاب تعدو مسرعة على طول الضفة بجانبنا تنبح وترجمر بشكل هستيرى محموم إلى أن توقفت عند خندق كان من الاتساع بحيث حال دون عبورها.

(١) السلحفاة الكبيرة يسمونها (رفش) جمعها (رفوش).

(٢) وردت الحوارات في الأصل بحرف إنكليزي ولكن الكلمات عربية، هكذا Salam Alaikum.

فى أحد صباحات الأسبوع الأول من شباط عام ١٩٥١م كنت قد غادرت العمارة واكترت مشحوفاً فى الحجر الكبير لكى أقطع خمسة أميال مع النهر إلى مضيف (فالح بن مجيد)<sup>(١)</sup> الواقع على حافة الأهوار. إن (مجيد)<sup>(٢)</sup> أبو (فالح) واحد من شيوخين على جانب كبير من الأهمية وسط عشائر (البو محمد)<sup>(٣)</sup> التى يربو عددها على (٢٥,٠٠٠) رجل مقاتل. يحدونى الأمل بقضاء بضعة أشهر فى الأهوار، وكان (دوكالد ستوارت) قد قال لى إن (فالح) سيكون أقدر رجل على مساعدتى.

برغم تعاسى فى جلوسى القرفصاء فى قاع المشحوف إلا أننى كنت انظر، ويحدونى الأمل كلما انعطفتنا لعل الهور على مرأى منّا، لكن النهر بلونه القهوائى الفاقع بدا كأنه يسير باستواء لا نهاية له.

ما هى إلا انعطافة حتى تفرّع النهر. هناك صف من بيوت قصية محكمة الهياة قابلت الجرى الرئيس للنهر. شخص بيت مبنى بالطابوق بطابق واحد فى الاتساع الأرضى من خلفنا، كان ذا سقف مسطح كأنه الحصن، لكن ما أدهشنى هو البناء

---

(١) فالح بن مجيد بن خليفه من بيت لويلو الذين تنحصر زعامة البو محمد فيهم، وأمه هى مولان بنت عبد الكريم بن يسر الفيضلاوى الحمدادوى ولد سنة ١٩٠٧م، أدار مقاطعات والده الواقعة على نهر الواديه، وهو أصغر من شقيقه خريط بن مجيد بن خليفه. قتل عن طريق الخطأ بإطلاقه من بندقيه عباس بن محمد بن خليفه ابن عمه فى أوائل شباط عام ١٩٥٣م.

(٢) مجيد بن خليفه بن وادى بن منشد ولد عام ١٨٨٧م أحد أكبر شيوخ آل بو محمد، انتخب لعضوية البرلمان العراقى عدة مرات. امتدت مقاطعاته على طول الأراضى المحيطة بنهر الجسر من منبعه إلى مصبه والأراضى المحاذية. توفى عام ١٩٨١م فى بيته فى بغداد، منطقة الكاظمية قرب قنّال الشاعر عبد المحسن الكاظمى حيث أقيمت مراسيم العزاء المهيبة.

(٣) البو محمد: هم ذرية محمد بن سعد بن مروّح العزاوى الزبيدى الذى ترك عشيرته التى تستوطن المنصورية الكائنة فى محافظة ديالى إثر نزاع بينه وبين ابن عمه، فهرب باتجاه الجنوب ليستقر أخيراً عند الفريجات السدين أكرموا ولادته وقامت بينهما مصاهرة متبادلة. أنجبت الكوشه بنت شيخ الفريجات آتند العبدى من الأبناء من محمد بن سعد ليكونوا على رأس بطون هذه العشيرة العملاقة.

الأسطوانى المقبب المسقف (بالواري) عسلية اللون، عند كل نهاية من نهاياته هناك أربع أعمدة مستدقة الأطراف وقد تجاوزت خط السقف. كان موقع البناء فى أرض توسطت هرين<sup>(١)</sup>.

"مضيف فالخ". قال الرجل المسن.

كان ثمة شاب يقف عند الباب وحين رأنا دخل إلى المضيف، وما هى إلا لحظات حتى خرج عدة رجال وانتظروا رسو مشحوفنا.

"الشيخ فالخ".

صار الرجل المسنّ مشيراً إلى شخص متماسك البنية يلبس عباءة من غزل قهوائى فاخر فوق (زبون) من قماش داكن ثقيل.

قفز الشاب بمهارة عالية إلى اليابسة ما أن لامس مقدم المشحوف الضفة وامسك به حتى استوى بمحاذاة الجرف. خطا الرجل باتجاه (فالخ) ما أن أصبح على اليابسة، سلم عليه وقبل يده قائلاً:

"رجل انكليزى من العمارة (يامحفوظ)".

نظر (فالخ) إلى وقال:

"أهلاً وسهلاً".

يوحى وجهه بالقوة والرجولة، حليق الوجه بشكل جميل ماعدا شاربه المقصوص بمستوى الشفة العليا. كان حاجباه كثيفين ويكادان يتصلان مع بعضهما فوق أنف بارز ضخم. كان وجهه محاطاً بطيات من الكوفية التقليدية المنقطة بالأسود اتقن موقعها وضبطها عقال. أسود ثقيل. ما أن استويت واقفاً فى المشحوف حتى اهتز وتمايل وعبرت المياه حافته، فصاح (فالخ):

"انتظر لحظة".

(١) النهران هما: الواديه وخير بُدير.

وباتجاه رفاقي الذين أوصلوني:

"يا الله، ساعده، بسرعة".

مدّ يده القوية إلى لي جذبني إلى الضفة مردداً:

"أهلاً وسهلاً". التفت إلى رجل بجانبه وأمره:

"تأكد من أنهم أنزلنا حاجيات الرجل الإنكليزي في المضيف".

ثم اقتادني إلى بوابة المضيف:

"أهلاً وسهلاً، الدار دارك".

خلعت حدائي واجتزت ما بين عمودي الباب القصيين. كان قياس كل (شَبّة) ثمانية أقدام، وكل (شَبّة) تتخذ شكلها من خلال جمع حزمة من قصب عملاق بعد تقشيرهِ وربطه بقوة إلى بعضه بحيث يصبح وجه (الشَبّة) ناعماً لماعاً.

كانت الرائحة قوية داخل المضيف والإضاءة معتمّة في حين كانت الشمس مشرقة في الخارج. بدا الموجودون كأنهم ظلال معكوسة على جدران المضيف، صحت بصوت عال:

— "سلام عليكم". فأجابوا جميعاً:

— "عليكم السلام".

جلسنا فوق سجاد مبهرج الألوان، صارخها، فُرش فوق (البواري)، جلس الباقون على طول جدران المضيف. كان المسلحون منهم قد وضعوا بنادقهم أمامهم. لقد لفت انتباهي سجادتان جميلتان باللون الأزرق والذهبي امتدتا طويلاً في أرضية المضيف تحتلان مرتبة أدنى في الرفعة بالمقارنة مع تلك التي جلسنا عليها. وكان هناك صندوق خشبي عند الجدران في النهاية البعيدة، وعند المدخل، هناك زير مملوء بالماء مستند إلى مسند خشبي<sup>(١)</sup>، ولم تكن هناك أية أثاث أخرى. كان الموقد في وسط المضيف عند الثلث الأول من طوله. هنا بجانب النار الصغيرة، توزعت ست دلال

(١) المسند الخشبي يسمونه (مُرْكه) أما الزير فهو (الحب).



رتبت من أعلاهن، وكانت بارتفاع حوالى قدمين<sup>(١)</sup>، حتى أصغرهن. وبلاستناد إلى تقاليد العرب فإن الثقل الذى سبق إعداده يوضع فى أكبر الدلال، وحين تركد الأجزاء الصلبة يُفرغ السائل المتبقى فى الدلال الأصغر. دائماً ما تكون أصغر الدلال مهيأة وجاهزة لسب القهوة الطازجة لأى قادم أضيف. ثمة رجل (بدشداشة) بيضاء هو الرجل الوحيد بلا عباءة، مشغول بتوزيع القهوة طبقاً للعادة المتسمة بالقداسة. ما أن تُحمص الحبوب حتى تطحن فى هاون نحاسى صغير وتكون ضرباته بإيقاع موسيقى ثابت. وصوت الدق هذا هو إعلان بأن إعداد القهوة جار الآن فى مضيف الشيخ، وهو دعوة أيضاً إلى أى رجل يصله صوت الدق للمشاركة فى شربها. حمل الرجل الدلة بيده اليسرى، وفى يده الأخرى فناجين أكبر قليلاً من حجم البيضة، صبّ قطرات فى الفنجان وقدمها إلى (فالخ) الذى أشار بأن يقدمها إلى أولاً، وفى مقابل ذلك رفضت. عندما أصرّ (فالخ) شربت فنجانى بينما قدم الفنجان الثانى إلى (فالخ). كان طعم القهوة قوياً ومرّاً، ولأنى أعرف طباع العرب شربت ثلاثة فناجين قبل أن أهرّ الفنجان هزاً رقيقاً إشارة إلى اكتفائى وامتنانى. دار (القهوجى) ببطء حول الجالسين مقدماً لهم القهوة بترتيب حسب أهميتهم<sup>(٢)</sup>. ثم قدمت لى و(لفاخ) وللاتنين الذين تولّوا توصيلى إلى المضيف أقداح الشاي، كان لونه داكناً ولو المذاق وكانت الأقداح صغيرة وضيقة من الوسط بحافة مذهبة. دخل أكبر أبناء (فالخ)، شاب بعمر السادسة عشرة<sup>(٣)</sup>، له نفس أنف أبيه الضخم ولكن أضال قليلاً، ويوجه نحيف. قدمه (فالخ) إلى قائلاً:

(١) يسمونها (كَمَكَم)، والأدنى منها يسمونها (تلكامه)، أما أصغرهن فتمسى (سكايه).

(٢) سألت عن هذه المعلومة أناساً خبروا المضيف فأجابوا إنها ليست دقيقة. ففى أول توزيع للقهوة بعد إعدادها تعطى لأهم شخصية وهو الشيخ أو السيد إن كان موجوداً، بعدها يتم التوزيع بالدور. أما عند حلول ضيوف جدد فيسقى أولاً من نقدمهم بالسلام.

(٣) عبد الواحد بن فالخ بن مجيد الخليفه، وأمه جريه بنت حمود الخليفه سكن قضاء انجر الكبير فى محافظة ميسان. ولد عام ١٩٣٧م. توفى فى انجر بعد إصابته بمرض السرطان عام ٢٠٠٢م. كانت مراسيم العزاء مهيبه وذهبت وفود التعزية من محافظات كثيرة.

"خادمك".

أوصاه (فالخ) أن يتابع أمر الغداء، ثم قال لى:  
 "أنا فى غاية الحرج منك ألا يكون طعامك ملائماً، لكنك قدمت إلينا دون أى علم منا. اعذرني، لكنى أتوقع أن يكون الأولى بك أن أن تأكل ما هو موجود على أن تنتظر ذبح خروف، لأنك لابد أن تكون جائعاً جداً بعد هذه الرحلة الطويلة".  
 إن مدة الصمت الطويل بالنسبة للعرب محرّجة جداً بين الضيف ومضيفه، لذا سألتى (فالخ) مرتين أو ثلاث:

"شلونك؟"

وكت أعطيه نفس الإجابة:

"الحمد لله".

وأكثر من مرة سألتى:

"سفرتك، هل هى جيدة؟"

فأجيب:

"نعم، جيدة والحمد لله". وفيما عدا ذلك لم يتكلم أحد.

بعد برهة انشغل (فالخ) بشؤونه الصباحية لأن المضيف بطبيعته ليس مكاناً لاستقبال الضيوف فحسب، بل يُعدّ أشبه بقاعة اجتماعات حيث يجلس الشيوخ صباحاً ومساءً يديرون مقاطعاتهم الواسعة وحسم النزاعات بين أفراد قبائلهم.  
 يمتلك بعض الشيوخ أمثال (مجد الخليفة) أبو (فالخ)، مقاطعات واسعة جداً وتدر عليهم مئات الآلاف من الدنانير كل سنة. فيما مضى، كانت ملكية الأرض تعود للعشائر، وتكون مسؤولية الشيخ هى الإدارة طالما أطاعته عشيرته واتبعته. ولكن فى السنوات الحالية يحصل الشيوخ من الناحية العملية على الملكية. أما بين العشائر المستقرة المستوطنة الآن، أصبح الشيوخ هم المالكون وتحول أبناء عشائهم إلى مجرد فَعَلَة فى حقولهم ومزارعهم مقابل سهم من الغلة بلا أى تأمين أو حماية قانونيتين. إن كل الأراضي فى لواء العمارة تعود ملكيتها إلى الدولة من الناحية النظرية، التى تقوم

بتأجيرها إلى الشيوخ، ويقوم هؤلاء بدورهم بدفع ضرائبها وتولى شؤونها كما لو كانت ملكهم الصرف. وما داموا أقوياء فاعلين ذوى سطوة فلا أحد يجزئ على مطالبتهم بسند الملكية أو حقهم الشرعى فيها.

وعلى الرغم من أن الشيوخ لا يمتلكون سلطة قضائية، فإن القليل جداً من النزاعات بين الناس تأخذ طريقها إلى المحاكم الحكومية (عدا جرائم القتل، وهذا ليس دائماً). إن أفراد العشائر يفضلون تحكيم الشيوخ الذين يعرفونهم على قضاء المسؤولين في الحكومة الذين لا يشعرون أن ثمة شيئاً مشتركاً معهم، وعلى العموم فإن الحكومة مقتنعة وراضية ولا تغير ما هو قائم.

يتعامل (فالح) مع مختلف القضايا، فهو يعطى الأوامر في تقوية ضفاف الأنهار قبل ارتفاع مناسيب المياه، ويناقش تقسيم الأراضي لموسم حصاد الأرز القادم، وينذر رجلاً بدفع ما بذمته من محصول لا زال معلقاً وغير محسوم. لقد وجدت صعوبة في فهم ومتابعة لهجتهم، فانشغلت بالتمعن في وجوه الرجال الجالسين أمامي فاسترعى انتباهي الاختلاف بين ملامحهم الثقيلة بشكل واضح وملامح البدو الجميلة في الجزيرة العربية كالفرق بين حصان العربات والحمولات وآخر أصيل أرستقراطي. ولكن من الصعب تكوين رأى عنهم في مثل ظروف كهذه إذ جلس كل واحد منهم وقد أحكم لف عباءته حوله، يتوج كوفياتهم جبل أسود ثخين يُعد طرازاً شائعاً جداً في هذه الأنحاء. لقد صعقتهم مزاجهم الرائق وميلهم للنكتة والفكاهة والدرجة العالية في ضبط النفس، ولكنى أظن أن كليهما (ابن الهور والبدوى) ربما كانا عنيدين ومتصلبين في رأييهما وسرعان ما يغضبان عندما يستثاران.

إن المضيف الذى قست أبعاده أخيراً كان بطول ستين قدماً وبعرض عشرين، وثمانية عشر قدماً ارتفاعاً، ولكنه يعطى انطباعاً أنه أكبر من ذلك بكثير لاسيما عندما ولجته أول مرة. تدعم سقفه إحدى عشرة (شبة) لها شكل حدوة الحصان تشبه دعائم المدخل، وتُصنع من سيقان القصب العملاق، توثق مع بعضها بقوة. يقدر قطر (الشبة)

حوالى تسعة أقدام عند منطقة بروزها من الأرض، وبقطر قدمين ونصف عند قمتهـا. ينمو هذا القصب كما عرفت إلى ارتفاع أربعة وعشرين قدماً. ولغرض استكمال الهيكل فإن المزيد من حزم القصب تدمج بحيث تشبه جبلا بسمك بوصتين لإحكام ربط الحزم، واحدة فوق الأخرى على طول المضيف من الجهة الخارجية (للشباب). إن التباين بين الأضلاع الأفقية وعمودية (الشباب) يخلق منظراً لافتاً للنظر من الداخل. يُغطى السقف بـ (البوارى) المتراكبة بعضها فوق بعض وتربط الأضلاع بطريقة تعطي طمأنينة لسمكه. يكون لون الجدران الجانبية ذهبياً شاحباً بينما لون السقف كستائياً داكناً بسبب دخان الموقد ويعطى إحساساً بأنه مطلى بالورنيش.

ظهر العديد من الخدم تحت مراقبة وإشراف ابن (فالخ) وطرحوا أمامنا (سُفره) دائرية بعرض حوالى خمسة أقدام محاذة من بردى ناعم ووضعوا فوقها صينية دائرية مملوءة بالرز، وإطباقاً من مرق الخضـر، وثلاث دجاجات مشويات، وسمكة مشوية. وقرراً، فضلاً عن أطباق (الخلبي) وطاسات من لبن وإنساء للشرب. كان أغلب الموجودين قد غادروا المضيف. لقد توقعت منهم البقاء لأن العرب عادة ما يحتشدون عندما يعلمون أن ثمة وجبة تعد، لكنى علمت فيما بعد أن شيوخ البدو فقط يقيمون دعوات مفتوحة فى خيم الضيوف. أما الشيوخ الآخرون، باستثناء بعض المناسبات، فيتوقعون أن أتباعهم قد تناولوا طعامهم، أما القادمون من مسافات بعيدة فهم الوحيدون الذين يُطعمون. بقى الآن ثلاثة رجال مسنين فقط. فضلاً عنا، أنا ورفيقي. أكل (فالخ) وابنه معه بعد أن جلب الخادم طشتاً وإبريقاً لغسل أيدينا قبل الأكل. قال (فالخ) بعدها:

"هيا، خذ راحتك".

انحنى إلى الأمام وصبّ صحناً من المرق فوق الأرز، ومزق دجاجة بيديه واضعاً قطعة كبيرة فوق الصحن الذى أفرد بشكل استثنائى لى مع ملعقة وشوكة! مادام الآخرون قد أكلوا من صحنهم بأيديهم اليمنى مباشرة، لذا لم أتردد أن أحذو حذوهم. قال (فالخ) فوراً:

"استعمل الملعقة والشوكة، ستكون سهلة عليك".

فقلت له إنني أتناول طعامي بيدي منذ سنين وأنا معتاد على طريقة العرب، فعلّق (فالخ) قائلاً:

"إذاً، أنت واحد منّا".

عندما انتهينا من طعامنا غسلنا أيدينا مرّة أخرى، وقدمت لنا القهوة والشاي. لاحظت أن (فالخ) يرمق بندقيتي، فقدمتها إليه وسألته عن رأيه فيها لدرايتي أن رجال العشائر مولعون بالبنادق. تحسّس (فالخ) اتزانها وصبّ بها ثم قال: "إنها بندقية رائعة".

(لقد كانت كذلك فعلاً). ثم أبدى فضوله كأى عربى فى معرفة سعرها. وأخيراً، وكما كنت آمل أبدى تساؤله عن خططى وما أنوى عمله، فقلت له إنى أنوى الذهاب إلى الأهوار لرؤية المعدان.

"إنها عملية غاية فى السهولة، سأرسلك غداً إلى (الكباب)، إنها قرية كبيرة فى قلب الأهوار، منها جاء قصب هذا المضيف. للشيخ (مجيد)، والدى، وكيل هناك، وإن شئت قضاء الليل هناك فهو يمتلك بيتاً مناسباً. سترى كيف يعيش المعدان فى (الكباب)، لاشئ سوى الجاموس، والقصب والماء، ليس بإمكانك التنقل إلاّ بمشحوف، لا أرض يابسة هناك أبداً، ستجد هناك الكثير من البط إن شئت الصيد".

شكرته وأوضحته له أنى آمل أن أقضى عدة شهور مع المعدان.

"إن (الكباب) أفضل مكان و(صدام)<sup>(١)</sup> يملك مضيئاً هناك، لكن المعدان يعيشون

كما تعيش جواميسهم".

(١) صدام بن طلال بن كحيط المشداوى أحد أبناء عمومة مجيد الخليفة توفى فى منطقة الشاكرية فى بغداد فى بداية الستينيات.

قال (فالح) ذلك وأردف:

"نصف بيوتهم تحت الماء وملينة بالبرغوث والبعوض، إذا نمت هناك في أحد هذه البيوت فمن الممكن جداً أن تطأ وجهك جاموسة خلال الليل. إن المعدان أناس فقراء جداً ليس لديهم طعام مناسب، الأرز والحليب هما كل ما يملكون من طعام. من الأفضل لك البقاء هنا حيث تستطيع زيارة الأهوار متى ما شعرت بميل إلى ذلك. أستطيع أن أوفر لك هنا أسباب راحتك، هذا المكان لك طالما رغبت في ذلك. لدى الكثير من المشاحيف والرجال الذين بإمكانهم أخذك إلى أى مكان تريده. امض لياليك هنا والنهار في الأهوار، هذا هو الشيء المعقول الذى يجب أن تفعله".

قلت له أن سبق لى البقاء في الأهوار لبضعة أيام مع قنصل من العمارة في العام الماضي، وقد عدت الآن لأتني مهتم جداً بالمعدان وأريد أن أعرفهم أكثر، وهذا لا يتسنى لى إلا من خلال العيش معهم. لقد أمضيت حياتى في الترحال في مناطق مقفرة موحشة وقد اعتدت عدم الراحة. لقد أمضيت السنوات الخمس السابقة في الربع الخالى، وكان من القسوة بحيث أنى كنت دائم الجوع والعطش. هنا، على الأقل وفرة المياه تفيض عن حاجتى!

ضحك (فالح):

"إيه والله، لن يكون هناك نقص في الماء، سوف تنام فيه! أنتم الإنكليز غريبو الأطوار، قليلة واحدة في الأهوار تُعدّ كافية يملئ على عملى بوصفى شيخاً أن أذهب هناك، أنا لا أنام هناك للمتعة بل للضرورة. على كل حال ابقى معى حتى غد فسأدبر أمر جولة لصيد الخنازير، ثم أرسلك إلى (الكباب) بعد غد وسأوصى (صدّام) أن يعتنى بك. سنتجول هذه الليلة مشياً حول الحقول وسنرى إن كان بإمكاننا صيد (الحجل). سأتركك الآن لكى تأخذ قسطاً من الراحة".



"هل سبق لك أن اصطدت خنزيراً؟"

سألني (فالخ) ثم أردف:

"انته، إن الخنازير خطيرة، ففي الأسبوع الماضي هاجم خنزير رجلاً وقتله بالقرب من هنا بينما كان يعمل في حقله. أنا أشك في أننا سنصادف آياً منها اليوم، مع ذلك، لا بد أن نجد بعض (الحجل)".

كنا سائرين في صف طويل مع امتداد ممر مرتفع محاذ لقناة رى، واتجهنا إلى بستان نخيل معتم. لقد جعلنا هذا الممر الصناعي المرتفع نشرف على تسطح لانهائي من سهل رسوبي واسع. ذلك هو جنوب العراق. إلى الشرق، يمتد السهل إلى مسافة مائة ميل إلى التلال الإيرانية، وإلى جنوب، مسافة مائة وخمسين ميلاً باتجاه البحر، وإلى مسافة تزيد على مائتي ميل باتجاه بغداد، وإلى الغرب، ما وراء الفرات، ليندمج مع الصحراء العربية. ويتوجب علينا بين الحين والآخر أن نقفز متخطين قنوات وفتحات للماء تتولى إرواء الحقول خلفنا. وللحظة، وجدنا أنفسنا وقد غطسنا تحت أشجار النخيل خلال كم هائل من شجيرات شائكة ملتفة ترتفع إلى ثلاثة أو أربعة أقدام، ثم اتجهنا إلى أرض أكثر انفتاحاً، أرض زلقة وقد ابيضت نتيجة السبخ وتغطت بشجيرات الكثيفة<sup>(١)</sup>. أفرعنا عدداً من طيور (الحجل) السوداء لكنها كانت من الحذر بحيث ضيعت علينا فرصة إطلاق النار عليها. وفي طريق عودتنا إلى القرية، حلقت فوقنا ثلاث بطات قادمات، بارتفاع شاهق، من الأهوار. أطلق (فالخ) فأصاب واحدة. هنأته وتساءلت فيما إذا كانت رميته ضربة حظ! اكتشفت فيما بعد أنه رام بارع.

مع حلول الغسق عدنا إلى القرية. أوقد فانوس في المضيف وغلّق متديلاً في السقف بجبل. كان هناك ستة شبان يجلسون في المضيف. أدى (فالخ) صلاة المغرب

(١) شجيرات السبخ هي: شرب، وشويل، وجباب، وكبر، وكوك الله، وعندما تكبر شجرة الكوك الله يسمونها طخمه.

متجها إلى مدخل المضيف كما هي العادة لأن باب المضيف دائما ما يتجه إلى مكة (المكرمة). المفروض بالمسلمين أداء الصلاة عند الفجر، وعند توسط الشمس كبد السماء، وبعد الزوال، وعند الغروب ومرة أخرى بعد حوالى ساعتين. القليل من الناس في هذه الأنحاء من يجهد نفسه بالصلاة، والذين يصلون عادة ما يكونون من كبار السن. أرسل (فالخ) بطلب العشاء ما أن أنهى صلاته. كانت الوجبة مشابهة لما تناولناه عند الغداء باستثناء لحم الغنم المشوى بدل الدجاج وبعض اللحم في المرق. وبعد ذلك مباشرة دخل الخدم الذين سبق لهم رفع الصحون وهم يحملون ملء أذرعهم أفرشة المنام: خشايا، مخدات وملاحف ثقيلة توزعت ألوانها بين الأخضر والأحمر والأصفر من قماش لماع<sup>(١)</sup>.

أمضى اثنان من كبار السن ليلتهما في المضيف. أمر (فالخ) غلاماً أن يجلب بندقيته وأن يبقى لحراستنا حتى الفجر، تمنى لى ليلة سعيدة وعبر باتجاه بناية من الطابوق حيث يقطن هو وعائلته.

أطفأ الغلام الفانوس، شرب ما تبقى من قهوة وجلس يذكى النار في الموقد. كانت ملامحه ثقيلة ولها طابع إلى حد ما بعثرت جمال وجهه. عندما راح أحد الرجلين المسنين في نوبة شخير، صاح الغلام بإصرار أن يكف. وأخيراً انقلب الرجل المسن على جانبه مصدراً صوتاً ناخراً وبعد دقائق معدودة عاد إلى شخيره مرة أخرى. ابتسم الغلام في وجهي وقال:

"كبار السن يشخرون دائماً".



(١) يسمون هذا القماش (وايلي).



## الفصل الثالث

### صيد خنزير برى

كما (العنكر) حكاية الوله القسرى  
بفتحة الباب الواطنة... و(الشباب) تغرس  
في أرضها الهشة ثقل الله تتجدد.

عند غبش الفجر، قَدِمَ (عبد الرضا القهوجى) <sup>(١)</sup> وأشعل ناراً وسرعان ما امتلأ  
المضيف بالدخان. كان الغلام قد انصرف. استيقظ الرجلان المسان وراحا ينخعان  
ويبصقان، وبعد إسباغهما للوضوء أدباً صلاة الفجر ثم تحلقا حول النار. كان الجو  
بارداً، لذا فقد آثرت البقاء حيث كنت إلى أن جاء خادمان لرفع القرش والوسائد  
فالتحقت بالرجلين وشربت فنجان القهوة. جلب خادم طعام الإفطار، رقائق من طحين  
الأرز <sup>(٢)</sup> في طبق محاك من الحشائش وصوص النخيل <sup>(٣)</sup>، وإناء من حليب ساخن وحلو.  
وضع الخادم الطبق على السجادة أمامنا في حين كانت الشمس ترتفع مُذهبة (شباب)  
مدخل المضيف.

بعد ساعة أو ساعتين جاء (فالخ) برفقة حشد من أتباعه المسلحين لنذهب حيث  
اتفقنا لصيد الخنازير. وبعد أن اكتفى الجميع من شرب القهوة، ركبت في نفس  
المشحوف الذى كان يقل (فالخ) وابنه.

(١) القهوجى: عبد الرضا بن بريس، توفى في بغداد بعد عام ١٩٥٨م. لم يعرف الشيخ خلف بن مجيد على  
عشيرة.

(٢) رقائق من طحين الأرز: تسمى عندهم (سِباح) مفرداً (سِباحه).

(٣) يسمونه حلياً (طبك).

لقد كانت طرادة جميلة، متسعة بحيث يمكن أن يركبها اثنا عشر شخصاً. كان طولها نحو ستة وثلاثين قدماً لكنها لا تتجاوز ثلاثة أقدام عند أوسع نقطة فيها، لقد بنيت لتكون مركباً، مستوية القعر ومطلية من الخارج بطبقة من القار<sup>(١)</sup> فوق ألواحها الخشبية. يندفع مقدمها إلى الأمام وإلى أعلى بتقويس تام ليشكل مقدمتها المستدقة النحيفة الطويلة وكذلك مؤخرها، فهو يرتفع برشاقة أيضاً. القدمان الأوليان من مقدمها ومؤخرها مزخرفان. يقع مقعد المجدف في ثلث المسافة للأمام وتقع عارضة التقوية<sup>(٢)</sup> الخشبية التي تربط جانبي الطرادة عند ثلثي المسافة للأمام. تغطي الأرضية ألواح خشبية قابلة للحريك<sup>(٣)</sup>. كان الجزء الأعلى من الأضلاع<sup>(٤)</sup> مستنداً بقوة على طول دواخل الطرادة ومرصعاً بخمسة صفوف من رؤوس مسامير مستديرة<sup>(٥)</sup> ومسطحة عرض كل رأس بوصتين. والمسامير الزخرفية علامة لتمييز الطرادة التي ربما لا يملكها إلا الشيوخ. بعد سنين، في أواسط، شاهدت مراكب اسكندنافية تُرمم وتصان هناك فذكرتني على الفور بالطرادات في الأهوار، فكلتا النمطين من الزوارق له البساطة نفسها المحبة في تفكير صانعيها وتنفيذه. كان عدد الذين يتولون التجديف أربعة، اثنان في المقدمة واثنان في المؤخرة، هم نفس الحركة الإيقاعية في نفس الوقت

(١) يسمونه محليا (جير) وهم يسمنون من ذكره فعندما ترد كلمة (جير) في سياق حديث أحدهم، يردف بعدها (جِيرْ عدوك) أو (جِيرْ عدوكم) إذا كان مستمعوه أكثر من واحد. وهناك جملة ترد على لسان الساخط أو المتعصب من صنع أحدهم فيقول له: (جيرة بفركك). وهي صورة غاية في الغرابة فالجيرة هي قطعة من الحجر والفرك هو على الأغلب مفرق الشعر. أما إن ازداد السخط فالجيرة هذه تأخذ مكاناً آخر أكثر غرابة! ويقولون أيضاً حين يصفون أمراً سيئاً لم يقلحوا فيه: (جير وخفت) والختف هو الرماد.

(٢) عارضة التقوية يسمونها (جِسْتْ).

(٣) لاشيء من خشب المشحوف قابل للحريك غير (الدوسة).

(٤) الجزء الأعلى من الأضلاع يسمونه (جابش) جمعه (جوايش).

(٥) (كُرس) هو مفرد هذه المسامير ذات الرؤوس العريضة المستديرة.

وهم يدفعون عصيهم الطويلة<sup>(١)</sup> في الماء في الجانب نفسه ويتحولون إلى الجانب الآخر متى كان ذلك ضرورياً. كانوا قد طرحوا بنادقهم عند أرض الطرادة بجانبهم وألقوا عنهم عباءاتهم. كل واحد منهم كان يلفّ حزاماً عريضاً معبأ بالخراطيش ومثبت فيه خنجر معقوف وضيق النصل.

تبعد الأهوار مسافة ثلاثة أميال عن مضيف (فالح)، وحين وصلناها كنا قد اجتزنا قرية كبيرة تمتد مسافة مائتي ذراع<sup>(٢)</sup> على طول الضفة اليسرى للنهر. لقد ربت بيوتها بجيـث تكون موازية لضفة النهر وغالبا ما تكون قرية جداً من بعضها. كانت مبنية من بوارى القصب المستدة فوق دعامات من أعمدة القصب أيضاً، وكانت تقف أمامها مجموعة من عجول الجاموس مربوطة، في حين كان البعض يتجول في أنحائها. لقد لاحظت حصانين أو ثلاثة وقد غطيت أجسادها بغطاء صوفى ثخين وقيدت أقدامها الأمامية بسلسلة حديدية. قيدت خيل (فالح) بالطريقة نفسها، وحين سألته عن السبب أوضح لى:

"إنها تمنع اللصوص من سرقتها، فإذا ربطت الخيول بالحبال فإنهم يستطيعون قطعها ثم يمتطونها ويختفون. إن خيولنا أصيلة وثمينة ونحن نعتنى بها".

سألته: "لماذا تغطونها هكذا، فالجو ليس بارداً؟"

— "لكى نوقف عضّ الذباب لأجسامها".

عدت الكلاب على طول الضفة العالية وكانت تتوقف كل عشرة أو خمسة عشر ذراعاً لكى تنبح في وجوها بنوع من الزمجرة المسعورة وقد انكشفت شفاهها عن أسنانها. تسلمنا كل مجموعة كلاب عند حدودها إلى مجموعة أخرى جديدة وكان الأطفال يراقبون بصمت، والنسوة ينظرون وهن في بيوتهن. يبدو أن هناك القليل من الرجال في القرية.

(١) العصي الطويلة: يسمونها (مرادى) مفردها (مردى) وحين يسمونه بصيغة التصغير فهو (مريدى) وقد آثرت

استخدامها بصيغتها المحلية على طول الكتاب بعد ذكرها هنا.

(٢) القرية الكبيرة التى تقع بين الهور وبين مضيف فالح هي: السراطة.

تقدّمنا باتجاه الضفة تحت بيت كبير، فصاح أحد أتباع (فالخ):  
 "زاير محيسن<sup>(١)</sup>".

فخرج رجل مسنّ وهو يحكم وضع كوفيته على رأسه.  
 "أهلاً، أهلاً محفوظ، تفضل، تفضل".

رفض (فالخ) بالرغم من إلحاح الرجل ومناشدته لنا بشرب القهوة، سأله (فالخ):  
 "هل أرسلت الرجال إلى الهور بمشاحيفهم؟"

"نعم، محفوظ، إنهم هناك الآن بانتظارك عند مصب النهر". فأردف (فالخ):  
 "هل هناك أية خنازير في منابت القصب؟" فأجاب الرجل:

"نعم، ولكن عدد قليل متبعثر. إن مناسيب المياه منخفضة جداً بحيث تتجمع عند  
 جزر القصب". فطلب (فالخ) منه أن يركب:  
 "تعال كما أنت".

فركب (زاير محيسن) في الطرادة بشكل أنيق بارع وجلس على الألواح الخشبية.  
 غالباً ما يجلس المسافرون والعاثرون في قاع المشحوف، بينما مجلس الشرف والتكريم  
 أقرب ما يكون إلى مؤخرته قبالة مقعد القيادة. وعندما يجذّف الطاقم، يجلس اثنان في المؤخرة  
 على دكة مرتفعة. كل منهما إزاء الآخر، بينما يقف الثالث على دكة القيادة الأمامية، وهي  
 عبارة عن عارضة ضيقة غير مريحة، أما الرابع فيجثو في المقدمة. سألت (فالخ):  
 "هل هؤلاء معدان؟"

تبادل ابتسامة مع (زاير محيسن) وقال:

"لا، هؤلاء فلاحون. المعدان يسكنون في الأهوار، ستقابلهم عما قريب عندما  
 تذهب إلى (الكباب)".

(١) محيسن: إما أن تكون محيسن بن مطليح بن غزاي الخضرائي الفرجي، متوفى منذ زمن طويل، وإما زاير محيسن  
 بن نادم من بيت بجيج الفرجي، وهو أيضاً متوفى منذ زمن طويل.

خلفنا حقول الحنطة والشعير وراءنا قبل أن ندخل القرية. كانت القناة التى ننساب فيها قليلة المياه، لذا عانى طاقم التجديف من صعوبة بالغة فى تسيير الطرادة. كانت ضفتا النهر منخفضتين بحيث استطعت وأنا جالس باستقامة رؤية ما وراءها. على كلا جانبي النهر، فُرشت الأرض إلى مسافة تمتد مائتى ذراع بأنواع مختلفة من النباتات العشبية ووسط أرض موحلة تتلأأ تحت أشعة الشمس، وامتدت بعدها جزر القصب الكثيفة. عرض سرب صغير من طيور (الببوى) بياضه الثلجى إزاء تلك الأرضية، فى حين جلس اثنان من طيور (الرخيوى) بمؤخريهما الصفراوين مغموين ساكنين على حافة قناة، وراحت الغربان البقعة تتقاتل حول قطعة نفاية محدثة ضجة عالية. أشار (فالخ):

"هنا يزرعون الشلب، وعما قريب سوف يبدأون تسوية الأرض".

أستطيع رؤية العديد من الرجال والمشاحيف أمامنا. وعندما اقتربنا منهم تسلقنا الضفة ووقفنا متقلقلين عند أدنى نقطة من سدة متقوسة. كان ثمة مجموعة من رجال مسنين عليهم ملابس هى أفضل مما لبس غيرهم يخوضون خلال ماء موحل لكى يسلموا على (فالخ) ويقبلوا يده. أما الآخرون، واغلبهم من الأطفال، فقد جلسوا أو وقفوا فى مشاحيفهم على مسافة قصيرة فى المياه العميقة. لفّ البعض منهم عباءات سوداء أو قهوائية رديئة حول خصورهم فيما كان بعض منهم عراة، فى حين لبس بعض آخر (الدشداشة) العربية التقليدية وقد رفعوا أطرافها السفلى إلى أفخاذهم. وكان اثنان منهم يدفعان مشحوفاً خلال مياه ضحلة وقد رفعوا (دشداشيتهما) إلى ما تحت إبطيهما فأضحيا غريا تاماً ولم يعبرا لذلك أدنى اهتمام! كان أغلبهم يلف رأسه بقطعة قماش بانسة، ووضع الكثير منهم خنجراً فى جانبه. وكان الغلمان مسلحين بالهراوات المثقلة إحدى نهاياتها بكتلة من القار. حين مرّ أحدهم أمامى وقد رآنى انظر إلى هراوته ناولنى إياها بابتسامة عذبة. يتميّز هؤلاء الناس على العموم ببناء جسمى قوى وبطول معتدل وبجلود برّاقة عتمتها ظروف الجو، وبوجوه واسعة ودودة وصريحة وعيون تميل إلى الاتساع وأنوف عريضة بعض الشيء.

تمیل مشاحیهم المغطاة بالقار للصفر في الغالب، والاصطلاح الشامل لكل الزوارق هو مشحوف على الرغم من أن كل نوع وحجم له تسمية خاصة<sup>(١)</sup>. فالبعض منها الذي يكون منخفض العنق جداً يسمى فيما بينهم (ماطور) لا يحمل إلا شخصاً واحداً ويستخدم في الغالب لصيد الطيور. وهناك نوع آخر أكبر قليلاً معد لشخصين، بينما هناك نوع آخر له الحجم نفسه ولكن يتسع لأكثر من اثنين كالذي جئت به من انجر الكبير. يسير كثير من أهل الأهوار مشاحيهم بواسطة (القاله) منظرًا مرعباً كسلاح، فالعصا طويلة من الخيزران يتسع طولها إلى حوالي اثني عشر قدماً وفي نهايتها شوكة كبيرة لها خمس رؤوس، لكل رأس شعبتان مدببتان كأنها سّارة تشبه شوكة التسخين العملاقة.

اقترح (فالخ) ضرورة أن أتسلح ببندقية صيد لأن البندقية ربما كانت خطرة مع هذا العدد الكبير من الناس. لقد سرتني رؤية طاقم (فالخ) المكون من أربعة هم الوحيدون الذين يحملون بنادق على الرغم من حقيقة مؤادها أن سكان القرى يمتلكون عدداً كبيراً من الأسلحة النارية<sup>(٢)</sup>. لقد استحوذ رجال العشائر العراقية على أعداد هائلة من البنادق الإنكليزية والتركية خلال الحرب العالمية الأولى من ميادين القتال. ولم ينزع السلاح منهم منذ ذلك الوقت. مازالت ذخيرة البنادق (لى انفايلد) سهلة المنال لأن تسليح الجيش العراقي والشرطة بهذا النوع من البنادق. أما عتاد البنادق التركية فهو مستنفذ من الناحية العلمية. وهناك بعض الحرفيين الماهرين من سكان القرى من استطاع إعادة حشو الخراطيش الفارغة مستخدمين باروداً مصنّعاً محلياً وبعض الكرات الحديدية<sup>(٣)</sup>، ولكن خراطيش العتاد التركي نفسها تصبح خطرة بسبب رقتها.

(١) أبرز أنواع المراكب تبعاً لحجمها هي ابتداءً من أصغرها: أميطير (مصغر ماطور)، مشحوف، بلم، طرادا، مشحوف هويرى، بلم جبير، عانيه (تستعين عادة بالشرع)، سفينة.

(٢) يشير المؤلف هنا إلى اختلاف (فالخ) عن بقية الشيوخ بعدم استمتاعه برؤية حاشيته وقد تسلحوا جميعاً أمام سكان مقاطعته الغزل.

(٣) الكرات الحديدية: تسمى محلياً (صجم) مفردها (صجمه).

أما في الحرب العالمية الثانية فكانت هناك معارك قليلة في العراق، لذلك كانت الفرص نادرة أمام العشائر لأن تغنم الأسحة. أما في إيران فقد كان الجيش والشرطة قد تحطما بشكل كبير قبيل التقدم البريطاني، لذا فقد غادر الرجال من أفراد الجيش والشرطة إلى بيوتهم مع أسلحتهم. واستحوذت العشائر أيضا على الأسلحة من مواقع عسكرية مختلفة. وفيما بعد، قام (رضا شاه) <sup>(١)</sup> بإصدار قانون قاس يقضى بالعاقبة الشديدة لكل من وجد بحوزته سلاح، لذا فقد قاموا بتهريب الكثير منها إلى العراق وباعوها بثمن بخس وصل إلى خمسة دنانير أى ما يعادل خمسة باونات. أما الآن فقد قيل لى إنها تساوى مائة دينار. وتعرف البندقية الجكسلوفاكية بـ (البرنو) من علامة على ماسورتها. لاحظت أن البنادق التى يحملها طاقم (فالخ) من هذا النوع .

استمع (فالخ) إلى شكوى مشوشة حول توزيع بعض الأراضي المخصصة لزراعة الشلب، فقال:

"هذا كاف، تعال غداً صباحاً إلى مضيفى بعد شروق الشمس بساعتين وقل لـ (حسن) أن يأتى أيضاً".

ثم سأل:

"هل (إدهيم) هنا؟ قل له أن يأتى".

رجل قصير يعانى من عرج خفيف نزل من أبعد مشحوف عنا ثم خاض في الماء شاقاً طريقه باتجاهنا. حاول تقبيل يد (فالخ) بطريقة متذلة. سأل:

"هل أعطيت العشرة دنانير لـ (جاسم) كما أمرتك؟"

(١) رضا شاه: (١٨٧٧م — ١٩٤٤م) شاه إيران وهو ضابط عسكري، تربع على عرش السلطة إثر انقلاب في سنة ١٩٢١م الذى أطاح بسلالة كاجار وأعلن شاهاً لإيران في ١٩٢٥م. فعل الكثير لتحديث إيران. أجبر من قبل بريطانيا والاتحاد السوفيتي على التخلي عن السلطة لصالح ولده محمد رضا بهلوى عام ١٩٤١م. حاول أن يخلق إيران بالركب العربي على غرار ما فعل أتاتورك في تركيا، إلا أن تصدى المرجعيات الإسلامية في إيران آنذاك حال دون تحقيق مآربه.

"سوف أذهب غداً وأدفعها له يا محفوظ".

"لقد قلت لك ذلك منذ عشرة أيام".

"كنت مريضاً يا محفوظ، مدة يومين كنت...".

"سمعت أنك كنت في البحر البارحة".

"كنت هناك عند الطبيب ولأشترى دواء...".

"أنك لم تقرب الطبيب، فقد أمضيت يومك في عرس (نصيف):

"أحلف (بالعباس) <sup>(١)</sup> لقد ذهبت إلى الطبيب، سوف...".

"كلب ابن كلب، لقد قلت لك إذا لم ترجع ما عليك من دين لـ (جاسم) حالاً

سوف أعاقبك، أنت حيال وكاذب. (ياسين) <sup>(٢)</sup>، خذه لـ (خزعل) <sup>(٣)</sup> وقل له أن يقيه إلى

أن أصل. قل له أن يقيده، خذه، اذهب، كلب أسود، سوف أعلمك كيف تحترم أوامري".

وحين جاء شخص آخر بشكوى له قال (فالخ):

"يكفى هذا، ارونا الخنازير، أرغب في رؤية كيفية صيدها من قبل هذا الرجل

الإنكليزي".

ثم قال لي:

"سوف تذهب أنت في ذاك المشحوف، كن حذراً في حركتك داخله، هذا الرجل

سيتولى التجذيف".

ركبت في مشحوف صغير كاد يغرق تحت قدمي، وركب (فالخ) وابنه في

مشحوف آخر، ثم انطلقنا باتجاه جزر القصب متبوعين من قبل البقية عندما أخذت

المياه تعمق أكثر، طرحوا (المرادي) والقالات التي كانوا يدفعون بها وجلسوا يحدفون

(١) الإمام العباس بن علي بن أبي طالب — عليهما السلام — أستشهد مع أخيه الحسين بن علي في واقعة الطف

سنة ٦١ هـ، له منزلة خاصة جداً في عموم جنوب العراق ولاسيما بين المعدان. في مرقده تحسم كثير من

النزاعات من خلال القسم به ضمن مراسيم غاية في الرهبة والإحساس المضاعف بالقدسية.

(٢) ياسين بن حجي سيد النشداوي. لم يؤكد لي أحد إن كان متوفى أو لازال على قيد الحياة.

(٣) خزعل بن حطاب بن كحيط توفي في البصرة عام ١٩٦٧م.



بالغرافات بحركات سريعة وقصيرة. عندما يكون هناك أكثر من مجدف فإنهم يجدفون بإيقاع واحد وعلى الجانب نفسه من المشحوف.

كان ضباب اليوم السابق قد اختفى وبدأت السماء صافية بزرقها الباهتة تنتثر هنا وهناك سلاسل من كتل صغيرة واضحة لغيوم رقيقة. كانت المجاديف تبرز سلسلة من دوامات صغيرة في حين راحت القطرات المتألثة ترتفع وتعود إلى الماء الرائق الذي كان غاية في البرودة. كنا قد خلفنا وراءنا الجدول الموحد المتفرع من مصب النهر بين طبقات من بردى مهشم شاحب كان قد غما في المياه الضحلة. نحن الآن بين منابت القصب الذى يغطى معظم الهور الدائم. هذا النبات العملاق الذى يشبه الخيزران ينمو بتجمعات كثيفة ويصل إلى ارتفاع يزيد على خمسة وعشرين قدماً، وتنتهى سيقانه برؤوس تخرج شرابات<sup>(١)</sup> صفراء باهتة. وتكون هذه السيقان من القوة بحيث أن رجال الأهوار يستخدمونها كعصى لتسيير مشاحيفهم. في هذا الفصل من السنة يكون القصب في الجزر المخاذية للممرات المائية الضيقة خفيفاً وشاهقاً. إن القصب الذى يعضى عليه حول يكون إما بلون ذهبي شاحب أو رمادى مفضض<sup>(٢)</sup>، باستثناء القصب النامى والمتفرع من السيقان الذى يشكل ثمناً جديداً لا يتعدى ارتفاعه بضعة أقدام، فيكون لونه زاهى الخضرة. انطلقت مجاميع صغيرة من طيور (دجاج الماي) بموازاة الماء إلى الأمام متاً إلى ملاذها في جزر القصب، بينما دبّ الرعب في طيور (الهليجى) و(الورده) التى كانت تنشر أجنتها الداكنة لتجف فوق بقايا القصب المقطوع المبيض بفعل الزورق، فغاص قسم في الماء بينما حلّق القسم الآخر فوقنا، وطارت طيور (الرخيوى) فوق القصب محدثة اضطراباً صاخباً تجر وراءها أرجلها الطويلة المتدلية.

(١) شرابات: يسمونها محلياً (عذب) مفردها (عذبه).

(٢) القصب الذى يدور عليه حول يسمونه محلياً (رُبَاخ) مفرده (رُبَاخه). أوضح استخدام له كوقود. بينما يسمون

النماء الجديد له (عنكر).

كانت المشاحيف التي لا يقل عددها عن أربعين مشحوفاً تتصادم وهي تنزلق خلال الممرات الضيقة وتنتشر في الامتدادات المفتوحة للمياه بينما راح مسيروها يتسابقون وسط صيحاتهم وضحكهم.

لم أستطع اتخاذ قرارا فيما يتوجب على عمله، هل نذهب بعيداً في الأهوار أم نمكث عند الشاطئ بسبب انغلاق الممرات المائية أو بسبب ضيقها والتوائها. فجأة وجدنا أنفسنا خارج غابات القصب وسط مياه مكشوفة<sup>(١)</sup>. انتفض (الخصيري) بسرعة وطار محلّقاً فوق رؤوسنا. وصل عرض بعض الجزر الصغيرة التي قطعت النهاية البعيدة للمياه المكشوفة بضعة أذرع، في حين امتدت الأخرى إلى أكثر من (اكر)<sup>(٢)</sup>. يطلق سكان الأهوار اسم (قؤل) على هذه الجزر. كان البعض منها راسيا لا يتزحزح في حين يتحرك البعض الآخر سائبا على غير هدى، وتكون هذه الجزر مغطاة تحت كم من القصب الذي يرتفع هنا إلى ثمانية أو عشرة أقدام، وأجمات متشابكة من (الكولان) و(الجريج) الذي ترهف أوراقه فتوازي الأمواس في قدرتها على القطع، و(bambles) وشجيرات (الغرب) وعدة أنواع أخرى من نباتات متسلقة، وتحت هذا كله انتشرت نباتات (النعناع) و(Sow thistle) و (Willow herb) و(Pondweed) ونباتات أخرى.

تبدو أرض هذه الجزر الصلبة لكنها في الحقيقة رخوة مثقلة بالمياه، تغطيها طبقة من جذور ونباتات متفسخة طافية على السطح. وفي سنوات لاحقة أطلقت النار على خنزير ضخيم كان يرعى في واحدة من هذه الجزر التي تم إحراقها قبل ذلك. كان يقف هناك كأنه على أرض راسخة. وحين مررنا بالمكان بعد ساعة كانت الجثة قد اختفت. فقلت:

(١) المياه المكشوفة Lagoon: يسمونها محليا (بركه). وتمتاز بعمق المياه فيها.

(٢) الأكر: acer، وحدة قياس مساحة تساوي أربعة ألاق متر مربع.

"يبدو أنني لم أقتله، لابد أنه استرد عافيته وانصرف".

فصاح مرافقي:

"لا، لا، لقد مات بالتأكيد وقد غرق".

إلى واحدة من هذه الجزر كانت طرادة (فالح) تتجه بموازاة مشحوفنا. فقال:

"هذا هو المكان" وصاح بالآخرين:

"تعالوا، انزلوت فيها وتأكدوا إن كان فيها شيء".

ترجّل عدة رجال حاملين فالاتهم أمامهم. كانت الجزيرة خالية، لذا فقد انتقلوا

إلى غيرها وإلى أخرى وثالثة. كنت منشغلاً بمراقبة اثنين من طيور (warblers) وهى

تنب هنا وهناك بين القصب عندما فزعت بضجيج عالٍ تلتته صيحات:

"هذا هو هنا، أسرع، انتبه الله، إنها أربعة".

تلا تلك الصيحات طرطشة ماء ثم صمت.

سأل صوت آخر:

"أين ذهبت؟"

"لقد خاضت في المياه، لقد نهض أحدهما تحت قدمي تماماً، والله (والعباس) كان

يحجم الحمار".

صرخ أحدهم:

"لقد قذفت فالتى باتجاهها، كنت أصيها، خنزيرة مع ثلاثة من صغارها".

صيحات أخرى:

"لقد ذهبت من هنا، طوقوهن بسرعة واعزلوهن".

كنّا في ممر بين جزيرتين لكن رجل مشحوفى خالفنا بسرعة وذهب إلى المياه

المكشوفة حيث التحقت بنا عدة مشاحيف أخرى. لقد انتقل الصيد إلى جزيرة أخرى

وحين استعجلنا باتجاهها كان هناك المزيد من الاهتياج. كانت هناك صرخة حادة

قصيرة، وضحك، ثم صياح رجل:

"لقد أصبت، واحدا صغيرا منها، لقد طعنته بالفاله، إنه في الماء، لقد أغرقته".

مرّ مشحوف (فالخ)، كان قد خلع عنه عباءته وبدأ بالتجذيف بنفسه.

"أين ذهب الكبير فهميم يا (مناتى) (١)؟"

سأل (فالخ) رجلاً مسناً تولى إرشادنا حتى الآن.

"أظن هناك في الجزيرة الكبيرة يا (محفوظ)، نعم هذه آثاره، هيا لنخرجه."

اندفع (مناتى) مسرعاً بعيداً في أجمة قصب وتبعه اثنان من البقية. كنت أسمع

صوت حركتهم هناك. صاح أحدهم:

"إنه لم يأت في هذا الاتجاه."

ثم صاح (مناتى) من مكان آخر بعد قليل:

"ها هي آثاره."

اعتقدت أنهم فقدوا آثاره ولن يحدث شيء حين تناهى إلى سمعى ضجيج متقطع

من الجانب البعيد وصوت صراخ:

"لقد قتلنى، لقد قتلنى."

صرخ أحدهم:

"لقد قتل (مناتى) هيا يا شبان، بسرعة، أين الرجال؟"

أجاب استغاثته العديد من الرجال وهم يخوضون خلال القصب.

جدفنا أنا و(فالخ) وآخرون بسرعة واهتياج باتجاه الجانب البعيد من الجزيرة حيث

وجدنا (مناتى) وقد وضع في مشحوف كبير. كانت (دشداشته) مبتلة بدمائه ومزق

نصفها الأسفل. كان مضطجعاً هناك بعينين مغمضتين. ثمة جرح فاغر في ردفه الأيمن،

من الكبر بحيث أستطيع وضع قبضة يدي فيه. انحنى (فالخ) فوقه وسأله بقلق:

"كيف أنت يا (مناتى)؟"

فتح الرجل المسن عينيه وهمس:

— "أنا بخير يا (محفوظ)."

(١) مناتى بن لازم بن فرج الموزانى، متوفى منذ زمن طويل.

أعطى (فالخ) أوامره بالعودة حالاً إلى صدور (الخز) التي كانت لحسن الحظ غير بعيدة. قال صبيٌّ في طريق عودتنا:

"لقد كانت خنزيرة التي عضته، فلو كان خنزيراً لشقه شقاً وقتله".

وقال آخر:

"لقد كان تصرفاً سليماً منه أن ألقى نفسه على بطنه، فقبل سنتين، رأيت رجلاً في أراضى (الو بخيت) وقد قتلته خنزيرة، لقد استطاعت سحب نصف أحشائه إلى الخارج".

وقال آخر:

"في العام الماضي، قتل (سيد) شاب في حقول الحنطة بعد أن قطع خنزير إربا. لقد كان وحيداً وأعزل. لا بد أن (السيد) قد داس فوقه. كانت سنابل عالية قبيل حصادها. زحف (السيد) عائداً إلى قريته لكنه مات قبل أن يستطيع الخروج من الحقل".

سأل صبي:

"هل تذكر عندما امتطى (هاشم) خنزيراً؟"

"أى والله". أجاب رجل مشحوف وأردف:

"كان هو وأخوه يعاينان حقل شعيرهما عندما فوجئا بخنزير هرم بلون شاحب.

عزم أخو (هاشم) على أن يرميه بالرصاص، فقد اشترى قبل مدّة قصيرة بندقية من (الفريجات) <sup>(١)</sup>، لكن (هاشم) حاول منعه ومع ذلك أطلق النار وأصاب الخنزير في بطنه".

(١) الفريجات: من أقدم العشائر في محافظة ميسان. يرجعون إلى بطون ربعة العدنانية، نزحوا من مناطق الشطرة وواسط. والذين نزحوا من الشطرة هم من صلب قبيلة العبودية إحدى قبائل ربعة، أما الذين نزحوا من أرياف واسط فيرجعون إلى قبيلة السراى أكبر أثلاث إمارة ربعة العدنانية. شكلت هذه الجمائل وحدة وقوة في مناطق أهوار ميسان بعد أن حملت أسماء أجدادها فرج الدارمي العذاري، وفرج عماره عتار بن سراى. أدت مصاهرتهم مع الو محمد إلى تحالف عشائري قوى.

"نعم". قاطعه رجل آخر.  
 "لقد كانت إصابة رديئة جداً".

أكمل رجل مشحوفى:

"لقد هاجم الخنزير وأسقطه أرضاً وشق ذراعه شقاً بالغ السوء، فاستدار (هاشم) إلى مؤخرة الخنزير وطعن كتفه بخنجره، وعندما استدار الخنزير باتجاهه اسقط (هاشم) الخنجر وقفز فوق ظهره. ولّى الخنزير هارباً مع حملة! لقد تشبت (هاشم) بأذنيه وسار به ممتطياً إياه كل المسافة إلى بستان (سيد على) حيث انهار الخنزير هناك وهو يحاول ارتقاء سدة رى عالية. قال (هاشم) فيما بعد إنه لن يرغب فى امتطاء خنزير مرة أخرى! فضحك مستمعوه".

قال رجل عجوز:

"إن الخنازير عدو، فهي تأكل محاصيلنا وتقتل رجالنا، الله يلعنها، ها هو (مناتى) سوف لن ترجى منه أى فائدة، لقد قضت عليه تلك الخنزيرة".

وصلنا إلى صدور النهر. كانت طرادة (فالخ) مع حشد صغير من الرجال بانتظارنا حيث الطريق بمحاذاة النهر واسع بحق. رسونا بعد أن سحبتنا المشحوف الذى أقلّ (مناتى) الراقد على أحد جنبه وقد أسند رجل رأسه وكتفيه. يبدو انه لم ينزف الكثير من الدماء لأن الماء الذى استقر فى أسفل المشحوف مشوب بلون وردى، لكن الجرح فطيع بهيئة المزرية. كانت النهايات الممزقة للعضلات بادية بوضوح من خلال اللحم الناز. تحرك (مناتى) بوهن ليرى جرحه لكنه لم يقل شيئاً.

أدوية كثيرة ترقد فى صناديقى التى أودعتها فى قرية (فالخ). لم أكن مؤهلاً للطب، ولكن بعد عشرين عاماً من العيش فى أماكن موحشة حيث يتولى كل إنسان أمر نفسه كنتيجة منطقية، توليت أمر معالجة المرضى والجرحى، لذا اكتسبت بعض الخبرة فى العقاقير. بالإضافة إلى ذلك كنت أحرص على استغلال كل فرصة فأدور فى المستشفيات مراقبا العمليات وهذه الطريقة استطعت التقاط كما لا بأس به من المعرفة

الجراحية. واستطعت اكتساب كم آخر في أثناء تواجدى خلال السنين التى قضيتها فى الأهوار. قلت (لفالځ):

"الأولى بنا أن نأخذ به بالسرعة الممكنة إلى مضيقك حيث أستطيع إعطاءه مادة مخدرة لكى يتسنى لى ترقيع جرحه، هذا غير الكثير مما يسعنى تقديمه له. ولكن يجب أن يذهب إلى المستشفى فى العمارة".

ناشدنى (مناتى):

"لا ترسلونى إلى المستشفى، لا، ليس للمستشفى، دعونى فى قريتى، اطلبوا من الإنكليزى أن يداوينى" <sup>(١)</sup>.

فقلت (لفالځ):

"دعنا نعود به إلى قريتك بأية طريقة".

لكن (فالځ) أصرّ واعتذر بأن الطعام جاهز:

"دعنا نأكل أولاً ثم نذهب".

استشعرت الغضب يتخللنى حين رأيت (مناتى) يتسسم لى ويقول:

"كلّ، يا (صاحب)، كلّ، أنا بخير"، وأردف:

"على أية حال فأنا جائع، أريد شيئاً من الطعام قبل أن أذهب إلى أى مكان".

أذعنت واتجهت إلى حيث أفرد الطعام على (باريه). كان هناك طبق ضخّم من

الأرز وقطع كبيرة من لحم الضأن فضلاً عن الدجاج المشوى وصحون المرق. وحيث

(١) يعانى سكة الأهوار من وحشة قاتلة ما أن يغادروا بيتهم فيبدون فى غاية الحيرة والضياع والانشداد، لذا فهم

لا يحبذون بل ويصرون على عدم مغادرة هذه البيئة تحت أقوى الحجج والذرائع، وها هو مناتى يرفض الذهاب للمستشفى الذى يقع فى المدينة طبعاً. أما موقفهم من المستشفيات فمعروف أيضاً فهم يعرفون المستشفى بأنه المكان الذى يموت فيه الناس أعتقد أن إحجامهم عن مغادرة بيتهم له علاقة بتطيرهم من فكرة المستشفى، فهم لا يرسلون أحداً للمستشفى إلا الذى ينسوا من شفاة بوسائلهم الاعتيادية حيث يكون المرض قد تمكّن

منه وفك به، فيموت فى المستشفى على الأغلب

عملية الأكل مستحيلة لذا نهضت بسرعة آملاً أن يجذو الآخرون حذوى، لكنني ألفتهم جالسين حتى شبع آخرهم، ثم تناولوا قهوقهم وشايهم. عجزت عن مصادرة غضبي واستيائي ونفاد صبري فخطوت باتجاه (مناتى). كان يحمل عظماً. تساءلت إن كان فعلاً قد أكل شيئاً. كان يبدو شاحباً.

توسل (مناتى) مرة أخرى في قرية (فالخ) ألا يرسلوه إلى المستشفى لكن (فالخ) أقنعه أخيراً بالذهاب. كانت الخنزيرة قد اقتطعت كتلة كبيرة من ردفه. حقنته بالمورفين ونظفت جرحه ونثرت فوقه طبقة سميكة من مسحوق السلفوناميد. حرصنا على وضعه في المشحوف بشكل مريح وأرسلناه إلى الحجر الكبير في طريقه إلى العمارة. التقيته بعد سنة حين نزلت لتناول الغداء في قريته وقد روعني أن أجده معاقاً بالعرج بشكل دائم، غير قادر على الحركة ما لم يلقى بثقل جسده على عصا. وحين سألته عن المدة التي قضاها في المستشفى أجابني:

"عندما ذهبت هناك، لم يسمحوا لى بالدخول، لذا عدت من حيث أتيت، الحمد لله أن دواءك هو الذى شفاني، وهو كل ما حصلت عليه".  
انتابني الشك في أنه لم يقرب المستشفى وقد ذهب إلى قريته بمجرد مغادرته مضيف (فالخ):





## الفصل الرابع

### الوصول إلى الكباب

سمعتُ صوت انسكاره هذا (المردى)  
العتيق كنبض توقف، فتطير المشحوف  
فأل السوء ضحكتُ. وعدتُ أقطره.

أرسلنى (فالخ) إلى (الکباب) فى الصباح التالى فى مشحوف يقوده ثلاثة رجال.  
"سوف يذهبون بك إلى (صدّام). عُدْ إلینا متى ما تعبت من العیش وسط المعدان.  
تذكر أن هذا البيت بیتک. اذهبْ بأمان الله".

انطلقنا فى النهر الرئيس واجتزنا مضيقاً آخر قال لى رجال مشحوفى إنه يعود إلى  
(سید صروط)<sup>(١)</sup> اكتشفت حالاً أنه الرجل الأكثر تبجیلاً وهیبة من بین (السادة)  
الآخرین فى المنطقة والذى طافت سمعته وشهرته وامتدت کل أرجاء جنوب العراق.  
لذا اكتسب مضیفه قداسة وحرمة جامع. إن کل رجل مدلّى فى العراق هذه الأيام له

---

(١) السید المجل جداً صروط بن السید محسن بن السید کریم بن السید إدريس بن السید على الإسماعیلی، ینتهى  
نسبه إلى الإمام موسى الکاظم — علیه السلام. لا یضاهیه أحد فى شهرته التى عمت أرجاء وسط وجنوب  
العراق. اشتهر بالکرم المتطرف والکمة والتدين إلى أبعد الحدود، وقد كانت الکرامات تجرى على یدیه حتى  
عرف بـ (شارته) حتى وصل الأمر إلى أن العامة یقسمون به. کان لطوله الفارع واتساع منکیه وصوته  
الراعد وتجملته بالسواد الأثر البارز فى قدرته على التأثير فیمن حوله. تزوج عدة مرات وأنجب الكثير من  
الأولاد موزعين حالياً بین بغداد والبصرة والعمارة. توفى بتاريخ ٢٠ / ١ / ١٩٨٤م عن عمر ناهز التسعین  
ودفن فى النجف الأشرف وبُنِى له قبر هبى فى مقبرة وادى السلام.

نصيب من التعليم يطلق على نفسه (سيد) كما كان يطلق على نفسه لقب (أفدى) أيام العهد العثماني. تعطيك كلمة (سيد) معنى (مستر . Mr) وليست لها دلالة قدسية، أما عند عشائر الأهوار فلا زالت هذه الكلمة عنوان تجيل وتوقير وتعني انحدار الإنسان من سلاله النبي محمد (ﷺ).

بعد مضيف (سيد صروط) تنتشر قرية صغيرة بغير انتظام على طول ضفة النهر<sup>(١)</sup> انتشرت فوقها غمامة من دخان. كانت الجواميس السوداء الواجبة الهائلة بأجسامها الثقيلة وفرائها الأشعث تقف هناك بجانب النهر أو تغطس فيه لا يظهر منها سوى مناخيرها أو قمم رؤوسها أو أقواس قرونها السمكية. رست هناك مشاحيف من مختلف الأحجام على طول الضفة أو سُحبت على الأرض اليابسة حيث البقايا المتهرئة لمشاحيف أخرى تساقطت ألواحها عن إضلاعها. لاحقتنا الجموع التقليدية للكلاب ناجحة عند حافة الماء. كان ثمة رجل يراقبنا بصمت من مدخل بيته. قال أحد رجال مشحوفى:

"هيا يا صاحب، حيّه".

فهتفت:

"السلام عليكم". فرد الرجل:

"عليكم السلام" وأضاف "افلحوا" فرددت:

"لقد أكلنا... الله يحفظك".

قال الرجل الذى بجانبى:

"جيد، يجب عليك أن تعلم طباعنا، فمن عادة الرجل فى المشحوف أن يحبى

الرجل على الشاطئ، وان يحبى الرجل المنحدر مع التيار القادم ضده".

(١) القرية التى تلى مضيف (سيد صروط) التى يقصدها المؤلف هى إما (أم الهوش) أو (صوب الله) التى يشكل البربرة أغلب سكانها. أثرت ذكر القرين لعدم اتفاق الذين سألهم.

كانت أشجار (الْفَرْب) في القرية الأخرى عارية حتى الآن باستثناء لمسات طفيفة من بروز براعمها، تصطف على جانبي النهر، تبدل فروعها السفلى في الماء الموحد غاطسة في التيار. انتشرت وراءها، حيث أجهت وتشابكات النخيل غير (المكرب)، وفي مكان واحد، عدة بيوت قصية في أرض خلاء. انساب فرع آخر من النهر هنا، فانحدروا في الفرع الصغير عن يميننا<sup>(١)</sup>. حقول الخنطة والشعير، قرية أخرى، أراضي موحلة مستوية، ومن ثم حافة الأهوار وجزر البردي، منظر اليوم السابق نفسه.

سرنا في قناة ملتوية ضيقة يجللها القصب وقابلنا العديد من المشاحيف وهي راجعة محملة إلى أقصاها بالقصب الغض الندي (العنكر) الذي أخفى المشاحيف نفسها تحته فلا تكاد تُرى. كان يقودها رجال أنصاف عراة وغللمان، اثنان في المشحوف الواحد أحياناً وغالبيتها تقاد من قبل شخص واحد. قال الرجل الذي عيّ نفسه معلماً لي واسمه (جحيش)<sup>(٢)</sup> (مصغر جحش):

"جحيش لجواميسهم".

لم يكن (جحيش) كنية أو لقباً له، بل اسمه الحقيقي الصحيح. كان الكثير من رجال العشائر بأسماء وحشية و (جحيش) أقلها شذوذاً. لقد قابلت في مناسبات عديدة رجالاً واطفالاً بأسماء مثل (جليب: مصغر كلب)، (بكور: خنزيره) و (خنزير). والتي تعدُّ أسماءً مروعة مجفلة بين المسلمين الذين يبخسون الكلب والخنزير بوصفها حيوانات نجسة. ولل بعض أسماء غريبة مثل (جريدی)، (واوی)، (ضبع)، (كوسج)،

(١) الفرع الصغير عن اليمين هو نهر الموزر.

(٢) جحيش: لم أستطع العثور على أى معلومة تخصه، لكن البعض أكد لي أنه ربما كان دهش بن نافل بن حسين من آل حميد يسكن مدينة النورة حالياً.

(عفریت) وحتى (يعرور). تطلق هذه الأسماء غير الجذابة لغرض تفادى عين الشر على الأطفال الذين مات إخوتهم في طفولتهم المبكرة<sup>(١)</sup>.

اجتزنا مكاناً يجمع منه الحشيش، وحشيش هي الكلمة العربية المستخدمة هنا للقصب الغض الطرى كعلف. وقف صبي عار تماماً في مقدمة المشحوف يقطع الفروع الجديدة الخضراء للقصب بمنجله المسنن الحافة ويركم الحزم المقطوعة الندية المقطرة خلفه في المشحوف. يقوم، بين الحين والآخر، بتقديم مشحوفه مسافة ذراع أو ذراعين يجذب سيقان القصب الكبيرة. من خلال حُجب القصب أستطيع سماع ضحكات، صوت طفل صادق ونقى يغنى أغنية إيقاعية مرحة. توقف رجال مشحوفى عن التجذيف للاستماع. قال أحدهم وهو يستشعر تقديره لهذا الصوت: "هذا حسن".

انتهت الأغنية فصاح أحدهم:

"غنّ لنا أغنية أخرى".

انه المشهد الذى سيصبح مألوفاً خلال السنوات السبع القادمة. حيناً، يكون الفصل شتاءً فيكون الماء بيرودة الثلج والريح الباردة تهب على الأهوار قادمة من تلوج الشمال، وحيناً، يكون الفصل صيفاً، حيث الهواء المشبع بالرطوبة، والحر الذى لا يطاق في قعر ظلمة أنفاق القصب الشاهق والبعوض الراقص بسحب حائمة".

(١) تمتد غرابة الأسماء لتكون وصيفاً دقيقاً لحالة الولادة، فمثلاً هناك من الأسماء الذكورية (شوبطيت) أى تأخرت كثيراً و(وين جنت) أى أين كنت، وهما بمعنى أننا انتظرناك طويلاً. تطلق مثل هذه الأسماء على الولادة الذكورية بعد سلسلة من الولادات الأنثوية، أما حين تكثر الولادات الأنثوية فتأخذ أسماء التأخرات منهن طابع الاعتراض أو الدعاء المتواصل مثل: كافى، أى (كفى) بسنه، أى (اكفينا) مليّنا، أى (مللنا) بس عاد، أى (أى بكفى)، جماله، أى (زيادة).

من النادر أن ترى الربيع أو الخريف لأتتفا فصلان قصيران فى هذه الجزء من العالم. ولكن أيا كان الفصل شتاءً أو صيفاً فقد ألفت أصوات الضحك أو الغناء بين أجمات القصب حيث رجال الأهوار يكدحون بجمع العلف لجواميسهم النهمة. قال (جحيش) وهو يلتقط مجدافه مرة ثانية:

"هذا الولد صوته جميل".

"نعم، له صوت أجمل من صوت (جليب) <sup>(١)</sup> الساكن فى (الكباب)".

"نعم صحيح، صوت جميل لكنه لا يستطيع الرقص، هل رأيت (الذكر بأنثى) فى حفلة عرس (عبد النبى)؟ والله أنها لمتعة حقيقية مشاهدته وهو يرقص".

سألت:

"ماذا يكون (الذكر بأنثى)؟"

فالكلمة تبدو كما لو إنها تعنى فتاة ورجل. فأوضح (جحيش) أن (الذكر بأنثى) هو ولد محترف للرقص وهو مخنث ويأتى أفعال النساء ويوجد منهم اثنان أو ثلاثة فى المنجر الكبير. يُدفع له مبلغ مقابل الرقص فى الأعراس والمناسبات السارة الأخرى. وحين سألت إن كانوا يسكنون بين العشائر، أجاب (جحيش):

"لا، لا أبداً، طبعاً الكثير من أولادنا يرقصون ولكنهم ليسوا (ذكر بأنثى)".

أضاف أحد رفاقه:

"طيب، هناك واحد منهم فى (الصيكل)، والأدهى من ذلك أن ابنه (مازن) فى طريقه لأن يصبح راقصاً بارعاً، والله، إنه فى بدايته أحسن من أبيه الذى سبقه".

لم تمر بنا زوارق أخرى وأخذت حركتنا بالتباطؤ منساقه على غير هدى، منحدرين فى الممرات الساكنة بين عرائش القصب الذهبى. باستثناء صوت

(١) جليب بن مريوش بن فوج الله الساعدى، توفى حوالى سنة ٢٠٠٠م فى البصرة.

أحدنا وهو يتكلم، لم يكن هناك ثمة صوت أكثر من طرشة مياه مكتومة تحت المجاذيف وهمس الماء تحت مقدم المشحوف. بدأ الممر بالاتساع تدريجياً ووجدنا أنفسنا على حافة قصرة باتساع حوالى ثلاثة أرباع الميل. كانت زرقة المياه شفيفة زاهية تحت أشعة الشمس. قال (جحيش):

"سنعبر البحيرة، فلا رياح هناك".

كانت مجموعة كبيرة من (دجاج الماي) ترقد مطمئنة على سطح البحيرة تلتها أعداد كبيرة من طيور البط كانت من البعد بحيث يصعب تحديدها. حملت بنديقتي، لكنها طارت ما إن برزنا فجأة من خلال ستار القصب.

قال (جحيش):

"إنه يكون حذراً جداً في هذا الفصل، فلو جئت في الخريف، موعد وصوله إلى هنا فسوف تصطاد منه ما تريد، لقد اصطاد (فالخ) عدداً هذا الشتاء".

ظهر القصب عبر البحيرة كأنه منحدرات صخرية شاهقة على طول ساحل مثلّم بينما ذكرني القصب البعيد خلفى بحقول الذرة الياضنة. اندفعنا باتجاه الجانب البعيد مرة أخرى بين أجوات القصب وقابلنا مشحوفين كبيرين محملين بالقصب الجاف ولم يتركا لنا إلا فسحة ضئيلة لنمر. كانا واسعين جداً بجوانب عالية وبطول يصل إلى ثلاثين قدماً وبمؤخرة ومقدمة مزخرفتين، سير كل منهما ببطء إلى الأمام ثلاثة رجال بفرز (المرادى) في الماء ثم يسرون خطوة خطوة على الحافة العليا للمركب من مقدمته إلى مؤخرته، وحين يصلون إلى المؤخرة يعودون ثانية إلى المقدمة ويبدأون من جديد.

صاح (جحيش):

"هل (صدّام) في (الكباب)؟"

"نعم، لقد عاد أول أمس من قرية (خلف)<sup>(١)</sup>". و (خلف) هذا هو أخو (فالخ) الأصغر.

"إلى أين أنتم ذاهبون؟"

"إلى (صدّام)، نحن نقلّ الرجل الانكليزي من مضيف (فالخ)".

"وأين هو (فالخ)؟"

"في بيته".

"ومجيد؟"

"ما زال في بغداد".

قال لي (جحيش):

"نحن نسعى هذا المركب (بلم)" وأردف:

"إنهم قادمون من (الكباب) محملين بالقصب لبناء مضيف (مجيد) الجديد".

بعد ذلك بقليل أدرکنا عدة مشاحيف محملة بالحشيش في طريقها إلى (الكباب). يبدو أن القناة أكثر ضحالة لأن البردى ينمو فيها بين القصب. اتسعت القناة، دُرنا حول جزيرة من البردى وهناك في فسحة واسعة متألثة تمايل أمواجها بفعل النسيم، كانت القرية. كانت ظلال البيوت منعكسة في المياه، تلاشت فوقها غشاوة رقيقة من دخان في سماء شاحبة الزرقعة، استقر وراءها جدار البردى الأصفر. تبعثر حوالى سبع وستين بيتاً وسط (بركه)، تفصل فيما بينها أحياناً بضعة أذرع فقط. تبدو من بعيد وكأنها غاطسة في المياه فعلاً ولكنها في الحقيقة شيدت فوق كومة بردى مثقلة بالماء كأنها عشب

(١) خلف بن مجيد الخليفة بن وادی غیر الشقیق لفالّخ بن مجید وخریط بن مجید، فامه هی شریفه بنت سلمان العلوی ای احمدادی، ولد عام ١٩٢٧م، یسکن حالیا فی بغداد حی اور، یتزعم مع غیره من الشیوخ عشیره ابو محمد. یتمیز بذاکرة ماسیه وباهتمامات معرفیه متنوعه.

بجعة عملاق لها من الكبر ما يكفى لبناية وفسحة صغيرة أمامها. وقفت جاموستان أمام أقرب هذه البيوت يقطر الماء من فروها الأسود بينما رقدت الأخريات مغمورات أو شبه مغمورات قريبا منها. تجنى هذه البيوت، تشبه في ذلك البيوت على اليابسة، من (البوارى) المشدودة إلى هياكل مقوسة من القصب وتكون مفتوحة من جهة واحدة. كان بإمكاننا النظر داخلها ونحن نمر خلالها بمجدين. كان البعض منها بحجم معتدل، والبعض الآخر مجرد ستر بالكاد يمكن تصنيفه ضمن البيوت. يكون لون أحدثها بناءً بلون القش الطازج بينما لون القديم منها شاحباً كدراً.

في كل مكان، تجد هناك من يركب مشحوقاً أو ينزل منه لكى ينتقل من جزيرة صناعية إلى أخرى. يحمل الرجال والصبيان ملء أذرعهم حزم الحشيش ويلقونها أمام بيوتهم. حينها، فردوا علينا: "أهلاً وسهلاً، أفلحوا".

لقد راقبت طفلاً بعمر الرابعة أو الخامسة يخطو في مشحوفه دافعاً إياه بعضاً طويلة متجهاً نحو جزر القصب. نادته امرأة تحمل طفلاً بين ذراعيها عندما اجتازها. كانت بوجه جميل وحنك مستدق عذب، تلبس رداءً معتماً مع عباءة سوداء خشنة تنحدر من أعلى رأسها. وأمام بيت آخر كانت هناك فتاتان برداءين طويلين مزخرفين أحدهما بالأحمر والآخر بالأخضر. كانتا قمرسان (الشلب) في هاون خشى<sup>(١)</sup> بمدقة ثقيلة. كانتا تدقان بالتعاقب وهما تثنيان جسديهما للأمام عند منطقة الورك وتطلقان صوتاً إيقاعياً عند كل دقة.

يقع مضيف (صدّام) في الطرف القصي للقرية عند حافة جزيرة قصب وقد عزل قليلاً عن بقية البيوت. كان أكبر بناء في (الكباب) وهو الوحيد الذى استقر على أرض يابسة لأنه شغل جزيرة صغيرة شديدة الانحدار الجوانب

(١) الهاون الخشى الكبير نسيا يسمونه محلياً (جاون) بتعطيش الجيم، أما المدقة فيسمونها (ميجنه) معطشة الجيم أيضاً.



من أرض سوداء ارتفعت عن مستوى المياه بحوالى خمسة أو ستة أقدام<sup>(١)</sup>. من الواضح أن هذه الجزيرة هي موقع قديم بسبب وجود الطابوق قرب مستوى المياه. كانت ثمة فسحة في الجزيرة وسعت لبيت آخر حيث يسكن (صدام) وعائلته. ما إن اقتربنا حتى خرج إلينا صائحاً آمراً صبيّاً أن يجلب الفرش. "أهلاً وسهلاً، أهلاً وسهلاً".

ساعدنى فى الترحل من المشحوف. كان رجلاً طويلاً نحيفاً تعلو وجهه أمارات خفيفة من إصابة بالجدري، حليق الوجه إلا من شارب رقيق يلبس (دشداشة) بيضاء. تعلوها عباءة بنية فضلا عن الكوفية والعقال. كان بصحبته ابنه (عوده)، طفل هادئ عمره عشر سنوات.

خلعت حذائى عند مدخل المضيف ودخلت. كان المضيف، وهو الوحيد فى (الكباب)، مبنى بطريقة خشنة فظة على سبعة (شباب) وكانت فتحته باتجاه الجنوب. كانت النظرة من هذا المضيف ذى الموقع المرتفع تشرف على كل القرية وكانت (البوارى) التى تغطى أرضيته بالية رثة، والفانوس النفطى المعلق بقصبة مغروسة فى الجدار مسوداً معتم الزجاجاة.

"أين هذا الولد؟ الله يلعنه".

أعلن (صدام) ذلك بنفاد صبر.

ظهر غلام تلوح عليه إمارات الغباء يحمل (مدّتين)<sup>(٢)</sup> وبعض الوسائد.

(١) يطلق سكان الأهوار كلمة (إيشان) على كل واحدة من هذه الجزر، وهى كثيرة جداً فى منطقة الأهوار وبارتفاعات مختلفة قد تصل إلى ١٢ قدماً عن مستوى الماء، أشهرها إيشان (الواجف) و (العزيره) و (الكبور).

و (أبو صخير) وغيرها.

(٢) (المدّة) بساط سميك من الصوف ذو نقوش بالوان مختلفة يغلب عليها الأحمر والأزرق والأصفر والبرتقالى، بأطوال مختلفة ويعرض قد يصل إلى ثلاثة أقدام، عادة ما تكون ثقيلة بسبب سمك حياكتها على عكس (البساط) الخفيف نسيباً والذى لا يبالغ الحائكون فى زخرفته.

"هيا أسرع أبها الولد، ألا ترى أننا نستقبل ضيوفاً؟ أعطني هاتين (المدتين) واذهب لجلب المزيد منها، الجيد منها فقط".

عاد الغلام يحمل بساطاً من النوع الفاخر، بسطه إزاء الجدار البعيد ووضع عليه وسائد لها شكل محدات النوم ومغطاة بقماش لماع أحمر، طلب مني (صدّام) الجلوس هناك. لقد سمعته يهمس للعبد:

"قل لهم أن يعدّوا غداً، ثم اذهب إلى العطار واعلم إن كان عنده سمك. تذكر أن تجلب واحدة كبيرة هات ستة علب سجائر وسكر وشاي، استعن بالمشحوف الصغير".  
دخل رجل ذو بنية متماسكة ثقيلة له وجه فضولي غامض، ربما كان وسيماً حين كان في صباه، لكنه الآن مترهل رخو، بصحبته ابن له بعمر الخامسة عشرة، حيّاناً وجلس.

"هيا يا (عجزم)<sup>(١)</sup>".

قال (صدّام) للشاب ذو الوجه المبتهج:

"اغل ماءً للقهوة، تجده في الدلة الكبيرة، أشعل ناراً، القصب هناك في الزاوية وهنا الثقاب".

عندما عاد العبد، رمى (صدّام) علبة سجائر أمامي وأمام كل واحد من رجال مشحوفي، ثم فتح البقية ورمى سيجارة أمام كل واحد من الجالسين.

جاء عدّة رجال حين قدّم (صدّام) لنا القهوة، ووصل المزيد منهم الآن، حتى أصبح عددهم بين عشرين إلى ثلاثين رجلاً يشبهون في الهيئة سكان القرى الذين ذهبوا معنا، وأنا و(فالخ) لصيد الخنازير. إن الذي شدّ انتباهي بشكل كبير هو اتساع وجوههم، وكان فيهم شاب طويل له مظهر منغولي. يطلق كل الرجال شواربهم والقليل من مستنهم كانوا بلحي شبياء، شعر رؤوسهم حليق إلى مستوى قصير جداً.

(١) عجرم بن حسين بن حيدر بن سلامه الفريجي، ارتحل إلى بغداد وتوفى فيها عام ١٩٨٠.

وقد ارتدوا الكوفيات التقليدية على رؤوسهم و (الدشاديش)، وارتدى أغلبهم عباءات خشنة.

خرج (صدّام) وما أسرع أن عاد متبوعاً بانه (عوده)، و(عجرم)، وخادمه وقد حملوا وعاءين كبيرين للمرق، ودجاجتين مطبوختين، وصينية كبيرة مدوّرة يعلوها تل من أرز الدبق. ووزع الصحن فوق حصير دائري أمامي. لاح (عجرم) والخدم وهم يحملون سمكة بشكل جيد ومكسو في بعض أجزائه بالرماد<sup>(١)</sup>. وكما جرت العادة دعا (جحيش) (صدّام) للانضمام إلينا لكنه رفض قائلاً: "كل، كل".

صبّ (صدّام) المرق فوق الأرز وراحت يده تمزقان الدجاج قاذفاً بقطع اللحم أمامنا. عادة ما يكوّر البدو كتلة الأرز في راحة يدهم بشكل كرة صماء قبل أن يدفعوها إلى أفواههم، ولكن هنا، لا يستخدم سكان الأهوار سوى أطراف أصابعهم، لقد لاحظت أنهم يأكلون الأرز مع الدجاج ويأكلون الخبز مع السمك. وفي النهاية ينهض كل شخص بشكل مستقل، يغسل يديه ويشطف فمه.

بعد أن أنهينا تناولنا للطعام، دعا (صدّام) الآخرين ليأكلوا، لكنهم تظاهروا، الواحد بعد الآخر، بالرفض قائلين: "شكراً، لقد أكلنا توتاً".

لكن (صدّام) يلح: "هراء، هيا، كل".

(١) يسمون هذا النوع من الخبز (طابك) ومادته طحين الأرز، يستعمل عادة في حالة الضيف الطارئ لأنه لا يحتاج التخمير. يشوى خليط الماء مع طحين الأرز، ذو القوام النخين، على طبق طيني سميك يرتفع عن الأرض بثلاث قطع طينية تسقى (مناسب) مفرداً (منصبة) توقد تحته النار إلى درجة معينة. يُصب الخليط فوق الطبق الساخن ويغطي سطحه بجمر (المطال). ومن هنا جاء الرماد الذي يشير إليه المؤلف.

"أبدا، لا، لا".

يجيئون بما يشبه النعمة والسخط الواضحين.

وأخيراً يمسك (صدّام) بذراع الرجل كما لو أنه يقصره، عندها ينهض الرجل ويذهب إلى الطعام. وبعد الكثير من الاعتراضات والاحتجاجات يلتحق الآخرون به! لكن البعض قال:

"لا، حقيقة يا (صدّام) لقد، وأعهذك، أكلت، ولبن أمك، أكلت".

إنه قسم غريب ويبدو أنه خاص بعشائر (البو محمد)<sup>(١)</sup>. وبشأن الذين أكلوا أخيراً، فلم يكن من بينهم من لم يصرّح أنه لا يشتهي مطلقاً

لقد لاحظت أنهم طردوا كلباً حال دخوله المضيف بينما سمحوا لقطة أن تفرص بجانبهم حتى أنهم رموا لها بعض الفتات.

وبعد المزيد من القهوة والشاي، فُض رجال مشحوفى الثلاثة.

قال (ججيش) من بينهم:

"استودعك بحفظ الله يا (صدّام)". احتجّ (صدّام):

"ماذا؟ تذهبون؟ هراء، امضوا الليلة معنا".

"لا، لدينا ما يجب عمله، لا بد من العودة".

"أرجوكم، ابقوا".

"لا، صدّقاً".

ثم أعادوا:

"استودعك بحفظ الله".

قال (صدّام):

(١) سألت عن حقيقة هذا القسم (ولبن أمك) فيما إذا كان خاص بالبو محمد فقط كما اعتقد المؤلف، فأكد الكثير أنه قسم شائع ولا علاقة له بعشيرة دون أخرى.

"حسنًا، اذهبوا بأمان الله".

وقلت:

"سَلِّمُوا لِي عَلَى (فالح)".

"الله يسلمك".

أجابوا هم يلتقطون مجاديفهم و (مراديفهم) التي كَوَّموها في زاوية المضيف،  
خرجوا ثم ركبوا مشحوفهم.

وحين غادر البقية، فُض رجل وقال لـ (صدام):

"اصحبُ الرجل الإنكليزي إلى دارى ليشرب شيئاً عند العصر".

لقد لاحظت أن (صدام) وهو يقبل دعوته كان يخاطبه بكلمة (زاير)، لقب ديني  
مستخدم من قبل الشيعة.

هناك مذهبان في الدين الإسلامي، شيعة وسنة، كما هو الحال بين الكاثوليك  
والبروتستانت. يسود المذهب السني شمال العراق اليوم بينما يسود المذهب الشيعي  
جنوبه. إن كلمة شيعة تعني في اللغة العربية حزباً أو مجموعة ولكنها أخذت معنى محدداً  
يشير إلى أتباع علي بن أبي طالب بن عم النبي (ﷺ) وزوج ابنته الذي يعدّه الشيعة  
الخليفة الشرعي، ويؤكد الستة أن أبا بكر هو الخليفة الأول.



## الفصل الخامس

### الانطباعات الأولى عن المعدان

يا حزين... أما آن للانتهائك أن

يكف...؟

وحّد محمد (ﷺ) القبائل المتحاربة في الجزيرة العربية في بداية تأريخها. وبعد أقلّ من عشر سنوات على وفاته في ٦٣٢م، انطلقت القبائل نفسها المعوزة بشكل كبير المحظفة بفرديتها من الجزيرة العربية وحررت بلاد الشام ومصر من البيزنطيين، والعراق من الساسانيين وامتدت إمبراطوريتهم في أقلّ من مائة عام من بايرنيز<sup>(١)</sup> إلى تخوم الصين واحتلت أراضٍ أوسع مما امتلكت الدولة الرومانية. كان إنجازهم ملفتاً للنظر ورائعاً لكن الدولة التي أسسوها مزقتها المنافسات والعداوات منذ عهدها المبكر. بدأت المتاعب بعد مقتل عمر الخليفة الثاني الذي خلف أبا بكر في عام ٦٤٤م. لقد اغتيل عثمان الخليفة التالي الرجل الواهن الشخصية لكنه مثل للبيوتات القوية في مكة سنة ٦٥٦م. تلاه علىّ الذي أحيط بالشكوك بشكل كبير في تورطه بتلك الحادثة. وانفجرت حرب داخلية، لكن معاوية، وهو ابن عم لعثمان وكان والياً للشام، جمع المتمردين. كانت الحروب المتقطعة والمفاوضات غير الحاسمة تتوالى حتى مقتل علىّ سنة ٦٦١م في عاصمته الجديدة الكوفة في جنوب العراق ودفن جثمانه في الصحراء.

(١) بايرنيز Pyrenees: سلسلة جبلية تعزل فرنسا عن اسبانيا يبلغ طولها حوالى ٢٧٠ ميلاً.

كان الحسن، أكبر أبناء علي، ضعيفاً ومتساعماً وبحاجة إلى قليل من الإقناع ليعلن عن تخليه عن حقوقه. فأصبح معاوية، والى بلاد الشام القوى، خليفة وأسس الخلافة الأموية المشهورة في دمشق. وأصبح هذا الحكم في العراق بغيضاً، حيث أغلب سواده، بالرغم من دخولهم الإسلام، إلا أنهم ليسوا عرباً فامتعضوا من عجرفة زعمائهم وغطرستهم.

حين مات معاوية خطط أهل الكوفة للشورة، فبعثوا ممثلهم للحسين، الابن الثاني لعليّ، يستعطفونه للقدوم إلى العراق ليرأس الشورة، معاهدينه على الدعم الشامل. قبل الحسين العرض وصمم على قطع الصحراء من مكة مع مجموعة صغيرة تحوى النساء والأطفال. وفي طريقه إلى العراق علم أن ما خطط له انهار بالخيانة، وأن عشرة من الزعماء قد القى القبض عليهم وقتلوا. استمر الحسين في سيره لم يرعبه أو يثنيه ما حدث حتى وصل كربلاء على الفرات. لقد قوبل بأربعة آلاف رجل انتشروا على طول النهر كان قد تم إرسالهم من قبل يزيد بن معاوية لاعتراض الحسين. من المؤكد أن (يزيد) لم يأمر بقتل الحسين ولم يكن راغباً فيه. كان بإمكان الحسين الانسحاب بسلام أو الاستسلام، لكنه بدلاً من ذلك اختار أن يقاتل، وبعمله هذا غير تاريخ الإسلام.

لا أحد من الذين توقع مؤازرتهم ودعمهم تحرك لنصرتهم، سوى الحرّ، هكذا تحكى وقائع القصة، انضم إلى المجموعة الصغيرة متأثراً بشجاعتها. وفي العاشر من الشهر العربي المحرم سنة ٦٨٠م قاتل الحسين وجماعته أعداءهم.

"إنما لم تستغرق وقتاً طويلاً".

قال شاهد عيان ليزيد:

"كوقت ذبح بعير أو قيلولة قصيرة".

حُمل رأس الحسين المقطوع إلى الكوفة وعُرض على عامل يزيد الذى ضربه على شفتيه بعضاً من الخيزران، وأثناء الصمت الرهيب الذى تلا ذلك رفع رجل عجوز صوته<sup>(١)</sup>:

" وا أسفاه أى عشت لأرى هذا اليوم وأنا الذى رأيت هاتين الشفتين تقبلان من قبل رسول الله!"

بدأ التشيع كحركة سياسية بين العرب لتقديم حقوق على وذريته فى الخلافة، ولكن بعد استشهاد الحسين تشكل على هيئة حركة دينية جديدة أصبح بعدها قوة خاصة بشكل سريع فى العراق وبلاد فارس مجسداً التذمر الجماهيرى لسكان البلاد الأصليين ضد ارسطراطية العرب. وبهذا يكون التشيع قد قسم الإسلام بشكل حاسم، يشبه فى ذلك الانقسام الإصلاحى للكنيسة الكاثوليكية. فى الوقت الذى ينظر السنة الحافظون إلى على كونه الخليفة الرابع لـ محمد (ﷺ) يرى الشيعة أن الخلفاء الثلاثة مغتصبون للخلافة ويؤمن الشيعة بسلسلة قدسية متعاقبة من الأئمة تلى الرسول. وأغلبهم يؤمن الشيعة باثنى عشر إماماً من هذه السلسلة الذين يُعد على والحسن والحسين أول ثلاثة فيها، وأما الباقيون فهم من ذرية الحسين. وبالأستاد إلى الشيعة، فإن آخر هؤلاء الأئمة هو الإمام محمد المهدي الذى اختفى بطريقة غامضة فى سامراء والذي ينتظر الشيعة ظهوره طوال الوقت باعتباره المهدي أو الرجل المنتظر.

فى الصحراء، غمت المدينة المقدسة فى النجف حول مرقد على الذى بنى المؤمنون فوقه مسجداً عظيماً بقبة ذهبية، لا يسمح للكافر بدخوله حتى هذه الأيام. ما زال الناس يجلبون موتاهم من مناطق بعيدة جداً كالهند لكى ترقد بسلام فى الأرض المقدسة، لأن على، الشخص العظيم الشبيه بالرسول، للكثير منهم، أعظم من الرسول

(١) عامل يزيد على العراق آنذ هو عبيد الله بن زياد بن أبيه، أما الصحابي الجليل الذى اعترض عليه فهو زيد بن أرقم.



نفسه. يكون إعلان المسلم لإيمانه ودينه بالشكل التالي: أشهد أن لا اله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويضيف المسلمون الشيعة: وأن علياً ولي الله. دفن جثمان الحسين في كربلاء حيث سقط صريعاً، ثم بدأ الناس بعد ذلك مباشرة بزيارة ذلك المكان للصلاة فازدهرت المدينة، ثم شُيِّد مسجد رائع احتوى جسد أعظم شهيد مسلم. أصبحت كل من النجف وكربلاء غاية الزائرين من كل أصقاع الأرض.

حين زرتهم أول مرة، وجدت سكان الأهوار مرتابين بشكل كبير في العالم الخارجي. قد يذهبون من (الكباب) إلى السوق في (الاجر)، والقليل منهم من سبق له الذهاب إلى العمارة التي لا تبعد سوى عشرين ميلاً عن (الاجر). لكن واحداً أو اثنين فقط من سبق له الذهاب إلى البصرة أو بغداد. مع هذا فهم يأملون جميعاً بزيارة كربلاء والنجف، والكل يأمل أن يؤخذ جثمانه إلى النجف ليدفن هناك.



في طريقنا إلى بيت (الزايير) <sup>(١)</sup>. اقترح (صدّام) أن نזור العطار <sup>(٢)</sup>. ركبنا مشحوف (صدّام) الذي كان (عجزم) يحذف فيه، واتجهنا إلى أقرب مجموعة من البيوت. كان اثنان منها قد بنيا على جزيرتين منفصلتين، وعلت قطعة قماش بيضاء حُمِلت على قصبة كأنها راية صغيرة، البيت الكبير بينهما.

قال (صدّام):

"عادة ما يُعَلِّم الدكان بهذه الطريقة لكي يتسنى للغريب رؤيته".

كانت هناك بقرتان بنيّان فضلاً عن ثلاثة خراف تجر فوق كومة من قصب أخضر. قدم العطار إلى حافة الجزيرة ليحيينا وليمسك بالمشحوف، غاصت عدة بوصات من البردى الذي يقف عنده تحت قدميه في الماء الكدر الذي تطفو فوقه قطع الروث وفضلات أخرى. وقريبا منه كان هناك مرحاض بُني فوق الماء، كان عبارة عن منصة من القصب حُجبت

(١) الزايير: لفظة بن مغامس النصارى، متوفى منذ زمن طويل.

(٢) العطار: عبد الحسين الأسدي، متوفى منذ زمن طويل.

عن الأنظار بشكل منقوص بقطعة (باريه) ممزقة. كان شيئاً فيه رفعة ذوق وحضارياً، فالطريقة العادية التي يتبعها سكان الأهوار هي أن يجذف أحدهم إلى اقرب أجمة قصب ويقعى على حافة مشحوفة، إنها براعة لا تكتسب بسهولة!

ما أن خطونا على شاطئ الجزيرة حتى هرع ابن العطار لتهدئه كلب بصمت ملوحاً بمجذاف فوق رأسه، بينما فرت دجاجتان إلى السطح. صنع باب الدكان من صناديق شاي فارغة لكي أجلس عليه وقال لابنه أن يعدّ الشاي. لم يكن هناك الكثير من البضاعة، كيسان أحدهما للسكر والآخر للطحين، ووعاء تمر كبير، وصندوق شاي هندي رخيص، وصفيحة نפט، وعلب سجائر عراقية (وشخاط)، وقطع صابون مستطيلة وعقال مغبر. تذكرت أني رأيت العطار في مضيف (صدام)، كانت إحدى عينيه منطفئة وكان كثيراً ما يمسحها بطرف كوفيته.

عبر فتحة الباب لاحظت توجس فتاة تملأ إناءً بالماء، حيث يرسو مشحوفنا وهي تزيح أشياء صلبة طافية وقذارة بعيداً، ولكن كان للشاي الطعم المعهود نفسه! سألت (صدام) حين كنا بانتظار الشاي:

"ما مؤهلات الرجل ليسمى نفسه (زاير)؟"

فأوضح لي:

"لكي يُسمى الرجل (زاير) عليه أن يزور مرقد الإمام علي الرضا، الإمام الثامن في مشهد في خراسان في الشمال الشرقي لإيران".

لقد كنت في مشهد الشتاء الماضي وقد كنت محظوظاً إذ تسنى لي رؤية المرقد والطواف حول القبر. هذا هو المرقد اعتقد روبرت بايرون<sup>(١)</sup> أنه واحد من أجمل الأبنية في غيران حين دخله متخفياً عام ١٩٣٣م. وحتى عام ١٩٥٠م كانت عملية

(١) روبرت بايرون: (١٩٠٥م — ١٩٤١م) واحد من مشاهير الرحالة البريطانيين في القرن العشرين. صاحب الرحلة الشهيرة إلى بلاد فارس وأفغانستان في ثلاثينيات القرن العشرين التي وثقها في كتابه الشهير (الطريق إلى أوكيانا، ١٩٣٧م). مات عام ١٩٤١م حين تعرضت السفينة التي كانت تقله إلى الشرق الأوسط لطوربيد.

دخوله غاية في الصعوبة على غير المسلمين<sup>(١)</sup>. وفي المسجد نفسه، كان قبر الخليفة المعروف هارون الرشيد الذي يعتبر ملعوناً وممقوتاً من قبل الشيعة بسبب كونه المسؤول عن موت الإمام علي الرضا<sup>(٢)</sup>. وفي عموم جنوب العراق يفضل غالبية الناس زيارة مشهد عليّ على الذهاب إلى مكة بالرغم من أن المسافة تقريباً واحدة. قابلت خلال سنواتي في الأهوار الكثير ممن يسمّى (زاير) لكنني أتذكر فقط ثلاثة حجاج.

وعلى الرغم من أن الشيعة يعتبرون النجف وكربلاء أكثر قداسة من مشهد عليّ. لكن السفر إليهما من جنوب العراق لا يمنحهم هذا اللقب. وفي سنوات لاحقة حين كنت في قلب أفغانستان بين (الهزاريين)<sup>(٣)</sup> وهم شيعة أيضاً، وجدت أن أي رجل سبق له الذهاب إلى كربلاء يسمى (كربلاوي) في حين أن التوجّه إلى مشهد لا يجلب تمييزاً أو لقباً.

كان بيت (الزاير) واحداً من عدّة بيوت فصلتها خنادق من مياه قدرة باتساع عدة أقدام. وكان قبل النهاية المفتوحة لهذه الأبيات ثمة فناء احتل مساحة أكبر من مساحة البيت نفسه، وكانت أرضية هذه الأفنية مزيجاً من حياة نباتية متحللة ترتفع بضعة بوصات فوق مستوى الماء مشتملة على سياج قصبي أقل من قدم ارتفاعاً. كانت هناك صفوف من أقراص فضلات الجاموس<sup>(٤)</sup> تتوزع على جدران البيت من الخارج لكي تجف تحت الشمس. جلست امرأة بشياها السود مع فتاتين صغيرتين بملابس ملونة تحت أشعة الشمس عند مدخل البيت. رسونا وخطونا عبر السياج ودخلنا البيت دافعين الجاموس المتخطي أمامنا وقد لوى أعناقه بعيداً، في حين لم نعرنا البقية أي

(١) يبدو أن المؤلف على دراية بالتغيير الذي أصاب هذا المعتقد، فمن المعروف أن بعض المرجعيات المتأخرة قد صرحت بطهارة الكتائب وجواز دخوله إلى المراقد المقدسة.

(٢) المسؤول عن قتل الإمام علي الرضا كما هو شائع الخليفة العباسي المأمون وليس هارون الرشيد كما أشار المؤلف توهماً. هارون الرشيد هو المسؤول عن قتل الإمام موسى الكاظم.

(٣) الهزاريين: Hazaras: من قوميات الشعب الأفغاني يشكلون نسبة ٣% حسب تقدير سنة ١٩٥٣م.

(٤) أقراص فضلات الجاموس: يسمونها (مطّال) مفردها (مطّاله) تستخدم بالدرجة الأولى وقوداً.

اهتمام. وقفت عجولها في الداخل بينما فرّ صغار الدجاج من بين أقدامنا. كانت هناك امرأة أخرى تلبس ملابس سوداء كأى امرأة مسنة<sup>(١)</sup> في القرية، قالت:

"أهلاً وسهلاً بـ (صدام):

ثم رفعت طفلاً صغيراً من على الأرض لتخلق مجالاً لنمر.

كان داخل البيت بطول حوالى ستة أذرع وبعرض ذراعين وارتفاع ثمانية أقدام وله سبعة (شباب). علمت فيها بعد أن كل المضايق والبيوت لابد أن تبني، كإجراء تقليدى، من عدد وثري من (الشباب). قُسمت الغرفة إلى قسمين بميكل يشبه السرير من سيقان القصب بنى يازاء الجدار الأيسر وتكومت فوقه أكياس من الصوف تحوى جوباً ومجموعة من اللحف والحشايا وملابس، وبسط استندت في أعلاها (المراوى). خصص القسم القريب من الغرفة للنساء حيث تجرى عملية إعداد الطعام. شققنا طريقنا مجتازين هاوياً خشياً ومخضبة لبن<sup>(٢)</sup> صنعت من جلد حيوان تدلت تحت ثلاثة قوائم، وحجراً دائرياً بقبضة خشبية<sup>(٣)</sup>. كان هناك الكثير من الصحون، الصوانى والقدور مبعثرة هنا وهناك بجانب موقد صغير. وفي النهاية البعيدة للغرفة كان (الزايير) يصلى صلاة الظهر وقد افترش عباءته كسجادة. هذا هو الجزء المخصص للرجال حيث يمكن استقبال الضيوف. كان هنا (مدّتان) باليتان وقدرتان مبسوطتان فوق (بورارى) القصب فصلا عن العديد من المخدات الصوفية الزاهية بألوانها وأشكالها الهندسية<sup>(٤)</sup> وقد ملئت إلى حد التخمة لمزيد من الراحة. تصرّف (صدام) كأنه المضيف قائلاً:

(١) حين تصل المرأة فى عموم جنوب العراق تقريباً إلى عمر معين تبدأ بلبس السواد حتى مع عدم وجود مناسبة لذلك وتعد متصاية بخلافه.

(٢) مخضبة اللبن: يسمونها محلياً (سكّه). أما قوائمها الثلاثة المصنوعة من أغصان الأشجار فيسمونها (مرجاجة).

(٣) الحجر الدائرى الثقيل المكون من شقين يعلو أحدهما الآخر يسمونه (رّخّه).

(٤) تقسم المخدات إلى نوعين: الأول ذات السطوح شبه المستوية ولها شكل مستطيل يسمونها (مخدّة)، أما النوع الآخر هو أسطوانى الشكل ويسمونه (لوله).

"استرخ، تصرف كما لو كنت في بيتك".

أخيراً أنهى (الزائر) سجدياته، جلس مستقيماً ثم راح يتمتم بأواخر صلاته، مسد على لحيته، نظر عبر كتفه الأيمن ثم الأيسر، نهض، رفع عباءته وقال:  
"أهلاً، وسهلاً".

لقد كان رجلاً عجوزاً معروفاً، طويلاً لكنه محدودب بوجه غضّته الزهد، ذو أنف أعقب ولحية بيضاء. لم يكن يرتدى شيئاً غير كوفية و(دشداشة) بيضاء طويلة، رقيقة حتى بدت كأنها شفافة. رفع محدة أخرى ووضعها فوق التي بجانبه وقال:  
"الآن، أتكى على هذه، سوف تكون أكثر راحة".

أوقد ناراً في برّدى هش في فجوة في الأرض، وحين استعرت أضاف إليها (المطال) مسنداً إحداهما إلى الأخرى كبيت صيني. امتلأت الغرفة بدخان حاد لاذع ضارب إلى البياض جاعلاً عينيّ تفيضان بالدمع. قال (صدّام):  
"هذه القطعة لازالت رطبة".

انتشلها من بين البقية، لكن النار نفثت الدخان نفسه!  
جلب (الزائر) عدة الشاي وجلس بجانب النار ليغسل (الاستكانات) والصحون والملاعق في طاسة مزخرفة. كان الشاي في قرطاس ورقّي بينما السكر في صفيحة صغيرة. بينما كان (الزائر) و (صدّام) يتباحثان في قضية ضريبة القصب التي فرضها (فالخ) لبناء مضيف والده الجديد، عاد ابن (الزائر). أنزل حوله من الحشيش وبدأ بإطعام بعضها منها إلى الجواميس بينما كوم البقية على مقربة من مدخل الغرفة. يبدو في العشرين من عمره، حاسر الرأس، قص شعره بطريقة (الطاسة) وقد كان عارياً إلا من عباءة لفها حول وسطه. أسند فالتة في إحدى الزوايا، لبس (دشداشة) قبل أن ينضم إلينا. قال (صدّام):

"سوف أذهب إلى (بو مغيرات) غداً لرؤية (صحين)<sup>(١)</sup>. عليه أن يزيد حمل مشحوفين آخرين من قريته".

أوضح (الزائر):

"إيه والله (صدّام) فقد كان القصب للمضيف كله علينا".

وأردف ابنه:

"دائماً ما يتنصّل رجال (صحين) عن كل شيء وهكذا هو الأمر مع جميع (الفريجات). كل ما يستطيعونه هو إثارة المشاكل".

وقفت ذلك المساء، حين عدنا إلى مضيف (صدّام) مراقباً الشمس وهي تحبّط خلف جزر القصب التي امتدت إلى نهاية العام. وفي الأعلى تتفخ كتل من سحاب رقيق ثم تتفرّق كأنها يبارق ممزقة تراوحت بين اللون الأبوسى إلى الذهبي المتهب إلى لون العاج القديم، مقابل أرضية من اللون القرمزى والبرتقالى والبنفسجى الزاهى والأخضر الأكثر شحوباً. ومن كل ما حولى، كما لو كانت الأهوار تنفّس، يأتى نقيق الضفادع الجماعى كأنه نبض لكل شيء، لذا هو يؤازر الحس بالكف عن التقاطه. كان أوضح من كل صوت، حتى من صوت نواح البط فى الشتاء، هذا هو صوت الأهوار. نبح الكلب، وقبعت جاموسة بضجة دهشتها كدهشة البعير، صيحة رجل ينادى من بعيد،

(١) صحين بن كاظم بن صنيع الفريجي، تولى فى أحد مستشفيات بغداد فى ١٧ / ٦ / ٢٠٠١م. عرف (صحين) بالكرم والشجاعة فضلاً عن رئاسته لبطن من بطون (الفريجات). هم بيت أبو لسان. عرف الرحالة البريطاني غافن يونغ والرحالة غافن ماكسويل، ونشرت له صورة رائعة فى كتاب العودة للأهوار بنسخته الإنكليزية. هزج أحدهم ممن كان يعرف علاقته مع هؤلاء الرحالة فى مراسيم تشييعه فى بغداد: كلها تنوح عليه حتى أمريكا ولندن! وهزج آخر: طاح آلة بالكوشة من أهليج. وهزج آخر: الماو يسولف بكم وهل الهور شهود عليه.

كان بالنسبة لى رسالة، إجابة لشخص مهمة، توقف لوهلة ثم إجابة لشخص ما. كثير من الجاموس يسبح عبر المياه المكشوفة باتجاه القرية لا يبدو منه إلا رؤوسه. وبين البيوت راحت أعمدة الدخان الكثيف تصاعد من مواقد صغيرة توقد لكى تقي قطعان الجاموس من العوض. صبي يجدف وهو فى طريق عودته المتأخرة من جزر القصب وسط ممر مائى، ممر من ذهب، متوهج بفعل شمس مائلة للغروب. كان يغنى بنعومة وهو يتقدم باتجاهى، مكثت النغمات طويلاً فى الأثير. نادانى (صدام) فدخلت.



## الفصل السادس

### فى مضيف صدام

ذاك المضيف... ميسم الأكواخ دار  
الكون حوله حكايات حكايات أجلس  
مستقيماً يقظاً فى قرقرة هيبته. أنتقى  
كلماتى... أو أصمت

فى السنة الأخيرة استطعت قراءة ما أسطعته عن المعدان. كانت قراءتى مبتسرة. لاح لى أن كتاب (الحاج ريكان) عربى من الأهوار لـ (إس. أى. هيجكوك) <sup>(١)</sup> هو الكتاب الوحيد الذى أعطى وصفاً متفهماً لحياة رجل الأهوار فى نهاية الحرب العالمية الأولى. ومن ناحية أخرى لم أجد شيئاً سوى مراجع من حين لآخر، عنهم، وكانت كلها لا ترضى ولا تسر، على شكل تقارير عن حملة أو إرسالية فى بلاد وادى الرافدين. من المؤكد أن المعدان اسم سبى للعرب أو للبريطانيين على السواء. تعنى كلمة معدان فى اللغة العربية (الساكن فى عدن Adan أو فى السهل Plain) ويستخدمها البدو ليعبروا بها عن احتقارهم مشيرين بها إلى العشائر التى تسكن على ضفاف الأنهار، بينما يستخدمها المزارعون على طول الأنهار بشكل مستخف وانتقضى

(١) نُشر الكتاب باسم مؤلف مستعار هو (فلانين) Fulanain وهى صيغة تثنية عربية لـ (فلان). قام بترجمته كل من الدكتور جميل سعيد، والدكتور إبراهيم شريف فى عام ١٩٦٦م. والمؤلف ضابط سياسى بريطانى فى منطقة العمارة زمن الانتداب، وكان يعرف العربية ويتحدث بها. كان كثير التجوال فى المنطقة، حريصاً على معرفة كل شئ عنها وعن سكانها. صدر الكتاب فى لندن عام ١٩٢٧م.



لرجل الأهوار: إن كل العرب متكبرون متعجفون، يعظم تباهى أية عشيرة عربية ببقاء سلالتها فيزداد معه احتقار أفرادها لرجال الأهوار بسبب نسبهم المشبوه، ويكثر استعذابهم لأن ينسبوا لهم كل غدر وشر. وكذلك الحال بالنسبة لسكان المدن فهم يخافونهم أثناء انتقالهم نزولاً وصعوداً في دجلة والفرات، ويتحاشونهم ويصدقون كل ما يسمعون عنهم. وحتى بين البريطانيين في العراق، كانت سمعتهم سيئة، السمعة التي اكتسبوها — أظن ذلك — في الحرب العالمية الأولى حين كانوا يخرجون من مخابثهم في القصب ويقتلون وينهبون من كلا الفريقين (البريطاني والعثماني) دون تمييز.

وفي السنوات القليلة التي تولى فيها البريطانيون إدارة شؤون العراق، كان الضباط السياسيون مشغولين جداً بقضايا أكثر أهمية من متابعة المعدان، وكان عدة من هؤلاء الضباط السياسيون قد قطع مسافات طويلة غائراً في الأهوار، لكن زيارتهم لم تكن لتستمر أكثر من بضعة أيام. في السنوات الحالية قَدِمَ الكثير من الأوربيين من البصرة وبغداد لاصطياد البط، لكنهم كانوا يبقون برفقة الأثرياء عند حافة الأهوار. أما فيما يخص الموظفين الحكوميين العراقيين فأنا أشعر جازماً أن لا أحد منهم سبق له أن ولج الأهوار أبعد مما تقتضيه الضرورة أبداً. قد أكون أنا الرجل الغريب الوحيد الذي قادته نزعته مع شيء من الصدفة لأن أعيش بين المعدان كواحد منهم.

بوصفي واحداً من كثير من الرجال الإنكليز من أبناء جيلي وتربيتهم، عندى تعاطف غريزي مع حياة الآخرين التقليدية. لقد قضيت طفولتي في الحبشة التي كانت في ذلك الوقت بلا سيارات أو طرق، ثم بعد مغادرتي لأكسفورد عشت السنوات الثمانية عشرة التالية في أجزاء نائية من أفريقيا والشرق الأوسط. كل هذا سهّل على معايشة أهل العشائر وتكييف نفسي مع أنماطهم، وأن أجد اللذة والمتعة في حياتهم، كان من الصعب علىّ أن أشعر في موطنى هؤلاء الذين ينبذون عنهم طباعهم الخاصة ليحاولوا تكييف أنفسهم مع نمط الحضارة الغربية. في العراق، كما في مناطق أخرى،

كان هذا التغيير لا بد منه وأنا أعرف أن الآخرين الأوسع صدرًا متى قد وجدوا العملية، عملية التغيير، ممتعة وآمنوا بقيمة نتائجها. ومع ذلك فضلت رؤية القليل من إفرازات الحضارة قدر إمكانى! فعلى سبيل المثال، أشعر بالضجر والإحباط حين أقضى ليلتي مع الموظفين العراقيين الحكوميين والتي ألوم نفسي عليها رغم كرم مضيفي الواسع وحميتهم. إن قلقهم منصبّ على شؤون العراق السياسية، التي أعرف عنها القليل وأبذل إزاءها اهتماماً أقل، في حين أن متعتي مع رجال العشائر تظهر لهم عصية على الفهم، مهمة وحتى منذرة بشؤم! فقد نتحدث لساعات عن الأمم المتحدة، عن سحر أجازة في باريس، طراز السيارات المختلفة وتطور بلدانها المصنعة، ولكي لا أبدو عاقاً جداً للأعراف أجذب مجرباً على أن أتمتع بالأكاذيب! كانت بيوهم المريحة بالمقارنة مع الكثير من الأمكنة التي بتُّ فيها غالباً ما تكون من طابق واحد وبذوق ردىء. علّمتهم نشأهم الحكم على أن التحضر مرهون تماماً بالتقدم المادى، لذا يبدوون خجولين من ماضيهم وحريصين على نسيانه. إن ضواحي المدن<sup>(١)</sup> التي تمتد في طول العراق وعرضه هي المدينة الفاضلة التي يحملون بها. أما بشأن نزعاتي الشخصية فربما شطّنت بي بعيداً إلى الطرف القصى الآخر. أنا أشتم من السيارات والطائرات، والراديو والتلفزيون، وفي الحقيقة من كل مظاهر حضارتنا في الخمسين سنة الأخيرة، وكنت سعيداً سواء في العراق أو في أى مكان آخر حيث أشارك السكنى في خيمة مليئة بالدخان مع الرعاة وعائلاتهم وماشيتهم. في أسرة كهذه يبدو كل شيء غريباً ومختلفاً، اعتمادهم على أنفسهم يشعروني بالطمأنينة. لقد كنت مفتوناً بإحساسى بالتواصل مع الماضى. أنا أحسد فيهم القناعة والاطمئنان النادرين في العالم هذه الأيام، وأحسد فيهم سيطرتهم على المهارات مهما كانت بسيطة والتي لا أستطيع إحرازها أبداً أنا نفسى.

(١) ضواحي المدن: Suburbia أو سكان الضواحي، قصد بها المؤلف الأحياء الراقية والقصور الفارهة التي عادة ما تبني بعيداً عن الأحياء السكنية المختلدة.

لقد تصرّمت العديد من سنيي في الاستكشاف، ولم يعد هناك الآن مكان بكر لكى يسر غوزه، على الأقل في البلدان التي اجتذبتني. لهذا أشعر بميلى للاستقرار بين أناس من اختياري. كنت قريباً جداً من مرافقتي في الجزيرة العربية لكن الترحال المتواصل منعني من معرفة أى مجتمع واحد بعينه كما كنت آمل. إن القليل الذي رأيته لدى سكان الأهوار قد راقني. إنهم مبتهجون وحميمون وأعجبتني سيماء وجوهم وتعبيراتهم. كانت طريقتهم في الحياة، على قدر تأثيرها البسيط بالعالم الخارجى حتى الآن، متفردة، والأهوار نفسها جميلة ساحرة. هنا، وشكراً لله على ذلك، لا أثر للحداثة الرتيبة الكئيبة، فلا بدلات أوربية مستعملة تنتشر كافة بين أرجاء المناطق الأخرى من العراق.



كان (صدّام) وحده في المضيف يعدّ القهوة، وما أن جلست حتى ناولني فنجاناً، ودفع الأطراف المحترقة لحزمة قصب طويلة تحت الدلّة. قال: "ما خطّطك يا (صاحب)؟ (تعني كلمة صاحب بالعربية صديق) أرسل (فالح) لي رسالة يعلمني فيها أنك تؤدّ رؤية الأهوار، هل تعمل لصالح الحكومة؟" "لا، أنا أتنقل بسبب استمتاعي برؤية مناطق مختلفة وأناس من نوع مختلف". "مَن يغطّي نفقات رحلتك؟ كم هو راتبك؟" "ليس لدى راتب وأنا الذي أتحمل نفقات رحلاتي". "ما أغرب ذلك!"

لم يقل (صدّام) شيئاً لدقيقة أو اثنتين. يمكن القول أنه لم يصدّق شيئاً مما قلت، لذا أردفت:

"لقد شملت رحلاتي الكثير من الأقطار، فقد زرت الحيشة، والسودان، والجزيرة العربية وقد كان قدومي إلى هنا مباشرة من كردستان. أنا أبحث عن المعرفة".

كنت آمل أن يكون كلامي مؤثراً، فمن المؤكد ما كان ليصدقني لو قلت أني أتقل لأجل اللهو.

"هل تبحث عن المعرفة بين المعدان"؟! سألتني (صدام) بريية.

"من الممكن أن نجد المعرفة في أى مكان" رددت عليه بإيجاز.

وبعد برهة صمت أخرى قال:

"هل تعرف كرملي؟ لقد كان قنصلاً في العمارة".

"نعم لقد كنا معاً في الحرب".

"إنه صديقي، إنه يستمتع بالحفلات، أين هو الآن؟"

"لا أدري".

"هل تعرف دجبرين في بغداد؟"

"لقد قابلته ذات مرة في سورية".

"هل تعرف آدموندز؟"

"نعم، في بريطانيا".

"إنه رجل طيب آدموندز هذا، لقد كان صديقنا، كان حكيماً جداً، هل هو

بخير"؟<sup>(١)</sup>.

"نعم، الحمد لله، هو بخير ويسلم عليكم".

في ذلك الوقت، كان البريطانيون ما يزالون يمتلكون إرثاً قيماً في العراق كنتيجة

لرفقتهم الحميمة لهذا البلد بين الحربين العالميتين حين عمل البريطانيون هناك موظفين

(١) رغم الجهود التي بذلها للحصول على معلومات تخص هؤلاء البريطانيين الثلاثة ولكن دون جدوى. كل ما استطعت

معرفة عن كرملي Grimley هذا هو الفراضى انه رجل حيوى مؤثر وإلا كيف أطلق القويون اسمه على الكثير من

أبنائهم؟ وكل ما استطعت معرفته عن آدموندز Edmonds هو تأليفه لكتاب عنوانه (أكراد وأتراك وعرب) وربما

كان هو نفسه المستشار الحاذق والزمن لوزارة الداخلية العراقية في العهد الملكي كما وصفه طبيب العائلة الملكية هارى

سندرسن في مذكراته. أما Ditchburn فلم استطع معرفة شيء عنه.

إداريين وموجهين<sup>(١)</sup>. كان الكثير من كبار السن من السكان يحتفظون بمشاعر الاحترام والحب لبعض البريطانيين المتميزين. كان رجال العشائر بشكل عام دمثين جداً وأكرم من أن يجرحوا ضيفاً، لكنني كنت أهاجم بمرارة من قبل سكان المدن ومن قبل موظفي الدولة وخاصة فيما يخص موقف الحكومة البريطانية من أحداث فلسطين والسويس على سبيل المثال. في مثل هذه المناسبات، ويكون ذكر رجل انكليزي، سبق لسكان الأرياف معرفته، قد يقلب المرارة إلى ذكرى صداقة حميمة.

"ما الذي تحويه تلك الصناديق؟ استمر (صدّام) بأسئلته.  
"أدوية".

"أنت طبيب؟"

"لى دراية بالدواء".

"هل عندك دواء لرأسي؟ إنها تؤلمني".

فتحت صندوقاً وأعطيته حبتين أسبرين.

"أعطني المزيد، إنها قليلة".

أعطيته ست حبات أخرى وحذرتة من ابتلاع أكثر من حبتين فقط في كل مرة.

"وماذا عن معدتي؟ أعاني من ألم هنا أيضاً".

أعطيته بعضاً من حبوب الصودامنت.

"ما هذا؟" مشيراً إلى القنينة.

"هذا أيودين".

"وهذا؟"

"وهذا مستحضر للحروق" ثم أغلقت الصندوق بإحكام.

(١) قد يكون لهذا الكلام شيء من الصحة على الجانب الشخصي للمؤلف في أثناء مقابلاته للعديد من العراقيين الذين انضموا من احتلال بلادهم من قبل الإنكليز ومن ثم انتدابها تحت إدارتهم، ولكن على المستوى الجماهيري الشعبي فإن الوقائع تبغفه تماماً، وما ثورة ١٩٢٠م العراقية إلا شاهداً من بين العديد من الشواهد على زيف هذا الادعاء.

سألني:

"إلى أين ترغب الذهاب؟"

"أرغب في عبور الأهوار إلى الفرات والعودة خلال ديار (الفرطوس) <sup>(١)</sup> التي سافرت إليها العام الماضي مع القنصل".

"هل قابلت جاسم الفارس" <sup>(٢)</sup>

"لا لم يكن هناك حين زرنا قريته، لقد ضيِّفنا ابنه (فالخ) <sup>(٣)</sup>"

"لا أعرفه. ابق هنا فهو أفضل لك، سوف نذهب للصيد سوياً، بط، وخنازير، وأى شيء ترغب به".

"أشكرك يا (صدام)، من المؤكد أني سأعود، ولكن أول ما أرغب به هو رؤية الأهوار".

"إن الأهوار واسعة يا (صاحب) فهي تمتد وراء دجلة بعيداً حتى إيران سوف لن نستطيع رؤيتها في سنة".

"مع ذلك، آمل رؤية ما أستطيع الآن".

"حسناً، سوف نذهب غداً إلى (بومغيرات) فلدي ما يجب أن أفعله هناك. سوف نتغدى عند (صحين) وفي اليوم التالي سوف آخذك إلى الفرات في الطريق إلى (زجري)، إنها بحيرة كبيرة وتصبح مكاناً سيئاً حين تشتد الرياح، فقد غرق الكثير من المعدان هناك".

على مائدة العشاء الذي تناولناه وحدنا، قدّم لي (صدام) طاسة من حليب الجاموس لم يسبق لي أن شربته من قبل فألفيتني أفضله على حليب الأبقار. امتلأ المضيف بعد ذلك بالناس فجلست مستنداً إلى جدار المضيف مصغياً إلى أحاديثهم التي

(١) الفرطوس: إحدى عشائر آل غزى الفضلية الطائفة، نزحت من الجزيرة العربية وسكنت مناطق الناصرية. كانت هجرتها أيام مشيخة غزى بن فضل الطائي. وعلى أثر مقتل شيخ الفرطوس المدعو جليب فقد تفرقت العشيرة كل مجموعة إلى منطقة كبصرة وميسان والقادسية.

(٢) جاسم بن فارس بن خلف، أحد زعماء الفرطوس المرموقين، تولى سنة ١٩٧٨م تقريباً في العويدية.

(٣) فالخ بن جاسم بن فارس بن خلف، تولى سنة ١٩٨١.

فاتنى الكثير منها لأنهم كانوا يتباحثون فيما يخص فلاحه الشلب مستخدمين عبارات ومصطلحات لم أكن أعرفها حينئذ.  
سألت:

"هل تزرعون الشلب فى (الكباب)؟"

"كنا نفعل ذلك من قبل، لكن الفيضانات لم تعد تحمل إلينا الغرين. لم تعد (الكباب) تزرع الشلب، فأنت لا تستطيع زراعة الشلب بدون الغرين المتجدد. سنطلب هذه السنة من (محمّد) أن يمنحنا أرضاً نفلحها بالشلب فى صدور النهر<sup>(١)</sup>".

"هل يعنى هذا أنكم ستتركون مكانكم هذا؟"

"بالطبع لا، فهنا موطننا ونحن معدان، أما الذين يرغبون فى سيزرعون الشلب على ضفاف الأهوار لكنهم سيعودون جميعاً إلى هنا".

بدأ رجلان حواراً غاضباً حول مهر لعروس ما زال غير محسوم وتوزع الحوار ليشمل كل واحد منهم. حاول (أبو عجرم)<sup>(٢)</sup> أن يؤكد العرف المتفق عليه فى ذلك فالتفت إليه (صدام) قائلاً:

"حسين، غداً سوف يأتى أنا والإنكليزى لكى نغذى معك، سنأمل غداً فاخراً!"  
خيم الصمت وراقب كل واحد من الجالسين (حسين) الذى تملل فى جلسته وقال بجرس غير مقنع:

"أهلاً وسهلاً". ثم أردف بسرعة:

"ولبن أملك يا (صدام) على غداً الذهاب إلى المجر!"

ابتسم عدد من الجالسين مدرّكين ما يعانیه (حسين) من تعذيب. لقد علمت فيما بعد أنه مشهور بالبخل.

(١) النهر المقصود هو نهر الكارون الذى يتفرّع من نهر أم العبيد ويتلاشى فى منطقة الكباب، وهو غير نهر الكارون الذى يجرى فى الأراضى الإيرانية كما لا يخفى.

(٢) حسين بن حيدر بن سلامة الفريجي الملقب (أبو سوى)، توفى حوالى سنة ١٩٩٠م فى ميسان. عُرف بنهمه الشاذ فى الأكل وبقوته الجسدية الخارقة.

"اجعلْ ذهابك إلى الجمر بعد غد، أما غدًا فسوف يتشرف الإنكليزي بزيارة بيتك".

"أنا الذى أتشرف به" رد (حسين) بضيق. فأردف (صدّام):

"إذاً، عند الظهر. لحم و (روبه) وأرز!"

احتكم (حسين) إلى الآخرين:

"أنتم جميعاً تعرفون أنه يجب على الذهاب غدًا إلى الجمر فلدى موعد مع ابن عم زوجتى".

"الرجل الذى مات العام الماضى؟"

"لا، الصديق، (صدّام) أقسم بحياتك، (بالعباس) يا (صدّام)".

"والله يا (حسين) إن اليوم الذى تضيّف فيه ضيفا سوف يكون يوماً مشهوداً لا يمحي من الذاكرة. أنت مصيبة". انتابنى أسف على ابنه (عجزم).

وأخيراً عندما غادر الضيوف قام (صدّام) بوصف على (عجزم) وشاب آخر القيام به وأن يقضيا ليلتهما فى المضيف.

"ضعا حاجيات الإنكليزي بينكما والفانوس فوقها. لابد أن يبقى أحكما يقطاً، وإن سُرّق أى شيء فلن أتردد عن قتلكما. سوف آخذ بنادقه معي لمزيد من الحفظ". ثم قال لى:

"سوف تكون على ما يرام هنا، لكن المعدان (لصوص) فقد سرق بعضهم مشحوفى الأسبوع الماضى، الله يشعلهم، فلم أعثر عليه حتى الآن، وقبل شهر اقتحموا دكان العطار وكنسوه كنساً. عندما تكون فى الأهوار نَم فوق بندقيتك وإلا سُرقت منك. طبعاً ليس من قبل مضيفك، لا، وإنما من قبل آخرين، وربما من قرية أخرى. فقبل عدة سنين جاء (الوصى) نفسه إلى الجمر وكان كل الشيوخ هناك من أتباعهم<sup>(١)</sup>،

(١) أتباع الشيوخ: يُسمون (حوشية) و (رشاكة) وحين استعلمت إن كان ثمة فارق بين المفردتين، لم يؤكد أحد بينهما. و (الحوشية) أو (الرشاكة)، على أية حال، مقسمون إلى عدة طبقات تبعاً لقرهم فى النسب إلى الشيخ أو لنوع الخدمات التى يؤدونها له أو لمقاطعاته. فمنهم (المأمور) و (السركال) و (المّله) باستثناء فئة العبيد الذين قد يحتلون مواقع مرموقة ويؤدون مهاماً خطيرة إلا أنهم ليسوا (حوشية) أو (رشاكة).



كان حشداً كبيراً وكان أحد أتباع (مجيد الخليفة) يحمل بندقية (برنو) جديدة، وقد دفع (مجيد) أكثر من مائة دينار ثمنها. كان الرجل فخوراً جداً بها وحرص على أن يراها الجميع. طلب أحد المعدان أن يلقي عليها نظرة فأعطاهم له فاندس هذا حالاً في الحشد ولم يره أحد بعد ذلك لا هو ولا البندقية، فهاج (مجيد) لذلك.

جلب الخادم في مضيف (صدّام) فرش النوم ولحافاً، فقال له:

"ضعها هنا، لا، هناك، أنت أحمق، اجلب المخدات".

فقلت أن لدى بطانياتي الخاصة.

"سوف لن تحتاجها هنا، فهذا بيتك".

رتب المخدات وتمنى لى ليلة سعيدة، ثم حذر (عجروم):

"إذا نمت فسوف أسلخ جلدك".

كان من الواضح أنه يستطيع تنفيذ وعيده.

غادرت خارج المضيف قبل الخلود للنوم، كانت الليلة شديدة العتمة بلا قمر.

صاح (عجروم):

"احترس من الكلب".

لمعت النجوم كأنها الماس المتألئى وانعكست على الماء عند قدمي. كان الهواء جامحاً وفيه لمسة متأخرة من الشتاء وكان ضوء الفوانيس المنبعث من بعض البيوت يتذبذب عبر مداخل الأبواب. خرج البط<sup>(١)</sup> من الماء من مكان قريب وهو ينفض الماء العالق بريشه، واجتذبنى مرة أخرى الإيقاع في نقيق الضفادع.



(١) أغلب الظن انه بط داجن من النوع الذى تربيته بعض العائلات.

## الفصل السابع

### بومغيفات: قرية الهور

غَضُّ قَلْبِي مَلُونٌ وَهَشٌ مِثْلَ (كَعْبِيَّةِ) الرَّبِيعِ  
وما زال يغنى مردداً صدى الامتداد  
عندما استيقظت لم تكن الشمس قد أشرقت بعد. كان (عجزم) قد أوقد ناراً من  
(المطال) فدارت دوّامات الدخان في المضيف.  
"صباح الخير (صاحب)، هل نمت جيداً؟"  
"صباح الخير (عجزم)، نعم، نمت جيداً، جيداً جداً في الحقيقة، وأنت؟"  
"لم يغمض لي جفن فقد كنت أحرس أشياءك".  
طوى أفرشة النوم ثم أخذ وعاءً وبدأ يصب ماءً فاتراً على راحتي المضمومتين إلى  
بعضهما فغسلت وجهي وتمضمضت. ناداه (صدّام) أن يذهب لحلب الجاموس فذهبت  
لمراقبته. تكاثف الدخان المنبعث من العديد من المواقد في عموم القرية على هيئة غمامة  
حامت فوقها. كان ماء (البركة) كالزجاج في شفافيته وكان اللون خافتاً في كل مكان  
والنسيم بارداً باعتدال ورطب. كان دلو الحليب، المعدّ من قطعة خشب، مستقفاً جداً  
من أسفله حتى انتهى بنقطة بحيث لا يمكن أن يقف مستقيماً. ناول الخادم الدلو إلى  
(عجزم) الذي قرفص بإزاء خاصرة الجاموسة مسنداً الدلو بين ركبتيه. كانت هناك  
أربع جاموسات وعجل. تساءلت لم استدعى (صدّام) (عجزم) بدلاً من أن يكلف  
الخادم هذه المهمة؟ فلم أكن قد أدركت بعد أن البعض فقط يعرف كيف يحلب  
الجاموسة. كان من الغريب حقاً وجود مثل هذا النقص بين قوم تتركز كل حياتهم

حول جواميسهم... تمتلك بعض العائلات في (الكباب) عدداً كبيراً من الجاموس يصل إلى خمس عشرة جاموسة، لكن الرقم المعتاد يتراوح بين الست والثمان، وكان هناك على أقل تقدير جاموسة واحدة أمام كل بيت.

لم يدهشني امتناع النساء عن حلب الجاموس، فكذا الأمر بين البدو، لا يسمح للمرأة أن تحلب الإبل. وبالمقابل، فبين العشائر الرعوية خارج الأهوار وكذلك بين الأكراد لا يقدم الرجال على حلب الغنم والماعز وإنما تناط هذه المهمة بالمرأة. لن تجد رجلاً يهرس<sup>(١)</sup> أو يطحن الحبوب أو يسط فضلات الجاموس على شكل أقراص، تستطيع أن تعثر عليه وهو يطبخ، أو يجلب الماء في حال انعدام وجود المرأة. تجد مثل هذه التحريمات شائعة بين الأقوام البدائيين. لقد فقدت إرسالية كاثوليكية في مقاطعة (شيلوك)<sup>(٢)</sup> في جنوب السودان معظم أنصارها حين تجاهل القساوسة هناك احتجاج الأطفال من أن النساء فقط يمكنهن أن يطين البيت من الداخل بطبقة طينية!

حين أتم (عجزم) عمله، تناولنا إفطارنا من خبز (السيّاح) وحليب الجاموس الساخن واخلى بالسكر. أرسله (صدام) بعدها جلب مشحوف مع ثلاثة رجال لنذهب إلى (سو مغيرفات). يمتلك (صدام) هنا في (الكباب) سلطة طاغية فهو أما مغرمًا أو جالداً سكان القرية حسب مشيئته وفارصاً الضرائب على البضائع المارة خلال قريته<sup>(٣)</sup>، فلا غرو في ذلك مادام وكيلاً (نجيد الخليفة) بعد أن اقتنعت الحكومة بترك السلطة بيد الشيوخ.

(١) يهرس الأرض: أي يزيل قشوره الصلبة الخارجية التي تسمى محلياً (سوس) والقشرة الداخلية الرقيقة التي يسمونها (سحاله)، والفعل لهذه العملية هو (يهش) أو (قَبَش) وهو الأصح، لأن الرجل لا يقوم بهذه العملية مطلقاً كما يشير المؤلف.

(٢) شيلوك Shilluk: اسم لقوم سميت المقاطعة باسمهم يعيشون بصورة رئيسية على الجانب الغربي من النيل الأبيض في السودان.

(٣) البضائع المقصودة هنا لا تعدو أن تكون (البواري) والتمر الذاهب إلى البصرة وبعض السلع البسيطة القادمة منها مما يحتاجه الناس في الأهوار.

إن (مجيد) هو أحد شيوخ رئيسيين من شيوخ (البو محمد)، العشيرة الراسخة التي يقدر عددها بمائة وعشرين ألفاً والسكنة على الجرى الرئيس لدجلة والعديد من فروعها التي تصب في الأهوار ابتداءً من العمارة نزولاً إلى الجنوب قرب (العزيز)<sup>(١)</sup>. والشيخ المهم الآخر هو (محمد العربي)<sup>(٢)</sup> الذي تمتد مقاطعاته إلى الشرق من دجلة. كان قوام الحياة لهذه العشائر أيام العهد العثماني يعتمد على محصول الأرز الذي يزرع في أراض تغمرها المياه في الفيضانات الربيعية. وفي عهد لاحق وبلاستعانة بالمضخات الميكانيكية فإن العديد منهم بدأوا يزرعون محاصيل شتوية من الحنطة والشعير. وعلى الرغم من أن كل عائلة تقريباً تحتفظ ببضعة جاموسات فإن أفراد هذه العشيرة، ما عدا بعض البطون التي تسكن الأهوار، يعتقدون أنهم فلاحون وليسوا معداناً، فقد كان يسكن (الكباب) نفسها عائلتان أو ثلاث من (البو محمد)، في حين كان الغالبية فيها ينتمون إلى عشيرة (الفريجات)، (الشغابيه) أو (الفرطوس). تعتقد هذه العشائر الثلاث

(١) العزيز: اسم لناحية تقع في منتصف الطريق بين القرنة وقلعة صالح، تضم مرقد النبي عزرا الذي لا يحظى بتقدير اليهود فقط وإنما المسلمين أيضاً.

(٢) الشيخ محمد بن وادي بن مشد ولد سنة ١٨٧٢م تسلم زعامة ابو محمد خلفاً لأبيه الشيخ عربي باشا صار عضواً في البرلمان العراقي لدورات عدة، بل هو المخضرم فيه. تزوج العديد من النساء وأنجب الكثير وكما يأتي:

أ — فتر بنت يسر بن فيصل الفيصلاوي فأنجبت كل من جاسم، صدام، يسر، فيصل.  
ب — سعد بن موسى أبو تريكات الساعدي فأنجبت كل من شجاع، مشنت، عبد الصاحب، جليل. الأحياء من هؤلاء مشنت وعبد الصاحب ويسكنان البصرة حالياً.  
ج — فته بنت خليفه فأنجبت كل من عباس، عربي، سعد، عبد الله. الأحياء كل من عربي وسعد يسكنان مدينة العمارة حالياً.

د — عنبدة بنت غاجي من بيت غضب الحمدادي فأنجبت حطاب فقط.  
هـ — موحه بنت فالح الصهوب فأنجبت خيون، وخليفة.

كان الشيخ محمد علي جانب كبير من الأهمية سواء كان بين عشائر ابو محمد التي يتزعمها أو غيرها. وحين توفي في ٢٣ / ٣ / ١٩٧١م أقيمت له مراسم العزاء في ثلاث محافظات هي: بغداد، والبصرة، وميسان.

(عرب الهور)

والبعض من (البو محمد) الذين يسكنون الأهوار أنهم معدان على الرغم من حقيقة أن الكثير منهم هم مزارعي شلب.

امتدت حقوق الشيوخ في لواء العمارة الذين تناخم أراضيهم الأهوار إلى داخل الأهوار شاملة القرى هناك على الرغم من أن سكان هذه القرى ينتمون إلى عشائر أخرى<sup>(١)</sup>. فهم يأخذون حصة من محصول الأرز، وعندما يكون هناك أحد - وفي الحقيقة لا يسمح لأحد بذلك ما لم يدفع مقابل هذا الحق - معين من قبل الشيوخ فهو يجبر السكان على بيع السمك له فقط، لهذا الشخص المخول بشرائه من قبل الشيوخ. إنهم يصادرون القصب الجاف لبناء مضافيهم ويوهم وفي بعض الحالات يفرضون جبايات على الجاموس، ويتمادى وكلاؤهم طبعاً بفرض ضرائب إضافية لمنفعتهم الشخصية. يتذمر أهل القرى من هذا العُرف ولكنهم يقبلونه.

بالمقابل يتولى الشيوخ ووكلاؤهم حفظ الأمن ويحقون الحق بين القبائل كما يفهمونه. إن ما يربع سكان الأهوار هو أن يجدوا أنفسهم مطلوبين لحاكم حيث يتطلب منهم ذلك أجوراً ثقيلة للمحامين ورشاوى، وعليهم البقاء بعيداً عن ديارهم قدر استمرار نظر القضية. وفي حال إدانتهم فهم ربما يسجنون في المدن البعيدة، بعيداً عن أحببتهم. إنها فكرة مرعبة لهم ما دام أكثرهم لم يسبق له الابتعاد عن ملاذهم في الأهوار أكثر من بضعة أميال. ربما فرض الشيوخ عليهم غرامات، ربما جلدوهم وحتى حبسوهم لمدة في القرية، لكن هذه الإجراءات تتم في المضافات المحاطة بكل ما هو مألوف لهم وبحضور أهلهم وأفراد عشائرتهم. البعض منهم يعاقب بجريرة، في الحقيقة، لا يستحقها.

(١) يؤكد هذا الإجراء حقيقة أن نظام الشيخة هو نظام اقتصادي قبل أن يكون نظاماً عشائرياً وإحساساً بالانتماء.

إن (صدّام) هو ابن عم لـ (مجيد) وعادة ما يمنح الشيخ مثل هذه المناصب لواحد من أخلص أتباعه أو عبيده. وكل العبيد في العراق هم أحرار من الناحية القانونية ولكن رجال العشائر مازالوا يعتبرون الرجل عبداً ما دام أجداده من العبيد. هذا لا يعنى أنهم يسيئون معاملتهم أو يحقروهم. إن العديد من العبيد منطون ضمن أتباع الشيخ وللبعض منهم سلطة عظيمة وجاه وغالباً ما كنت أسمع ذكرهم بشيء من الحسد. واليعض منهم يعدّون أخوة بالتبني للشيخ أو لأبنائه. إن الكثير منهم، وهو يحمل دمناً عربياً، غالباً ما يصعب تمييزه من رجال العشائر المحليين في اللون والمظهر الخارجى. وعلى الرغم من شيوع زواج العربى من امرأة زنجية<sup>(١)</sup>، غير أن العبد لا يمكنه لمس الحرة إطلاقاً، وللثأر لهذه الإهانة فإن ذويها سيفتشون عنه ويقتلونه حتى لو تزوجها شرعاً.

لقد أدركت أن (صدّام) بغيض إلى أبعد الحدود، فهو مستبد ومتغطرس ويصبح مزاجه منفلاً لا يمكن ضبطه حين يُستثار، وقد اشتكى القرويون استغلاله لموقعه إلى أقصى الدرجات ليشرى، لكن آياً منهم كان يفعل الشيء نفسه لو أصبح في موقعه. لكنهم يعترفون بكرمه ويعجبون بقوة شخصيته، وهو مسل وله حس فكاهة ربما كان مفرطاً. فذات مرة هزأ بجيرانه حين أجبر رجال مشحوفه على الغناء لمقطع سهل التذكر وهم يجتازون القرية التى شيعت منذ عهد قريب جداً أخاً لرجل لا يطيقه (صدّام) والى كان النواح والعويل يرتفعان فى أوجهما منها، فصدح رجال المسحوف (و(صدّام) وسطهم: "يحرق الله أخاك، الذى مات البارحة، أنت ابن كلب"<sup>(٢)</sup>.

(١) يسمون المرأة الزنجية وصيفه أو دعيته.

(٢) أغنية صدّام: إنها أغنية مرتجلة، (كَيْفَ) فيها صدّام مجموعة كلمات وطوّعها مع لحن شائع، هذا هو التفسير، ربما كان الوحيد الذى يبرر عدم تذكر أحد لها من الذين عاصروه. هذا بالإضافة إلى أن ترديدها يُعد مشاركة فى التجنى على هذا الميت وأفراد أسرته، لذا تحمت آثارها من الذاكرة.

وفي النهاية فشل في تحقيق غايته بسبب تماديه، فقد مرّ مركب شراعى محمّل بالتمر خلال (الكّباب) في طريقه من القرنة إلى العمارة. خرج (صدّام) من مضيفه وأمر، على نحو حاسم، مالك المركب بالتوقف وإعطائه ثلاث عبوات<sup>(١)</sup>، قبل أن يواصل سيره. فأجاب الرجل إنه سيكون من دواعي سروره أن يعطيه ما يشاء كهدية ولكنه سوف يُذمّ لو أنه أعطاهها رغماً عنه، اندفع (صدّام) إلى داخل مضيفه وجلب بندقية وأطلق فوق رأس الرجل بقليل. اشتكى الرجل (نجيد) الذى بادر إلى عزله مخزياً في اليوم التالى. لقد قابلته عدة مرات بعد ذلك، كان في فقر مدقع ولكنه لا زال حسن الوفادة ومرحّباً كما كان في (الكباب).

تبعد (بو مغرفات) حوالى ميلين عن (الكباب)، لقد انطلقنا إلى هناك من مضيف (صدّام) عبر ممر مائى يجرى كأنه واحد من الطرق السريعة highway بين القريتين. سألت (صدّام) إن كانت هذه الممرات عبر جزر القصب طبيعية أم تعمّد الإنسان في صنعها، فأوضح أن المعدان يسوقون جاموسهم عبر القصب حين ينخفض مستوى الماء مكونين بذلك ممراً يبقى مكشوفاً فيما بعد من خلال رواح ومجىء المشاحيف. جننا على حوالى اثنتى عشرة جاموسة مغمورة وسط الممر المائى فنغزها الرجل الذى تولى التجذيف في المقدمة بالمردى لزحزحتها لكنها لم تبد سوى قليل. اهتمام حتى عندما سحج المشحوف مؤخراتها. سألت:

"هل تصل أقدام الجاموس إلى قاع الماء في كل مكان هنا؟"

"ليس في كل مكان، لكنها يجب أن تقف على قوائمها في الماء لتأكل، بالإضافة إلى ذلك إن الجاموس يجب أن يكون في الماء، كذلك القطيع الذى اجتزنه تواء. أحياناً، حين تكون مناسيب المياه عالية جداً، يضطر الجاموس إلى البقاء في منصاته أمام البيوت

(١) عبوة تمر: هى وعاء من خوص النخيل يُصنع خصيصاً لحفظ التمر يسمونه (خلالين) مفردها (خلّانة). تسمى هكذا مادام فيها تمر، أما إن كانت فارغة فهى (خصّافه) جمعها (خصاف).

لكن الذباب يقلقه ويفقده راحته. وإذا لم يستطع الجاموس إن يرعى يصبح أمر جمع العلف الكافي له شاقاً على أهله، فتبدو حياة المعدان كما لو أنها مقتصرة على قطع (العنكر) طوال اليوم حتى المساء وجلبه إلى الجاموس".

علمت أن الجاموس حين يرعى، فإنه يأكل (الكأط) و(الكولان) و(لسان الثور) بالإضافة إلى (السجل)، وهو نوع من الأعشاب، وأنواع أخرى مختلفة من الحشائش التي تنمو في المياه الضحلة على طول القنوات المائية.

كان عدد البيوت في (بو مغيرفات) ثمانية عشر تحلقت حول بعضها على امتداد جزر القصب المحتشدة أمامها. رسونا عند أكبر ضفة وكانت سوداء زلقة وقد اعترش فيها النبات المتسلق<sup>(١)</sup> وولجنا عبر شق ضيق إلى داخل البيت. ثمة رجال موجودون في الداخل، اضطربوا وهم يفسحون المجال لبعضهم في فرش البسط وتوزيع المخدات. "أهلاً وسهلاً، أهلاً وسهلاً (صدّام) أهلاً وسهلاً (صاحب)".

قال ذلك مضيفنا (صُحَيْن) والذي يعنى مصغر صحن. تجتمع الكل للمصافحة. وككل المعدان كانت (دشاديشهم) إما بيضاء أو داكنة باستثناء الأطفال فيامكانهم لبس (دشاديش) ملونة مرحة. كان داخل البيت مشابهاً لذلك الذى كنت فيه بالأمس باستثناء فارق واحد مهم والذي يحمل دلالة أوضحها لى (صدّام). كان المدخل في الجدار الذى يواجهه الشمال إشارة أن البيت هو (رَبْعَة)، وهذا يعنى ضم وتوحيد للجزء المخصص للسكن الخاص مع مأوى الضيف تحت سقف واحد. بإمكان الغريب الحلول في أى مكان بين المعدان كما هو الحال مع العشائر الأخرى ويتناول طعامه متى ما حلّ أو أن يقضى ليلته ولا يمكن أن يُرفض مطلقاً. وفي حالة وجود مضيف فان المتوقع أن يذهب الغريب إليه إلا في حالة وجود أصدقاء له في القرية. وفي حال خلو القرية من مضيف فالتوقع أن يذهب إلى (الرَبْعَة). بإمكان أى شخص أن يتحول بيته إلى

(١) النبات المتسلق: يسمونه (حلباب).



ربعه أو بناء مضيف، ولكن عليه أولاً تحقيق المنزلة التي تؤهله لذلك. حكوا لى فيما بعد عن شاب جمع ثروة فى البصرة وحين عاد إلى قريته الواقعة على الأرض اليابسة ابتنى لنفسه مضيفاً. يُعد ذلك عملاً جريئاً متواقحاً، فحين مات ابنه ثم تلت زوجه فى السنة نفسها لم يفاجأ أحد من القرويين، وعلقوا على ذلك قائلين: "لم يكن والده صاحب مضيف ولا حتى (ربعة)، فإذا كان لابد من بناء مضيف فعليه الذهاب إلى (السيد) ليبارك مثل تلك المغامرة. إما أن يفعل ذلك وإلا فالنحس سيكون محتوماً".

ذكرت الضيافة العربية فحكى (صحين) حكاية جاء فيها: إنه قبل بضعة سنين، زار ثلاثة معدان من (الكبور)، وهى قرية قريبة من (بو مغيرفات)، البصرة. كانوا رجالاً فى مقتبل العمر ولم يسبق لأحد منهم أن غادر الأهوار من قبل. كانوا يسيرون فى الشارع الرئيسى فى المدينة مرتبكين حائرين بل وحتى مرعوبين فهم لا يعرفون أحداً فيها، وكانوا جائعين جداً ويبحثون عن مضيف! فجأة خرج رجل مرح ذو بطن كبيرة إلى الشارع وصاح:

"أهلاً وسهلاً، ألف مرحباً، تعالوا من هنا".

قادهم الرجل إلى غرفة كبيرة حيث جلس عدد كبير من الناس على كراس ياكلون على موائد صغيرة.

"استريحوا. ماذا تشتهون؟ مرق، خضار، سمك، لحم، حلوى؟ هل تشربون (الشربت)؟ فقط قولوا وسأجلب لكم ما تأمرون. أهلاً وسهلاً، أهلاً وسهلاً".

اعتقد الشبان الثلاثة أن هذه طريقة غريبة فى السلوك، فمن سمع عن مضيف يسأل ضيوفه ماذا ياكلون؟ ولكنه على أية حال رجل طيب ومن الواضح أن هذه طريقة (الحضر)<sup>(١)</sup> فى الكرم. قالوا:

"إننا نرغب فى كل ما عرضت".

(١) يطلق أهل الأهوار والأرياف بشكل عام كلمة (حضرى) جمعها (حضر)، على ساكن المدينة الذى لا يعرف طباع وعادات أبناء العشائر.

"جيد، جيد، مرق، سمك، خضروات، دجاج، هل هذا كافٍ؟ وبالطبع هناك حلوى وشربت، لحظة واحدة من فضلكم".

التفت أحدهم إلى الآخر وقال:

"والله، إن هؤلاء (الحضر) ناس طيبون، فأين يمكن أن نجد ضيافة كهذه في الأهوار؟ ماذا عن أهلنا حين حذرونا من أهل المدينة بأنهم قوم سيئون؟"

جاء (مضيفهم) يحمل العديد من الصحون المليئة بالطعام والتي غطت المائدة، وجلب لهم ماءً ليغسلوا أيديهم ولكنهم رفضوا أن يصبّ لهم على أيديهم بنفسه. "الآن، هيا، كلوا، خذوا راحتكم".

فأكلوا وأكلوا كأنهم لم يذوقوا طعاماً كهذا أبداً.

"دعوني أجلب لكم المزيد من المرق، دعوني أجلب لكم دجاجة أخرى".

"شكراً، شكراً، ما أروع هذا الرجل!" صرّخوا بذلك وهو يجلب لهم المزيد من الطعام. وأخيراً أكدوا له أنهم اكتفوا. وبعد أن غسلوا أيديهم جلب لهم شايًا وقهوة ثم نهضوا للانصراف قائلين:

"جزاك الله خيراً".

"قف، لحظة، في الحقيقة جزاكم الله انتم خيراً، أين نقودى؟ ديناران، هذا ما تدينون لي به!"

"ماذا تعنى؟ تطلب منا مالاً؟ هذا مضيفك، ونحن كنا ماشين وأنت الذى دعوتنا للدخول".

"كلاب، أعطوني مالى، معدان كلاب، لصوص، انتظروا حتى استدعى الشرطة". أجبروا في نهاية المطاف على دفع دينار ونصف بالقوة. لم يتبق لهم ما تستقلّهم به حافلة، فلم يجدوا بداً أن يمشوا حتى القرنة. قال أحد المستمعين لـ (صحين): "نحن معدان، ما الذى نعرفه عن المدينة؟"

قال (صحين):

"حدث أن كنت في البصرة ذات مرة، الناس في كل مكان، والسيارات، والآلاف منها الواحدة تلو الأخرى. هل صحيح أن لا مضايك هناك، فأين يذهب الغريب؟ عليك أن تدفع مقابل كل شيء كما هو الحال في مقاهي الجور".

دارت أقداح الشاي وحضر عدة رجال آخرون من القرية مزاحمتنا في الجانب الذي كنا نجلس فيه من (الرابعة). وفي الجانب الآخر منها كان النسوة يطبخن الغداء. أخبر (صدام) (صحين) أن (بو مغيرات) يجب أن تساهم بحمل مركبين من القصب لغرض بناء مضيف (مجدد) الجديد، فبدأت الاحتجاجات على الفور واحتدت المناقشات في تعيين من يقع عليه عبء هذين الحملين. كان حشداً أشعت وفضاً وكان الأطفال في صاخين كمسنيهم. أما (صدام) الذي كان يداعب خرزات مسبخته الكهرمان فقد أضاف بهدوء:

"أريد هذه الكمية غدا".

كان هذا من شأنه أن يستثير فورة غضب جديدة قوطعت بوصول الغداء المكون من أرز مسلوق ودجاجتين.

(بو مغيرات) قرية (للفريجات) و(صحين) كان (الكليط)<sup>(١)</sup> أو الزعيم لهذا البطن من عشيرة (الفريجات) الذي يسكن هنا، وهو موقع وراثي مهم. كان في نحو الأربعين من عمره ويمكن تمييزه من خلال إحساسه بسلطته. كان أصغر من كثير آخرين، ولكنه متين البنية وكان الرجل الوحيد الذي لم يُستثر خلال مناقشات ما قبل الغداء. كان ذا لحية صغيرة مقصوفة عند نهاية حنكه وله شارب تقليدي قصير. جلب (حافظ)<sup>(٢)</sup> أخاه الأصغر، الذي كان بعمر حوالي الثمانية عشر عاماً، الطعام من شابين آخرين.

(١) الكليط qalit، هكذا وردت في النص فضلاً عن العديد من الكلمات التي أثار المؤلف كتابتها كما يسميها.

وهي تعني رئيس فخذ وأقل رتبة من رئيس العشيرة العام. و(كليط) لغة تعني التربع أو الجالس على الفراش.

(٢) حافظ بن كاظم بن صنيع الفريجي، من أصدقاء الرحالة الإنكليزي غافن يونغ، تولى في ١٩٦٦م عن عمر ناهز ٣٥ عاماً في نوبة مرض مفاجئة.

قبل عام في أثناء حراسة ليلية لمحصول الشلب، سمع (حافظ) ما اعتقده خنزيراً فاطلق النار وذهب ليستطلع الأمر فوجد جثة لامرأة أصيبت في رأسها. كانت المرأة (فريجية) أيضاً من قرية قريبة<sup>(١)</sup>. وافق أهل المرأة المقتولة أخيراً على قبول الدية والتي قدرت وحسمت بالنساء. إن الدية بين (الفريجات) تقدر بست من النساء<sup>(٢)</sup> تصدروهن واحدة للزفاف تعرف بـ (الفجرية) وعادة ما تكون عذراء في عمر يؤهلها للزواج بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة. أما الخمس الأخريات فكل واحدة منهن تسمى (تلوية) (مجموعهن تلاوى). يجب أن تكون (الفجرية) من عائلة القاتل أو — في حالة عدم وجود أخت أو ابنه له — من أقرب الناس إليه. وتزوج دائماً إلى واحد من إخوة الضحية أو أبناء عمه. للعائلة المفجوعة حق اختيار عدد (التلاوى) الذى يطلبونه أو ربما قبلوا المال بدلهن. ويحدد المبلغ بحوالى خمسين ديناراً لكل واحدة لأول (تلويتين)، ومبلغ عشرين ديناراً لكل واحدة من الثلاث الأخريات. ينحصر المال والنساء المدفوع لأهل الضحية في الفخذ الذى ينتمى إليه القاتل. وحين أبدت استغرابي من أن سست نساء ثمن غير متكافئ مع حياة واحدة قال (صدام):

"إن الدية بين (البدو محمد) من عائلات الشيوخ هي خمسين امرأة، فضلاً عن سبع سنوات عقوبة<sup>(٣)</sup>."

(١) لم تكن المرأة (فريجية) بل كانت من عشيرة (البدو زيد) واسمها عزّل، لا أحد يتذكر بقية اسمها، متزوجة من رجل اسمه فهد السويدي. أصبحت عملية موثقاً المفاجيء عن طريق القتل الخطأ أشبه بالدعاء أو الأمنية لكل شخص مكروه يستأون منه فيقولون: (جيلة عزّل) والجيلة هي الطلقة.

(٢) لا تفرد عشيرة (الفريجات) في هذا الأمر، بل تشاركها كل عشائر الجنوب مع فوارق بسيطة.

(٣) سبع سنوات نفى للقاتل عن المقاطعة التي يسكنها. من الجدير بالذكر أن ما يدعيه (صدام) حق لكنه رمزي ولا ينفذ، فقد قُتل (شلولة بن عصمان الفيصلاوى) وهو من شيوخ (البدو محمد) على يد رجل (فريجي) بالخطأ، ولم ينته (الفصل) كما وصف (صدام).

إن الكلمة العربية المقابلة لثمن الدم هي (فصل) ولكن كلمة تعويض هي أدق تعبيراً، فدرجة الجرم لا تؤثر على مبلغ (الفصل)<sup>(١)</sup>. لقد سمعت عن واقعة حيث طُلب ودفع (فصلها)، وهي واقعة قتل، غير أن القتل كان قد جُرح قبل عشرين سنة!! من المؤكد أن ذوى القتل يرفضون (الفصل) ويكون دأهم أن يأخذوا بثأرهم. يقدر الفصل بالاستناد إلى ميزان متنوع لأى ضرر، فالعين تساوى نصف الحياة<sup>(٢)</sup>، والسن يحسم بامرأة واحدة وهكذا. وتدفع المبالغ (كفصل) لكل الأصابع باستثناء، لسبب ما، الإصبع الوسطى! يدفع للصفعة على الوجه حين تكون على مرأى من الآخرين. قال لى (صدّام):

"إذا تعمّد شخص قتل كلب يؤويه شخص آخر فسيكون حاله حال القاتل لإنسان عمداً وعليه أن (يفصل) بثلاث نساء".

انتابى الفضول لمعرفة جذور (البو محمد)، فأوضح لى (صدّام) انه قبل حوالى أربعة عشر جيلاً مضت قتل رجل من عشيرة (زيد عزّه) يدعى (محمد) ابن عم له، فهرب مصحوباً بابنته (باشه) بحثاً عن ملاذ آمن إلى (الفريجات). عاش معهم قرابة خمسة عشر عاماً وأحبّ ابنة شيخ (الفريجات) الفتاة الجميلة وتدعى (محنّاية)، وأخيراً وافق شيخ (الفريجات) على تزويج ابنته إلى (محمد) شريطة أن يقوم (محمد) بتزويجه (باشه). وافق (محمد)، لكن شيخ (الفريجات) استبدل (محنّاية) بابنة أخرى له هي (الكوشه) وقد كانت قبيحة خرقاء. جُلبت (الكوشه) فى ليلة زفافها إلى (محمد) الذى

(١) كلام منظر على سوء فهم كبير، فهناك بالإضافة إلى الفصل ما يسمونه (نكال) وهو زيادة فى مبلغ (الفصل) أو عدد نسائه إذا ثبت الإيغال فى الجرم أو الحرق لسن الدفاع عن النفس أو الأخذ بالثأر. وهناك ما يسمونه (حطام) وهو العمل الشائن الذى لا دية لهُ.

(٢) الأضرار الجسمية الدائمة تسمى (عضاب) وتقدر تبعاً للعضو المتضرر ودرجة الضرر ولكنها فى الغالب تحسم بنصف دية القتل.

أعدّ وليمة تخللها الغناء والرقص كما جرت العادة وسلمت إليه في بيته. وحين أميط اللثام اكتشف (محمد) الخدعة، لكنه بدل أن يرفضها، قبل بها زوجة له مصرحاً: "الحمد لله، هذه هي التي من نصيبي".

أنجبت (الكوشه) ولدين، سعد وعبود اللذين انحدر منهما فرعى عشيرة (البو محمد) العظيمة (العمله) و (البو عبود). وأضاف (صدام):

"فحن (آل بو محمد) لنا كلمة المؤاخاه في المعارك هي: (أنا اخو باشه) <sup>(١)</sup>.

وهذا التأخي كما هو حال العديد من العادات الأخرى قد نشأ كما هو واضح مع البدو في الجزيرة العربية حيث أن الرجل هناك حين يدخل معركة ما فهو يتنحى باسم أخته أو باسم بغيره المفضل.

دخل (سيد) قبل أن يغادر. كان في أواسط عمره امتلاً ذقنه بشعر خشن. كان يقطع القصب الطرى لذا فهو يرتدى (دشداشه) قديمة ممزقة. نهض الجميع وانحنى رجال مشحوف (صدام) وقبلوا يده. هناك أعداد كبيرة من (السادة) في جنوب العراق كما هو الحال في أرجاء الوطن العربي. هناك القليل من القرى في الأهوار لا تتفاخر فيها ولو عائلة واحدة على الأقل بانحدارها من سلالة النبي (ﷺ). وهناك قرى صغيرة كان سكانها من (السادة) وقد قابلت العديد من المعدان البدائيين ممن يدعون بهذا الانتماء. يبدو أن الحاجة قليلة هناك إلى تقديم ما يدعم هذا الادعاء، ففي قرية لـ (الفرطوس) بقيت عند عائلته تدعى أنها من (السادة) لكن عدداً من الناس قال لي:

"إنهم ليسوا (سادة) على الإطلاق ونحن نعرف من أين جاءوا، فمنذ عهد قريب صبغ الرجل العجوز كوفيته باللون الأخضر". على الرغم من ذلك فهم يخاطبون

(١) ولا تقتصر هذه الكلمة على أوقات الحروب بل يقوها الإنسان في عدة مناسبات منها سماعه لخبر سيئ أو سقوط شيء ثمين من يده أو تعثره في السير.

بكلمة (مولانا) وهى الصيغة التى اعتادوا عليها مخاطبة (السيد). ربما على مدى سنوات لم يكلف أحد نفسه عناء سؤال هذه العائلة عن حججها.

بُنيت ربعة (صحين) فوق جزيرة افترضت أنها إما جزيرة طبيعية أو أنها أرض لقرية قديمة، لكننى لاحظت، حين غادرنا، أنها مكوّنة من طبقات متناوبة من تراب وقصب. إنها فى الحقيقة من نوع قصبة البردى نفسه التى كونت الأساس والقاعدة لبيت (الزائر) فى (الكباب) ولكن بشكل أكثر اتقاناً. تبدأ طريقة الإنشاء بخطوة أولى هى تطويق منطقة معينة من الماء، من الاتساع بحيث تكفى لبيت وفناء، بسياج من قصب ربما يصل ارتفاعه إلى عشرين قدماً ثم تحشى هذه المساحة بالقصب والبردى داخل السياج، وحين يرتفع هذا الكدس عن سطح الماء يتم بعدها تكسير القصب المكون للسياج وليّهُ فوقه. ثم يقوم المعدان بوضع أكوام أخرى من البردى على قمة الكدس ويطأونه ليشدّد ويتراص قدر الإمكان. وبعد اقتناعهم بمتانة الأساس يباشرون بناء البيت من خلال دفع القصب ليشكل أعمدة (شباب) كل على حدة فى أرض الجزيرة قبل أن يربط بشكل حزام. إذا غمرت المياه أرض البيت بسبب غرقها أو بسب ارتفاع مناسب المياه فحينئذ يكتفى صاحب البيت بإضافة عدة حزم من القصب. تدعى هذه الأرض (جباشه).

ولكى يحصلوا على جزيرة أطول عمراً يغطى المعدان الأساسات بالطين المأخوذ من قاع الماء. يقومون بهذا الإجراء عندما يكون الماء فى أقل منسوب له فى الخريف وحيثما يكون الماء ضحلاً. يغطون الطين بطبقة إضافية من البردى. (تصبح (الجباشه) فى هذه الحالة (دبن). وإذا حصل أن غادرت العائلة ما بنته من (دبن) وتركته غير مأهول مدة تزيد عن سنة يخسرون حينها حق امتلاكها ويصبح بإمكان أى عائلة أخرى استخدامها. وعبر السنين يأخذ تناوب طبقات الطين والقصب بتشكيل جزيرة كذلك التى يقف بيت (صحين) فوقها.

فی طریق عودتنا إلى (الکباب) طارت مجموعة من (الخضیری) من بین القصب قريباً منا، لسوء الحظ لم أکن أتوقع حاجتی للرمی فلم أعیى بندقیتی. کان من الواضح علی (صدّام) إصابته بخيبة أمل عندما عدنا ذلك المساء لذا عرضت علیه البحث عن هذا الطیر.

"طیب، سوف أرسل معک (عجرم) فهو يعرف أين يجدها" وقال لـ (عجرم) ونحن نبتعد مجدّفين:

"تأكد من أن الانکلیزی سوف لن یقلب المشحوف، فهو غیر متعودّ علیہ."

كانت ملاحظة غیر ضرورية ما دام (عجرم) قد عرف نقص المهارة لدى.

"إلى أين أنت ذاهب یا (عجرم)؟"

"نحن بصدد صید البط."

"حاولوا ذلك بطرف (البرکة) هناك الكثير منها". بعد برهة قال (عجرم):

"هل بندقیتك جاهزة؟ فهذا هو المكان."

فی الحقيقة كانت هناك كمية كبيرة من البط عند خلیج صغیر كثیف، ولكنه شديد الحذر. کنا ملازمین لحافة القصب وكانت حرکتنا بطیئة جداً ونجحنا أخيراً فی تعقب مجموعة صغيرة من (الخضیری) وأسقطت اثنين منها بإطلاقه واحدة لكنی أخطأت فی الإطلاق الثانية. جدف (عجرم) باتجاههما والتقطهما. قال: "انظر، هناك المزيد قادم".

حلق الكثير من (الخضیری) نافرأ من صوت الإطلاقات فأطلقت باتجاه واحد منه وأسقطته علی مسافة منّا فی جزيرة قصب. خلع (عجرم) (دشداشته) وقفز إلى الماء وتخط بين تشابک القصب. لم أفاجأ حين عاد خالی الیدین. کان یخوض فی الماء صعوبة منخفض الصدر ثم تسلق المشحوف، ولو قدر لی محاولة ما فعل (عجرم) فمن المؤکد أنى سأقلب المشحوف رأساً علی



عقب، لكنه حتى لم يهزه! لم يكلف نفسه عناء ارتداء (دشداشته)، بل التقط مجذافه واتجه نحو ممر مائي آخر! كان جلده الذى لم تعتمه الشمس أبيض كبياض جلدى.

اصطدنا اثنين من طيور (الخضيري) قبل عودتنا إلى (الكباب) حيث تنتظر خارج المضيف مجموعة صغيرة من الرجال والنساء، من بينها فتاة بملابس سوداء تحمل طفلاً بين ذراعيها وقد غطته بـ (شيلتها). أوضح (صدام): "هذا الطفل المسكين مصاب بحروق سيئة. إنهم بانتظار الدواء، هل بإمكانك مساعدتهم؟"

كشفت الفتاة عن الطفل وقدمته إلى، كان صبياً بعمر سنة واحدة تقريباً. غطى صدره المحترق وبطنه ورجله وذراعه الأيسر بروث الجاموس الجاف.

"متى حصل هذا؟"

"الآن، قبل دقائق".

أجابت الفتاة وأكملت:

"كنت أطبخ أرزاً للعشاء والماء على النار. غادرت المكان للحظة فقلب القدر. (صاحب) انه طفلى الوحيد، الله ياركك يا (صاحب) أنقذه، الله يحفظك".

قال (صدام): "لقد تزوجت قبل سنة".

أخرجت صندوق الدواء من المضيف لأن الرؤية كانت أفضل في الخارج. طلبت من الأم أن تجلس على الأرض وتمسك بالطفل الذى كان ينتحب بنعومة، ثم، وبكل ما استطعت من حذر أزلت الروث الجاف. وبدأ الطفل بالرفس والصراخ فبادر الأب الشاب بالفرصة بجانبى وأمسك بساقيه. كانت الحروق واسعة جداً وقد انكشط الجلد في عدة مناطق مفتتاً كأنه ورق لف كاشفاً عن اللحم. وفي مناطق أخرى انتشرت بقايق مربعة. مسحت الجلد بمرهم الفايوليت برقة فوق كل الجلد المحروق.

"لاتضعی اى قماش فوقه الآن، وحينما تجف الحروق تماماً لفيها هذه".

وناولتها قطعة كبيرة من الشاش بالإضافة إلى الأسيرين الذى أوصيتها أن تذيبه فى الماء وتعطيه للطفل لبشره. ركبوا مشحوفهم وانصرفوا إلى بيتهم. سأل عدة آخرون عن دواء، أحدهم مصاب بجمج فى قدمه، واشتكى آخران من الصداع، وآخر من البواسير. وسألنى العطار الذى سبق لنا زيارته عن دواء لعينه المتقرحتين. كان الظلام قد حلّ تقريباً عندما انصرف آخرهم.

كان الحصىرى الذى تناولناه على العشاء مدهشاً. انقسمنا فيما بعد إلى فريقين، كل فريق من خمسة لاعبين ولعبنا (الحببس) أو اصطلياد الحبس. يكون الفريق الذى بحوزته الحبس جالساً فى صف وقد غطيت أيديهم بعباءة ثم يواجههم أحد خصومهم محاولاً معرفة من الذى يحمل الحبس وفى أية يد مضمومة. وكمحاولة لزعة الثقة فى خصومه كان هذا اللاعب مستمراً فى الهذر وبصوت على النبر:

"رأيت فى يد فلان".

كنت لا افهم إلا القليل من هذا الصراخ، لذا فقد وجدت اللعبة مملّة بشكل لا يطاق، بينما احتاج الآخرون لشدة استمتاعهم. لقد لعبت لعبة صيد الخاتم فى عدة مناسبات وفى العديد من القرى وكانت تنتهى نهاية لا تتغير تقريباً كما هو الحال الآن، اتهامات بالغش، وعلى العموم بخسارة فى المزاج.

أخيراً التفت إليهم (صدّام) قائلاً، ولم يجانب الحق فى ذلك:

"إن الإنكليزى تعبٌ ويريد أن ينام".



## الفصل الثامن

### عبور الأهوار الوسطى

غَنّ... فروحي مترعة بالحزن، وصوتك خفق.  
النوارس التى تاهت وَبَّتْ أعشاشها بين القبور  
في صباح اليوم التالى وإيفاءً بوعده، بدأ (صدّام) معى في عبور الأهوار باتجاه  
الفرات. مازال الوقت مبكراً، فلم يمض على شروق الشمس أكثر من ساعة. كان ثمة  
موكب من المشاحيف يغاد القرية لجلب الحشيش، في مقدمة كل واحد منها رجل  
أمسك فالتة وقد ارتفع الجزء الحديدى ذو الأشواك إلى الأعلى. كنت و(صدّام) في  
مشحوف واحد في حين كان (صحين) في مشحوف آخر. وفي كل من المشحوفين تولى  
التجذيف ثلاثة رجال. كانوا جميعاً مسلحين بالبنادق. لا يحجز الرجال في الأهوار المرور  
بمقاطعات العشائر الأخرى وهم غَزَل.

حين تركنى الآخرون عند الفرات شعرت بوحدة موحشة فلا أحد معى يعنى  
بأشيانى ولا أحد يقدمنى للآخرين حين أصل إلى قرية جديدة. لقد حاولت إقناع  
(عجزم) برفقته لى متعهداً له أننا سنعود لـ (الكباب) خلال ستة أسابيع، لكنه رفض.  
"إنه خائف" صرّح (صدّام) لى وأضاف:

"لا أحد سوف يذهب معك، فالمعدان جاهلون. إنهم يعيشون هنا في الأهوار  
كجواميسهم وهم مرغوبون من الحكومة. لقد قابلت الإنكليز وعرفتهم أناس طيبون،  
لكن المعدان تتناهم الظنون والشكوك إزاء الغرباء، فقد اعتقد (عجزم) أنك ربما هربت  
به أو ربما زججته في الخدمة الإلزامية".

لم يخطر لي على بال أن سأواجه صعوبة في العثور على رفيق لذا أشعر الآن أني مشط فاقد لهمتي. قال شاب صغير في نحو الخامسة عشرة من عمره كان يسير مشحوفه بجانبنا:

"خذني معك (صاحب) أعطني مالاً وخذني معك، لم أعد بحاجة إلى إرهاق نفسي بقطع الحشيش طوال اليوم في ماء بارد".

"لا، لا تأخذه، إنه سيء، إنه كسول، خذني أنا".

صرح بذلك شاب آخر.

"هراء، فكلاهما سيء، خذني أنا، فيامكان الغناء والرقص، سوف أسليك".  
قال ذلك صبي في نحو الثالثة عشرة وهو يجدف في الجانب الآخر منا، كان أفطس الأنف وبفم كبير وعينين ضاحكتين ونحيل جداً.  
قال لي (صدّام):

"إنهم يمزحون فقط" ثم التفت إلى صبي:

"هيا، (حلو) (١)، غن".

"لا أعرف كيف أغني يا (صدّام):

"هيا، غن، (حلو)، دعنا نستمع إلى حين ذهابك إلى جزر القصب".

وصاح (صحين) من مشحوفة:

"غن، (حلو)".

قال (صدّام) انه يمتلك صوتاً حلوّاً مستخدماً للتعبير عن حلاوة الصوت Sweet كلمة اسم الصبي نفسها.

ابتسم الصبي ابتسامة وقحة ثم بدأ الغناء بادئاً بطبقة عالية نقية:

(١) حلو بن شذر بن مهودر الفريجي، تولى سنة ١٩٨٥ م.

كَالْوَنِ الْعَرَبِ عَنكَ ظَالِمٌ مِنْ زَغَرِ سَنِكَ  
بِهِجْرِكَ عَزَذَتْ حَالِي اللَّهُ يَنْتَقِمُ مَنَكَ

كان للأغنية نغم فائن وبإيقاع مرح وسريع. بَيَّن (صدّام) بشكل سريع موجز أن الأغنية ألّفت حول واحد من شيوخ ما وراء دجلة من قبل زوجته التي كان يعاملها بسوء ثم طلقها. ربما كان (صدّام) خائفاً من افتراضى أن الأغنية تخاطبه هو مباشرة، والتي ربما كان فعلها أوقع.

تدوم الأغنية دارجة معروفة في الأهوار مدة ستة أشهر ثم يملأ الناس ويتحولون إلى غيرها. وعادة ما يكون هناك ست أغانٍ في الوقت نفسه، ولكن هذه الأغنية كانت أفضلهن. وخلال سنتين تاليتين كنت اسمعها أينما وليت وجهي في الأهوار، في الأعراس، في الأمسيات حين يرتجل رجال الأهوار في رقصهم، وحين التوجه إلى النجاش كما نفعل الآن.

"استمر، (حلو)، غنْ أغنية ثانية".

ودغنى (حلو) أغنية ثانية. انتظرتُ عدة مشاحيف لكي نلحق بها. لا بد أن عددها كان اثنا عشر مشحوفاً أو خمسة عشر بسبب ارتطامها مع بعضها حين كانت تمر بجانبنا عبر الممر المائي. كان هناك صبيان يجذفان في المؤخرة منذ البداية. لقد لاحظت فيما بعد أن المعدان يفعلون ذلك حين يكون اثنان بمفردهما في المشحوف. يتوقف (حلو) عن الغناء في كل مرة يصرخ مستمعوه:

"هيا، (حلو)، أغنية أخرى".

ثمّة فتاة جميلة ذات أربعة عشر عاماً تجلس وحدها في أحد المشاحيف وقد انزلت عباءتها السوداء على كتفيها. حين دفع صبي طرف مشحوفها بيده مرسلًا إياه إلى القصب، التفتت إليه مغضبة. لم أستطع سماع ما قالته، لكن الآخرين أفحموها بضحكهم فلم تنبس بكلمة. وفي زورق آخر كانت هناك فتاة أصغر تجدف مع أخيها

جالسة خلفه كما تفعل النساء دائماً. سألت عما إذا كانت المرأة تسهم في قطع الحشيش فردّ (صدّام):

"نعم، ولكن فقط في حالة كون العائلة قليلة العدد".  
أخيراً انحرفت المشاحيف باتجاه القصب، الواحد تلو الآخر. صاح (حلو) مازحاً وهو يغادرنا:

"ألا تريدني معك، (صاحب)؟"

فسحة واسعة من المياه بعرض نحو ميلين، امتدت أمامنا. كان سطحها المتألّلي الزرقة متلاطم الموج بخفة بفعل النسيم، قال (صدّام) إنها تُعرف (بالديعه). لدى المعدان اسم خاص لكل مساحة من المياه المكشوفة حتى إن كان اتساعها لا يزيد على (بركة)، ولكل ممر ولكل جزيرة قصب، لكن تسمياتهم على العموم مقتصرة على ما يجاور بيوتهم.  
"نستدير أم نتقدم؟"

سأل (صدّام) و(صحين) بعد تمعن في البحيرة والسماء لعدة ثوان، فقلت:

"نتقدم، يجب أن نستغل الرياح ونذهب معها، سوف نكون بخير".

حلقت ثلاثة نسور فوقنا في سماء صافية. راقبت مجموعة كبيرة من البط تطير في الجانب القصي من البحيرة. كان بعضها يحوم بارتفاع عال واستطعت تمييز الجاميع التي اقتربت منا. كانت من الطيور (الخضيري)، و(البريش) بينما كانت البقية ما بين (الحذاف) الشتوى و(الحذاف) الصيفي يغط ويرتفع في تشكيلات صغيرة متقاربة فوق رؤوس القصب. كانت خوافيها مترججة البياض حين تستدير بحركة موحّدة. تساءلت ما الذي يزعجها حتى لاحظت زورقين في نهاية الممر البعيد قرب القصب. سألت إن كانوا بصدد صيدها لكن (صحين) وبعد لمحة متمنعة باتجاههم أجاب:

"لا، إنهم يصيدون السمك بالزهر، إنهم من (الكبور)، من القرية التي سوف نتغذى فيها، جَدَفْ بقوة نريد أن نعبّر البحيرة قبل اشتداد الرياح".

كنا في منتصف الطريق حين صاح (صحين):

"جَهْزْ بندقيتك، (صاحب)".

وأشار إلى يسارنا، حيث عدة مئات من طيور (دجاج الماي) مكتظة ملتفة على بعضها. وحين تابعنا المراقبة شاهدنا نسراً يطير منخفضاً فوقها ثم ينقض عليها، لكنها تبعده بضرب وجه الماء بأجنحتها بحيث يرتفع الرذاذ من الموجات المتكسرة.

اشتدت الريح حين استدرنا باتجاه (دجاج الماي) وأخذ الموج المتلاطم يصفح جوانب المشاحيف. انقض النسر مرتين أو ثلاثاً قبل أن نصل إلى تجمع (دجاج الماي) الذى لم يعرنا أى اهتمام حتى ونحن على بعد أربعين ذراعاً عنه. أطلقت بكلتا ماسورتى البندقية عليه، ففترق الجمع وارتفع من الريح تاركاً خطأً معتماً من أجسادها الطافية. حين كنا نلتقط الميت منه كان الآخرون يتابعون المصاب منه والذى يغوص حين يقترب منه المشحوف. كان (صحين) واقفاً في مقدم المشحوف يلتقطها واحداً تلو الآخر بفالته ما أن تظهر ثانية على سطح الماء طاعنا الطير الذى تصله الفاله، وراميها باتجاه الذى يبعد قليلاً. ما أن يلتقط الطير حتى يناوله إلى رجل تولى عملية التوجه إلى مكة (المكرمة) مردداً:

"بسم الله، والله اكبر".

وهو ما يشبه الدعاء يجعل عملية أكل هذا الحيوان حلالاً للمسلمين وإلا، فالمعدان يعدونها غير صالحة للأكل شرعاً ويرموها جانباً. شرعاً، يجب أن تحتفظ الطيور بشيء من رمق الحياة حت تقطع حناجرها، وهؤلاء الرجال لا يدققون بكشل تفصيلي.

"هل هذا الطير مَيّت؟"

سأل رجل وهو ينتزع طيراً كان رأسه تحت الماء مدة عشر دقائق!

"لا، طبعاً لا، هيا عَجَلْ واذبحه".

إن الميتة، ولحم الخنزير، والدم محرمات غير صالحة للأكل لدى كل المسلمين، وهنا أيضاً محرمات تختلف من مكان إلى آخر وأحياناً من عشيرة إلى أخرى. فعلى سبيل

المثال بعض المسلمين لا يأكلون الطيور ذات الأرجل الغشائية، وفي العراق لا يأكل الشيعة الأرانب بينما يأكلها السنة. يأكل المعدان (الهليجي) و(الورده)، ويمرّمون (نعيج الماي)، يأكلون (المنجللي) و(الصلنده) و(الرخيوى) و(الزركى) و(crana) ويمرّمون (درويش على)، يأكلون الـ (dabchick) ويمرّمون أنواعاً أخرى من (البريزجى) و(الغوصه) ولا يأكلون (الجرى catfish).

حين جمعنا كل طيور (دجاج الماي) أوصى (صدّام) الطاقم بالإسراع لأن المياه تسربت إلى المشحوف الذى كنت فيه بسبب ثقل مسافرين اثنين فضلاً عن صناديقى. كنت سعيداً حين وصلنا مأمناً في جزيرة قصب حيث التحق بنا مشحوف (صحين) وحسبنا صيدنا فكان ثمانى عشرة (دجاجة ماي). قال (صدّام) بقناعة واضحة: "سيعطينا هذا غداً وفيراً".

بعد مدة وصلنا (الكبور) حيث انتشرت غمامة شاحبة في السماء وصفرت الريح خلال رؤوس القصب وانقلب الجو إلى برد قارس. تشبه (الكبور) (الكباب) ولها الحجم نفسه. ذهبنا باتجاه اكبر البيوت الذى كان مدخله على قمة منحدر زلق اسود بارتفاع خمسة اقدام وفي داخله تحلق طفلان حول موقد صغير. سألهما (صدّام):

"هل والدكما هنا في البيت؟" أجاب الأكبر:

"نعم، ذهب توأ إلى العطار" والتفت إلى أخيه قائلاً:

"اذهب بسرعة وأخبر (علوان) <sup>(١)</sup> أن لدينا ضيوف".

على الرغم من لبسى قميص وسترة وكنتزة وسروال من قماش قطنى إلا أنى كنت أشعر بالبرد بمرارة، وكنت سعيداً إذ ألفتينى قرب النار. كان ابن (علوان) طويلاً نحيفاً في نحو

(١) علوان: اعتاد الأبناء حتى الصغار منهم مناداته آبائهم وأمهاتهم بأسمائهم، يصل الأمر أحياناً إلى تصغير الاسم، هذا ما ورد على لسان ابن علوان فهو يأمر أخاه مردداً اسم أبيه بلا كنية ولا لقب. وعلى قدر ما يبدو هذا الأمر منافياً للذوق العام إلا أن له وقعاً ساحراً على أذن من لم يعتد على ذلك، خاصة على شفاه صغار الأطفال. أما علوان هذا فهو كما أكد لي أحد معارفه، عليّان بن عليجم النصاروى، متوفى منذ زمن طويل.



السادسة عشرة وكان كل ما يرتديه هو (دشداشة) قطية مهلهلة. ذهب إلى النهاية الأخرى للبيت وأحضر (المداد) والمخدرات التي سلمتها له فتاة. قال لـ (صدام):  
"دعني أنزل أشياءكم".

"لا، سوف نذهب إلى (أبو شجر) ما أن نأكل".  
"كيف يمكن؟ ابقوا الليلة هنا، إن الجو لا يصلح للتنقل أبداً، لقد مضى وقت طويل دون أن تشرّفنا".

ارسل (صدام) أحد رجال مشحوفه لجلب اثنتي عشرة (دجاجة ماى) وأعطاها للشباب.

وصل (علوان) خلال بضع دقائق، رجل في منتصف العمر ودود. ناشدنا أن ننزل أشياءنا وأن نمضي ليلتنا عنده، لكن (صدام) أصرّ على الرحيل، ثم سأل:  
"هل مازال المعدان في (أبو شجر)"؟ أجاب (علوان):  
"نعم، تأخر الفيضان هذه السنة، فلم يتحركوا حتى الآن".  
جلب عدة الشاي معلقاً:

"لقد اصطدم الكثير من (دجاجى ماى)". حين أخبره (صحين) بشأن النسر، قال (علوان):

"لقد عشت أحدها في القصب هذه السنة ليهاجم كل من يستخدم الممر المائى القريب والأولاد يذهبون دائماً هناك لجمع الحشيش، لذلك أشعلوا النار في القصب واحرقوا عشه".

حين كان (علوان) يحدثنا كانت أصابعه تداعب سلسلة طويلة من تسع وتسعين خرزة سوداء. إنها المسبحة الدينية<sup>(١)</sup> في حين أن المسبحة ذات الثلاث والثلاثين خرزة

(١) المسبحة الدينية religious rosary هكذا سمّاها المؤلف على الرغم من أن اقتناء المسابح ليس بالضرورة نتيجة توجهات دينية، ولا علاقة لعدد خرزها بنوع مهمتها. إن كان حجم الخرز كبيراً مال العدد للاختفاء.

كهرومانية اللون، للعبث بها فقط. يحمل معظم الناس خرزاً كهذه في جيوبهم ويعبثون بها بشكل لا متناه حين لا يكون لديهم شيء آخر يفعلونه. رمى (صدّام) مسبحته إلى وحين حاولت إرجاعها فيما بعد قال:

"لا، احتفظ بها، إنها لك، عندى غيرها الكثير في (الكباب)".

ومنذ ذلك الوقت تمكّنت منى تلك العادة.

أكلنا تسع (دجاج مای) في الغداء. كان طعم اللحم لذبذاً يشبه طعم البط، لكن إحساسى بالتشابه قد يأتي عن جوعى وإحساسى الشديد بالبرد. وعلى الرغم من اعتراضاتى استمر (صدّام) و(صحين) بتزويدى بالمزيد من قطع اللحم من طبقهما. بعد ذلك صببنا المرق فوق الأرز وحين أتنا عليه نقعنا ما تبقى من أرز بالدهن الحر. لقد وجدت صعوبة فى أكل هذه الخلطة بأصابعى لكن ما شفع لى أن الآخرين أيضاً كانوا يأكلون بشكل غير أنيق ويعثروا كمية من الأرز يجب أن تكس حين ترفع الصحن. كوّم (علوان) بقايا الأرز وشطايأ أحد الصحن وجلب أحد أبنائه مزيداً من الدهن الحر ثم جلسوا فى زاوية من الغرفة. وبعد المزيد من الشاى ركبنا مشحوفنا متمنين الخير لمضيفنا ولكن لا يجروء أحد على شكره على الطعام لأن ذلك من غير المألوف ولم يسمع به أحد.

ارتحلنا على طول ممرات جرداء سهل تميزها عبر القصب الذى نزعت قشوره الريح واشرب فوق رؤوسنا النفاشات فى أعاليه. كان شاحباً على صفحة سماء أكثر شحوباً يتساقط كيارق فى عاصفة هوجاء. غتى أحد رجال المشحوف أغان شعبية بتشجيع من (صدّام)، كان صوته قوياً أجش وقد برزت حنجرتة بينما احتقن وجهه بشكل منذر بمخاطر! بدت الأغاني لا نهائية وبلا إيقاع واضح. ولكى أقدر تلك الأغاني وأعرف قيمتها كما يفعل الآخرون كان من الضرورى معرفة كلماتها وفهمها، الأمر الذى تعذر على.

بعد ساعة ونصف وصلنا (أبو شجر)، جزيرة من أرض جرداء معتمة باتساع ثلاثمائة ذراع وربما كانت بعشرة أقدام ارتفاعاً على أعلى نقطة فيها، أحيط شاطئها بتكاثف لأجمات

القصب. أقيم فوقها بين ثلاثين وأربعين بيتاً بتشكيلات متقاربة كيفما اتفق على طول حافة الماء. انتصب الجاموس حيث وجد فسحة له، وأحيطت البيوت بما يشبه الأسوار لتمنع احتكاك الجاموس بالجدران. كان سكان (أبو شجر) من (الشغانية)<sup>(١)</sup>.

رسونا عند أحد البيوت بعد مناقشة لأبيها أكثر ملاءمة. خرج رجل وصي مرحبان بنا وساعداني في إنزال أشيائي إلى الجرف. لم يكن جمعية الآخرين شيء سوى بنادقهم، وأنزلنا أيضاً المجاذيف و(المرادى) مادام — بعد مران مقنع — بإمكان أى عابر من هناك أن يأخذها بطريقة! لم تكن (المرادى) غير جذوع القصب، ولكن الجيد والمناسب منه ليس سهلاً العثور عليه، فضلاً عن أن المرء يعتاد على استخدام (مرديه) الخاص. أما المجاذيف التي تشبه المجرفة فهي من ألواح خشبية سُمِرتُ إلى قطع من الخيزران من النادر أن تُعوّض بأشياء محلية.

وكما هو معتاد فقد ازدحم البيت على الفور. سألنا مضيفنا بضعة أسئلة لكن الآخرين اكتفوا بمراقبتنا بجدوى يعوِّفهم الذاكرة. تحسست ريتهم وشكهم، مَنْ هو؟ ومن أين أتى؟ لماذا جلبه (صدّام) إلى هنا؟ وحين أخذني (صدّام) ومضيفنا — في الوقت المناسب — في جولة حول الجزيرة، ارتفع لغط الحوارات خلفنا.

كانت التربة سيخة ولا شيء ينبت فيها ولا أثر لوجود حصّى أو قطع صخور. والحقيقة أني لم أر شيئاً منها في الأهوار. ومن خلال رؤية أجزاء من طابوق وكسر فخارية هنا وهناك في الجزيرة يمكن عد (أبو شجر) أرضاً لمدينة منسية. قال (صدّام): "يقال إن ثمة ذهباً مدفوناً في هذه الجزيرة وقد فتش المعدان عنه منذ مدة. انظروا،

هل ترى أين حفروا؟"

وأشار إلى حفر ضحلة وأضاف:

"لم يجدوا شيئاً".

(١) الشغانية: لم أعثر على معلومات مهمة عن هذه العشيرة برغم الجهود التي بذلتها.

قاطع المضيف:

"في العام الماضي، وبينما كانت عائلة من (الشغابيه) تحفر حفراً للبيت في (العكر) وجدوا جرتين مليئتين بقطع من العملة".

سألت: "أين هي (العكر)؟"

"هناك، إلى الغرب، إنها جزيرة تشبه هذه حيث يسكن العديد من (الشغابيه)".

"ما الذي جرى لقطع العملة؟"

"لا أدري، أتوقع أنهم خبأوها لكي لا يستحوذ عليها الشيوخ".

قال (صدام):

"قبل عدة سنوات حين كنا بنى مضيقي في (الكباب) وجدنا تمثالاً حجرياً مثل شكل امرأة يمكنك رؤية ثدييها وهو بهذا الطول".

وأشار بيده إلى ما يقدر بتسع بوصات.

"هل مازلتم تحتفظون به؟"

"لا، أخذه (مجيد)!"

في أثناء وجودي في الأهوار لم أحاول أبداً جمع أشياء ذات طابع آثارى، ولكن ذات مرة أعطيت ختماً حياً<sup>(١)</sup>، وفي مرة أخرى قطعة رقيقة من الرصاص مغطاة بخربشات تكشف عن شخصيات فينيقية، قال الرجل الذي أعطاني إياها إنها جزء من قرص أسطواني كبير كانوا قد أذابوه ليستخدموه ككرات رصاصية لبنادقهم! وفي مناسبة ثالثة أخذني أحدهم بسريرة تامة إلى بيته حيث عرض عليّ تمثالاً صغيراً من الطين المفخور لكلب حفر أسفله، صنع في اليابان!



(١) الحثيون: Hittite شعب هندو — أوربي استطاع ملوكهم مورسيلي الأول احتلال بابل سنة ١٥٩٥ ق. م.

كانت الشمس منخفضة وقد هدأت الرياح، وكان القصب اللامتصاهى يوحى بالكآبة من بين النور الباهت. وفي مواقع عديدة إلى الشمال والشرق لاحت غيوم كثيفة من الدخان حيث يشعل المعدان القصب طمعاً في غناء جديد (للعنكر) لجاموسهم.

سألني المضيف:

"هل سمعت عن (الحفيظ) من قبل؟"

"نعم، ولكن قل لي عنها المزيد."

أشار إلى الجنوب الغربي، وقال:

"(الحفيظ) جزيرة ما هناك، فيها قصور وأشجار نخيل وحدائق من الرمان، والجاموس فيها أكبر مما لدينا، ولكن لا أحد يعرف أين هي بالضبط."

"هل رآها أحد؟"

"كثير، ولكن الذى يرى (الحفيظ) يُجن، بعدها لا أحد يفهم كلماته. أحلف (بالعباس) إنها حقيقة رآها واحد من عشيرة (الفرطوس) قبل سنتين حينما كنت طفلاً. كان يبحث عن جاموسة ضائعة، وعند عودته كان كلامه مشوشاً فأدركنا أنه رأى (الحفيظ)".

علّق (صدّام):

"بحث (صهيود) <sup>(١)</sup> شيخ (البو محمد) العظيم عن (الحفيظ) بواسطة أسطول من المشاحيف في أيام العهد العثماني، لكنه لم يجد شيئاً. يقال إن الجن تستطيع أن تخبئ الجزيرة عن أى شخص يقترب منها".

(١) صهيود بن منشد: ولد على الأغلب في بداية القرن التاسع عشر، من كبار شيوخ البو محمد دارت في أيامه معارك مع عشيرة بني لام. قاد حملة لمعرفة سر الجزيرة الموهومة الحفيظ، مات خلالها حين غصّ في شربة ماء على إيشان في الهور يسمى داور. ومن الجدير بالذكر أن صهيود هو أبو الشيخ فالح بن صهيود، الرجل العملاق الذى زاد طوله على ١٩٠ سم وبوزنه الثقيل جداً. إن الانكليز أطلقوا عليه لقب هرقل العرب تشبيهاً له بهرقل الرومان. عرف عنه الكرم كأوضح صفة له. ولد عام ١٨٥٩م وتولى عام ١٩٤١م. من أبرز أحفاده الذين ما زالوا على قيد الحياة الشيخ أبو ريشه بن خريط بن فالح الصهيود.

علقت على الموضوع بالشك، لكن (صدّام) شدّد على كلماته:  
 "لا، (صاحب) (الحفيظ) هناك وهذا أمر لا غبار عليه، اسأل أيّاً كان، الشيوخ،  
 والحكومة، فالكل يعرف (الحفيظ)".

عدنا على مهل إلى القرية على حافة الماء حيث الأصداف القوية البيضاء تغطي  
 الأرض بأطوال تراوحت بين نصف البوصة والبوصة. لقد كانت فارغة ولكن السؤال:  
 هل هي خاصة بقواقع المياه العذبة التي تحمل الطفيليات في الصيف مسببة البلهارزيا؟  
 إن هذه الديدان الدقيقة المسطحة تعيش في الماء في الفصل الدافئ. وإذا ما سنحت  
 الفرصة لها فإنها تحترق الجلد البشرى وتجد طريقها إلى المثانة حيث تتكاثر مسببة نزفاً  
 دموياً وألماً حاداً، تطرح بيوضها أخيراً خارج الجسم من البول، وعندما تكون جاهزة  
 للبدء في دورة حياتها مرة أخرى. إن البلهارزيا هي كارثة الأهوار، ويعانى جميع المعدان  
 منها كعاقبة محتومة لطريقتهم في الحياة.

هاهن عدة فتيات يجلبن الماء وهن يحملن الجرار الفخارية على رؤوسهن. إنهن لا  
 يبعدن عن حافة الماء إلا بضعة أقدام قبل ملء هذه الجرار من صدر الشاطئ، المكان  
 الذى يستخدم كمرحاض عام، فلا بد إذاً — والحال هذه — أن تحوى الجرار لعينات  
 من الجراثيم. إن كل شخص فى الأهوار مصاب من الناحية النظرية بالدوسنتاريا وبعدد  
 من الأمراض المستوطنة، ولكن فى الحقيقة أغلب المعدان اكتسبوا مناعة. وعلى أية حال فإن  
 أشعة الشمس القوية من المحتمل أن تقتل هذه الجراثيم. وعلى المستوى الشخصى، وجدت  
 أنه من غير العملى أخذ الاحتياطات باستثناء تجنب الخوض فى المياه قريباً من القرى فى  
 الصيف. لقد أكلت طعامهم وشربت الماء نفسه الذى يشربون وغت فى أغطيّتهم، وعلى  
 طول الوقت نهضنى البعوض والذباب والبرغوث نفسه. وطوال كل السنوات التى قضيتها  
 هناك عانيت مرة من متاعب فى تجاوبف أنفى، ومرة من دوسنتاريا معتدل شفيت منه بعد  
 أربعة أيام، عدا ذلك لم أعان شيئاً أسوأ من بعض الصداع.

من غير المجدى القلق من احتمال الإصابة بالأمراض، ولكن فى بعض الأحيان أجد صعوبة فى منع نفسى من الإحساس بالغثيان من الماء والطعام. لقد أصابنى هذا الغثيان فى مناسبتين وكتاهما فى منتصف الصيف حين كنت ارتحل على ظهر جواد بين المزارعين شمال الأهوار. كنت فى المناسبة الأولى أتبع سدة بزل واطئة لعدة أميال تنتهى عند قرية كانت وجهتى إليها. كان عمق الماء فيها نحو قدم أو قدمين ويمر ببطء. اجتزت كلبا ميتا يرقد فيها وعلى مقربة منه رقد عجل جاموس ميت. كان الجلد قد انسلخ فاضحا الضلوع. كانت رائحتها مروعة. كانت حافة السدة قدرة قرب القرية بسبب أن العرب يتغوطون قرب المياه لكي يتمكنوا من الاغتسال بعد ذلك. يقع المضيف عند حافة السدة والماء هناك راكد تحت طبقة من مادة غروية خضراء إلى الحد أى ظننت أنهم لن يشربوه.

وصلت ما بعد منتصف نهار بئس من شدة الحرارة فسقوتى ماءً من (حب) عند نهاية المضيف، كان بارداً منعشاً. حضر إلى المضيف كثير من الناس ما أن سمعوا بوجودى، كان بعضهم ميالاً ومحباً للاختلاط فقط، بينما رغب آخرون فى العلاج الطبى. وبعد الجملات التقليدية خرجت من المضيف إلى الظل عند أحد جدرانها حيث أجريت عملى، زرق الإبر وإعطاء الأدوية الأخرى. كان ثمة نسيم خفيف لكن الجو حار بشكل لا يطاق لأن دلاجة الحرارة فى الصيف فى تلك السهول ترتفع إلى أكثر من ١٢٠ فهرنهايت<sup>(١)</sup> فى الظل. كنت بحاجة إلى شرب المزيد من الماء، لذا أعطيت (طاسة) إلى طفل لكي يجلب لى شيئاً منه. رأيت أنه يذهب إلى السدة فصحت بنفاد صبر: "لا، ليس من هذا المكان القذر، اجلب لى ماءً من المضيف".

وهو ما فعله بعد أن رمقنى بنظرة دهشة. فيما بعد، شاهدت (الحب) وهو يملأ مرة أخرى من السدة فانتابتنى التعاسة من أننى قبلت البقاء يوماً آخر.

(١) ١٢٠ فهرنهايت ما يعادل ٤٨،٨ م°.

وفي المناسبة الثانية كنت ثاوياً عند أحد أصدقائي من الشيوخ. كنت قد وصلت قريته الليلة الماضية، بكرّ حشد المرضى الاعتيادي عند الصباح. كان الجو حاراً بشكل خانق ورطباً وقد شخت فيه نسمة واحدة، فحتي وأنا جالس لا تتم عني حركة واحدة كان العرق يتصبّب مغطياً وجهي وجسدي. لقد ذبح الشيخ العجوز المضيف شاة لإطعام ضيوفه المتقاطرين الذين زادوا على المائة. دخل أربعة رجال، من بينهم رجل أسود ضخّم، مترنحين إلى الغرفة منحنيين تحت وطأة حمل صينية نحاسية بعرض أربعة أقدام وقد علاها تل الأرز تربعت فوقه الشاة المسلوقة بلسانها المتدلى خارجاً وبعينها المشبعتين بالماء. كان العرق يتصبّب منهم وهم يحملون هذه الصينية متقطراً عبر أنوفهم وأذقاهم مستقراً أخيراً فوق الأرز، وأنا أعلم أنهم حملوه على هذه الشاكلة وقطعوا به مسافة مائة ذراع أو أكثر. قال الشيخ وهو يصبّ الدهن الحار فوق الأرز: "أهلاً وسهلاً بضيوف، اليوم يوم عيد".

ثم قال وأنا أجلس قرب الصينية:

"والآن يا (صاحب) على قدر ما تحبني بكثرة، سوف تأكل بكثرة!"





## الفصل التاسع

### فى قلب الهور

سقف بيتى (باريه) وقدمائى فوق  
أخرى، ولأنى أجهل فقه المحمل ترائى المع  
مثل (الليط).

أفلت الشمس توأ حين عدنا أنا و(صدّام) ومضيقنا إلى البيت. أذى (صحين)  
صلاة المغرب. أكثر الرجال المسنين بين المعدان الذين غالباً ما يكونون (زوّار) يؤدون  
الصلاة بانتظام، وقليل من الآخرين، كما هو الحال مع (صحين)، يحلون الأمر حلاً  
وسطاً بأدائهم صلاة الصبح والمغرب<sup>(١)</sup>! ومع هذا فالغالبية منهم لا يصلّون أبداً. وحين  
يصلّون يضعون أمامهم أولاً لوحاً مربعاً صغيراً من (التربة) الطاهرة فى كربلاء يلامس  
جباههم حين يسجدون. تحفظ هذه (التربة) دائماً فى سلة صغيرة معلقة فى الجدار.

أعاد (صحين) (التربة) إلى السلة ما أن أنهى صلاته ثم أذكى النار بإضافة أقراص  
(المطال) وقال لى أن اقترب لأتدفأ. جلب طفل فانوساً لايعدو أن يكون قنينة ملئت إلى  
المنتصف بالنفط لتخللها فتيلة من قطعة قماش ممزق تمرّ خلال عنق الزجاجة وقد ثبتت  
بقطعة تمر مهروس. كان ثمة رجلان يتحدثان إلى بعضهما فى البيت المجاور، كنت

(١) ما دامت عملية ترك الصلاة ليست ناشئة على سكة الأهوار كما يدعى المؤلف، فالأولى إذا تركها أن يؤدى  
بهذا الشكل المنقوص. أعتقد أن أمر الصلاة التى يؤديها المسلم الشيعى قد اختلط على المرلف ولم يتبّه إلى  
مكانية أداء صلاة الظهر والعصر بفصل بينهما زمن قصير، وكذلك الأمر مع صلاتي المغرب والعشاء.

أستطيع سماع كل كلمة يقولونها، فجدران البيتين لايزيدان عن (باريه) واحدة لكل منهما ولا يبعدان عن بعضهما أكثر من قدمين. لقد وجدت للتو أن ليس لهؤلاء الناس أية خصوصيات في حياتهم ولا يتوقعون غير ذلك، فقد تقبلوا الحقيقة التي تؤكد أن ما يهم أحدهم بهم البقية جمعاء. فإذا حصلت مشادة بين أفراد عائلة فسرعان ما يهرع جيرانهم على الفور عارضين النصيح وهم على الحياد وبذلك يضيفون مزيداً من الأصوات المرتفعة إلى الجلبة الأصلية. إن الطريقة الوحيدة للدخول في حوار خاص هي الذهاب في مشحوف مع شخص ما، وحتى لو حصل هذا فسرعان ما يُعرف موضوع الحوار بسبب الحب للبحث والتحقيق الذي ينتاب كلا المتحدثين وبسبب العجز عن الاحتفاظ بسر.

بدأ الوافدون بالوصول بعد العشاء. حين يبدو أن لاجئاً حتى مجرد طفل، يحشر اثنان أو ثلاثة أنفسهم حشراً بمخططات صعبة ويندسون في الحشد. إن جدران (البواري) تبعج إلى الخارج قليلاً لتسمح لنازل آخر. لم تعد هناك من فسحة سوى للموقد. في الوقت الذي غنى فيه أحد رجال مشاحيفنا رفع الكل أصواتهم مطالبين غيرهم بضرورة الاستماع! فرّق مضيئنا السجائر على الموجودين، ورغم صغر سنهم لا يتردد الأطفال عن التدخين ما أن يجدوا بقية. أعد المزيد من الشاي ووضع المزيد من (المطال) فوق النار المتوهجة التي انبعثت منها أعمدة الدخان الأزرق، وتفرقت عبر البواري فوق رؤوسنا. لاح كل شيء بدائياً غير مريح ولكني شعرت بقناعة.

كنت نصف نائم مضطرباً في زاوية حين تفرقوا أخيراً، ثم تجمعوا في الخارج على مقربة من امرأة (تقمط) طفلاً صغيراً بجانب جذوات محتضرة لموقد آخر. أعدنا ترتيب (البواري) والبسط المهلهلة. سحبت بطانيتي من حقيبة سرجي. جلب المضيف فرش النوم من النهاية الأخرى للبيت واضطجعنا جنباً إلى جنب لننام، في حين جلس هو بجانب النار لحراستا. ثمة نوء قاس في الأرض يوخز جانبي، وطقق البعوض يحاول بعناد اختييار وجهي ودبّ

البرغوث تحت (دشداشقي). نبج كلب وتحركت جاموسة مستفزة قلقلة بضعة أذرع بعيداً عن رأسي ثم غفوت ولم أستيقظ حتى استيقظ رفاقي عند الفجر.

كانت الرياح قد سكنت في أثناء الليل وكان الصباح مشمساً رائعاً وغادر الجاموس للرعى من تلقاء نفسه. إن المعدان المستوطنين، بالمقارنة مع المعدان الرحل لا يعتمدون رعى جاموسهم بل يُترك حراً في مجيئه ورواحه حسب مشيئته. كان (صدّام) و(صحين) يتناقشان داخل البيت حول قضية عبور بحيرة (زجري) أو تجنبها فرجوهم الذهاب إلى (زجري) التي أرغب برؤيتها. قال (صدّام):

"ما كنت تمنى ذلك لو صادفتنا الريح هناك. هذه البحيرة الكبيرة خطيرة جداً. فوجئت مجموعة (الزوافيف) في طريق عودتهما من (الكبور) بعاصفة في (الديمه) العام الماضي، ففرق ثمانية أشخاص ومشحوفان. لقد سبق لك رؤية (الديمه) لكنها لا تشبه (زجري)".

وانضم (صحين) إلى حوارنا قائلاً:

"نعم، (صاحب) البحيرات خطيرة، نحن نعيش هنا ونعرفها، فقبل أربع سنوات في مثل هذا الوقت من السنة غرق رجلان، أما الثالث فقد نجا حين تسلق جزيرة قصب صغيرة طافية، بقي متمسكاً بهذه الجزيرة خمسة أيام قبل أن يُعثر عليه. رأى مشاحيف تمرّ هناك مرتين لكنهم لم يسمعوا صراخه. لقد كان على وشك الموت جوعاً وبرداً".

بعد أن تناولنا إفطارنا، اكتفى مضيفنا وابنه بمراقبتنا ونحن نعيد أشيائنا إلى المشحوف ولم يتدخل أبداً لمساعدتنا. حين علقت على هذا الأمر معبراً عن استيائي، وضح لي (صدّام) ما استغلّق عليّ، إن المضيف يجب أن يساعد ضيفه على إدخال حاجاته إلى البيت، وليس العكس، الأمر الذي قد يبدو وكأن المضيف يستعجل مغادرة ضيوفه.

ثم قال:

"سوف نمر بـ (زجرى) مادمت راغباً في رؤيتها وسوف نقضى ليلتنا عند (بنى عمير)<sup>(١)</sup> في (الرملة)، ولكن، إذا هبّ الريح فسوف نختار طريقاً أطول".

وصلنا البحيرة بعد رحلة استمرت ساعتين على طول سلسلة من ممرات مائية صغيرة لا تكاد ترى وسط قصب شاهق. حين رأيت المياه المكشوفة أمامي تتلأأ تحت أشعة الشمس أصبت بخيبة أمل لأول وهلة لأن البحيرة بدت ليست أكبر بكثير من (الدبعم) التي قطعناها بالأمس. ثمّة جدران من قصب يلي المياه المكشوفة، وكنا في منتصف الطريق هناك حين أدركت انه نتاج لعدد هائل من الجزر الصغيرة الطافية من القصب، وكان بين الكثير منها مسافات متباعدة. تقع (زجرى) نفسها وراء هذا الطرف من الجزر. لا أستطيع الحكم على اتساعها فيما إذا كان ثلاثة أو ستة أميال من بين خشب قاع المشحوف. كان النسيم رقيقاً جداً لكنهم أوقفوا التجديف وظهرت عليهم إمارات القلق. كان نفاد الصبر يعتريني لأني لا أستطيع إدراك كيف يمكن لهذا الهدوء أن يكون مضللاً خداعاً.

بعد أربعة سنوات عند أعلى الفيضانات صادف عبورى لمساحات واسعة لمياه الفيضان، بلغ اتساعها اثني عشر ميلاً وبعمق ستة أقدام غطت الصحراء على طول الحافة الغربية للأهوار. لقد بدأنا عند الفجر وكانت البحيرة هادئة هدوء الموت ولم يكن حتى اختلاج للريح. كنت وقتها قد حصلت على طرادتي الخاصة بي، وعند وسط هذه البحيرة هتف (عمارة) أحد رجال طرادتي الخاصة بي، وعند وسط هذه البحيرة هتف (عمارة) أحد رجال طرادتي الأربعة بصوت خائف:

"رحماك ربى، هل تسمع؟"

(١) بنى عمير أو العمايه: إحدى عشائر بن خيكان. من العشائر التي أفلقت راحة المختلين من عثمانين وإنكليز في هور الحمّار. تسكن هذه العشيرة في الجانب الشمالى من هور الحمّار في المنطقة الواقعة بين البدو عياش وآل حول.

فأصغيت وسمعت الريح قادمة باتجاهنا من الشمال عبر ماء ساكن، وأمامنا، استطعت تبين خط لأشجار النخيل، ربما كان يبعد عنا مسافة ستة أميال، وقد كان دليلنا للقرية التي نقصدها. كان القصب قد اختفى من ورائنا ولم نعد نراه، ثم صاح أحد الأولاد باهتياج:

"انظر، هناك (عائيه) <sup>(١)</sup>، الحمد لله، أسرع (صاحب)، أطلق النار لجذب انتباههم".

كانت الطراة نصف غارقة حين وصلت (العائيه) فتولى الملاحون نقل صناديقى على متنها وقطروا الطراة الفارغة. حين وصلنا القرية بعد مدة، كانت الأمواج الكبيرة تتكسر عند الشاطئ وكانت أشجار النخيل تنحني تحت وطأة الريح العاتية. الآن، وأنا انظر إلى مياه (زجرى)، ناشدت الآخرين أن نمرّ خلالها. قال (صدام): "حسنا، سوف ندور حول الحافة لكي نلجأ إلى القصب فيما لو هاجت الريح، إنها أبعد لكنها أكثر أمناً".

كنت قد افترضت أن (زجرى) مثل (الدبجه) لها حدود معلومة من جزر القصب الراسخ، ولكن حين كنّا نجتاز مجموعة طافية من الجزر إلى مجموعة أخرى، أدركتُ أن ما يظهر وكأنه حدّ هو في الحقيقة سلسلة أخرى من الجزر خبّات خلفها المزيد من المياه المكشوفة والمزيد من الجزر. كان الماء، وهو بعمق ثمانية إلى عشرة أقدام، رائقاً شفافاً جداً، امتدت تحت سطحه كتل من أعشاب لها هيئة المطاط كأنها أعشاب البحر. تتأرجح مع حركة التيار. إنه نبات الحورية الشائك الأوراق الذى يسميه المعدان (السويكه). يقول المعدان عن هذه القيعان إنها أماكن تكاثر السمك المفضلة. ظهر عدد من طيور (نعيج الماي) مبتهجا تحت أشعة الشمس القوية يسبح حيثما مبتعداً ويدير مناقيره الصفراء الكبيرة باتجاهنا وهو يراقبنا. ناشدنى (صدام) أن أطلق عليها

(١) عائيه: Sailing Boat: نوع من المراكب الكبيرة تستخدم الأشرعة.

النار مادام المعدان يستفيدون من جلود أكياس مناقيرها لطبوهم، لكنها ظهرت ساخطة على نحو مضحك لذلك تذرعت، لكي أمنحها الحياة، أن الإطلاقة سوف ترعب (الخضيري) المستقر في الخطوط المعتمة في الماء هناك. طار (الرخيوي) محدثاً ضجيجاً من بين مجموعة قصب إلى البعيد خافقاً بجناحيه بتناقل بينما تدلت أرجله الطويلة خلفه. قال أحدهم:

"لو أنك اصطدته لأطعمتنا جميعاً، إنه مكتنز كخروف لحمه رائع أيضاً".

حلفت عدة نسور أماناً وقد صفت أجنتها. دائماً ما تحوى سماء الأهوار نسوراً وعقباناً كما هو الحال في أفريقيا.

وصلنا إلى خليج صغير عند النهاية القصية لـ (زجري) وكانت هناك ثلاثة مشاحيف يقود كل منها شاب صغير، وعلى مقربة منهم طفا السمك فوق سطح الماء. اقترح أحد رجال مشحوف (صحين) التقاط هذه الأسماك، لكن (صحين) رد بنزق: "لا تكن أحمق، نحن لا نعرف هؤلاء الناس ولا نريد أن نغضبهم، لنطلب منهم وأنا على يقين أنهم سيعطونا قسماً".

قال لنا الشبان الصغار إنهم من (الرملة) القرية من الفرات وأعطونا ست سمكات بوزن رطلين لكل واحدة. يدعى هذا السمك (البنى) ويميل لونه إلى الاصفرار ولا يشبه بقية الأسماك ويكون بلا مجسات. يصيد المعدان السمك عن طريق السم<sup>(١)</sup> في الشتاء وفي الربيع قبل أن ترتفع مناسيب المياه في الأهوار. إنهم يستخدمون (الداتوره Datura) وهو ذو خاصية تخديرية يجلبونه من العطار ويجعلونه بشكل كرات بعد مزجه بالطحين وذورق الدجاج أو يحشرونه في سمك الأنهار العذبة<sup>(٢)</sup>. إن الزهر يخدر السمك فيرتفع إلى السطح وبذلك يسهل جمعه. استعمل هؤلاء الشبان أسماك الأنهار العذبة.

(١) يسمون السم المستعمل لصيد السمك (زهر).

(٢) سمك المياه العذبة: Fresh - Water Shrimps، يسمونه روبيان وهو سمك صغير جداً ولا يأكلونه.

حين سألت (صدّام) فيما إذا كان المعدان يصطادون بالشباك قال:  
 "لا، مطلقاً، (البربره) فقط هم الذين يصطادون بالشباك، أما ابن العشيرة فيصطاد  
 بالقاله<sup>(١)</sup>".

"مَن هم (البربره)؟"

"إنهم (البربره)<sup>(٢)</sup>! ناس من درجة أدنى يصطادون السمك بالشباك. إنهم يعيشون  
 بين العشائر وهم كثير بين (البربره)".

أُشَد (صدّام) بيتاً من أغنية<sup>(٣)</sup> تبين حقيقة (البربره)، فهم مثل (الحياك) والعطارين  
 المتجولين والحدادين و(الحيساوية)<sup>(٤)</sup> والصابئة، خارج حدود المألوف ولا ينسجمون مع  
 أعراف ابن العشيرة بسبب انشغالهم بالكسب التجارى. فبين المعدان أنفسهم كما هو الحال  
 بين كل العشائر العربية. تُعدّ الثروة المحروزة بالجهد القليل والتجارة نشاطاً محقرّاً. إن  
 منزلة الرجل تعتمد بشكل عام على شخصيته، وفضائله ونسبه.

ما أن غادرنا (زجرى) حتى ألقينا أنفسنا فى جزر قصب كثيفة. كانت المياه  
 ضحلة على طول المسافة الممتدة قبل (الرملة). لذا وجد الرجال صعوبة فى تسيير  
 المشحوف. كانت (المرادى) هشة سهلة الانكسار، وحين حاولت الدفع بواحد منها  
 انكسر عند أول محاولة، لكن هؤلاء الرجال يلقون بثقل أجسامهم عليها فيجبرون

(١) لقد طرأ تغيير على هذا العرف الرائع، فابن الأهوار لم يكن يصطاد من السمك إلا لياكل، وكانوا يستهجنون  
 الصيد الكثير. أما الآن فإن تجاوزات كبيرة حصلت ولم يعد احد يتورع عن الصيد بأية وسيلة كانت.

(٢) البربره: لم أجد ما يميزهم عن بقية سكان الأهوار سوى امتناعهم صيد السمك لغرض كسب العيش حالهم فى  
 هذا الحال (الحيساوية) الذين يزرعون الخضراوات الأمر الذى يمجّه زراع الحنطة والشعير والأرز. وقد اشتهر  
 من البربره عائلة أو عشيرة (عبودة) و(بيت شذير).

(٣) استطعت الحصول على أغنيتين لا بد أن (صدّام) استعمل إحداها وهما:

١ - البربره هالكاولية لاوئيد ولا بنّية والكاولية هم الفجر.

٢ - جببر البربره راحوا يدفنونه الجصانة جبيرة وماجله عيون. والجصان: نوع من السمك الكبير و(ماجله)  
 أى أكلت.

(٤) الحيساوية: ومفردها (حيساوى) و(خساوى) هو من امتن زراعة الخضر كالطماطم والخيار وغيرها.

المشاحيف على الحركة للأمام قدماً واحداً في كل دفعة. إن (المردى)، وهى عبارة عن قصب عملاق بطول أربعة وعشرين قدماً، يستعمله الشيوخ لبناء مضاييفهم، لا تتوفر إلا في مناطق معينة من الأهوار. وعادة ما يحمل المعدان (مرادى) احتياطية، لكن في الغالب بإمكان الرجال استعمال (المردى) الواحد مدة شهور. حين خطوط إلى المشحوف بشكل أخرق ذلك الصباح هشت ثلاثه منها.

حين وصلنا (الرملة) أخيراً، كنا في الجانب الآخر من الأهوار. على الرغم من أن القصب والبردى ينموان بالقرب من القرية والرجال يقطعون المسافات في المشاحيف جينة وذهاباً فهناك أشجار نخيل تخللت البيوت وامتدت كذلك في السهول المكشوفة وراء القرية<sup>(١)</sup>. حللنا في أحد المضاييف واصطحبني مضيفنا في نزهة على الأقدام حول القرية التى قطعتها قناة عميقة مليئة بالمياه انتشرت عبرها القناطر من جذوع النخيل. اجتزنا دكان العطار اللانذ خلف كوم من (البوارى) ثم توقفنا على مبعدة يسيرة لمراقبة عائلة كانت تعمل في حياكة هذه (البوارى). جلس رجل متصالب الساقين على الأرض بجانب كوم من القصب الجفاف، كل قصبة بطول ثمانية أقدام بسمك إصبعى الوسطى. كان يشق القصب بسكين معقوفة قبل أن يرميه باتجاه امرأة تولت عملية تطويعه بيد هاون خشبي مستخدمة النهاية الثقيلة للدق وممسكة بالجزء الثقيل المتصالب فوقها<sup>(٢)</sup>. كانت تسحق حوالى عشرين قصبة في كل مرة واضعة إياه بجانب بعض باتجاه واحد. ثم تولى ولد حياكتها على هيئة عظام سمك (الرنكة)<sup>(٣)</sup>. كانت أبعاد (الباريه) ثمانية أقدام بأربعة تقريباً، وكما قال مضيفي فإن حياكة (البارية) الواحدة تستغرق قرابة ساعتين وتدر خمسين فلساً.

(١) لم أستطع إدراك سبب استغراب المؤلف من وجود النخيل هناك مادامت تلك الأرض هى أرض النخيل. قد يكون سبب هذا الاستغراب هو معاملة المؤلف للنخيل معاملة القصب والبردى اللذان لا ينموان في الممرات والمناطق التى تكثر فيها حركة المشاحيف.

(٢) يد الهاون هذه التى يستخدمونها لسحق القصب يسمونها (مدكك).

(٣) لم أستطع العثور على ما يؤيد وجود مثل هذه السمكة herring في العراق.



ثم ابتعدنا أكثر باتجاه السهل المكشوف. كانت الأرض المغطاة بمشيم الحشائش تشير إلى أنها كانت مغمورة بالفيضان كما يشير وجود التبن إلى الحصاد، أما الآن فهي صلبة حديدية وقد انتشرت فيها آثار حوافر الجاموس كأنها قوالب جصية. ركبت طيور (الطيطوى) الريح صائحة وسرعان ما حطت ثم طارت. وطارت طيور (الرخيوى) و(البويضى) ما أن وصلنا فى حين طاف صقر، صافاً مرةً وخافقاً مرةً بضعة أمتار عن سطح الأرض. تعتم الأفق البعيد بصنوف أشجار النخيل الدالة على القرى على طول الفرات. أشار فيقى إلى رابية صغيرة قائلاً:

"هناك، كان للأتراك مدفع حين قاتلونا، وقد ضربوا قريتنا بالقنابل وقتلوا جميع الناس".

ربما كان هذا فى أثناء حملة تآديبية قدمت من البصرة بسبب المتاعب التى تثيرها تلك العشائر للأتراك.

عدنا إلى المضيف قرب الغروب. كان الضيوف قد ذهبوا متذرعين بتعبنا الذى عانىناه فى أثناء رحلتنا، وب حاجتنا إلى النوم. فى مكان ما تنهى إلى صوت امرأة تنوح على وليدها الميت، لقد استمرت ساعة بعد ساعة دون توقف مرردة كلمات:

"يمه الولد يا ابني".

كان حزناً فاجعاً أغمر بغزارة على تلك الليلة ولم يجد له متنفساً.

ربما يغادر الآخرون غداً، ويتركونى وشأنى.



# الفصل الحاشر

## الخلفية التاريخية

حين غرق المشحوف — مشحوف آدم —  
مالت حواء عليه كقصة غضة، قالت وهى  
تربت بيدها المبتلة: سينسينا الماء الجنة.

على حافة الأهوار بدأ التاريخ البشرى فى العراق... ومن الأزمنة  
السحيقة المظلمة انحدر قوم متقدمون فى وعيهم الاجتماعى والثقافى من السهل  
الواسع المرتفع فى إيران واستقروا على دلتا الفرات حيث بنوا فى الألف  
الخامس قبل الميلاد بيوت القصب وصنعوا الزوارق واصطادوا السمك  
(بالفالة) والشباك. لقد عاشوا هناك كما يعيشون اليوم فى بيئة لا تختلف إلا  
قليلاً عن بيئتهم الحالية. وبعد ألف وخمسمائة سنة لاحقة تشرّبوا مع جنس  
آخر قدم من الأناضول. (جلب القادمون الجدد جاموسهم الداجن الأليف)<sup>(\*)</sup>  
ومعرفتهم بالصناعات المعدنية وفن الكتابة. خلّف كل جنس فى فخارياته  
التميزة وثائق الأرض، ولكن بطريقة ما بقى الإنسان حيّاً فأوجد السومريون  
مدنهم على أرضٍ لقرى قديمة دفنت تحت أقدام من الغرين منمين، ربما،  
حضارة العالم الأولى.

(\*) بدت هذه المعلومة غريبة لأن الجاموس لا يعيش فى المناطق الباردة.

وبمرور القرون سقطت سومر<sup>(١)</sup> لتزدهر بابل<sup>(٢)</sup>. وفي عام ٧٢٨ ق.م سحقت القبائل الآشورية<sup>(٣)</sup> بعرباتها التي تجرها الخيول وبأسلحتها الحديدية الآموريين<sup>(٤)</sup> ودمروا بابل وأحالوها إلى قاع صفصف. وبسبب الفتوح والحروب التي أرهقتهم فقد دمرهم الميديون<sup>(٥)</sup>. وفي عام ٦٠٦ ق.م زُلزلت نينوى<sup>(٦)</sup>، المدينة الآشورية الجبارة وأصبحت خراباً وقفراً وملاذاً للوحوش تركن إليها.

نُهضت بابل من جديد بقيادة الكلدانيين<sup>(٧)</sup> واستمرت صامدة بعد نينوى بسبعين

(١) سومر: Summer مملكة قديمة في جنوب وادي الرافدين. طُوّر شعبها حضارة رائعة في حوالي ٣٥٠٠ قبل الميلاد. كان السومريون مهرة في الصناعات المعدنية والفخار وابتدعوا طريقة في الكتابة عرفت باسمهم. أدمجت سومر مع المملكة البابلية في ٢٢٠٠ قبل الميلاد.

(٢) بابل Babylon: العاصمة القديمة للمملكة البابلية، تقع أطلالها على الفرات جنوبي بغداد بحدود ٥٥ ميلاً. أنشئت قرابة الألف الرابع قبل الميلاد. عُرفت بعمراتها الباذخ وحنائتها المعلقة التي تعد من عجائب الدنيا السبعة.

(٣) آشور Assures: مملكة قديمة في شمالي وادي الرافدين تقع بصورة رئيسية بين دجلة والفرات، عاصمتها الأولى آشور وأصبحت نينوى عاصمتها فيما بعد. اتسعت رقعة الدولة الآشورية لتصبح إمبراطورية في ١٩٥٠ - ١٧٥٠ ق.م ومن ثم بدأ نجمها بالانفول حتى سنة ١٥٠٠ ق.م. ثم استعادت قوتها وذرورة مجدها في عهد سرج الثاني، وسنحارب، وآشور بانيبال. سقطت هذه المملكة على يد الميديين في ٦١٦ - ٦٠٦ ق.م.

(٤) الآموريون Amorites: بدو ساميون عاشوا في الصحراء السورية. انتقلوا إلى وادي الرافدين في نهاية الألف الثالث ق.م وأسسوا سلسلة من الممالك فيها.

(٥) الميديون Medes: شعب هندو - آرى سكنوا الأجزاء الغربية والشمالية من الهضبة الإيرانية، وكانت عاصمتهم هي إكباتانا (همدان) في نحو ١٠٠٠ ق.م تحالف الميديون في ٦١٢ ق.م مع الكلدانيين Chaldaens وتسببوا في خراب نينوى Nineveh وسقوط الإمبراطورية الآشورية.

(٦) نينوى Nineveh: عاصمة الدولة الآشورية منذ نهاية القرن الثامن ق.م شيدت مدينة نينوى ومعبدها الرئيسي المكرس للآلهة عشتار على ضفة نهر دجلة بالقرب من مدينة الموصل الحالية في شمالي وادي الرافدين. دمرها الميديون في ٦١٢ ق.م.

(٧) الكلدانيون Chaldaens: قبيلة آرامية سميت كذلك نسبة إلى كللو والتي بما انتقلت إلى جنوبي وادي الرافدين في القرن العاشر ق.م وفي ٦٢٦ ق.م أسس الكلدانيون تحت حكم (نبوبولاسر) السلالة البابلية الجديدة وجعلوا بابل عاصمة لهم، وفي ٦١٢ ق.م أطاحوا بنينوى مع حلفائهم الميديين. وتحت مدة حكم نبوخذ نصر (٦٠٤ - ٥٦٢ ق.م) بنشاط عمراني وعلمي عظيمين. وقام بطرد المصريين من سوريا واحتل القدس وقام بترحيل اليهود إلى بابل. احتل الملك الاخميني كورش الثاني (Cyrus 2) مدينة بابل في ٥٣٩ ق.م وهذا يحدد نهاية السلالة.

سنة حتى دمارها النهائي على يد كورش<sup>(١)</sup> الذى أحرق جنائن (نبوخذ نصر) المعلقة. وغزا العراق أيضاً، خلال الألفى سنة نفسها، الكوتيون<sup>(٢)</sup> المتوحشون الخارجون على القانون والكيشيون<sup>(٣)</sup>. والحيشيون الذين عزلوا بابل، والميشانيون<sup>(٤)</sup> الذين جلبوا معهم آلهة غريبة من الهند، ومن ثم شعب عيلام<sup>(٥)</sup>.

بعد أن استولى (كورش) على بابل في سنة ٥٣٩ ق.م وقع العراق تحت إدارة أجنبية لما يزيد على الألف عام، فمرة يصبح مقاطعة مهمة لإمبراطورية ومرة أخرى منطقة حروب لقوى متصارعة كالفُرس والإغريق والسلوقيين<sup>(٦)</sup> والفرثيين<sup>(٧)</sup> والرومان

(١) كورش Cyrus: (٦٠٠ — ٥٢٩ ق.م) ملك بلاد فارس للمدة من (٥٥٠ — ٥٢٩ ق.م) تزعم سلالة حكم. استحوذ على بابل وسوريا في ٥٣٩ ق.م.

(٢) الكوتيون Gutti: قبيلة غير معروفة من جبال زاغروس غزت بلاد ما بين النهرين في نحو ٢٢٠٠ ق.م وتبست في سقوط سلالة أكد Akkad. توحدت القوى بقيادة اوتوحيكال حاكم الوركاء لطردهم في حوالى ٢١٢٠ ق.م.

(٣) الكيشيون Cassites: قبيلة من أصل قوقازى توجهت إلى وادى الرافدين من جبال زاغروس الإيرانية في الألف الثانى ق.م، أقاموا سلالة لهم بعد الحملة الحثية في حوالى ١٥٩٥ ق.م تبست في سقوط سلالة بابل الأولى.

(٤) الميشانيون Mittanians: وهم الحوريون Hurrians: جماعات مجهولة الأصل ويعتقد أنهم جاءوا من المرتفعات الواقعة شمال شرق الهلال الخصيب بين بحيرة أرومية وجبال زاغروس. غزوا شمالي بلاد الرافدين وسكوها ومنها اتجهوا إلى سورية وأسسوا إحدى الممالك القوية هناك. نجحوا في تأسيس مملكة قوية لهم في مملكة ميتاني سنة ١٥٠٠ ق.م التى امتد سلطانها إلى البحر المتوسط وضمت بلاد آشور عاصمتها واشوكاني يعتقد أن موقعها الحالى على نهر الخابور شرقى تل حلف وحران. ومن بين المراكز الرئيسة لبيتان هي أرانجا، وهي كركوك الحالية.

(٥) عيلام Elam: إقليم يقع جنوب غرب إيران على الحدود مع العراق وقد سكن من قبل العيلاميين في الألف الرابع ق.م، وتعد سوسه Susa المدينة الرئيسة فيه.

(٦) السلوقيون Seleucids: سماوا بالسلوقيين نسبة إلى سلوقس (٣٥٦ — ٢٨٠ ق.م) أحد قادة الإسكندر الكبير الذى أسس الإمبراطورية السلوقية، بعد وفاة قائده، احتل بابل في ٣١٢ ق.م السنة التى يبدأ منها تقويم العهد السلوقى. وامتدت إمبراطورية سلوقس من آسيا الصغرى وبلاد وادى الرافدين إلى أفغانستان، وكانت عاصمتها في سلوقية على نهر دجلة. احتل الفرثيون عاصمتهم الأمر الذى يُعد بداية تدهورهم.

(٧) الفرثيون Parthians: تقع أراضيهم شرق بحر قزوين. استطاع الفرثيون التوسع وامتدت أراضيهم في عهد ميثراديتس الأول (١٧١ — ١٣٨ ق.م) من بابل إلى باكتريا، وافتتح طريق الحرير في عهد ميثراديتس الثانى (١٢٤ — ٨٧ ق.م) الذى أصبح على تماس مع الرومان بقيادة سولا على نهر الفرات في الغرب.

ومرة أخرى للفرس الذين ساروا بجيوشهم عبر أراضيهم طمعاً في كبحه أو انتزاعه من محتلين آخرين. وفي بداية القرن السابع الميلادي اندفع العرب بقوة خارج الصحراء على شكل موجات للفتوح وحرّروا العراق، فأضافوا بذلك اسماً آخر لقائمة الفاتحين الغرباء.

إن الأمل في الغنائم كان الحافز، واعتناق الإسلام، الدين الجديد، هي الرابطة التي جمعت ووحدت القبائل البدوية. إن الحكومة العربية الجديدة التي رحب بها السكان الأصليون أو نظروا إليها بلا اهتمام لاءمت الطبيعة المتوترة لهذه البلاد وتركت كل من اعترف بنظامها وأعرافها وشأنه. وبعيداً عن تحيزهم المتحدّد في ضوء اعتناق الدين الجديد، فإن العرب يعدون الإسلام تشريعاً لعرقهم ولم يسمحوا لأحد في البداية في اعتناق الدين الجديد ما لم يكن منتسباً لإحدى القبائل العربية. يسمّى العرب المزيفون غير الحقيقيين بالموالي. يدفع غير المسلمين ضريبة خاصة، ولم يُشجّع اعتناق الدين الجديد بصورة جماعية. خلال المائة والستة عشر عاماً اللاحقة أصبح العراق جزءاً من الإمبراطورية الإسلامية العربية، أدير بادئ الأمر من قبل مركز الخلافة في المدينة في الحجاز، ومن ثم من دمشق باستثناء المدة التي حكم فيها عليّ، الخليفة الرابع، فقد كان يُدار من الكوفة. خلال تلك السنين عيّن المستوطنون العرب جماعة صغيرة من المحاربين الارستقراطيين لسياسة المدن وحكمها، وكان أغلبهم ممن خدم مقاتلاً أو موظفاً حكومياً. كانوا طغاة قساة وعاملوا السكان الأصليين بازدراء. وحين ولدت الحركة الشيعية بعد مقتل الحسين في كربلاء عام ٦٨١م استعانت بموالي العراق بصورة خاصة مادامت هذه الحركة تعبّر عن سخطهم واستيائهم بتعابير دينية بصورة ثابتة. ومع الوقت وطّد الحكم العباسي ذريته في العراق وبنى عاصمة جديدة — بغداد — في عام ٧٥٠م. وعلى الرغم من إسلامية الإمبراطورية غير أنها لم تعد عربية بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، فحياة البلاط الفخمة التي كانت تحيط هارون الرشيد بأرديته البهية

وبآداب المعاشرة المعقدة المدروسة والطقوس والشعائر الرسمية، والمخصين وجلادى البلاط، كانت كلها تختلف اختلافاً جذرياً عن الحياة البسيطة والقاسية التى عاشها الخلفاء الأوائل فى الحجاز.

لقد استمرت الخلافة العباسية قرابة خمسة قرون ابتداءً من أمجادها الأولى إلى اضمحلالها فى الأزمنة المتأخرة. أُعدم آخرُ خلفاء بنى العباس على يد هولاءكو<sup>(١)</sup> بعد أن احتل بغداد عام ١٢٥٨م وأضاف بموته رقما آخر إلى ثمانئة ألف جثة ذبحت من قبل المغول حين هبوا المدينة. فى عام ١٤٠١م نُهبَت بغداد مرة أخرى وهذه المرة من قبل تيمورلنك<sup>(٢)</sup> آخر الغزاة المغول، وإذا كان عدد القتلى اقل هذه المرة فهذا بسبب قلة عدد السكان أصلاً. وبعدهم جاء التركمان بالخرّوف الأبيض أولاً ثم بالخرّوف الأسود ومن ثم فى سنة ١٥٠٩م جاء الفُرس لكى يليهم فى سنة ١٥٣٤م الأتراك الذين سيطروا على البلاد حتى طردوا من قبل الإنكليز فى الحرب العالمية الأولى. ولكن ما تلا سيطرة الأتراك على العراق، فى الحقيقة، انحدار لمقدراته وثرواته، فقد كان الموظفون الأتراك القادمون من مدن صغيرة يحاولون تأكيد شكل لسطوهم على العشائر الصعبة المراس فى هذه البقعة المدممة من الإمبراطورية المتداعية.

منذ آلاف السنين، منذ الأزمنة السومرية كان العراق مهداً لمديّات وزراعة مستقرة. وكان الغزاة قد هبوا المدن وذبحوا السكان، ولكن السومريين، حتى قدوم المنغوليين، يعيدون بناءها مرةً ثانية، صانعين بذلك إسهاماتهم للحضارات التى انمحت، وفوق هذا كانوا يهتمون بالقنوات التى تجرى فيها مياه سقيهم. لكن الفرسان الصفر المتشاقلين الذين بعثهم جنكيز خان من أطراف آسيا الذين لم يجدوا ما يفعلونه فى هذا

(١) هولاءكو: Hulagu (١٢١٧م - ١٢٦٥م) غاز منغولى، حفيد جنكيز خان، احتاح بلاد فارس ودمر بغداد فى ١٢٥٨م وأسقط الخلافة العباسية.

(٢) تيمورلنك: Timur - Leng (١٣٣٦م - ١٤٠٥م) غاز منغولى، استطاع احتلال سمرقند وحاول استعادة أمجاد إمبراطورية جنكيز خان فغزا التتر سنة ١٣٩٢م وبلاد الترك فى ١٤٠٢م. مات خلال غزوه للصين.

العالم، كانوا يجدون لذة في القتل فقط، فكل آثارهم أهرام من الجماجم البشرية. وحين اندفعت أخيراً زوبعة الدمار تلك خارج العراق كانت ثمار القرون من العمل قد تحطمت بما فيها نظام الرى الذى يعتمد عليه رخاء البلد، فقد تضرر بطريقة مأساوية. الكثير من هذا الضرر قد نُظر فيه، لكن الأضرار ذات التأثير المتزايد مهمة. إن ترتيب الأولويات، بمجهود دؤوب أمر مطلوب في إزالة الوحول من قاع الجداول والقنوات وتقوية وإصلاح الصفاف وبناء الخزانات لتنظيم الفيضانات. كان عدد الناجين من الهلاك، بعد مرور الحشود المغولية، قليلاً وكانوا بروح منكسرة أوهى من أن تُصلح الضرر فتحولت الحقول إلى صحارى وتشتت الماء الثمين في مستنقعات سبخة. ومع استمرار بعضهم بالزراعة على ضفاف الأنهار لكن العراق تحول من بلد زراعى إلى بلد رعوى وتداعت المدن التى كانت من أعظم المدن في العالم وانتهت إلى قرى بائسة.

انحدر العرب الرحل من صحارى ما وراء الفرات إلى الريف وراحوا يرعون قطعانهم على أكوام كانت ذات يوم مدناً عامرة. في الوقت الذى استقر فيه العرب الأصليون في مدن وحوضر مزدهرة وقد تشربوا مع السكان الأصليين، وراح هؤلاء المهاجرون الجدد بجيامهم السود وقطعان إبلهم وماشيتهم يقسمون الأراضى إلى مناطق رعى. أُستبدل النظام الحكومى المصاغ وفق منطق الحياة المدنية بقانون الخيام العشائرى. في مثل هذه الظروف يمكن للأمن أن يجد سبيله عبر حماية العشيرة العربية فقط، لذا فإن فلاحي البلاد الأصليين المروّعين لا يجدون أمامهم سوى إلحاق أنفسهم بأية عشيرة تقبلهم. ويقبولهم بمنزلة أدنى فإنهم ينسخون عادات من قبلهم وتقاليدهم نفسها من ارسقراطيى الصحراء ويحاولون التشبه بصنائعهم نفسها. ومع الوقت فقد طمست المعالم القديمة وامتزج العنصران واستقرت بعض العشائر على اليابسة وهجر البعض الآخر إبلهم وحملوا خيامهم على الحمير<sup>(١)</sup>.

(١) إشارة إلى قصر المسافات التى يجوبونها وميلهم إلى الاستقرار ضمن بقعة معينة.

لدى عرب الصحراء، الذين هجروا إلى العراق، القليل مما يشبهون به سكان العراق الأصليين لكن طباعهم وعاداتهم هي التي سادت وغلبت. يمكن لشعب العراق الادعاء بفخر انحدره من السومريين أو البابليين أو الآشوريين الذين غزت جيوشهم مصر، ومن الفُرس الذين تبعوا كورش أو قاتلوا تحت لواء (داريوس) <sup>(١)</sup> أو (أحشورس) <sup>(٢)</sup>، أو من الفرثيين الذين أبادوا الجموع الرومانية. وبدلاً من ذلك نجدهم يتباهون بأنهم بدو مؤصلون. لقد مرّ الإسكندر <sup>(٣)</sup> في هذا الاتجاه ومازال سحر اسمه سائداً في أواسط آسيا ماكتفا في الجبال والصفوح حيث يقسم الرجال هناك أنهم ينحدرون من سلالة جنوده، لكنه على أية حال، منسى في العراق. حين كنت أسمع المسنين وهم يتحلّقون حول المواقد ساردين حكايات أسطورية عن الشجاعة والكرم لا يأتون على ذكر الإسكندر ذى القرنين ولا الخلفاء الذين حكموا بغداد في الأزمنة البهية، بل كانوا يقصّون حكايات عن رعاة رثين من صحارى الجزيرة العربية!

إن عرب الصحراء هم دائماً مشاريع شقاء وشدة، فلا راحة ولا رخاء، هناك الترحال الطويل المرهق والكدح برؤوس شاحخة.

"إننا بدو".

هكذا يصرخون مفتخرين ومبتغين حريتهم فقط. إنهم صبورون على الألم وغالباً ما يكونون شجعاناً يعيشون على الغارات أو صدها وهو ما ترتبه السنن التي عادة ما

(١) داريوس: لعل المؤلف يشير إلى عموم داريوس Darius فهناك شخصيتان بهذا الاسم هما داريوس الأول أو دارا الأول (٥٥٠ - ٤٨٦ ق.م) ملك فارس يُعرف بالكبير، وداريوس الثالث (٣٨٠ - ٣٣٠ ق.م) ملك فارسي، هزمه الإسكندر في معركة آسيوس عام ٣٣٣ ق.م.

(٢) أحشورس Xerxes أو أخشويرش: (٥١٩ - ٤٦٥ ق.م) ملك فارسي غزا بلاد اليونان عام ٤٨٠ ق.م.

(٣) الإسكندر Alexander: الإسكندر الكبير أو المقدوني (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م) ملك مقدونيا وابن فيليب الثاني اجتاحت بلاد فارس، واحتل مصر وأنشأ مدينة الإسكندرية ووصل بجيوشه إلى النجاف حيث رفض جنوده التقدم أكثر فعاد إلى بلاد بابل حيث مات فيها سنة ٣٢٣ ق.م.



تكون متعلقة بالشهامة، ويكتسبون المفاخر وعزة النفس الشرسة في المخاطر والشدائد ولا يشكّون مطلقاً بتفوقهم على سكان القرى والمدن. إنهم يطلقون على أنفسهم (أصلاء) مستخدمين الكلمة نفسها (أصيل) كما اعتادوا على وصف نقاء دمائهم. إنهم في الحقيقة ينحدرون من أنقى عرق في العالم، على مدى قرون من المصاهرة بزواج ابن العم من ابنه عمه كما هي عادتهم. لقد سلموا من الانحلال التناسلي من خلال بيئتهم حيث الأصح هو الذي يبقى على قيد الحياة، أما الآخرون فيُجثثون بلا رحمة. ومنذ صغرهم يعتادون الجوع ويتضورون حيث تشح الأمطار — وهي غالباً ما تشح — فيهملون ظمأهم عادته المأى يومياً تافهاً، وأحياناً يحصل خطأ في حساباتهم لذا فهم يموتون. وعلى مدى أشهر الصيف يعانون الحرارة التي تهاجمهم كأها هبة من فوهة فرن. وتعدّ هذه الأشهر موسماً مقتياً بالنسبة للرعاة، ولكن في الشتاء، الجو سيء أيضاً بسبب الريح الثلجية التي تندفع عبر رمال جرداء، والأمطار المندفعة التي تنقعهم حد العظم<sup>(١)</sup>. يجلسون على الأرض خلال ليالي الشتاء الطويلة ملتفين بحرقتهم قد أخذهم السهر متيسين لا يقوون على أى حركة. أما ما يخص طعامهم فهو طاسة من لبن الإبل صباحاً ومساءً، هذا إذا حالقهم الحظ. وهناك دائماً تهديد الغارات والخوف من الأخذ بالثأر والعداوات والموت المفاجئ.

إن الحياة البدائية التي يحياها البدو تسمح لهم ببعض الممتلكات، ولكن أى شىء غير ذى فائدة يُعدّ عبئاً وعائقاً لهم. فكل مقتنياتهم هي ملابسهم التي يرتدون، وأسلحتهم وسروجهم، وعُدّة للقهوة وأعمدة وخيام من شعر الماعز، فضلاً عن ماشيتهم التي هي خيرهم وسعادتهم والمسؤولة عن حلّهم وترحالهم والتي يعانون من أجلها ما يعانون من مشقة بابتهاج. إنهم ذوو شموخ ويفتخرون بشخصياتهم إلى حد

(١) بدت المعلومة غريبة لأن المؤلف إنما يعرض لتجربته التي قضاها في الربيع الخالي من الجزيرة العربية المعروفة بشحة الأمطار.

كبير، وذو أنفة لا يقلبون زعامة كل من هبّ ودبّ، ويفضلون الموت على أن يلحق بهم عار. إنهم أكثر الناس تشاوراً وديمقراطية بينهم، ومع ذلك يقيمون النسب باعزاز، وقد حرصوا لقرون على نقاوة دمائهم بخناجرهم. يمنحون شيوخهم قدراً من الاحترام على قدر رفعتهم في النسب وينصرفون عن كل من لم يستطع إثبات تلك العراقة في النسب. قائد العشيرة أو زعيمها هو الأول من بين مجموعة رجال متساوين. إنه لا يملك خدماً ولا يدفع لحاشية لإمضاء رغباته أو إحراز التأثير لسلطته. يطيعه أفراد عشيرته ويتبعونه مادام يحظى باحترامهم، وهو يديرهم ماداموا طوع أمره، وما أن يغضبهم حتى يتحولوا عنه منصرفين إلى غيره من عائلته ويتركوا خيمة ضيافته فارغة. لا سبيل لإخفاء أمر بينهم ماداموا يعيشون بهذه الحميمة وهذا التقارب بينهم في الصحراء، فكل نامة هي تحت المراقبة وكل كلمة محلقة فوق الرؤوس. يعرفون كل شاردة وواردة، والقليل والقال متأصل بينهم، والسؤال، ما الأخبار؟ يلي التحية بينهم. إذا تميز من بينهم رجل بمحمدة ساروا وراءه في مخيمهم مرددين، اللهم بيض وجه فلان ابن فلان. وإذا تميز أحدهم بمذمة وفعل قبيح دفعوه أمامهم مرددين، اللهم سود وجه فلان ابن فلان، ليصبح منبوذاً بعدها. إنهم مغرمون بالصيت والسمعة الطيبة لذلك يتمادون في كسبها وتبدو أغلب أفعالهم مقصودة تمثيلية بالنتيجة. وعلى الرغم من غيرتهم من بعضهم إلا أنهم شديداً الولاء لباقي العشيرة، ويعذون خيانة الصديق أسوأ ما يرتكبه الإنسان من فعل مشين، أسوأ حتى من القتل، مع أن استخفافهم بحياة الإنسان يصل حد طعن راعٍ أعزل بمرح طلباً للثأر. وفي الوقت الذي يكونون فيه غير عابئين ولا مكترئين لمعاناتهم الشخصية ومعاناة الآخرين إلا أنهم لا يعتمدون أن يكونوا قساة أفظاظا. ما أسهل أن يُمس كبرياؤهم فيسارعون إلى دفع تلك الإهانة سواء كانت حقيقة أم متخيلة. ولكنهم في العادة فكهين وقلوب مفتوحة طيبة.

لديهم بعض التناقض في شخصياتهم، فهم مهذارون في طبيعتهم ولكنهم حذرون ويحافظون دائماً على وقارهم ويجلسون ساعات بصمت في المناسبات الرسمية. وفي

الوقت الذى لا يكثرثون بجمال الطبيعة يشغفون بالشعر. غالباً ما يكونون كرماء بشكل غير عملى، فهم على أتم الاستعداد لمنح (دشداشتم) الوحيدة لأى شخص يطلبها. إن كرمهم أسطورى ويعقد اللسان، فما الذى يمكن أن يقال عن رجل يذبح أعز وأثن إبله لغريب قاداته المصادفة لحيمته؟ ولكنهم فى الحقيقة بخلاء شحيحون ككل الساميين فى جبههم للمال. متدينون حقيقيون ويرون آلاء الله فى كل شىء، فعقولهم لا ترقى إلى الشك به فضلاً عن التجديف أو الكفر. وهم ليسوا متعصبين بطبيعتهم وليسوا مؤمنين بالقضاء والقدر من دون مشاركة فعالة لأفعالهم. فهم يكدحون فى حياتهم القاسية إلى الحدود القصوى مهما كانت النتائج ومن ثم يذعنون لأقذارهم بوقار لأنها مشيئة الله.



إن الأهوار نفسها، بمتاهاتها المضللة من القصب، حيث لا يمكن لأحد الحركة إلا بالزورق لابد أن تمتح ملاذاً لشراذم الناس المهزومين ومركزاً للخروج على القانون والعصيان منذ أزمنة مبكرة. لقد هُزم سرجون، الملك الآشورى العظيم على يد الكلدانيين الذين عاشوا هناك، وبعد عشر سنوات أخضع سرجون مصر واستولى على المملكة اليهودية، ثم عاد ليسكب معركة فى الأهوار فى نحو ٧١٠ ق.م ووثقها بالطنوف والأفاريز التى زينت قصره فى خُرساباد<sup>(١)</sup>. ثم انتقم شرّ انتقام وأجلى الكلدانيين الى سوريا مستبدلاً إياهم بأسرى حيثيين من جبال الشمال.

وبعد نحو ألف سنة، أصبحت الأهوار المعقل المحصن القوى للزنج الذين هدد عصائهم الخلافة العباسية. لقد أستخدم عدد هائل من الزنوج من ذوى الأصول الأفريقية لتجفيف المستنقعات حول البصرة وكانوا يُعاملون معاملة وحشية قاسية مما

(١) خرساباد khorsabad: عاصمة سرج الثانى ملك آشور. مدينة مربعة لها قلعة تطل عليها منصة على جانبى السور الشمالى الغربى، بُنى فوقها القصر والمعابد والزقورة. لم يكتمل بناء المدينة حيث هُجرت بعد وفاة سرج.

جعلهم يثرون ويقتلون حراسهم ويثون الرعب في المناطق المجاورة. كان من الممكن قمعهم بطريقة وحشية إن لم يجدوا قائداً بكفاءة عالية، فقد انتصروا تحت قيادة (على بن محمد) <sup>(١)</sup> ذى الأصل الفارسي مدة أربع عشرة سنة من سنة ٨٦٩م وحتى سنة ٨٨٣م ساحقين الجيوش المتتالية التي كان يرسلها الخليفة لمقارعتهم. ثم اندفعوا ليعزلوا البصرة واستولوا على الأحواز في جنوب غرب بلاد فارس حتى وصل فُهم وسلبهم إلى مشارف بغداد نفسها، فلم يفصلهم عنها سوى عشرين ميلاً. ولكن في نهاية الأمر بدا الفارق عظيماً جداً. رفض على بن محمد الاستسلام وهُزم جيشه أخيراً وحُمل رأسه باحتفال هبّى إلى بغداد.

وفي القرن السابع عشر بدأ النموذج العشائري يأخذ شكله الحالي في الأهوار وما يحيط بها، فاتحاد عشائر (المنتفك) <sup>(٢)</sup> العظيم الذى هيمن على أسفل الفرات مدة تزيد على ثلاثمائة سنة كان قد تشكل هناك حين نزح لاجئ من مكة اسمه (منتفك) حَسَماً لنزاع، ثم قُتل عقوبة له على جرم. كان (بنى مالك) <sup>(٣)</sup>، الذين عرّف نفسه إليهم، قد هاجروا إلى الصحراء مستصحين معهم ابنه الرضيع حيث ترعرع الطفل ونما، وبعد مدة قادمهم رجوعاً إلى الفرات ليسحقوا أعداءهم. ذاع صيته وتأثيره فاعترفت بقيادته كثير من العشائر. كان بعضها بدواً رُحلاً ذوى أملاك فيما كان الآخرون رعاة

(١) على بن محمد بن أحمد بن على بن عيسى بن زيد بن الحسين بن على بن أبي طالب (عليهم السلام). جاء إلى العراق من قرية في الرى اسمها أورزنين، ادعى النسب العلوى فالتفت حوله مجموعة من الناس. تنقل في عدة من حواضر إسلامية، استقر في البصرة أخيراً سنة ٢٥٤هـ. انتهت ثورته بمقتله وذلك في سنة ٢٧٠هـ. من الواضح أن الرجل ليس فارسياً من تسلسل نسبه.

(٢) المنتفك: اسم كان يطلق على محافظة ذى قار الحالية. وهو اتحاد لمجموعة عشائر ينتهى نسبها إلى أصل واحد أكثر سكانهم في (العموكة) و(الدوائية) و(كرمة بن سعيد). أما أمراء المنتفك فيهم آل السعدون.

(٣) بنى مالك: قبيلة كبيرة ترجع في أصولها إلى مذحج، قحطانية النسب من العرب الصحراء وهى متعددة البطون كثيرة الفروع نزحت من اليمن على أثر اغيار سد مأرب وتدفق سيل العرم واستقرت في أرض العراق. أما التسمية فهى نسبة إلى شيخهم وجد القبيلة الأكبر مالك الأشتر بن حارث بن جذيمة بن سعد بن مالك بن النخع.

مشكوكاً في نسبهم وكان الكثير منهم يزدري المعدان. وفي أعلى مراحل قوتهم كان اتحاد (النتفك) يشكل ولاية مستقلة قادرة على مقارعة الحكومة العثمانية كند كفاء. ونزولاً إلى أسفل الفرات كَوْن (بني أسد) <sup>(١)</sup> لأنفسهم الأراضي التي يستوطنونها الآن حول (الجبايش) وكانوا أيضاً مصدر تعب للأتراك أيام ذروة قوتهم. في المدة نفسها كان (بني عمير) يستوطنون غرب القرنة فيما تسيطر عشيرة (كعب) <sup>(٢)</sup> الآن على شرق الأهوار. أسس محمد وولده ابنا المرأة (الفريجية). حكمهم وسلطتهم على دجلة لتشمل مزيجاً من عشائر تُعرف الآن جميعاً بـ (البو محمد). أما في أقصى الشمال فإن (لام) قد أسس (بني لام) العشيرة التي تمتلئ الرعي وذات القوة العظيمة التي تقدر الآن بمائة ألف.

كانت دماء الكثير من الأصول التي سكنت العراق لآلاف السنين قد نجست وبقيت على قيد الحياة في مكان منعزل في الأهوار، لكن دستور عرب الصحراء كان هو المثل الأعلى والغاية التي سادت حياة معدان وشكلت النموذج الكامل لسلوكهم ابتداءً من الضغائن والعداوات والثأر وانتهاءً بعاداتهم وطرق سلوكهم بأدق تفاصيلها.



(١) بني أسد: قبيلة ضخمة تسكن جنوب العراق في الجبايش وما حوّلها. يمتد اسمهم إلى ما قبل الإسلام، كان سكنهم القديم بين الحلة وواسط وكان مركز إمارتهم مدينة الحلة ولها كونوا لهم كياناً خاصاً مستقلاً.

(٢) كعب: من القبائل العدنانية التي سكنت مدينة العمارة منذ عهد بعيد، ومن المدن التي اشتهرت بسكن كعب فيها مدينة الحويضة.

## الفصل الحادي عشر

### الفوز بالقبول

معافى... آمن وجميل قلبى، كتريته أكفكم

على شغافه

تغفو (الجبايش) على الضفة الشمالية من الفرات حيث يعمق النهر ويطؤ جريانه ويتسع ما بين شاطئيه إلى مائة ذراع. وتمتد على الضفة نفسها منه بساتين نخيل كثيفة إلى عدة أميال، بينما تقابله على الضفة الأخرى مستنقعات غما فيها القصب على شكل أجمات كثيفة بدت الأرض خلفها مستوية قد فرشت بالأسمنت وقد تقاربت فيها أعمدة المصابيح، ومركز للشرطة ومستوصف صغير ومدرسة وناد وبيوت للموظفين الحكوميين. كان بعض هذه الأبنية جديداً ولكنها تبدو جميعاً وكأنها مهجورة خربة. يمكن أن يكون وقعها المتنافر مع ما يحيطها مستساغاً لو أن هذه المباني قدمت مستوى من الراحة وازدهاراً مهماً أعلى مما هو موجود في القرى المجاورة! كان من المفروض أن تكون على درجة عالية من النظافة مادامت مبنية بين المروج ومسطحات الزهور، ولكنها، كما توقعت، كانت محاطة بسور مهلهل من القصب وبكسر القناني الزجاجية والصفائح الصدئة ومزق الجرائد، ولم تزد رائحتها على رائحة البالوعات.

اشتمل السوق على صف من الدكاكين أحسن حالاً بقليل من الأكشاك يقع في طرف أرض مستوية، وانتصب جسر من الخرسانة في الطرف الآخر، ظل الغرض من إنشائه غامضاً مادامت نهايته تفضى إلى بركة مياه عميقة. أشرف المدير، الذى كان

يعمل نجاراً قبل أن يصبح موظفاً براتب شهري، على بنائه بشكل شخصي. كانت (الجبايش) مكاناً جميلاً وهي تشرف بواجهتها، التي تبعد قليلاً، على حافة الماء، وكانت واجهات المباني الحكومية تخجّب بشبكة من الجزر الصغيرة ظللتها أشجار النخيل المنتصبة بين القنوات التي انتشرت فيها نباتات تشبه أوراقها قدم الغراب<sup>(١)</sup>. احتمت البيوت القصية بظلال النخيل وقد تناثرت بينها عدة مضايف، جاءت إقامتي في واحد منها.

زرت (الجبايش) بعد عدة أيام من مفارقتي (صدّام) والآخرين في (الرملة) لغرض عرض رسالة على المدير من وزير الداخلية تسمح لي بزيارة أى مكان أرغب. إن كل مقاطعة أو لواء في العراق يُدار من قبل متصرّف، يُقسم بدوره إلى قضاءين أو ثلاثة وهذه تدار من قبل قائمقام، وتقسم إلى عدة نواحٍ تدار من قبل مدير. (الجبايش) تعدّ ناحية تابعة لقضاء (سوق الشيوخ) التابع للواء (المتفك) ومركزه (الناصرية).

ما أن وصلت (الجبايش) حتى زرت المدير الذي دعاني للعشاء معه في النادي. كانت البناية من الطابوق العادي الذي يشير في مثل هذا المناخ إلى انه حار في الصيف وبارد رطب في الشتاء. وقفت خلف سياج من (البوارى) تحت أشجار زينة ذابلة بسبب نقص المياه! كانت الكراسي الحديدية مطلية باللون الأخضر وقد انتصبت عدة موائد حديدية مدوّرة فوق مساحة من تيّل ذابل. سبقني اثنان أو ثلاثة من الموظفين بينما وصل الباقيون فيما بعد، كنت قد قابلت معظمهم صباح هذا اليوم. جلسنا حول الموائد وقُدّم إلينا الشاي من قبل رجل عجوز يرتدى سروالاً خاكياً ممزقاً فضفاضاً لا يناسب حوضه، وجاكيتة ضيقة جداً. جلب أحد المعلمين مديعاً من داخل البناية، ثبت مستقبله الهوائي وبقي يعبث بأزراره للساعات الأربع أو الخمس التي قضيناها في النادي، وفي خضم الموسيقى والأغاني القادمة من كل أنحاء العالم والذبابات العرضية في.

(١) النبات الذي تشبه أوراقه قدم الغراب هو، على الأغلب، الكايط.

الجو كان الآخرون يتناقشون حول مبالغ حصصهم وشؤون السياسيين العرب وفضيحة حدثت منذ مدة قريبة في دوائر الدولة في الناصرية. كنت لا أرغب في الخمر فاستعصت عنه بعدد لا حصر له من أقذاح الشاي وهو الشراب الوحيد المتوفر بعد الخمر. شرب مضيئاً، الذين لم يشاركوني تحاملي على الخمر، باعتدال وتناقشوا بحدة وبدا عليهم أنهم نسوا دعوتي على العشاء. كان ثمة مؤلد خلف سياج القصب يطلق صوتاً مكتوماً مصباحاً تيمناً عارياً فوق رؤوسنا هوجم ضوؤه من قبل أصناف مزعجة من الحشرات لتتهافت على الموائد. ثمة خلل في اعتدال الكرسي الذي جلست عليه. أضاف لي سأمًا غير ما كنت عليه من عدم الراحة. كان الليل قد انتصف حين تذكر المدير أن يأمر بالعشاء! غير أن طول مدة الانتظار لم تحسن (الكباب) والأرز!

أغلب هؤلاء الموظفين كانوا قد ولدوا في مناطق مختلفة ضمن بقعة تمتد إلى مائة ميل مركزها (الجبايش) لكن تربيتهم علمتهم ألا يشعروا أنهم في بلادهم إلا حين يكونون في المدن. يحملون، وهم في هذا الجو العشائري الموحش كأنه المنفى، بالانتقال إلى المدن ويقضون وقتاً طويلاً يخططون له. وماداموا هناك فإن نشاطهم يقتصر على الحركة في مساحة لا تتعدى بضع مئات من الأذرع تتضمن بيوتهم، ودوائرهم والنادى. خلال السنوات التي أمضيتها في العراق لا أتذكر أني قابلت موظفاً لديه استمتاع حقيقي بوظيفته أو أى عاطفة تجاه الناس القرويين الذين وُظف من أجلهم. ويصل الأمر إلى أكثر من هذا، فقد سألني أحدهم كيف أستطيع العيش بين المعدان، مضيئاً أنهم ليسوا أحسن من الحيوانات المتوحشة.

لا يجد هؤلاء الموظفون متعة في الريف أيضاً، ففي كردستان كنت قد أمضيت يوماً من الصيف الماضي عند ضابط شرطة عراقي<sup>(١)</sup> شاب في منطقة تعدّ من أجهل ما رأيت.

(١) يقصد المؤلف هنا (عربي).



كان هذا الضابط قد نقل لمدة شهرين إلى تلك المنطقة التي تقطنها عشيرة ريفية، وترتفع فيها الجبال إلى نحو ثمانية إلى عشرة آلاف قدم فوق غابات البلوط وتتخللها المنحدرات الخضراء والجداول المتألثة من المياه الباردة المنحدرة إلى أسفل الوادى باتجاه جبال أرجوانية أوطأ منها. كانت هناك وعول ودبية في القمم، والجو مثالي. حين زرته كان في خيمته يجلس بجانب المذياع وقد ملأ مطلقاته بأعقاب السجائر، قلت له بحماسة:

"أنت فتى محظوظ لكي تعيش هنا".

فانفجر صائحاً:

"محظوظ! والله لولا هذا المذياع لذهب عقلي، فما الذى يمكن أن يفعله إنسان متحضر هنا، في تلك البقعة الفظيعة؟ لم يمكث الرجل الذى سيقنى أكثر من أسبوع ثم فر من هنا، لقد (دفع) فنقلوه، أما أنا ففقر لذا لا أستطيع أن أحذو حذوه، فتجدنى جالساً هنا أستمع إلى إذاعة بغداد".

(الجبايش) والقرى الملحقة بها على طول الفرات مأهولة من قبل (بنى أسد)، العشيرة العربية التي تارّجح تاريخها بين النصر والهزيمة والتي اندفعت باتجاه الأهوار قبل ثلاثة قرون. وفي ذروة قوتهم كان قد انضم إليهم الكثير من الناس الضعفاء وأغلبهم ليسوا من أصول عربية، باحثين عن الحماية وأضافت مشايعتهم (لبنى أسد) قوة إلى قوتهم. لقد شنوا من مكائهم في الأهوار حروباً متقطعة ضد الأتراك حالف غالبيتها النجاح. وحتى بعد الحرب العالمية الأولى، استمروا في إثارة المتاعب إلى أن هزمهم الإنكليز وعزلوا شيخهم<sup>(١)</sup> سنة ١٩٢٤. ومنذ ذلك التاريخ بدأت عرى العشيرة بالانحلال. الزراعة في (الجبايش) قضية لا يمكن التنبؤ بها دائماً. في السنوات الحالية، تعتمد العشيرة التي يربو عددها على العشيرة آلاف، بصورة مضطربة على حياكة

(١) شيخ بنى أسد الذى عزله الإنكليز وأبعد إلى الهند لمدة سنتين هو سالم الحيون، وكان من الشيوخ الذين طمحووا بعرض العراق. تولى عام ١٩٥٤م.

(البوارى). يميز (بنى أسد) أنفسهم عن المعدان حتى بعد مضى ثلاثة قرون عليهم فى الأهوار. فهم يربون الأبقار ويزدرون تربية الجاموس.

ما أسعدنى وأنا أغادر (الجبايش) التى بدا جوها باعثاً على العزلة والضيق طائفاً باتجاه الشرق وصولاً إلى حافة الصحراء فى (الخميسية) حيث عدت أدراجى من هناك مرة أخرى. وصلت إلى قرية عند الصباح وتغديت هناك ومنها أخذنى مضيفى إلى القرية المجاورة. مهما كانت حالة الفقر لأهل البيت، وهناك من هم فقراء بحق، إلا أنى أنزل عليهم على الرحب والسعة، لكنى قبلت على مدى شهر بالطريقة المقيده المرتبكة نفسها. كنت مراقباً خلالها بصمت تحيطى وجوه محدقة متفرسة. لا توجد عزلة وسرية هنا، فكل حركاتى وسكناتى ملاحظة، فحتى حين أذهب لقضاء حاجتى يتبعنى أحد الصبية لحراستى من الكلاب. أكاد أتخيل تخمينهم وتفكيرهم الذى يبدأ حال مغادرتى الغرفة:

"ما الذى يريده؟ لماذا جاء؟ فلا أحد من أهل المدن يرغب أن يكون نهباً للبعض ويأكل طعامنا ما لم يكن يمتلك سبباً معقولاً. لابد أن الحكومة هى التى أرسلته ليتجسس علينا ليحسب شبابنا وليعاین جاموسنا".

إن مضيفى لطفاء دمثون ولكنهم حريصون على التخلص منى، ويعاملوننى على أنى (نجس). يحترم الشيعة شعائر الطهارة كواجب دينى، والمتزمت فيهم لن يشرب فى الإناء نفسه الذى شرب منه كافر. ومادام هؤلاء الناس غير صارمين وفيهم ليونة فى عاداتهم الدينية الأخرى، يأتى تزمتهم هنا بشكله الاستثنائى أمراً مختلفاً ومتعمداً بعض الشيء. لقد تساءلت بوصفى نصرانى وأوربى، هل بإمكانى تكوين علاقة طيبة معهم، الأمر الذى أتوق إليه؟ حتى صادف حلولى فى (ربعة) فى إحدى القرى الكبيرة فى منطقة (عميرة) فى طريقى إلى الشمال حيث (الفرطوس). كان صاحب (الربعة) غائباً عن البيت فاستقبلنا شاب حسن الطلعة. عاد الرجال الذين أوصلونى إلى هنا إلى قراهم ما أن شربوا الشاي. عاد مضيفى واسمه (عبد) التى تعنى اختصاراً (عبد الله)، عند المساء.

"ما الذى تحويه تلك الصناديق؟"

"أدوية".

"هل أنت طبيب؟"

"عندى دراية بالدواء".

"هل تستطيع الحتن؟"

لم يسبق لى إجراء تلك العملية لكنى كثيراً ما راقبت إجراءاتها فى المستشفيات وبين أهالى العشائر، لذا سنحت لى الفرصة أن أجيب: نعم.

— "هل تستطيع خت ولدى (خريط)؟ لقد مضت سنتان على إجراء آخر ختان، وأريد لابنى أن يختن ليتسنى له الزواج".

أشار إلى الشاب الذى سبق له استقبالننا، المشغول الآن بإعداد القهوة. أدركت الموقف بسرعة فوافقت على إجراء العملية فى الصباح.

الختن، وعلى الرغم من عدم ذكره فى القرآن الكريم يُعدّ أمراً إجبارياً للمسلمين متبعين سُنّة النبى (ﷺ) الذى خُتن بالاستناد إلى عادة العرب. لا يحق لغير المختون أن يحج بيت الله الحرام فى مكة المكرمة. توجّل العملية حتى سن بداية الرجولة، كما هو الحال فى حالة هذا الشاب، ونادراً ما تُجرى قبل سن الحُلُم. إنها تُجرى من قبل مختصين يجوبون القرى متقلين من قرية إلى أخرى فى فصل الصيف<sup>(١)</sup>. عادة ما يكون أجركم ديكاً، وغالباً ما يزيدون ذلك إلى ربع دينار. كانت نتائج أعمالهم التى تسنى لى رؤيتها مروعة، فهم يستخدمون شفرات حلاقة قدرة وقطعاً من خيوط ولا يستعملون المضادات الحيوية. وبعد انتهاء العملية ينثرون الجروح بمسحوق خاص مُعد من القلف المجففة لضحايا سبق لهم إجراء هذه العمليات، ومن ثم يربطون الجروح بقوة بخرق. يكتسب الناس الذين يعيشون تحت ظروف كهذه مناعة ضد التلوث، لكنهم

(١) يسموهم (مطهرجية) مفردهم (مطهرجى).

لا يستطيعون مقاومة مثل هذه الإجراءات، فتمتد مدة شفاء المختونين إلى شهرين يعانون خلالها آلاماً مبرحة. جاءني رجل يطلب علاجاً بعد عشرة أيام من ختانه، وعلى الرغم من كوني متمرساً تماماً للمناظر غير السارة والروائح الكريهة، بيد أن العفونة أجبرتني على التقوى، فقد كان (عضوه) وكيس الصفن وما بين فخذه، كلها متفححة وقد انسلخ الجلد عنها، وكان الصديد يقطر إلى أسفل رجله. عاجلته أخيراً بالمضادات. وعلى الرغم من العار الاجتماعي الذي يلحقه عسدم التختن إلا أن بعض الأولاد يرفضون إجراءه. وفي حالات أخرى لا يسمح الآباء لأبنائهم بإجراء العملية بسبب عدم وجود من ينوب عنهم لرعاية الجاموس. ويؤكد بعضهم الآخر على أنهم خُتِنوا من قبل الملائكة عند ولادتهم، المعتقد الموجود في مصر أيضاً. مؤخراً زرت قرى الـ (السواعد) <sup>(١)</sup> و(الكولية) <sup>(٢)</sup> على وجه الخصوص حيث سمعت أنه من النادر أن تجد من هو مختون الأمر الذي يبدو صعب التصديق بين المسلمين.

في الصباح، اقترح عليّ (عبد) إجراء العملية في الخارج لكي لا تلوث الغرفة بالدماء. انتظر حشد صغير من الناس موزعين بين الجاموس في المنصة التي تتقدم البيت والتي لا تعد مثالية لإجراء العمليات، وحضر عدد من أقران (خريط) لمؤازرته في محنته كما افترضت. اخترت صبياً عليه إمارات الذكاء ليكون مساعداً لي. أحضر (خريط) (جاون)، قلبه وجلس عليه.

طمحت في عملية أولى نموذجية. ومن خلال المعاينة رأيت أن لـ (خريط) قلفة متصلة. هيأت الحقنة لغرض التخدير الموضعي لكن (خريط) قال في الحال:  
"لم هذا؟"

(١) السواعد: من العشائر التي ينتهي نسبها إلى يعرب بن قحطان. اشتهرت منطقة (المشرع) بسكن السواعد فيها بعد أن خاضوا عدة معارك مع بني أسد وأجلوهم عنها.

(٢) الكولية: ليسوا عشيرة مستقلة كما فهم المؤلف بل هم بطن من (البردراج) العشيرة التي ينتهي نسبها إلى جددهم الأعلى دراج السلاوى العذارى.

فأوضحت له أن من شأن هذه الحقنة إيقاف أى إحساس بالألم.  
"لا، لا أريد أى حقنة، فقط اقطع".

لا شئ يمكن قوله لتغيير رأيه. تساءلت بعدها، هل يعاني من التوتر كما أعانى على الرغم منه أنه لم يبد أى دليل عليه؟ فى الوقت الذى كنت أجرى العملية، وقد استغرقت منى وقتاً، جلس (خريط) ساكناً تماماً، وبعد أن انتهيت قال شكراً، ثم انتصب واقفاً. ألقى مساعدى الكلابات التى كان يحملها على الأرض، دفع فتى جانباً، وجلس على (الجاون) قائلاً:  
"الآن جاء دورى".

أدركت مصعوقاً أن أقران (خريط) التسعة قد حضروا ليُختنوا. كان أصغرهم بعمر الخامسة عشرة بينما كان أكبرهم فى الرابعة والعشرين. علمت فيها بعد أنهم شفاوا تماماً بعد بضعة أيام. من الواضح أن مسحوق السلفوناميد والبنسلين أكثر فعالية من مسحوق القلف! وصلت الأبناء بمرور الوقت إلى القرية المجاورة، وحين ذهبت إلى هناك، وجدت عدداً لا حصر له من الأولاد بانتظارى.

عاجلاً أو آجلاً سيبقى القليل من هؤلاء الناس ممن يسمح للختانين الحليين أن يختنوهم. يفضل معظمهم انتظار زيارتى لقريتهم أو يقدمون ليجدونى فى مكان ما. وفى أحد الأيام المضنية اصطف مائة وخمسة وعشرون ولداً وكنت فى عمل شاق جداً من الفجر حتى منتصف الليل. إنهم مقتنعون أن رائحة تحميص الخبز أو أى رائحة تلهب جروح المختون، لذا نجد عادتهم سد مناخرهم بقطع قماش وتعليق رؤوس البصل حول أعناقهم، هذا طبعاً إذا وجدوه عند عطاريتهم، وعليهم ألا يأكلوا السمك، واللبن الحائر و(الركى)، وعليهم ألا يشربوا سوى رشقات من الماء حتى يشفوا. انتهز أصحاب مهنة الختن فرصة تلك الأوهام لجعلوا منها أعذاراً جاهزة لعجزهم. وحين يعاني البائسون من الفتیان من صعوبة فى المشى نتيجة الألم المبرح، مباعدين ما بين سيقانهم، يوضح هؤلاء بإيجاز شديد:

"طبعاً، هؤلاء الأغبياء الحمقى لم يحتاطوا بما فيه الكفاية في سدّ مناخرهم، لا بد أنهم استنشقوا رائحة تحميص الخبز أو ربما شربوا الكثير جداً من الماء".

لم يزر أى طبيب المعدان أبداً، وإن حصل وذهبوا إلى المستوصف الخلى في (الجايش) فعليهم أن يدفعوا مالاً مقابل العقاقير التي حسب ما أكدوا لا تنفعهم. يزداد عدد العمليات التي أجريها يومياً أينما أكون، ومن الآن فصاعداً لن يمرّ يوم علىّ في الأهوار دون أن أعالج أحدهم. يصطف أحيانا ستة أشخاص، وأحيانا مائة وأكثر وغالباً ما أكون نائماً حين يصل أول مريض فأستيقظ على أثر هزة، ربما عن طريق رجل عجوز ينحني قريبا مني هامساً أن لديه سعالاً. لا يعاني أغلبهم أسوأ من البرد أو الصداع أو الإمساك والجروح الثانوية والرضوض. إن أمر هؤلاء هين رغم أنهم يأخذون مني وقتاً، لكن هناك من هم مرضى بشكل حقيقي وربما على وشك الموت. أستطيع مساعدة بعضهم، وأعجز عن مساعدة بعضهم الآخر ممن يجب أن أتلقى تدريباً طبياً مكثفاً وخاصاً لتسنى لي العناية بهم.

كانوا يعانون من التراخوما ومن أمراض عيون أخرى، والجرب والبواسير، والحصى والديدان المعوية من مختلف الأنواع، والدوستاريا المتمورّ والعصوى، البلهارزيا، والجل، هذا هو النزر اليسير من شكواهم. البجل واحد من أكثر الأمراض شيوعاً، وربما كان أكثرها وطأة. إنه يشبه السفلس ولكنه غير تناسلي، شكل من الانعراج ومعد بدرجات عالية. إن القروح التي قد تحدث في أى مكان على الجسد تكون واسعة الانتشار وأحياناً تنتن بشكل فظيع. عادة ما أشعر بالغثيان حين يكون هناك مثل هؤلاء المرضى في الغرفة. ما من شك أن عدة حالات من التي اعتقدت أنها بجل كانت سفلساً حقيقياً، لكن حقن البنسلين فعالة لكلتا الحالتين. أما السيلائن فغير معروف، فعلى مدى سبع سنين لم أعالج سوى ثلاث حالات وأصيبوا كلهم في العمارة. أكاد أقف عاجزاً أمام البلهارزيا التي يعاني منها الجميع، فدورة الحقن تستغرق شهراً، الوقت الذي لا يمكن أن أقضيه في مكان واحد. لقد عاجلت رجال مشحوفين ولكن الإصابة

تعادهم دائماً. وهناك أيضاً الحصبة البائية والجدرى والنكاف والسعال الديكى، وهناك فى عام ١٩٥٨م وباء الأنفلونزا الآسيوية التى أصيب بها اغلب المعدان. لقد أنقذت طبيباتى وعقاقيرى الكثير ممن يعانون ذات الرئة كعاقبة للأنفلونزا. وعلى الرغم من أننا محاطون يوماً بعد آخر بالمصابين الذين تتطلب حالتهم أدوية، فقد كنا أنا ورجال مشحوفى هرب بطريقة ما، من أجل سلامتى، بسبب رعبى من الإصابة به فى الصيف وتحت مثل هذه الظروف.

قابلت مذهوشاً القليل من حالات الإصابة بالمalaria وكان معظمها قد أصيب خارج الأهوار. ومن ناحية أخرى فإن الكثير من المعدان يعانون من الحمى المتواترة الخفيفة، وعدد كبير من الأطفال يعانون من تضخم الطحال. إن هيمنة البعوض هناك — من نوع الأنوفيلس — تجعله ناقلاً للمalaria، والنوع الخبيث منه — أنوفيلس أستيفنسى — يعد نادراً نسبياً فى الأهوار.

وهناك الحوادث أيضاً، فبعض الضحايا يصابون بالحروق على نحو مرعب عندما تحترق بيوتهم، وهناك كثرة من الأطفال الصغار يلقبون قدور الماء المغلى على أجسادهم. وجلب لى العديد من الرجال ممن قطعت أجسادهم الخنازير الوحشية حين قهاجهم أحيانا وهم يتصيدون أو يقطعون الحشيش أو يحصدون محاصيلهم. أصيب أحدهم بعدة جروح فى ذراعيه وفخذه وبجرح بعمق ثلاث بوصات فى بطنه فاندلقت أمعاؤه. ولحسن الحظ لم تكن هذه الأحشاء مثقوبة، لذا عملت على إرجاعها وأخطت الجرح. وبألدھشتى، عاش هذا الرجل. وفى إحدى المرات أستدعيت إلى بيت لأعائن صبي بترت البندقية ذات الصنع المحلى<sup>(١)</sup> نصف يده حين انفجرت. كل ما استطعت فعله هو بتر ثلاث أصابع محطمة تماماً. وفى مناسبة أخرى، أيقظنى شابان خلال الليل وقادانى إلى مسيرة ثلاث ساعات إلى قريتهم. وصلنا عند الفجر فوجدت أباهم يتلوى

(١) البندقية ذات الصنع المحلى يسمونها ماطلية وجعازة.

على الأرض وقد غطي عينيه يديه. قال لى أولاده إن إحدى عينيه قد فقدت نورها على أثر لطمة قبل سنين. يبدو أن الضغط الداخلي للعين يجبر كرقها الميتة إلى خارج مجرّها، وعليه فكل ما يمكن فعله هو إزالة تلك الكرة. لدى بعض المعرفة عن تشريح العين تعلمته من سلخ بعض الحيوانات التذكارية. حققت الرجل بعض المورفين وعملت على استخراج كرة العين إلى الخارج في حين تولى أولاده الأمساك به أرضاً. وعلى الرغم من حقنة المورفين فقد كان الرجل يئن ويتلوى فانتابنى رعدة. عندما أفاق من إغماءته أفاد أن الألم أخف بكثير. بقيت معه لليومين التاليين، وحين رأيت بعد نحو ستة أشهر أخرى كان قد شفى تماماً.

ولكن كان هناك الكثير مما لا أستطيع معه حتى المحاولة، وصادفت الكثير من الهزائم، ومازال يراودني بكثرة وجه طفل صغير مات بالدوسنتاريا. غالباً ما يكون صعباً على جداً إقناعهم أن لا حيلة بيدي، فهم يستقدموني ربما من مسافات قصية جداً لأن ثمة رجل عجوز يحتضر بالآم السرطان، أو فتاة تكاد تلفظ رثيتها نتيجة السل، واثقين أن بإمكاننا معالجتهم، متوسلين بشكل كبير يثير الشفقة:

"أعطنا دواءً (صاحب)، أعطنا دواءً".

وهناك من تتوفر فرصة شفائهم ما إن يذهبوا للمستشفى في العمارة أو الناصرية، ولكنهم مرعوبون من المستشفيات ونادراً جداً ما يوافقون على ذلك.

قد يستاء الأطباء في (الجر) و(الجبايش) و(العمارة) من نقص مؤهلاتي، لكنهم لا يبدون استياءهم أبداً. وبالمقابل فقد ساعدني العديد منهم بالنصيحة والأدوية. لقد وافق وزير الداخلية في بغداد على إجراء اتى الطبية في الأهوار لكنه حذرنى فيما لو مات أحدهم نتيجة إسعافاتي وأراد ذووه خلق المشاكل، فلا شيء يمكن أن ينقذني من المقاضاة الجنائية. إنها مغامرة أقدم عليها برغبتي. لقد عالجت الكثير من الناس وماتوا، فلد يدع أحد بعد ذلك أنى قتلهم.





## الفصل الثانى عشر

### بين الفرطوس

داود لـ (فؤاده):

محض هراء هذا الأفق، والهيكـل فيكم وهمّ  
العزلة (فالسلف) يشكّ بزايوتى. هنا...  
وأشار إلى رأسه... قطب الملكوت.

غاصت أرضية البيت الصغير، الذى أقمت فيه فى (الجبايش) بعد أن غادرت قرية  
(عبد)، تحت ثقل المرضى، وأهـمت معالجتهم وقدمائى غاطستان فى الماء إلى كاحلى.  
طمأننى أنها ليسا قضية مهمة ولكنه، مع ذلك كان يهـبّ لتجدتى عندما أتحرك.  
وفى القرية المجاورة (مبرد) المكونة من أربعين بيتاً أو خمسين، انتصب كل واحد  
منها فوق (دين) وقد توزعت البيوت على جانبي قناة انتشرت بينها الممرات المائية  
الضحلة. مرّة أخرى، تجمع حشد صاخب بشكل خاص، جاهدت فى سبيل معالجتهم  
مدة ثلاث ساعات حتى حلول الظلام. كانت إقامتى عند رئيس القرية الرجل العجوز  
غير الجذاب المدعو (محسن) فاستعنت بأبنائه لمساعدتى لكنهم فضّلوا لعب دور الحمقى  
وضابقونى بطلبهم أدوية لا حاجة بهم إليها. كانوا نسخة مصغرة لوالدهم لطول الأنف  
نفسه وعيوقهما المتقاربة وأصواتهما العاوية. وأخيراً بعد أن شبعوا من طعامهم تماماً،  
أعطيت لأكثرهم إصراراً حبتين من الكينين ليمضغهما، وفى الحال سمعته يتقيأ خلف  
البيت. كانت حالة مزاجى لا تسمح بانتظار العشاء ساعات، الذى حين جاء أخيراً، لم  
(عرب الهور)

يتعداً رزاً بارداً مكتلاً وطاسة قدرة من (الروبة). بعد ذلك انتظرت، وهذه المرة أن يعد (محسن) الشاي، الذى لم تظهر عليه إشارة أنه سيعده. التفت أحد أولاده فجأة صائحاً:

"بويه، ما هذا؟"

اندفع خلال الباب وسمعته يصرخ:

"حريق، حريق".

ازدحمنا خلفه شاقين طريقنا بصعوبة بين الجاموس.

كان أقرب بيت لنا، الذى يقابل الريح، مشتعلًا. كنت أراقب فرأيت النار تمسك بكامل السقف وشعلتها البرتقالية ترتفع وهى ترأر ناشرة الشرر وسط العتمة. انحسرتنا فى أحد الزوارق واندفعنا باتجاهها. وقبل أن نصل كانت قد أمسكت بالبيت التالى وحملت الريح العاصفة شرر كليهما ملقية به على البيوت الأخرى. جاءت أنواع من الزوارق وتقاطعت على الماء الذى عكس اللهب. كان أصحاب البيتين يندفعون إلى داخل وخارج البيتين قاذفين بأى شىء تصله أيديهم إلى المشاحيف المنتظرة، ثم يسرعون عائدين لإنقاذ شىء آخر. كانت النساء تعولن والرجال يتصايحون والكلاب تنبح، وتملك الجاموس الرعب فشق طريقه خلال العتمة وقد اختلطت أصوات الجلبة بخوار الجاموس المرعوب بفرقة النيران. ما أن ترجلنا من مشاحيفنا حتى أمسكت النار بالبيت الثالث. اندفعت امرأة مذهولة، اجتازتنى وهى تحمل طفلاً بين ذراعيها بينما تعلق طفل آخر بأذيال ثوبها وهو يصرخ. سلّمت الطفل الذى بين يديها إلى فتاة كانت فى مشحوف ودفعت الآخر إلى جانبها قبل أن تسرع عائدة، ظهرت ثانية بعد ثوان وهى تحضن (لحف).

اصطدمت عند مدخل أحد البيوت برجل عجوز وفتى يجاهدان بحمل كيس حبوب. ساعدتهما فى جرّه إلى أحد الزوارق ثم جلبنا كيساً آخر. كان هناك المزيد من الأكياس وكانت جميعاً ثقيلة. اشتعل البيت المجاور من أوله إلى آخره. ومن الصور

الظلية التي عكستها النار، رأيت امرأة تحدق في سقف أحد البيوت المشتعلة وهي تلمظ صدرها. انهار السقف وتطاير الشرر إلى الأعلى فشق عدة أناس طريقهم خلال الماء. كنا بصدد رفع كيس آخر إلى الخارج حين صرخ أحدهم: "إنه يحترق".

فرأينا السقف أعلى رؤوسنا قد اشتعل. بلغت الحرارة مستويات رهيبة بسرعة وانطلق اللهب بأقصى سرعة اتجاهنا. لم يعد هناك غير كيس واحد فقط، ولكن لا يمكننا البقاء. "تعالوا".

صرخ الرجل العجوز، فقفزنا إلى الماء وخضنا فيه إلى البيت المجاور. ولكي نمنعوا النار من الإمساك بالمزيد من البيوت، بدأ الناس بقذف الماء على السقوف، ولكن الواضح أن ذلك لن ينقذها.

اثنا عشر بيتاً هي حصيلة الحريق في (ميرد) تلك الليلة، أضفى آخرها، الذي أتقّد كأنه المحرقة، على عتمة الماء لوناً أحمر وذهيباً. عبرنا إلى الجانب الآخر وراقبناه وهو يحترق. كانت الليلة شديدة العتمة والنجوم باردة وواضحة وتزلجت الرياح بعد زوال حرارة اللهب. وفي مكان آخر اتقّدت كومة الرماد حين أثّرت بالنفخ الخفيف لبعث الحياة فيها. كان الرجال المستشارون بواقعهم يتكلمون بجلبة عن صنائعهم فيها، وندبت امرأة، على مسافى منهم، نائحة على البيوت والأشياء المنهوبة. قدم غريب وقال:

"تعال معي لشرب الشاي (صاحب)".

حين عدت إلى بيت (محسن) وجدت عنده العائلة صاحبة أول بيت التهمته النار، كان الأب قد فقد كوفيته، أما (دشداشته) البيضاء فقد صفتها النار بشكل سطحي. جثا رجل معروق ضئيل القامة بشعره الرمادي ووجهه المغضن وسّنه الأمامي المكسور

قرب الموقد مع ولديه، أكبرهما بعمر السابعة عشرة، حروق كتفه خطيرة. وفي الطرف القصي من الغرفة كانت امرأة عجوز شطاء، ربما كانت جدة الولدين، تندب بصخب، بينما جلست المرأة الأصغر بصمت وقد افترش حجرها طفل وجلس آخران بجانبها. أما (محسن)، الذي قدّم الشاي أخيراً، فقد قال:

"من حسن الحظ أن النار لم تضطرم حين كان الجميع نياماً، فهذا ما حدث عند (السادة) الشهر الماضي حين احترقت زوجة (سيد) وابنه حتى الموت".

قال الأب انه وولده كانا في البيت المجاور حين اندلعت النار:

"أنقذنا الأطفال ومن ثم حاولت جلب بندقيتي، لقد كانت بين الوسائد ولم أعثر عليها، حدث هذا حين أمسكت النار بـ (على)، كل شيء ضاع، البندقية، ثمانية دنانير في صندوق، الفراش، الملابس، كل شيء وكل الحبوب، كل شيء. هذه ليست المرة الأولى التي يحترق فيها بيتي، هذه الليلة ضاع اثنا عشر بيتاً، كما ترى. الحمد لله". قالها باستسلام.

ناحت الجدة العجوز طوال الليل ولم يلتفت إليها أحد. نام الرجل مع ولديه بجانبى، شاركني أحدهما بطانياتي. لقد سلّم الجاموس والمشاحيف في الأقل، وهما ما يهم فعلاً. فالعائلة سوف تبني بيتاً جديداً ما أن تبرد الأرض فهناك وفرة في القصب المناسب القريب، وسوف يمدّ الآخرون في القرية أيديهم بالمساعدة بالحبوب والفراش، وسوف يتقنون أوانهم وقدرهم. أما الخسارة الحقيقية فهي البندقية. في الصباح، أعطيتهم قدراً من الدنانير لمساعدتهم في هذا الغرض.



استغرق الوصول إلى (العويدية) ساعتين، وهي قرية صغيرة (للفرطوس) حيث كنا أنا و(دوكالد ستوارت) السنة الماضية. ولكي نصل إليها فقد جذفنا عبر بحيرة صغيرة. مطوقة بالقصب الشاهق، ثم سرنا عبر ممر مائي واسع وضحل. وقبل أن يلوح لنا أول

بيت عبر القصب تاهت إلينا عبر الماء أصوات القرية التي لا يمكن أن نخطئها. لقد كانت همهمة لعدة أصوات، والإيقاع الكسول للنساء وهن يهرسن الشلب، ونغر الجاموس، ونباح الكلاب، والأصوات الحادة المتميزة لصياح الديكة. كانت القرية مبعثرة بين جزر القصب وقد انتصب المضيف الصغير لـ (جاسم الفارس) في النهاية القصية للقرية، قائماً فوق (دبن) ارتفع قليلاً عن مستوى الماء وقد مال هيكل البناء برمته نحو اليسار. وقف (جاسم) بنفسه، رجل طويل ونحيف بـ (دشداشته) البيضاء، عند مدخله، وقد دخل قلبي ما أن رأيته. له وجه طويل مقض وأنف مستقيم وفم مكتنز وعينان جيمتان. أسرع (فالخ)، ابنه الأصغر الذي استضافنا قبل سنة، بإحضار البسط والمخدات. هو الآن في نحو الخامسة عشرة يعطى انطباعاً بالفظافة، كان يعاني من تلوث فطري في رأسه المغطى بعناية وقد رأيته مؤخراً فقط حين طلب منى علاجاً. هذا التلوث شائع تماماً بين الأطفال ويزول تدريجياً حين يبلغون الرابعة عشرة، لكن الكثير منهم يبقى أقرع بشكل دائم نتيجة له.

أقمت مع (جاسم) قرابة الأسبوع وشعرت حالاً كأني بين أهلي عند (الفرطوس) الذين عاملوني كواحد منهم. هنا، ومنذ البداية، كنا نشرب بالقدح نفسه<sup>(١)</sup>. عند الصباحات والمساءات، كان (فالخ) يجدف بي بنفسه ويأخذني إلى البرك القريبة بحثاً عن البط الحذر جداً، لذا يتوجب علينا الاقتناع بـ (دجاج الماي) أو (الزركي) و(الجليجي) وهي أصناف يأكلها المعدان. لقد جرّبت (الجليجي) الذي أثبت لي أنه لذيد كالسمك تماماً، فما أن تناولت لقمة واحدة، لم يغب طعمه عن فمي لساعات.

ذات الصباح، سرنا أنا و(فالخ) وابن عمه له اسمه (داود)<sup>(٢)</sup> إلى البر الرئيس. خلّفنا القصب وراءنا فظهرت لنا بقعة مترامية الأطراف تهاوى فيها البردى مغطياً

(١) إشارة إلى تساوى نمط حياة المؤلف مع حياة المعدان الذين يعيش معهم، وإلى عدم شعورهم بالاشتزاز بسبب نصرانته.

(٢) داود بن هاشم بن جايان الجعاري، يسكن الآن نهر العز في محافظة ميسان.

الكثير من الأميال المربعة، بينما اشرب النماء الجديد خلال الأعشاب الشاحبة المهشمة للسنة الماضية، لكنه لم يكن من الارتفاع بحيث يجلب النظر حتى من خلال قاع المشحوف. كان المكان عاجا بالطيور، وثب (Snipe) إلى الهواء بجانبنا وطار متعرجاً، بينما حلقت أسراب من (Small Waders) الصغير بعيداً. لم استطع تحديد مجموعة من الطيور المخوضه انتشرت بين طيور الـ (Ruffs) و(الكصكص) و(avocet) و(redshank) و(curlew)، كانت تأكل فوق بقعة من الوحول المكشوفة. وكان هناك أيضاً (مغري) و(صلنده) و(بيوضي) و(زركي) و(رخيوى). وفجأة سمعنا صراخاً للبط من بعيد فقد كان هناك صقر يصطاد فوق الحشائش بينما حامت النسور. عالياً فوقنا. دفع (فالخ) و(داود) مشحوفنا بكل ما يستطيعان من قوة بـ (المرادى) قدر إمكانيهما، ثم شتمّا عن (دشدشتيها) وعقداهما حول خصريهما وخاضا في بقعة من طين رقيق القوام دافعين المشحوف الصغير.

رجونا الوصول إلى البرّ لكن عدة أميال من الطين الجاف فصلتنا عن السهول العظيمة المفتوحة حيث تسكن قبائل رعاة (المنتفك) في خيامها السود. "العرب"<sup>(١)</sup>، ستاهم (فالخ)، ووعد أن يأخذني هناك في وقت آخر ثم قال:  
"سوف نزور (محسن بن بدر)".<sup>(٢)</sup>

ثم أردف:

"إنه كبيرهم، وهو صديق والدى، فقد خبّاه والدى حين كان الإنكليز يبحثون عنه، ألم تسمع بـ (بدر)؟ فما زالت العرب تقول، كريم مثل (بدر)، وابنه يشبهه في ذلك، عد إلينا حين ترتفع مناسيب المياه وسنذهب إليه".

(١) يسمّى أهل الأهوار العشائر التي تتعاش على تربية الأغنام والرعى فيها (عُروبيّه) مفردّها (عُربيّ).  
(٢) محسن بن بدر الرميض الذي يعلّم والده، بدر الرميض، (١٨٥٠م - ١٩٤٠م) من أوضح شيوخ بنى مالك، عرف بكرمه وشجاعته. أجز الإنكليز على عقد معاهدة صلح وفق شروطه بعد أن أنهبهم بغاراته المصّلة عليهم.

في طريق عودتنا، أطلقت النار على عدة من طيور purple gallinule التي أصرت (فالخ) على أنها رائعة عند الأكل. إنها تشبه (دجاج الماي) في الشكل والحجم، وهي تطير من القصب وأرجلها الطويلة تخطّ تحتها. هذه الطيور، فضلاً عن (الحذاف) الذي يصل في الربيع، الطيور الوحيدة التي تصلح للأكل في الصيف.

سألني (داود)، الذي كان يتكلم قليلاً بحياء: إن كان بإمكانى أخذه معي إلى العمارة حيث السجن الذي ينزل فيه والده، مضيافاً:

"لقد خدم والدي شيخ (العيسى) في (الصيكل). وذات يوم أرسله الشيخ لإلقاء القبض على ثلاثة من (آل أزيروج) الذين كانوا يسيبون المشاكل. جلبهم والدي إلى الشيخ الذي جلدهم بدوره. بعد ذلك هاجمه هؤلاء الثلاثة وضربه أحدهم بهراوة على رأسه فخرّ والدي مغمى عليه. وحين استفاق من غيبوبته تناول بندقيته وأصاب الرجل الذي ضربه وقتله. وبدلاً من أن يحمى والدي، فإن الشيخ لعنه الله، سلمه إلى الحكومة التي حكمت عليه بالسجن عشر سنوات، فجئنا أنا وأمي للعيش مع خالي (جاسم). لقد انقضت ست سنوات على ذلك والآن أرغب في رؤية والدي".

كان (داود) فتى غريب الأطوار، فعادة ما يكون مبتهجاً ومليئاً بالثرثرة، ثم ينقلب إلى الاكتئاب الصامت. عندما سمع خاله (جاسم) أنه سيذهب معي إلى العمارة قال إنه سعيد لذلك وأضاف:

"إن داود مخلص لأبيه، وهو لم يره منذ سجنه، وحين حدث ذلك امتنع عن الكلام والطعام عدة أيام. وحدث مرة أخرى في العام الماضي أن بدا غريباً جداً ولا أحد يعلم ما الذي يقلقه، كان يهيم في المكان مردداً: "داود ميّت".

"ما كان ليشفى إن لم نضطر إلى أخذه إلى مقام (فَوَادِه) <sup>(١)</sup>".

كل مساء يجذف الرجال والفتيان بانجاء مضيئ (جاسم) تاركين مشاحيفهم عند مدخله منظمين جلستهم إزاء جدرانهم. في البداية كنا نكتفى بالكلام بغير ما كلفه، لكن (جاسم) اقترح ذات يوم أننا يجب أن نغنى:  
 "إي والله، غناء ورقص".

ووافق الجميع هاتفين:

"لنمتع أنفسنا، أين (خيال) <sup>(٢)</sup>؟، فقد عاد اليوم من (مبرد)، أين الطبول؟  
 سوف نرى الرجل الإنكليزي كيف يسلي المعدان أنفسهم. اذهب يا (فالخ)  
 وهات الطبول والدفوف، اذهب يا (داود) وارجع بـ (خيال)".

(١) (فَوَادِه): العلوية المجلة (فَوَادِه) بنت سيد نور بن سيد محسن الأخرس بن سيد فرج بن سيد تركي. ينتهي نسبها إلى الأمام موسى الكاظم — عليه السلام. هاجر جدّها السيد تركي من منطقة الهندية في الفرات الأوسط وسكن جنوب العراق، منطقة هور الحمار ثم هاجر والدها السيد نور مع أولاده الأربعة وابنته (فَوَادِه) إلى منطقة البو صالح (ناحية الإصلاح حالياً) ضمن محافظة ذي قار وذلك في عام ١٩٠٠م تقريباً. ولدت العلوية (فَوَادِه) في أواخر القرن التاسع عشر، ومنذ طفولتها وشبابها كانت على جانب عظيم من التدين والورع. تزوجت من أحد السادة إلا أنّها لم تنجب فسرعان ما توفى عنها زوجها لتعود إلى بيت أبيها عاكفة على عبادة الله سبحانه. قتل شيخ عشيرة هناك ففر القاتل وعائلته ليلوذوا في حي بيت السادة أهل العلوية (فَوَادِه)، فبادر ذوو القتل وخاصته إلى محاصرة البيت الذي خلا من إخوة العلوية ورغبوا في اقتحامه بغية إدراك ثأرهم غير أن العلوية (فَوَادِه) حالت دون ذلك ولم تسلّم دخلها فوقفت سداً منيعاً أمامهم في باب الدار متصدية للرصاص الذي صدهت عابثاً، فلما رأى أهل القتل ذلك انصرفوا واستطاعت العلوية حماية دخلها، فذاع صيتها على أثر ذلك بين الناس الذين ردّوا: إن العلوية قلبت الرصاص طينا. اعتقد أن هذه الواقعة وغيرها من الكرامات سواء أثناء حياتها أو بعد وفاتها الأثر العظيم في تبجيل الناس لها ومن ثم زيارة قبرها بعد وفاتها سنة ١٩٣٠م الواقع في المنطقة نفسها التي عاشت فيها. بعد قفّات الناس على زيارة قبرها شيد ذروها بناءً من الطين أولاً سرعان ما استبدل بالطابق فيما بعد.

(٢) خيال: لعله خيال وهو عم ياسين الشغاني أحد المجتهدين للمؤلف.



عاد (فالخ) بطبتين وجلب آخر دفتين. الطبول عبارة عن أوان خزفية تشبه في شكلها الفازات المتدرجة، بطول حوالى ثمانى عشرة بوصة وثمانى بوصات لأوسع نهايتها، وتغطى بجلد رقيق. أما النهاية الأخرى فمفتوحة. كان (خيال) الذى وصل الآن، بعمر (داود) و(فالخ). غنى عدة أغنيات يصاحبه (فالخ) فى العزف على الطبله. جدف الآخرون، وقد أغرهم الأصوات، باتجاه المضيف فامتلاً تماماً بعد احتشاد الناس بسرعة. لـ (خيال) صوت عذب ويحفظ الكثير من الأغاني، كان بعضهما بإيقاع مبتهج ومرح ولا يزيد بعضها الآخر على النواح المنغم. قام (فالخ) و(داود) وستة شبان آخرون مكونين حلقة صغيرة، وجُرَّ اثنا آخرا نحيفان لهما هيئة شيطانية إلى وسط الحلقة وهما محتجان وطلب منهما الرقص. كانا أخوين، أكبرهما فى الثالثة عشرة. أخذ (خيال) إحدى الطبتين وأخذ (فالخ) الأخرى وشرعا بمداعبتهما مستخدمين أطراف أصابعهما للنقر عليهما بسرعة، وقد كان الإيقاع مشوشاً بينما ضرب شبان آخرا على الدفين. أما الآخرون فقد شبك كل واحد منهم كفيه مع بعضهما وراحوا يقطعون أصابعهم ضارين الأرض بأعقاب أقدامهم اليمنى.

رقص الأخوان فى البداية ببطء وكسل وقد راحا يؤرجحان جسدتهما رافعين أذرعهما والتف جسداهما وتفتلا وراحت أقدامهما تتحرك بسرعة إلى الأمام وإلى الجانبين وإلى الخلف بينما راح الآخرون يغنون بلا تقيد. لقد وصل الرقص إلى ذروته. فجأة وقف الولدان مباعدين ما بين أقدامهما قاذفين بجسديهما إلى الأمام وإلى الخلف بما يشبه الطعنات بينما اتتابت جسدتهما رعدة كما لو أن كل عضلة تجتاز التشنج إلى الأخرى، ثم وبشكل عرضى، توقفا، ابتسما لمشاهديهما وجلسا.

لكن جلوسهما لم يطل، فمرة بعد أخرى يُطلب منهما إعادة الرقص  
 ممنوعين فيه قليلاً. من الممكن تلمس وضوح المحاكاة الجنسية في رقص  
 الأخوين، غير أنها لم تصدمني بفحشها. ولكن فيما بعد عند المساء، أذى  
 الأخوان محاكاة تجديفية غير محتشمة وغير منسجمة مع صلاة المسلمين،  
 فحينما كان الحاضرون يؤدّون الصلاة قام أحد الأخوين بإيماءات وحركات  
 إيمائية حلف عجيزة الآخر المرتفعة. لقد اعتدتُ على التمسك بالأعراف  
 السلوكية بين المسلمين، لذا فنظرت بقلق إلى أحد (السادة) الموقرين الذى  
 جلب ولديه اليافعين لأختنهما عند الصباح. لكن الثلاثة كانوا يؤدّون صلاتهم  
 على أتم وجه<sup>(١)</sup>.



(١) لم يشر المؤلف فيما إذا كان الوحيد الذى رأى هذا التجديف، أو أن السيرة وولديه أو غيرهم رأوه  
 كذلك ورضوا به. وعلى العموم فهو سلوك صياني متباد لا يمكن القياس عليه لتكوين فكرة عامة  
 كما أوحى المؤلف بذلك.

## الفصل الثالث عشر

### ضفانن في الأهوار

يا موت... امنح ذاكرتي فتات الحياة. آه!  
تذكرت أن لي أمنية.

وفي الأمسية التالية حين حلّ الظلام جلسنا أنا و(داود) في المضيف مع ستة مرضى كانوا قد قدموا للعلاج وأمضوا ليلتهم هنا. ومن خلال مدخل المضيف، أستطيع رؤية المواعد التي تُشعل لتحمي الجاموس من البعوض، والحجب الكثيفة من الدخان الواطي المنساق فوق الماء. بدأ البعوض بالظهور، فاستطعت التخيل، بسبب تقارب جزر القصب، أن البعوض سوف يجعل من هذا المكان غير صالح للسكنى في الصيف حتى للمعدان أنفسهم. كنت قد اعتدت سماع الإيقاع المتناغم لنقيق الضفادع ولم أعد أكثر له، لكنه تغير فجأة إلى تكرار لنغمة واحدة متطفلة استطاع الآخرون تمييزها فقال (داود):

"إن حياة أمسكت ضفدعاً، فالمكان يعجّ بها، وقد قتلنا إحداها في سقف المضيف عما قريب".

واستمر الصوت المثير للشفقة مدة طويلة.

بعد سنتين كانت في المضيف نفسه في أثناء الصيف محاولاً تحريك الهواء قليلاً  
بـ (مهفة) قصبية<sup>(١)</sup> حين أحسستُ بشيء ما خلفي. كنت على وشك وضع يدي

(١) مهفة قصبية: Reed Fan: تصنع المهفة من سعف النخيل وليس من القصب. هذا ما ألقته، ثم بعد السؤال عرفت أن ثمة مهفة تصنع من البردى في الحقيقة لكن الجزء الذي يمسك منها هو قصب صغيرة.

على مصدر هذه الحركة حين أوحى لى غريزتى ألا أفعل. قلبت جسدى إلى الأمام وحدثت إلى أسفل فأريت حية بلون فاقع وبطول قدمين فضربتها بمقبض (المهفة) وقتلها.

إن الأفاعى شائعة لاسيما فى الصيف، ويؤكد المعدان أن أخبث نوع سام هو (العربيد) الذى يبلغ طوله عادة أربعة أقدام ويمجد غليظ، أسود مشوب بحمرة باهتة. لقد صادفت حالة واحدة فقط نتيجة عضه حية فى جنوب العراق كانت خلال مآدبة فى رمضان الذى توافق حلوله فى الصيف تلك السنة. فقد نوى رجل هو وابنته بعمر الرابعة عشرة زيارة (الجبايش) لبيع جن من صنع بيته هناك، ولكى يتجنبا الحرّ، خرجا متوجهين إلى المشحوف عند آخر عتمة قبيل الفجر. داست الفتاة على حية وهى تنزل إلى المشحوف فعضتها فى قدمها وماتت خلال نصف ساعة. لقد اسود وجهها، وحين نقلوا الجثة انسكب دم أسود من فمها وانفها. لقد وصلت إلى تلك القرية بعد ذلك مباشرة. يعتقد المعدان بشكل راسخ بوجود نوعين من الأفاعى وكأهم غير مكتفين بما هو موجود من الأفاعى الحقيقية: (العنفيش) و(الآفة). يُعدّ الأول مكسواً بالشعر بينما للآخر أرجل. يقال إن كلا النوعين يقطن قلب الأهوار وهما قاتلان.

بعد أن رفع (فالخ) أطباق العشاء دخل رجل بوجه طويل نحيل وقد غطّت يده اليسرى خرقه منقوعة بالدم، كان قد جرحها وهو يجمع القصب. كان لون عينيه بلون الكهرمان الغامق وقد أضفى عليه الحول لإحدى عينيه مسحة الشؤم. كان قادماً من (الكبيّة) قرية الفرطوس الكبيرة التى تبعد مسافة ساعتين فى الطريق إلى (الصيكل).

قبل سنين، كانت (العيسى)، العشيرة الرعوية نفسها التى أقمنّا فى مخيمائنا أنا و(دوكالد ستوارت) عند حافة الصحراء، قد حظيت بالسيطرة على (الصيكل) القرية الكبيرة فى الهور ذات الحقول الغنية بزراعة الأرز من حولها. ومن هناك استحوذوا على (الكبيّة) وبنوا وحصّنوا فيها حصناً صغيراً من اللبن حتى ثار (الفرطوس) من أهل

(الكبيبة) واستعادوا حريتهم فيها. كنا أنا و(دوكالد ستوارت) قد مررنا بها بعد سنة من ثورة (الفرطوس). كان رجال مشحوفنا وهم من (العيسى) قد احتفظوا ببنادقهم معدة وجاهزة للإطلاق وكانوا لا يتبادلون التحية مع سكان القرية بسبب الثارات بينهم. الرجل الذى داويت يده فى مضيف (جاسم) واحد من أبرز قادة تلك الثورة فسألته عن طبيعة المعركة، فقال بحماسة:

"لا حق لـ (العيسى) بـ (الكبيبة)، فهم ليسوا معداناً، إنهم رعاة من البادية، و (الكبيبة) فى الهور، إنها تعود لـ (الفرطوس) وقد بنى أجدادنا (دبها). ومنذ استيلاء شيوخ (العيسى) على (الكبيبة) بدأت المشاكل وهجر أغلبنا القرية وابتينا لأنفسنا بيوتاً فى أماكن أخرى. لماذا يجب علينا مغادرة أوطاننا؟"

أضاف آخر:

"نعم، لماذا حقيقة؟ الله يلعن (العيسى)".

"وهكذا قررنا القتال. لقد طوّقنا الحصن فى اليوم الثانى عشر من شهر (كصير)<sup>(١)</sup>. كانت قد مضت ثلاث ساعات على مغيب الشمس وكان القمر مضيئاً. نحن نعرف أن هناك ستة رجال يقودهم (فليج)<sup>(٢)</sup>. أوفدنا رجلاً مستأ اسمه (زاير على)<sup>(٣)</sup> ليخبرهم بضرورة الاستسلام، لكنهم صرخوا بأننا معدان، كلاب أبناء كلاب، وإذا حصل أن اقتربنا قتلونا فى الحال، فهجمنا من كل الجهات بمشاحيفنا وقد هزجنا (أنا أخو عليّ)".

(١) كصير: هو شهر شعبان يسمونه كذلك بسبب إحساسهم بسرعة انقضاء أيامه وهم يستعدون لاستقبال شهر رمضان الكريم الذى يتحمل فيه المسلمون عناء الجوع والعطش.

(٢) فليج العيساوى: اسمه بالأصل (فلك) أى الأمر العظيم الخطير، يُصغر إلى (فليج)، كما هى عادة أهل الأهوار، ويبدو أن الكاف ثقيلة فاصبح فليج. علماً أنه ليس عيساوى كما أكد الرجل المسن عماره بن ميسن بن رميس الفرطوسى، بل (ساعدى) غير أنه كان (حوشى) عند شيوخ العيسى، وكان شجاعاً كما وصفه قاتلوه.

(٣) زاير على الفرطوسى من بيت عبود، متوفى منذ زمن طويل، أوفده الفرطوس، كما أكد لى الكثير، لأنه عُرف بكونه رجلاً خيراً وعلى دراية بالأعراف العشائرية.

كان مستمعوه منحنين إلى الأمام مفتونين بحكاية حرب عشرينهم التي سمعها أغلبهم مرات لا حصر لها.

"كان بجوزهم بندقية رشاشة ترمى حممها كالحلوب قاطعة القصب من خلفنا. الحمد لله، كان العبد الذي تولّى أمرها لا يتقن التصويب جيداً وإلا قُتل أغلبنا تلك الليلة. ترجلنا من مشاحيفنا واندفعنا باتجاه الحصن، قتلنا اثنين قبل أن ندخله وقتلنا اثنين آخرين بمتناجرنا. كنا مزدحمين في غرفة أسفل الحصن حين أطلق أحد الرجلين المتبقين من (العيسى) وأصاب أحد رجالنا في انفه، فصرخ المصاب."

"لقد أصابني من أعلى."

"فسارعنا إلى إطلاق وإبل من الرصاص عبر السقف وقتلنا رجلاً آخر. لم يتبق غير (فليج) فناديته أن يستسلم لكنه رفض. كان شجاعاً بحق. تسلق بعض (الفرطوس) إلى أعلى باتجاهه فأطلق عليهم النار وقتل اثنين منهم، كانا أخوين. ثم هبط هازجاً بكلمة نخوتهم وسقط كأنه المنخل من رصاصنا. كان ابنه الصغير معه فطلب منا الرحمة فأبقينا على حياته فقد كان لا يساوى القتل وهو الآن في (الصيكل) مع شيوخ (العيسى). مات اثنا عشر رجلاً من (الفرطوس) في هذه المعركة<sup>(١)</sup>.

(١) قتلى الفرطوس الاثنا عشر كما سطعت بهم ذاكرة الرجل المسن عماره بن محسن بن رميس الفرطوسى هم:

- ١ - قاسم بن خشين بن خفي الفرطوسى.
- ٢ - صال بن زهد بن رميح الفرطوسى.
- ٣ - داموك بن كرم بن زغير الفرطوسى.
- ٤ - جاسم بن لازم بن نصر الفرطوسى.
- ٥ - فالخ بن صالح بن حديد الفرطوسى.
- ٦ - جاسم ابن جابك بن شندى الفرطوسى.
- ٧ - موسى بن عبد الحسن الفرطوسى.
- ٨ - محسن بن جابر بن عساف الفرطوسى.
- ٩ - حسن بن حينة الشوبلى.
- ١٠ - محيظ بن مكرز بن شاوى الفرطوسى.
- ١١ - كرم بن مناحى بن جبر الفرطوسى. وغاب عن ذاكرة عماره اسم الرجل الثانى عشر.

علماً أن زعامة المعركة كانت بيد آل سعودى من الفرطوس.

أما قتلى العيسى كما أكد عماره بن محسن فهم فضلا عن فليج:

قاسم الازير جاوى — وأخوه شيشل الازير جاوى وطاهر السمع وهو من عائلة شيخ العيسى مزيد بن حمدان.

وما أن توقف الرجل عن الديث حتى وثب (فالح) فجأة ضارباً الأرض بقدمه مترعاً:

يا أم كريم كُفّي عن العويل،

لأن كريم خاض غمار الحرب<sup>(١)</sup>

وبثانية، هبّ البقية وقوفاً مرددين كلمات (الهوسة) وهم يضربون الأرض بأقدامهم دائرين في حلقة.

ركض (فالح) وما أسرع أن عاد ببندقته. أطلق منها عدة عيارات بشكل متقطع خلال السقف. انضمت إليهم وأطلقت عشر إطلاقات من بندقيتي. اندفع المزيد من الناس إلى داخل المضيف وهديرهم يتعالى أكثر فأكثر. وأخيراً توقفوا منهكين وأرسل (جاسم) (داود) ليجلب المزيد من السكر والشاي من العطار. سألت من يكون (كريم)<sup>(٢)</sup> هذا؟ فقالوا إنه الرجل الذي قُتل وهو يتولى عملية قيادة (الفرطوس) باتجاه الحصن.

بعد ثلاث سنوات، ذهبت للإقامة مع (العيسى) على البر، وعند الغروب رأيت الهلال الذي ينهى شهر الصيام الطويل، رمضان. تجمعت العشرة المتأثرة في اليوم التالي لتقديم الولاء لشيخهم ولتناولوا طيب الطعام في خيمة ضيافته العظيمة. ومن الفجر بدؤوا يتقاطرون خلال السهل، ركب بعضهم خيولاً، وسار بعضهم الآخر على الأقدام وكل مجموعة تحت لوائها القرمزي. وأخيراً حين تجمعوا رقصوا رقصة الكر والفر على ظهور الخيل بينما كان المترجلون يهزجون دائرين مطلعين النار من بنادقهم مترعين:

(١) أصل الهوسة بلهجتها: يا أم كريم لا تبجين كريم طاح بشاطي الملعب.

والملاعب، كما يشير إليه الكثير من الموروث الشعبي، هو ساحة الحركة. علماً أن أبرز الهوسات التي ردها الفرطوس الفاترون على العيسى، والتي أكدت معنى الملعب أيضاً: احتا الحطينا بشاطي الملعب وأمناته.

و: يالحطيت بشاطي الملعب ما تحماه.

(٢) كريم بن مناحي بن جبر الفرطوسي أحد قتلى الفرطوس الاثني عشر.

سوف نعود إلى المياه المكشوفة<sup>(١)</sup>.

سوف نذهب ونعيد أمجاد (فليج)

فتذكرت الليلة التي سمعت فيها عن موت (فليج) من فم أحد قاتليه.



تركت (جاسم) عند بواكير اليوم التالي. جاء معي (داود) واثنتان من أتباع (جاسم) مسلحين ببنادق (لى أنفيلد) متبعين طريقاً ضيقاً بين قصب شاهق حيث سدت نباتات (الشنبلان) ونباتات أخرى الطريق حتى بدا كأنه ممر مكسو بالطحالب. عانى رجال المشحوف مشقة دفعه خلال هذا الكم الهائل من النباتات. وفي هذه المرة مررنا بـ (الكبيبة)، القرية الكبيرة المكونة من مائة بيت ووصلنا إلى سلسلة من البرك الصغيرة التي تمتد خلالها حقول الأرز إلى الغرب من (الصيكل). وإلى الشرق من القرية، هناك بحيرة باتساع ثلاثة أو أربعة أميال تفصل الأهوار عن البر الرئيسي، تمتد في هذا الفصل من السنة فقط خمسة عشر ميلاً في أراضي (آل أزيروج)، ثم فيما بعد عند ذروة الفيضانات سوف ترتبط مع الغمر الذي يغطي الكثير من الصحراء.

إن (الصيكل) أكبر قرية أراها حتى الآن، مقسومة بممر مائي فسيح امتدت على كلا جانبيه مساحة طويلة ضيقة من الأرض اليابسة حملت عدداً من المضاف والدكاكين، في حين بُنيت بيوت القرية البالغة أربعمائة أو خمسمائة، بنموذج المعدان، على (الدبن). يطل على مدخل القرية الغربي حصن بُني بالطابوق بشكل سريع من قبل (العيسى) حين كانت القرية تحت تهديد (البو محمد) فقد أظهرت جدرانها شقوقاً وصدوعاً عميقة. وفي الجهة المقابلة للضفة الجنوبية بناية ذات سقف مسطح معدة كذلك للدفاع في حالة الحرب بغرفها المبنية حول فناء صغير. وعلى بعد ثلاثين ذراعاً،

(١) هومة العيسى ضد الفرطوس: نرد للبركة وثار فليج ما ننساه.



على لسان من أرض يابسة يتوغل في البحيرة، يقف مضيف مهيب بإحدى عشرة (شبة). كلتا البناتين تعودان إلى (عبد الله) <sup>(١)</sup> عم (مزيد) ومثله في (الصيكل). يعيش الشيخ (مزيد) نفسه مع عشيرته في البر الرئيسي، وكل الموجودين من (العيسى) في (الصيكل) هم بعض أفراد عائلته وأتباعه، وما عداهم من سكان القرية من (الفرطوس) و (الشغانية) وبعضهم الآخر من (البو محمد) و(آل أزيروج).

إن (عبد الله) متغيب حالياً، لكن ابنه (طاهر) <sup>(٢)</sup> موجود في البيت، وهو شاب في السادسة عشرة من عمره وعلى دراية جيدة بطباع العرب في الصحراء. لقد اقتادني إلى المضيف حيث جلس عدة رجال مسلحون ملتفون بعباءات داكنة. إنهم مجموعة من (العيسى) جاءوا في زيارة من الحيام في البر الرئيس. عاد قريباً (جاسم) (الفرطوسيان) للذان لا يكتان الود لـ (العيسى) حالما انما شرب القهوة، إلى (العويدية)، بينما كان (داود) آمناً بما فيه الكفاية في (الصيكل) ما دام والده (هاشم) لا ينتسب إلى (الفرطوس) بل إلى (جاره) <sup>(٣)</sup> وهي عشيرة صغيرة مبعثرة جماعات صغيرة جداً بين قرى الأهوار. سوف يكون في خطر إذا مرّ بين (آل أزيروج) عبر البحيرة لأن والده قتل واحداً منهم الآن، وهو يشعر أن عبد الله قد خان والده، جلس (داود) بصمت مكتفياً بمداغة مسبحة غير مبد أي استجابة لمحاولات (طاهر) الودية.

أطلق سراح (هاشم) أخيراً وذهب ليعيش في (العويدية) حيث ذهبت للتعرف عليه. لقد كان واحداً من أكثر الشخصيات التي قابلتها من المعدان جاذبية. يبدو أكبر من عمره البالغ أربعين عاماً لأن عشر سنوات في السجن قد شبت شعره وغضنت وجهه. وعلى الرغم من فقره كان يصّر على استضافتي وأعلمني الكثير عن المعدان

(١) عبد الله (عم مزيد): لم أستطع - للأسف - الحصول على معلومة تخصه.

(٢) طاهر بن عبد الله العيساوي، صاحب مضيف في الصيكل، متوفى منذ زمن بعيد.

(٣) جاره: Jara، هم الجماعرة، مفردهم جعاري، عشيرة لم أستطع العثور على معلومات مهمة بشأنهم.

وعادتهم. ما يزال ثار (آل أزيج) يطارده لأن رجال العشائر لا يعدّون السجن عقوبة كافية للقتل، فلا يُحسم في نظرهم إلا بقتل آخر أو (فصل). إن عشيرة (هاشم) قليلة العدد ومتفرقة، لذا هي أعجز من أن تنهض بأعباء (الفصل) الماديّة، هذا إذا قبل (آل أزيج) بـ (الفصل). على كل حال هو آمن من الانتقام ما بقي بين (الفرطوس) في (العويدية)، ولكنه، ويا لسوء الحظ، أقنع بمغادرتها.

حين كان (هاشم) ما يزال سجيناً، أعطى أخو زوجته (جاسم بن فارس) ابنته (ابنة هاشم) إلى واحد من (البو محمد) منتزِعاً منه خمسة وسبعين ديناراً مهراً لها. وكما هو معتاد، أنفق (جاسم) جزءاً من المبلغ في تجهيز اللحف والمخدرات وبقية تجهيزات البيت من الأثاث لتنتقلها إلى بيتها الجديد. وبعد إطلاق سراحه، طالب (هاشم) ببقية المبلغ، ف أوضح له (جاسم) أنه صرف بقية المبلغ في دعم عائلة (هاشم) في أثناء مدة سجنه. وبناء على العرف العشائري يحق للأب استرجاع ابنته المتزوجة حتى برغم إرادتها وحتى لو أنجبت أطفالاً، ولكن عليه قبلاً إرجاع مبلغ المهر كاملاً. مارس (هاشم) هذا الحق برغم أن ابنته قد رزقت بطفل. وحين طالب زوجها بالمهر الذي دفعه قال له (هاشم) أن يسترده من (جاسم). ولأن الزوج لم يصل إلى حل مقنع مع (جاسم) فقد التجأ إلى الحكومة التي أرسلت شرطيين اقتادا (هاشم) إلى العمارة للتحقيق معه. وسواء كان الأمر نتيجة نحس الأقدار أم مدبراً، فإن الشرطيين كانا من (آل أزيج) فاحتال ذوو القتل معهما لكي يجلبانه عبر أراضيهم. احتج (هاشم) بقوة حين سمع بالطريق المزمع المرور خلاله لكنه أذعن حين أكدا له أن لهما عملاً يجب إنجازه في الطريق وأنه سوف يكون آمناً تماماً معهما.

نزّلوا لتناول الغداء عند نقطة الشرطة في سوق (الطويل) ثم خرجا كما لو أنهما بصدد إكمال رحلتهم إلى العمارة. كان ثمة حشد بانتظارهم. وفي تلك اللحظة ظهر أخو القتل وخطا إلى الأمام وأطلق النار على صدر (هاشم) من مسدس كان قد

استعاره من الشيخ. استلّ (هاشم) خنجره ولكنه انفار. وبعد أن أطلق المهاجم إطلاقتين. آخرين ولاذ بالفرار تظاهر الشرطيان بملاحقته. اضطلع (هاشم) حيث سقط نازفاً حتى الموت ولم يقترب منه احد. وبعد ساعة رجع الشرطيان ليحملاه إلى داخل مركز الشرطة. كان ما يزال حيّاً ومحتفظاً بشعوره لذا اهتمهما بقتله ومن ثم مات.

رأيت (داود) بعد ستة أشهر من مقتل والده، كان قد ابتاع لنفسه مسدساً وكان عازماً على الذهاب وحده لأراضى (آل أزيروج) بحثاً عن قاتل والده. لم يكن (داود) ذا شخصيّة مستقرة ويبدو أن الصدمة شوّشته. حين حاولت نصحه بالعدول عن الذهاب إلى هناك وحده، كان يردد جملة واحدة فحسب لا معنى لها:

"مات (داود) قبل عشر سنوات".

ولم أره بعد ذلك أبداً.



## الفصل الرابع عشر

### العودة إلى الكباب

أنزَ شهوة... كطير فاجأته الذكورة وتنساب روحى خلف أقواس الأنوثة الزلقة  
أخطو بجراً عرّاف معصوم، أستشرف حدّ النشوة، وقبلأ أستشرف تخوم الانتهاء.  
مقيت... أعرفه ذاك الانتهاء فأستقيم.

أخذني (طاهر) في المساء إلى البحيرة بطرادته في جولة انسقنا خلالها في بيئة مبهجة  
أثبت لي فيها انه رفيق رائع. كان برفقته فتى صغير اعتاد الصمت، يرتدى عباءة بحواس  
ذهبية. اعتقدت أنه أحد أقارب (طاهر) بيد أني علمت فيما بعد أنه ابن (فليج)، الطفل  
نفسه الذي كان بمعية والده حين قُتل في معركة (الكبية). حين عدنا إلى المضيف مع  
العسق، كانت حشود الخفافيش تطير أسراباً إلى خارج القرية باتجاه الأهوار. تختبئ  
أعداد منها في سقوف المضاييف ملطخة المضيف بفضلاتها. العصفير أيضاً تؤذى  
المضاييف من خلال قطعها حبال القصب حول (الشباب)، لماذا وكيف تفعل ذلك؟ هذا  
ما لم أستطع معرفته. في السنة التالية جلبت معي بندقية هوائية<sup>(١)</sup> من بريطانيا، كانت  
نافعة جداً كمادة استهلال بين الغرباء المتمسكين بالشكليات. وما أن قدمتها حتى  
انتشر الصخب شاملاً حتى أشد اللحى بياضاً مطالبين بتجريب الإطلاق منها. إنك  
تستطيع عادة أن تنجح في كسب ود الناس من خلال مساعدتهم في قتل شيء<sup>(٢)</sup>.

(١) بندقية هوائية: air rifle لعل المؤلف يقصد هناد بندقية صيد الطيور.

(٢) جملة أراد منها العمومية والإطلاق فلا تعني بالضرورة سكة الأهوار، وهى على العموم نزع غريزة  
بعض الشيء.

وفي بواكير الصباح التالى ذهبا أنا و(داود) إلى (العكر). حين كنا نجذف عبر البحيرة الفضية، كانت طيور (grey terns) الرشيقة، كأنها طيور (الزيطة)، والمكسوة بقطرات المياه المتلألئة، وأعداد من البط المتجمعة لغرض هجرتها الربيعية، تطير في طريقنا. خلفنا في (الصيكل)، كانت المشاحيف تتهاذى بنعومة وبلا ضجيج بين البيوت التى بدأت تستيقظ من نومها وأخذت تغرق تدريجياً وراء الأفق حتى لم يبد منها غير مضيف (عبد الله). ثم وجدنا أنفسنا في عالم مغلق من الأهوار حيث النماء اليانع للقصب المشرب من بين القصب الهشيم. وبعد ساعتين كنا على نحو مفاجئ وسط مياه مكشوفة توسطتها جزيرتا (العكر). تعود أكبرهما لـ (الشغانية) وهى مكونة من مائة وخمسين بيتاً تقاربت حتى لم يعد يُرى ما بينها، أما الصغرى التى تبعد نحو مائة ذراع عن الكبرى وبمساحة تكفى لثلاثين بيتاً فتعود لبعض (البو محمد). كلتا الجزيرتين تدينان بالولاء لـ (مجدد الخليفة). ترجلنا عند شاطئ عبر سياج منخفض فوق كومة بردى منقوعة بالمياه. وفي (ربعة) كبيرة، استقبلنا (يونس) <sup>(١)</sup> الرجل ذو البنية الهزيلة والوجه الذى ينم عن ذكاء وقديب، وبرغم طبيعته المحافظة إلا انه بدا ودوداً.

كانت (الربعة) مزدحمة جداً، جلس في موضع الشرف منها (سيد) شاب من (القرنة). وبينما كان بصدد جمع الأموال لغرض بناء جامع في (القرنة)، استغل (السيد) الفرصة لتحذير مستمعيه أن يوم الحساب قريب. أدركت امتعاضه من تطفلي، بعدها مباشرة سأل، كيف يأمل مستمعوه النجاة وهم يسمحون للكفار بتدنيس بيوتهم؟ اكفى (يونس)، الذى كان يعدّ القهوة، بالصمت. وحين أصبحت القهوة جاهزة وقف (يونس) و(الدلة) بيده، التفت إلى (السيد) وقال:

"أنا معيدى بسيط ولست عالم دين، وقد ظهر لى أن الإنكليز أطهر منا. بعضنا قابلهم، وكثير سمع عنهم منذ سيطرهم على هذه الأرض بعد أن طردوا الأتراك. إنهم

(١) يونس بن حاجم الشغاني، توفي نحو سنة ١٩٧٨م.

لا يكذبون ولا يأخذون الرشاوى ولا يضطهدون الفقراء<sup>(١)</sup>، أما نحن — المسلمين — وكما تعرف جيداً، نفعل كل هذه الأشياء. هذا فضلاً عن نقطة جوهرية هي أن هذا الانكليزى ضيفى".

ثم التفت إلى وقال:

"أهلاً وسهلاً صاحب، الضيوف فى بيتى يشربون فى الفئجان نفسه، هذه عادتى، وهؤلاء الذين يرفضون، فعليهم الانصراف".

جاء باتجاهى وأعطانى قهوة فى الفئجان الوحيد الذى يحمله، وحين اكتفيت، صبّ ثانية وناول الرجل الذى بجانبى. شرب الكل باستثناء (السيد).

وفيما بعد، جاء (سيد) من (العكر) نفسها، رجل فقير لا تتعدى حياته قطع الحشيش لجواميسه ويبدو كأى معيدى معوز آخر باستثناء كوفيته الخضراء. جلس بجانبى وسألنى عن صحتى عدة مرات. توقعت أنه قد سمع بما وقع لابن عشيرته بسببى، وكنت قلقاً أن يطالب بتعويض أو ترصية. قال (السيد) لـ (يونس) بعد العشاء:

"لقد سمعت أن (صاحب) يحب الغناء والرقص، دعنى أريه كيف يرقصون فى الحجاز، أرض أسلافى".

ثم بدأ بدوران رائع على قدم واحدة يختلف تماماً عن طفرات المعدان غير المقيّدة. لقد أعجبت إعجاباً شديداً بتلك الإيماءة فى الوقت الذى جلس (سيد) آخر وقد أشاح بناظره وهو يدمدم مداعباً مسيحته. لقد كان (السيد) الوحيد الذى صادفته، فالكثير منهم يبدو متحفظاً عند المقابلة الأولى، ولكن بمرور الوقت يتخلّون عن هذا التحفظ وأصبح عدة منهم أصدقاءى الحميمين. جلب بعض (السادة) المتميزون نساءهم لغرض المعالجة لدى، وأنباءهم لختانهم، وهى الشعيرة الدينية التى ربما فضلوا، رغم كل شئ، مسلماً من أتباعهم لإنجازها.

(١) من الواضح أن يونس إنما يستعرض الأحوال الاجتماعية السيئة إيان العهد الملكى الجائر.

اقترح (يونس) في صباح اليوم التالي أن نشاهد حفلة عرس في (ربعة) كبيرة في النهاية البعيدة للقرية والتي دعوا إليها (ذكر بأنثى) <sup>(١)</sup> مشهور من (انجر). سمعنا لبعض الوقت أصوات بعيدة لغناء وطبل. لبس شاب ثوباً نسائياً قرمزيّاً بشراشيب من اللؤلؤ المزيف وأقراطاً ذهبية ثقيلة، تدلّى شعره المبرّج والمعطر إلى كتفيه. حشا منطقة الأتداء ووضع المساحيق على وجهه. لقد ظهر كفتاة مثيرة وتصرف بطريقة العاهرة المتصنعة المتكلفة، وكانت قدرته على الرقص مؤكدة. لقد وضع زوجاً من الصنوج في كل يد وهي إشارة إلى الراقص المحترف مادام لا يستخدمها أحد من شباب القرى حتى إن تمتع بقدرات على الرقص. ومما يثير الغرابة، أن إيماءاته الجنسية كانت أقل وضوحاً من أولئك الفتيان الذين شاهدتهم في (العويدية)، فكان أغلب رقصه عبارة عن عرض جناسيتكى من طراز بهيج. إن التعليقات التي سمعتها لم تترك مجالاً للشك في ميوله الأخرى!

لا أثر لامرأة منفلة بين العشائر، ولا عاهر ولا غيرها، فدليل تافه هو كل ما يُتطلب لو صم الفتاة والتشهير الدائم بها، والإشاعة كافية عادة لبيادر ذووها إلى قتلها بلا رحمة لكي يستردوا شرفهم. إن واجب إنجاز هذه المهمة يقع على عاتق أخيها الذي لا يمكن له أن يبقياها على قيد الحياة ويأمل أن يبقى ضمن عشيرته. وعليه، فالشاب لا يمكن أن ينام مع امرأة أو يلاطفها حتى يتزوجها. يجد الشباب المذكور إرضاءهم الجنسي مع بعضهم <sup>(٢)</sup>، ويكونون كتومين وحذرين في إبداء أى إشارة غير اعتيادية في

(١) ذكر بأنثى dhakar binta هكذا وردت في النص.

(٢) يبدو المؤلف هنا غير معقول تماماً لعدة وجوه أولها، كيف استطاع التوصل إلى مثل هذه المعلومة في مجتمع يتكتم أشد التكتم على العلاقات الجنسية الاعتيادية فما بالك بالشاذ منها؟ ثانياً أن قولاً بمثل هذه الحدية والقسوة التي وصفها المؤلف نفسه في ما يخص الشرف، كيف يتسنى لهم أن يكونوا لوطيين سواء كانوا سلبين أم إيجابيين؟ لا أدعى أنه مجتمع مثالي في هذه النقطة فهو كأي مجتمع آخر، يحرم فيه الاختلاط بين الجنسين، قد يصادف إرضاءً مثلياً، ولكن ما يؤخذ عليه المؤلف هو هذا الإطلاق والعمومية.

سلوكهم الخارجى. إن (الذكر بانثى) هو لوطى محترف فى المدن، والمعدان يخاطبونه على هذا النحو، لكنى لم أسمعهم أبداً يناقشون اللواطه سواء كانت فكرة أو إشارة محددة لأى رجل أو شاب فى مجتمعهم<sup>(١)</sup>. وباختلاف معنا<sup>(٢)</sup>، يرجع شباب المعدان إلى الاستمناء بشكل واسع وقد يصل الأمر أيضاً إلى إرضاء حاجتهم مع الحمير.

صحبنى (يونس) بعد الرقص إلى فسحة حيث مشحوفه الذى أعيد طلاؤه. لا يدوم القار أكثر من سنة حتى يتصدع ويسقط فى الماء. قد تُرأب هذه الصدوع مؤقتاً بتسخين القار بمشعل من قصب. يؤكد المعدان أن طلاء المشاحيف بالقار فى الجو البارد لا يدوم كما يدوم حين تطلى فى فصل الصيف. سُحبت العديد من المشاحيف إلى داخل السياج، خارج الماء. كان أحدها مقلوباً وقد أنهى أربعة فتيان صغار تكسير القار وإزالته من قعره وجوانبه. أذاب أكبر الصبية قاراً جديداً فى وعاء معدنى على نار صغيرة. كانت رائحة القار الدافئ تفوح من الفسحة المفروشة بكاملها بألواح المشاحيف المحطّمة. صاح الفتى:

"(على)<sup>(٣)</sup>، إن (يونس) هنا".

فظهر رجل مسنّ بـ (دشداشة) قدرة من أحد البيوت. سال (يونس):

"هل أنجزت مشحوفى؟"

فأجاب (على):

"لا، ليس بعد، لكن إنجازاه لن يطول، فـ (الفروخ) على وشك تقشيرهِ".

إن (فروخ) هى التعبير الاعتيادى فى الأهوار لصغار الأطفال<sup>(٤)</sup>.

فرش (على) (بارية) يازاء جدار بيته وقال:

(١) ها هو المؤلف يعترف بانعدام أى إشارة للموضوع، ألا يُعد ذلك دليلاً على ندرته؟

(٢) يقصد المؤلف هنا المجتمع الأوروبى الغربى عموماً.

(٣) على أبو محارب الحجاوى من بنى منصور، متوفى منذ زمن طويل.

(٤) الكلمة العامية: فروخ وفروخ للجمع تطلق على جميع الأطفال دون سن الشباب أو البلوغ وليس للصغار منهم

كما أشار المؤلف.



"اجلس، خذ راحتك ريثما تنتهى".

ونادى أحد الصبية:

"(حسن)، ابنى، اذهب وقل لهم أن يعدّوا الشاي".

فقلت إننا شربنا قبل قليل شايًا فى بيت (يونس)، وشربنا أيضاً عدة أقداح فى

الحفلة الراقصة، لكنه أصرّ:

"لا يهّم، اشرب المزيد".

وذهب لتفحص المشحوف.

إن الألواح الخشبية المعروضة مليئة بالشقوق والتصدعات. اختار (على) قطعاً صغيرة من الخشب من تلك التى على الأرض وبدأ بترقيقها وبريها بواسطة فأس ومن ثم سمرها فى أسوأ الشقوق. ثم قام الولد الأكبر بغرف بعض من القار المغلى بمغرفة وصبه فوق قعر المشحوف ثم قام (على) بفرشه بسمك ربع بوصة. ظهر المشحوف كأنه جديد بعد أن انتهى، أسود، ناعماً لامعاً.

جاء (على) وجلس بجانبنا وأشعل سيجارة:

"انتظر قليلاً ويامكانك أخذ مشحوفك".

وأرسل (حسن) بطلب المجاديف. لاحظت أن كل المشاحيف توثق فى الليل بعيداً عن البيوت على نحو مائة ذراع خارج (البركة). أوضح (يونس) أن هذا الإجراء لكى يبعدوا المشاحيف عن متناول الجاموس الذى يأكل القار! وهى عادة الجاموس فى بعض القرى ولا أثر لها فى قرى أخرى. يسأل المعدان حين يصلون إلى قرية غريبة فيما إذا كان جاموسها يأكل القار. أما جواميس (العكر) فسمعتها سيئة فى ذلك!.

قالوا لى إن القار يأتى من مدينة (هيت) على الفرات قرب بغداد. لقد سبق لى أن كنت هناك وشاهدت أحوالاً صغيرة حيث يقيق القار المذاب إلى خارج الأرض. يُرسل بعد تبريده على شكل قطع صغيرة صلبة تشبه حصى تعبيد الطرق. لا أثر للخشب الملائم لصناعة المشاحيف فى جنوب العراق، ويفضل بناء المشاحيف خشب

التوت من كردستان العراق لأصلعها، أما الألواح فيستخدمون خشباً مستورداً لها. هناك حرفيون في هذه الصناعة، مثل (على)، في الكثير من القرى الكبيرة في الأهوار وحوها. وفي (الهوير) على الفرات، التي تبعد بضعة أميال عن (الجبايش)، فإن قرية كبيرة بكاملها تعيش على هذه الصناعة، ولا تكفى بصناعة المشاحيف فقط بل وسفن بساريتين. (حجي حميد) <sup>(١)</sup> الذي يعيش هناك، هو أشهر هؤلاء الحرفيين، تصل سمعة طرادته إلى كل أنحاء جنوب العراق، لكن عمل آخرين غيره هو تقريباً ذو سمعة طيبة. يستطيع سكة الأهوار إخبارك من الذي صنع الطراذه بإلقاء نظرة عليها.

إن سكة (الهوير) مسلمون، ولكن في مكان آخر، أغلب بناء المشاحيف صابئة. وعلى الرغم من ورود ذكرهم في القرآن الكريم ثلاث مرات مع النصارى واليهود كأهل كتاب، فإن الصابئين الذين يُعرفون بـ (صَبَّه) على العموم محقرين ولا أحد من المسلمين يأكل أو يشرب معهم. يحرم دينهم البتر والجدع وبالتالي فهم لا يختنون. يستخدم المسلمون مصطلح (صَبَّي) للازدراء بأى شاب لم يخضع لعملية الختن. من السهل تمييز الصابئة من خلال لحاهم الطويلة وكوفياتهم البيضاء المنقوشة بالأحمر <sup>(٢)</sup>. كل ما موجود منهم عدة آلاف فقط يتوزعون في بغداد، والبصرة، وسوق الشيوخ والعمارة وهم معروفون بمهارتهم في الصياغات الفضية. يعيش الصابئة على شكل عائلات منعزلة في قرى المسلمين حول الأهوار، وأفنية البط هي علامات البط الداجن، بل البرى فقط. يعتمد الصابئة عن طريق الانغمار في الماء كل يوم أحد وكل وقت يتعرضون فيه للتدنيس، وإلا، فإنهم ينتهكون حرمة شعائر طهارتهم. لهذا السبب عُرفوا

(١) حجي حميد: حميد بن سعودى من بيت مصارع، توفى سنة ١٩٨٦م تقريباً. وقد عُرف بالكرم فهو فضلاً عن إبداعه في مهنته كصانع مشاحيف وطراريد كان صاحب مضيف. لقد أعجب به المؤلف أينما إعجاب حتى قال له انك تعادل (ركبى) صاحب معمل البنادق البريطانية المعروفة.

(٢) لم تعد هذه ميزة لهم فالكثير من المسلمين في عموم العراق يرتدون كوفيات بمثل هذا اللون. راجع هامش رقم (١) من الفصل الثانى.

من قبل بعض الأوربيين غير الدقيقين في معلوماهم بأنهم نصارى يوحنا. إنهم في الحقيقة وثنيون على الرغم من تبجيلهم الكائن الأسمى. تحوى ديانتهم، كما فهمت، عناصر مانوية<sup>(١)</sup>، ولغتهم الرسمية هى الآرامية.

غالباً ما يصنع الأطفال فى الأهوار أطوافاً<sup>(٢)</sup> من حزم البردى ينتقلون من مقدمها إلى مؤخرتها دائرين حول القرى على هذه الأطواف البدائية. رأيت مرة نوعاً مدهشاً من الزوارق يسمى (زُعِمَه) فى فرع من فروع الفرات بعد (سوق الشيوخ). تصنع (الزُعِمَه) من القصب وتطلى من الخارج بالقار، يبلغ طولها عشرة أقدام وقدمين ونصف فى أوسع عرض فيها. قال لى صاحبها أن (الزُعِمَه) لا تدوم أكثر من سنة ولا يمكن تجديد طلائها بالقار ووصف لى كيفية بنائها. يأتى أولاً بست حزم قصية، كل حزمة بست أو خمس قصبات، ويحدد طول القصب طول (الزُعِمَه) المنسوى بناؤها، وتثبت هذه الحزم بإحكام إلى بعضها، كل حزمة بجانب الأخرى لتشكيل القعر، تاركاً ما مقداره ثمان عشرة بوصة من كلا الطرفين سائباً يميلهما إلى الأعلى، ثم يخفى خمس قصبات طويلة على شكل حرف U، ثم يدخل الوسط بين الطرفين السائبين للقعر فيشدّهما إلى القعر نفسه. ويعيد ما فعله فى الطرف الآخر نفسه بالتناوب حتى ينتهى بناء الجوانب والنهايات لهيكل (الزُعِمَه). يُصَلَّب هذا الهيكل بربط عدد من الأضلع من خشب الصفصاف. تثبت حزمة من قصب قليل، الواحدة تلو الأخرى، على طول دواخل (الزُعِمَه) مغطية النصف العلوى من الأضلاع ومكونة الأرضية الداخلية.

(١) المانوية: دين أوجده ماني (٢١٦ — ٢٧٦م) رجل فارسي اعتقد أن الوجود يدار بواسطة قوتين متنازعتين هما الخير والشر ممزجتين حالياً، لكنهما ينفصلان فى المستقبل ويعودان إلى عالميهما. يتوجب على أتباع ماني الوصول إلى هذا الفصل من خلال الحياة الزاهدة. انتشرت المانوية على نطاق واسع فى آسيا وحوض البحر المتوسط لكنها اضمحلت فى الغرب فى القرن السادس الميلادى على الرغم من كونها ديناً رئيساً فى الشرق حتى القرن الرابع عشر الميلادى. ساهمت المانوية فى إثارة العديد من البدع فى الديانة المسيحية.

(٢) يسمونها (شاشه) جمعها (شاشات) وهى وسيلة سريعة الإعداد لمن يرغب البقاء طافياً، أو لعبور نهر إذا كان لا يجيد السباحة أو حين يتعذر الحصول على مشحوف.

وأخيراً نُحشّر ثلاثة عصي قوية في عرضها لتشكيل مقعد المجدف وتمتّن هاتيهما في مكانها الملائم بكتل من القار. أصبحت (الزعيمة) جاهزة الآن لأن تطلّى بالقار من الخارج. يمتلك المعدان، بما في ذلك أكثرهم فقراً، في هذه الأيام مشاحيف من الخشب، ولكن في الماضي، حين كانت وسائل المواصلات ليست بمثل هذا الشيوع وتصعب عملية الحصول على الخشب، فإن الكثير من سكان الأهوار يقتصر استخدامه على هذا النوع من الزوارق. وهناك زورق دائري يسمى (كفّة) شائع الاستخدام حول بغداد، وأقصى مكان رأيته فيه في الجنوب كان أسفل الكوت، فقد رأيته واحدة في منطقة (شيخ سعد).

من (العكر)، قررت العودة إلى (الكباب) حيث أستطيع بسهولة إرسال (داود) إلى العمارة. انضم إلينا اثنان من أبناء عمومة (يونس) كاد أحدهما أن يقلب المشحوف بطريقة خرقاء حين قفز إلى خارجه. لقد استمتعت بسماع الآخر يسأله: "هل أنت (عربي) هل أنت كردي؟".

ملمّحاً إلى أنه لا يمكن أن يكون معيداً. على طول الاتجاه إلى (بومغيرات) كان طريقنا مثقلاً بجزر القصب. وبعد انطلاقتنا مباشرة اجتزنا عائلة مرتحلة. راح غلامان يستحثان ست جاموسات على السير متبعين أثر بلم يحدف فيه رجل كهل وصبي آخر مُطلقاً صرخات غنائية لتشجيع الجواميس على الاستعجال في السباحة<sup>(١)</sup>، بينما جلست امرأة وثلاثة أطفال كان أحدهم عارياً تماماً إلا من طوق فضي حول رقبته عند مؤخرة البلم مع عجلتي جاموس وقطة صغيرة وعدد كبير من الدجاج. أثقل مقدم البلم وارتفع بأشيائهم المتضمنة بنية البيت المفككة، (بوارى)، جرار ماء، وأوعية الطبخ، وأكياس حبوب وفرش نوم. وقف كلب على قمة هذا الكوم بين أرجل ممخضة اللبن ونبح في وجوهنا حين جازيناها.

(١) يسمى هذا الغناء (شلى) والفعل منه (يشلى)، والجدير بالذكر أن لكل نوع من الحيوانات طريقة خاصة في الشلى.

انتظر (صدّام) بعد أن سمع بوصولى إلى (العكر) ليرحب بعودتى إلى (الكّباب).  
سألت عن صحة (عودة)، ابن (صدّام) فقال:  
"يقبّل يديك، لقد ذهب إلى دكان العطار، وخلال دقيقة سيكون هنا".

ما أن رسا مشحوفى حتى وصل أول مريض، كان يثن ويتلوى فى قعر مشحوف من ألم شديد فى كليتيه على شكل تقلصات. توقعت أن يكون الألم نتيجة حصة. ولغرض إزالى ألمه وإراحته دعكت جانبه بلطف بمهم كابسكيوم فازلين. وحين توقفت التقلصات صرّح الرجل أنى شفيته، لذلك أحسست أنى طبيب دجال غير اعتيادى! لقد أصبح دوائى الحرق شائعاً لكل سكان الأهوار تقريباً، حتى الأطفال الصغار الذين يعانون بين وقت وآخر من الآلام التى يسمونها (خاصره). أراى طفل فى الثانية عشرة من عمره، ذات مرة، بعض الحصى، كان أكبرها بحجم حبة البزاليا، ألقاها خارج جسده عن طريق البول. وفى مناسبة أخرى طلب (سيّد) شاب من المرموقين، دوائى الحرق موضحاً أنه يعانى من (الخاصرة) بين وقت وآخر، فأعطيته قليلاً منه فى علبة كبريت فارغة محذراً إياه أن لا يقرّب من عينه وأن يغسل يديه بعد استعماله. وبعد مرور عشر دقائق عاد (السيّد) يهذى بكلام غامض، فقد مسح، لسبب لا يعرفه إلا هو، عضوه الذكرى بالكابسكيوم فازلين. كان يرقص لاوياً قسماً وجهه من الألم قاسماً أن الألم سيقتله، فلم أزد على اقتراحى بضرورة غسل كامل جسده بالماء والصابون. رأى أحد رجال مشحوفى أن مازق (السيّد) مضحك بشكل لا يمكن مقاومته، فاقترح عليه أن يذهب ويرد عضوه مع زوجته!

وفى صباح اليوم التالى، بالضبط قبل بزوغ أى نور، هنزى (داود) ليوقظنى قائلاً أن ثمة غلام<sup>(١)</sup> جريح جلبه أهله. قام رجل وامرأة بتمديد ولدهما وهو بعمر الثانية عشرة فى الغرفة، وقد مُزقت (دشداشته) المقلّمة بالأزرق والأبيض ونقعت بالماء وقد غطت خرقة اصطبغت

(١) الغلام: خلف بن حويد بن كيان الشعبى الفريجي، توفى فى منطقة نهر الفُر فى محافظة ميسان سنة ١٩٩٥م تقريباً.

بلون الدماء نصف وجهه الأسفل. كانت عيناه الواسعتان السوداوان في وجهه الشديد البياض، تنفرسان بى. أجابونى حين سألت ما الذى حدث:  
"عضّه كلبنا".

كان الغلام يرتعش فدرثه بيطانياتي وأشعلنا ناراً لتدفئة بعض الماء ثم أزلت العصاية عن وجهه. كان خده ممزقا وقد مالت قطعة من النسيج كاشفة عن أسنانه الخلفية، وكانت هناك عضات أخرى في ذراعه وكفه. لم ينطق الغلام بكلمة مكتفياً بمراقبتي بعينه غير الطارفتين. نظفت وطهرت الجروح ونشرت فوقها مسحوق السلفوناميد، ومن ثم، وبكل ما لدى من حذر، أعدت قطعة النسيج إلى مكانها وزررت الجرح. أشاح بوجهه جانباً لكنه لم يبك مطلقاً. وحين انتهيت همس لى:  
"شكراً يا صاحب".

وكانت أول كلمة ينطقها. حقنته بالبنسلين وحرصت على توفير جلسة مريحة له قرب النار.

عاد (صدام) حين كنا نشرب الشاي، وقال الأب الذى قدم من قرية في الأهوار إلى جهة الشرق وتسمى (الدوب) أن ابنه ذهب خارج الغرفة قبل ذهابه للنوم:  
"فوثب كلبنا المتوحش الضخم عليه قابضاً على ذراعه، هاهى آثار أسنانه، ثم طرحه أرضاً محاولاً اقتناص حنجرتة، الحمد لله أنه أخطأها وإلا قتله، لكن الذى حذى ولدى هو خده. لم يصرخ الطفل أبداً. الحقيقة يا (صدام) أنى خرجت لأستطلع ما الذى يقلق الجاموس فوجدت ابني يجاهد من أجل حياته. إن الله رحيم. كنا قد سمعنا أن الرجل الإنكليزى فى (الكباب)، لذا وصلنا هنا عند الخيط الأول للفجر. لقد قتلت الكلب قبل مغادرتى البيت".

كنت قلقاً أن يكون الكلب مصاباً بداء الكلب، لكن الأب أكد أنه لم يغادر (الدبن) المعزول. أخذوا الطفل عاندين بعد الظهر بعد أن وضعت في يده الصغيرة ديناراً ثمناً لـ (دشداشة) جديدة. اندمل الجرح جيداً، وعلى الرغم من وجود ندبة

هلاية الشكل على خده لكنها لم تجعل شكل فمه شاذاً. يؤكد المعدان أن الكلاب لا تعض النساء والفتيات مطلقاً ومن المؤكد أنى لم أصادف حالة كهذه.

عقد (صدّام) العزم على أن يرى أمسية لا تنسى حين علم باستماعي برقصهم. فبعد أن تناولنا وجبتنا جلب الطبول والدفوف مباشرة ودفاها على نار لكى يشتد الجلد. وما أن سمعوا النقرات الأولى لغرض تجريب الوقع حتى هبّ الناس من القرية. حضر (عجرم) ووالده و(حلو) <sup>(١)</sup> الصغیر مع أخويه الأصغر والأكثر احتيالا منه. كان صوتاهما حادين صاحيين سرعان ما رافقاه مترنحين:

كالولى العرب عنك ظالم من زغر سنك  
هجرک عذبت حالى الله ینستقم مننک  
وصل (صحين)، رئيس قرية (بومغیرفات)، أيضاً، مع أخيه (حافظ) ومجموعة كبيرة من أفراد قريته تشمل شابین يدعى أحدهما (ياسين) <sup>(٢)</sup> والآخر (حسن) <sup>(٣)</sup> أصبحا فيما بعد من رجال مشحوفی.

وكان هناك شاب (فرطوسى) أيضاً يتيم ومعدم جداً اسمه (داخل) <sup>(٤)</sup>، كثير التشاجر مع الكل بالتعاقب، وبالنتيجة فهو ينتقل من قرية إلى أخرى بحثاً عما يستخدمه راعياً، لكنه كان مفتوناً بالفضول غير المتحشم لذلك يعامله الناس بطريقة ساخطة. كان هائماً بحب أخت (وادی) <sup>(٥)</sup> الشاب المتهج ذى الأربعة عشر عاماً

- 
- (١) حلو بن شذر بن مهودر الفريجي من بيت زباط. مات قتيلاً بسبب منازعات عشائرية في سنة ١٩٨١م.  
(٢) ياسين بن عاذ بن جثر الشغاني. قتل بسبب نزاع مع آل ازيرج سنة ١٩٧٣م تقريباً.  
(٣) حسن بن مناتى بن هيد الفريجي قتل اثر نزاع عشائرى مع عشيرة الشدة سنة ١٩٩٥م.  
(٤) داخل بن لازم بن خلف الفرطوسى. أمه فريجية لذا كان يمضى معظم أوقاته مع أخواله الفريجات، قتله الفرطوس بسبب نزاع سنة ١٩٧٨م تقريباً.  
(٥) وادى بن طعيمة بن مدلول الفريجي، يسكن حالياً محافظة ميسان، منطقة هر العز. أما أخته التى تزوجها داخل فيما بعد فهى واجدة بنت طعيمة بن مدلول، توفيت سنة ١٩٨٨م تقريباً.

الذى كان يجلس بجانبه. بقليل من التشجيع، فمض (داخل) وبدأ يرقص. كان وجهه وحر كاته تثيران الضحك بسبب تعاسته ونقمته. لقد كان نجم الأمسية فقد رقص عدة شباب من بينهم (عجزم) ولكن (داخل) كان الوحيد الذى تعالت صيحات الحشد له: "مرة ثانية".

"مرة ثانية".

بعدها أصرّ (حسين) أبو (عجزم) على الرقص، لقد كان راقصاً مشهوراً أوان. شابه، لكنه الآن مجرد مثير للضحك لغرابة ما يفعل، فقد كان يتقافز هنا وهناك كفيل السيرك إلى أن ناداه (صدّام): "اجلس يا (حسين)، دع (داخل) يرقص ثانية".

في تلك الأمسية، جلس بجانبى عدة أشخاص لم أستطع تمييزهم وأعربوا عن عظم سعادتهم لعودتى مرة أخرى. لقد أمضيت معهم ليلتين فقط قبل أكثر من شهرين، لكنهم جعلوني الآن أشعر كأنى عشت معهم سنين.

انتهت الحفلة قبيل الفجر، وحين خرجت، كان ثمة ضياء باهت متردد فى جهة الشرق. وفى عتمة الجهة المقابلة استطعت سماع وقع المجاديف وأصوات منادية لبعضها البعض وهم يعودون إلى بيوتهم. أمر مستحيل ألاّ استجيب لهؤلاء الناس الحميمين.





## الفصل الخامس عشر

### فالح بن مجيد

في الموج تذكرة يفهمها الجذبُ وعُرى  
الظماً فيها الشاك في استقامة خط الحب  
خذ من صبر الموجة مرايا وانظر...

(مجيد الخليفة) هو شيخ (البو محمد) في منطقة (الاجر) فضلاً عن أنه الحاكم المطلق للكثير من أرياف الهور. يقضى (مجيد) أغلب أوقاته في بغداد بوصفه نائباً في البرلمان تاركاً شأن إدارة مقاطعاته لابنه الأكبر (فالح). لقد كنت في الأهوار قبل سنة من مقابلتي له وسمعت أنه عاد قريباً من بغداد حين كنت في طريقي إلى (الكباب) وقد ذهب (صدّام) وكبار رجال القرية بناء على دعوته لهم وليقدّموا له احترامهم. اعتقدت أنه يتوجب على زيارته أيضاً، لذا توجهت نحوه ذات صباح، يقود مشحوفى (ياسين) و(حسن) الشابين من قرية (بومغيرات) الذين مرّ على بقائهما معى مدة ستة أشهر. كان مشحوفنا يعود لـ (ياسين) الشاب ذى الستة عشر عاماً، الطويل وذى البنية الرشيقة كأنه رياضى، له وجه جذاب عريض يشوبه أثر لدم منغولى، أما (حسن) فهو فى مثل سن (ياسين) نفسه، لكنه أقصر منه، وأكثر امتلاءً، وصياد ماهر يمتلك بندقية خفيفة من النوع الذى يُعبأ من الفوهة مصنوعة محلياً ذات ماسورة مربوطة بسلك نحاسى. أقنعت بترك تلك البندقية قائلاً إن بإمكانه استخدام بندقيتى. ومن بين هذين الاثنين، يبدو (ياسين) الشخصية الأكثر هيمنة والأفضل تجديفاً. وعلى الرغم من كونه ليس أكثر من شاب صغير إلا أنه يرى فى نفسه مهارة استثنائية حتى بالمعايير المعيدة.

ينقسم (المجر)، وهو فرع من دجلة، بعد مدينة (الجر الكبير) إلى فرعين هما (العدل) و(الواديّة) وكلاهما يتشتتان في الأهوار بعد نحو ثمانية أميال بعد أن يفقدا الكثير من مياههما في قنوات إروائية. لقد تتبعنا واحداً من هذه القنوات حتى التحقنا بـ (العدل)، حيث تقوم قرية (مجيد). ربط (حسين) حبلاً بمقدم المشحوف وبدأ بجره<sup>(١)</sup> ضد التيار وتولّى (ياسين) إدارة دفته بمجدافه عند مؤخرته. اجتزنا سلسلة من القرى، وفي نحو الساعة العاشرة وصلنا قرية تشرف عليها بناية من الطابوق بسقف مسطح، دائرية وكبيرة تصدّعت جدرانها وتعرّت بفعل الجو. إنها بيت (مجيد) الخاص. انتصب بعدها مضيف قديم خرب مائل نحو أحد جانبيه. من الواضح إنه لم يبن مضيفه الجديد بعد رغم تكدس أكوام القصب قريباً منه. تسكّع حشد من الرجال في الخارج حيث كان (مجيد) يجرى مقابلة داخل المضيف. تقدّم رجل باتجاهنا وقادنا إلى الداخل. نهض (مجيد) من مجلسه وصافحنا. يبدو أقل من متوسط الطول بسبب بنيته الثقيلة ومنكبيه العريضين جداً. كان ذا قوة هائلة عند شبابه لكنه هرم بسرعة في أواسط عمره، أما الآن فترهلت بطنه في طيات وبدأ يتهادى في مشيته. فوق رقبته الغليظة والقصيرة، انتصب وجهه المليء بالعروق والمغطى بهلب فضي. كانت عيناه، بصغرهما وتأطرهما باللون الأحمر، حادتين وشهوانيتين، يبدو كما لو أنه نهض تَوّاً من سريره ولا يمكن التنبؤ بمزاجه. أمر بإحضار كرسيين، كأنهما صندوقين بمساند للذراع مصنوعين من خشب الصنوبر ومفروشين بمخمل أزرق وقد وضعنا بحيث واجه أحدهما الآخر في المضيف. دعاني (مجيد) للجلوس على أحدهما وجلس هو على الآخر. كان المضيف مزدحماً، لذا تمّنت لو كان جلوسى على الأرض كي لا أنافى الذوق ولا أخرج.

وبعد أسئلة شكلية عن الصحة عاد (مجيد) للاهتمام بمشاغله اليومية. إنه يتعامل بمقدرة عالية وبسرعة مع كل قضية ولكنه يبدى القليل من الاهتمام بمشاعر الآخرين،

(١) يجرى هذا التدبير حين تكون المياه ضحلة في القنوات والأنهار الصغيرة وفي بعض مناطق الأهوار في أثناء انخفاض مناسيب المياه، حين يلامس أسفل الزورق قاع النهر.

فما أن يعترض أحدهم حتى يخرسه بمحلمته. جلس كاتبه، الرجل المتوسط العمر المكسو وجهه بثور الجدرى وذو الطريقة الخانعة المذعنة في التعامل، إلى جانبه مدوناً قراراته<sup>(١)</sup>. يلبس الكاتب، مثله في ذلك مثل (مجيد)، (زبون) ثقيلاً من صفوف معتم عباءة بنية، ومع ذلك كانت عباءة مجيد من نسيج راق إلى أبعد الحدود ورقيقة كنسيج العنكبوت. تعود جميع الأراضي إلى (مجيد) لذا فهو، بالنتيجة، غير متحيّز في حكمه، لكنه قلق فقط بشأن ضمان أعلى محصول ممكن. كان بخيلاً بشكل معروف، وهو أيضاً إقطاعي يقظ، يعرف كل ركن وزاوية من ممتلكاته، ولديه خيرة نصف قرن في الحكم على مستوى المياه الذي يقرّر الخير والازدهار، وهو يعرف بالضبط متى وأين يبنى سداً ومتى تنقص المياه وكميتها.

تعتبرني الدهشة لرؤية الأنهار العميقة، التي يصل عرضها إلى خمسين ذراعاً، تنهار عند الفيضان وبالإمكان أن تُسد بلا شيء أكثر من الأغصان المقطوعة، والقصب والتراب. إن المطلوب هو جهد إلزامي عظيم ليس فقط لبناء سدود كهذه بل لتنظيف القنوات وتقوية الصفاف كذلك. وككل العرب، فإن هؤلاء المزارعين يمتلكون إحساساً جمعياً تعاونياً قليلاً. فإذا ما تُرك الأمر لهم، فإنهم سوف يتكلمون ساعات قبل الاتفاق على إنجاز أى عمل مهما كان حيوياً وأساسياً! وحين يأتي اليوم الموعد، فإن عدداً قليلاً منهم يحضر، وينصرفون بعدها مبطلين المهمة<sup>(٢)</sup>. يعرف (مجيد) ما هو العمل المطلوب فيعطى أوامره وفقاً لذلك ويجبرهم عليها، وإذا حاول أى رجل التملّص أو الإهمال في مهمته فسوف يُطرح أرضاً ويُجلد.

(١) ملّة حميد بن بدّير بن حدادى من أهالى الصورة، متحالف مع عشيرة البيضان، لا أحد يذكّر تاريخ وفاته.

(٢) لا أحد يشك في صدق هذا القول مادامت المعايير التي تقدر الجهود ضائعة، فيكون أمراً منطقياً إحساس الفلاح العراقي بالضيق في ذلك العهد مادام نتاج جهوده المضيئة يذهب إلى غيره من الإقطاعيين. ولكن، على الرغم من هذه الحقيقة المرة، فإن ما يقوله المؤلف بشأن تقاعس الفلاح العراقي فيه الكثير من الصحة.

إن شريحة من الموظفين وأهل الفكر من أهل المدن، على العموم، معادون للشيوخ حاسدون لثرواتهم ومهتمون بشأن تدمير قوتهم السياسية. حين يتكلم هؤلاء بالسنة ذرية عن مصادرة أراضي الشيوخ وتوزيعها على الفلاحين يهملون عادة حقيقة مهمة هي أن العراق لا يمتلك أى مؤسسة للرى قادرة على أن تحل محلهم. إن الكبار من شيوخ لواء العمارة عادة مبتزون ومستبدون، لكن معظمهم، مثل (مجيد)، فلاحون من الدرجة الأولى وعلى علم بمتطلبات مقاطعاتهم منذ الطفولة. الأفضل هو أن يشعر الإنسان بالحب نحو الأرض، شعوراً يغوص عميقاً ويتقدم كل اهتمام شخصي. إذا ما أُسْتُبدل الشيوخ بموظفين من بغداد أو الموصل فيحتاجون إلى سنين ليكسبوا الدراية بتفاصيل الزراعة نفسها في تلك المنطقة، هذا إذا اقتنعوا بالبقاء هناك. إن نجاح أو فشل الحاصل لا يؤثر عليهم بشكل شخصي، وعليه فمن المؤكد أنهم سيجربون منح المياه، ليس للفلاح المحتاج إليها أكثر، بل للذى يدفع أكثر.

"أتريد ماء؟ ماذا ستعطيني؟ نصف دينار؟! لماذا جئت هنا وضيّعت وقتي؟ اخرج". من السهل تحيّل المشهد. يكمن الحل في عدم طرد الشيوخ، بل في التأكد من أنهم أعطوا للفلاحين حصة أكبر من المطلوب وبعض الأمن والسلام في تواجدهم على أراضيهم.

بعد ثلاث ساعات في المضيف، بدأ الحاضرون بالتناقض. كنت ضجراً وجائعاً وكان المضيف نصف ممتلئ حين دخل الخدم بصينية مملوءة بدجاجة محمصة، وسمكة مشوية، وأرز وخبز ومرق. وبناء على أمر من (مجيد)، وُضعت الصينية أمامي على منضدة كسيحة. وبعد أن غسلت يديّ، دعاني إلى البدء بتناول الطعام. لقد توقعت أن يأكل معي، لكنه لم يبد أية إشارة لالتحاقه بي، عندها طلبت أن توضع الصينية على الأرض لكي يستطيع (ياسين) و(حسن) الأكل معي، فقال بفضافة: "لا، لا، كل حيث أنت، لا نقيم لأمرهما، سوف يتناولان طعامهما لاحقاً".

فأصررت على تفضيل الأرض كما هي عادتي في الأكل مع رفاقي. فقال لي: "لا، لا، إبدأ حيث أنت".

والتفت لحادثة شخص آخر. هذه ليست طريقة في معاملة ضيف، فشعرت من هذه اللحظة أن الغضب أخذ بتلابيبي، لذا تناولت لقمة واحدة من الأرز ونهضت طالباً الماء لغسل يدي. نظر الجميع إلى (مجيد) الذي سألني ما الأمر. فأجبت: "لا شيء، شكراً جزيلاً، لقد شبع".

"ها، دعوه يأكل على الأرض إذا كان راغباً في ذلك".

شكرته مرة أخرى مؤكداً له أنني تناولت ما فيه الكفاية من الطعام وذهبت إلى مقعدي. أما (حسن) و(ياسين) فقد استفادا من زهدي في الطعام فأبليا بلاءً حسناً! غادرنا بعد ذلك مباشرة.

لم أذهب بالقرب من (مجيد) مرة أخرى لأكثر من سنة. وفي المرة التالية استقبلني بشكل مختلف تماماً، فقد أصرَّ على أن أمضي ليلتي عنده وأكل معي وكان لطيفاً كمعوم العرب مع ضيوفهم. توقفت بعد ذلك في مضيفه في عدة مناسبات مسلماً عليه ومقدماً له احترامي برغم عدم اسلتطافي له.

وفي طريقنا إلى (الكباب) في ذلك الصباح كنا قد اتفقنا على قضاء الليل في مضيف (فالح) على (الواديّة). لقد كان مضيافاً معي في السنة الماضية ورجاني أن أعود غير أنني لم أفعل لأني في الحقيقة قد حُذرت من الشيوخ كافة من قبل مجموعة أشخاص التقيت بهم عند (دوكالد ستيوارت) في العمارة. إنهم لم يصلوا إلى هنا ولم يستوضحوا الأمر بشكل جيد، لذلك أطلقوا أحكامهم وسط بيوتهم الفظة الطنانة في المدينة. بعد استقبالي من قبل (مجيد) شعرت بدوام قلة الرغبة بزيارة ابنه واقترحت العودة مباشرة إلى (الكباب)، لكن (ياسين) قال:

"لا، دعنا نقضي ليلتنا عند (فالح)، فهو مختلف".

بعد ساعتين استطاع (فالخ) أن يشعر بالراحة في مضيفه قائلاً:

"خدائي الأمل أنك سوف تعود، لقد سمعت وما زلت عن إنجازاتك من المعدان، إنهم يفضلون تطبيقك لهم، وأنا على يقين أن القرويين هنا سيحضرون لغرض الدواء. لقد رأيت الأهوار، دعنا الآن نرى شيئاً عنك، هل اصطدت خنزيراً في المدة الأخيرة؟ ماذا؟ ولا واحد؟ انتظر فقط حتى ترتفع مناسيب المياه فنذهب لمطاردها معاً". كان مشغولاً بمتابعة إزالة عوائق جريان المياه وتقوية ضفاف القنوات قبل الفيضان. أقمت مدة أسبوع سعيداً بهذه المناسبة لغرض عقد المقارنة بين الفلاحين والمعدان. كنّا نبدأ رحلة صباح كل يوم في طرادة (فالخ) ونعود بعد الظهر متناولين غداءنا في قرية ما في الطريق. وكما قد توقع، فكثير من المرضى يحضرون كل يوم إلى مضيفه، وكنت أعالجههم قبل مغادرتنا أو بعد عودتنا. وفي قرية (زاير محيسن) قابلت (مناتي)، الرجل الذي شقت آليته الخنزيرة. لقد صدمني ما آل إليه من نحول وانحناء حين رأيته وتذكرت الكلمات التي صرخ بها الرجل العجوز:

"هذه الخنزيرة أتت علي (مناتي)".

"هذا شاب جيد".

قال (فالخ) وهو يشير إلى واحد من شابين كانا يساعدان (زاير محيسن) في إعداد الغداء، ثم أكمل:

"إن والده (تكب) <sup>(١)</sup> لا يستطيع العمل الآن و(عمارة) هو المتكفل بالعائلة، إنهم فقراء جداً".

ثم سأل (فالخ) (عمارة):

"أليس صحيحاً أنك سُميت (عمارة) لأن أمك ولدتك هناك في السوق؟"

فأجاب (عمارة):

(١) تكب بن جلاج الربيعاوى القريجي، ولد نحو سنة ١٨٩٠م وتوفي في (ربيعه) سنة ١٩٥٧م.

"نعم، صحيح، لكنى لم أذهب للعمارة منذ ذلك اليوم".

كان ذا بنية نحيفة ووسيماً بشكل لافت للنظر، رشيقياً وهادئاً وذا طبيعة ارستقراطية. أما الشاب الآخر فعلى عكس (عمارة)، أخرق وبعيداً عن الوسامة ولكنه طيب بشكل واضح. سمّاه (فالخ) (سبتي) <sup>(١)</sup> وقال لى إن والده عطار، مضيفاً أنهم ذوو سعة وكرماء جداً. ظهر (سبتي) راضياً مسروراً لهذا الإطراء. وجدت كلا الشابين وعدة آخرين من القرية نفسها التى تبعد نحو خمسة أميال ينتظروننى خارج مضيف (فالخ) لكى أختنهم، وحين سألت (عمارة) كيف سيعودون إلى بيوتهم بعدها؟ قال:

"سوف نبقى هنا حتى يخف الألم ويتوقف النزف، عندها سوف نعود".

وهذا ما فعلوه.

فى مضيفه الخاص، يحافظ (فالخ) على هيئته بوصفه شيخاً، شاعراً بأهميته، ولكنه فى القرى يبدو ودوداً رافعاً للكلفة. كان الدفء الذى يحيه به كل القرويين واضحاً. يتراكض الأطفال أمامنا متصارخين:

"فالخ قادم".

وحيث نصل، يناشدنا آبأؤهم بإصرار على تشريف بيوتهم. يكون شديداً لمناسبة ما، وحتى بلا رحمة، لكنهم يحترمونه أكثر لشدته، ولم أسمع مطلقاً بحكم من أحكامه تجاوز الصواب. يتصرف على وفق تصورهم المثالى للشيخ، نبيل المولد، إنه الزعيم الذى يعجبون ويتقنون به ويخافون منه. يحسد الكل مهارته مع البندقية على ظهور الخيل ويتمنونها، ويستطيع قيادة مشحوف بسهولة ولا يشبهه فى ذلك الكثير من الشيوخ. وفيما يخص الشيخين، (مجيد) و(محمد العريبي)، فما زالا مؤثرين مشيرين للرهبنة مع تقدم عمرهما، باقين على قيد الحياة من أزمنة قاسية وأكثر نشاطاً. أما حمقية

(١) سبتي بن لازم بن صويح الوزواى، أحد رجال مشحوف المؤلف، علماً أنه تولى التجديف بالرخالة غافن ماكسويل صاحب كتاب «قصة فى مهب الريح». يسكن حالياً فى محافظة ميسان.

الشيخ فأغلبهم، خاصة الشباب منهم، سمان بأجساد مترهلة وكسالى. إنهم قلقون على الدوام على صحتهم مجريين دوماً أى أدوية متاحة. (جاسم بن محمد العريبي) (١) هو الوحيد الذى يُعدّ كفناً لـ (فالخ) لكنه ميّت الآن، لذا يقول الناس: "إن الوحيد المتبقى هو (فالخ)".

حين عدت إلى (الكباب) بعد أسبوع، اشتريت لنفسى مشحوفاً واسعاً وأكثر نباتاً من كثير من المشاحيف. دفعت عشرة دنانير ثمناً له. يبدو جديداً تقريباً وبحالة جيدة. قال (ياسين):

"الآن، أنت واحد منا. فى هذا المشحوف سوف نأخذك إلى حيث تود الذهاب، سوق الشيخ، والكوت، والبصرة، وأى مكان".  
عدنا فيه إلى قرية (فالخ) بعد ستة أسابيع لاحقة، وحين رسونا سألته بغرور:  
"ما رأيك بمشحوفى الجديد؟"

"لا بأس به، ولكن انتظر حتى ترى ما الذى انتظرتك لأجله".  
أعطى أوامره إلى خدمه الذين ذهبوا وعادوا يدفعون طرادة جديدة تماماً، شديدة السواد متألثة، ونحيلة وعالية المقدم. كانت تنزلق باتجاهنا خلال الماء.  
"وصلت البارحة من (الهوير)، إنها لك، أمرت ببناؤها لك".

---

(١) الشيخ جاسم بن محمد بن عريبي بن وادى وأمه فتر بنت يسر بن فيصل الفيصلاوى، ولد سنة ١٨٩٥م وهو أكبر أولاد محمد بن عريبي وأكثرهم شجاعة وجرأة، امتاز بجمال الملامح ونعومتها... تزوج ثلاث نساء:  
١ - خالدية بنت عصمان بن يسر الفيصلاوى وأنجب منها خطاب، وكريم، وبان.  
٢ - حسن بنت حميد بن خفى الظالمى وأنجب منها عزيز وفالخ الذى يتزعم بمجدارة عشائر البو محمد، والذى يتميز ببساطته وحميمته.

٣ - طليعة بنت فالخ الصيhood وأنجب منها فيصل يسكن البصرة حالياً.  
مات عام ١٩٤٣م فى أحد مستشفيات البصرة وأحيط هذا الموت بالكثير من التقول الخطير آثرت عدم ذكره هنا لأنه لا يُعد شيئاً حاسماً ونهائياً. المهم أن موته كان كارثة حقيقية حلت بعشائره (البو محمد) التى نعته بحزن شديد وراح الشعراء والمغنون يتبارون فى رثائه.



وأضاف (فالخ):

"ربما يستهويك أن تفكر أنك واحد من المعدان، لكنك في الحقيقة شيخ، هذه الطرادة جديدة بك".

هتف (ياسين):

"الله، ما أجملها! إنها واحدة من طرايد (حجي حميد)، وهي من أحسن ما بنى، لا مثيل لها".

كان لا يقرّ لي قرار، حاولت أن أعبر عن شكري، لكن (فالخ) وضع يده على كتفي قائلاً:

Sahib Inta Sahibi، (صاحب) أنت صاحب<sup>(١)</sup>.

في تلك الأمسية، اقترح (فالخ) حاجتي إلى شابين آخرين مثل (ياسين) و(حسن) ليكمل طاقمي. إن أي رجل أكبر منهما سناً أو متزوج لن يرغب في مغادرة عائلته شهراً بلا انقطاع. حضر (عمارة) و(سبيتي) صباح اليوم التالي، حين سمعا برغبتي، ليعرضا خدماتهما. سألتهما عن المدة التي شفاوا خلالها فقال (عمارة):

"ما أن انتهيت، فلا شيء بعدها، ذهبت لقطع القصب بعد ثلاثة أيام، وهذا ما فعله الآخرون".

يتمتع (عمارة) بفتنة هادئة تجعله جذاباً جداً، لكنني أتساءل بشك إن كانت لديه قوة لجذب في طرادة لرحلات طويلة. طمأنني (حسن)، الذي ينتمي إلى (الفريجات) أيضاً، أنه أقوى مما يبدو. ينتمي (ياسين) إلى (الشغانية)، و(سبيتي) إلى عشيرة غامضة لم اسمع عنها أبداً<sup>(٢)</sup>. قلت لـ (عمارة) و(سبيتي) أن بإمكانهما الالتحاق بنا، وبقياً معي

(١) هكذا وردت في النص.

(٢) ينتمي سبيتي إلى عشيرة تسمى الوزاوة وهي على ما أكد أكثرهم، فرع من عشيرة الباوية العشيرة العراقية ذات الجذور القديمة في العراق وهم من صلب قبائل ربيعة العدنانية واتخذوا من محافظات العراق موطناً لهم من بينها محافظة ميسان.

حتى غادرت العراق. على الرغم من أنه أصغر من البقية، إلا أن (عمارة) كان الشخصية الأقوى، يطيعه (سبيتي) منقاداً ونادراً ما يعترض (حسن) على قراراته. (ياسين) فقط هو المتمتع أحياناً من قيادته وميَّال إلى أن يجد نفسه الرجل المنزّل عن المجموعة. تعلّم (عمارة) و(سبيتي) بسرعة مساعدتي في التطيب، وكان (عمارة) يحقن الإبر أحياناً. لم أكن أدفع لرجال أجر منتظماً قائلاً لهم إنّي أردّهم رفاقاً لي وليسوا خدماً مستأجرين. لقد كسوتهم، وفي الحقيقة، أعطيتهم أكثر مما كانوا يأملون. وفيما بعد، حين تزوجوا، ساعدتهم في مهر زواجهم. حين كانوا يُسألون، ما الذي أعطاكم إياه الرجل الإنكليزي؟ يجيبون باعتداد:

"لا أجر لنا، نحن نرافق (صاحبنا) للمتعة، وهو سخي ويعتني بنا".

في تلك السنة، قطعنا بطرادنا الأهوار الوسطى وارتحلنا منحدرين أسفل الفرات إلى القرنة، ثم عدنا إلى (الصيكل) وأقمنا مرة أخرى مع (اليسي) في البر، وزرنا (آل أزيج) الذين لم نرغب بهم ولا بشيوخهم. وكررنا الزيارة لـ (جاسم) وأتباعه (الفرطوس) حيث وجدنا (داخل) الشاب الذي أمتعنا برقصه في (الكباب). إنه لا يزال معدماً، لكنه الآن أكثر نحولاً وهزالاً، ومن الواضح أنه يُحتضر من البلهارزيا ومضاعفات مختلفة. وبعد نقاش طويل بدا لا هائياً، أقتعته بالذهاب إلى البصرة للعلاج، كانت عيناه تدمعان حين غادر. أرسلته إلى هناك ومعه رسالة إلى صديقي (فرانك ستيل)<sup>(١)</sup> الذي كان نائباً للقنصل.

بدأ الصيف وتحلّت غيوم البعوض في الأهوار فوق رؤوسنا حتى في النهار حين كنا نمرّ بالممرات الصامته بين جزر القصب الشاهق. وفي الليل يأكل بنهم من أجسادنا العارية لأن الجو كان حاراً بحيث لا نستطيع أن نتغطى حتى بأخف الأغطية. كنا سعداء بمغادرة الأهوار والارتحال بدلاً من البقاء فيها متنقلين بين قرى منطقة (الجر) متعرّفين

(١) فرانك ستيل Frank Steele: لم أستطع العثور على أية معلومة تخص هذا الرجل.

على أصدقاء جدد من بين الفلاحين. ولكن، بغض النظر عن مدى طول رحلتنا طويلة كانت أم قصيرة، كنا دائماً نعود في نهايتها إلى مضيف (فالح). ومن عادة أى شخص يرى طرادتنا، حتى (فالح) نفسه، الانتظار على الضفة ليرحب بنا. وبين الحين والآخر نعود متأخرين في الليل أو في ساعات الصباح الأولى، فننام في المضيف الفارغ فيجدنا (عبد الرضا)، الرجل العجوز المسؤول عن القهوة، حين يأتى إلى المضيف عند الفجر فيسرع بإخبار (فالح) بأن أصدقاء هناك.

لا يشبه بقية الشيوخ، فـ (فالح) يكره حياة المدن ونادراً ما يزور بغداد أو العمارة. يقيم أحيانا بعيداً عن مضيفه ليلة أو ليلتين مع أقاربه في (الجر)، واغلب الأحيان مع (محمد)<sup>(١)</sup>، أخو مجيد الأصغر، الذى كان، على الرغم من فقره، مبسوط اليد ومن أكثر الناس جدارة بالحب. وكان (عباس بن محمد)<sup>(٢)</sup> ~~اليدى~~ بشكل مرضى ذو البنية الغليظة، وبعمر العشرين، أقرب أبناء عمومة (فالح) إليه وأكثرهم أثره عنده. لقد مضت عدة ليال مع (محمد) حين كنت أرافق (فالح). كنا ننسحب، بعد العشاء في المضيف، إلى غرفة خاصة في بيته. كان أتباعه عبارة عن مجموعة من الموهوبين في الغناء والرقص، وقد اعتاد صبي منهم على وجه الخصوص محاكاة موظفين محليين، وهم يتمتعون بقضاء ساعات فراغهم هناك، بعبارات منطوية على مبالغة مجفلة<sup>(٣)</sup>.

يصبح الهور القريب من بيت (محمد) في فصل محدد مأوى مفضلاً للخنازير التى تدمر حقول الأرز في أثناء الليل. طاردناها أنا و(فالح) في مشحوف صغير على طول سدة تشطر جزر القصب. وذات يوم قتلت سبعة وأربعين منها، وفي آخر، قتلت اثنين وأربعين. هذه الخنازير من صنف واحد كالخنازير البرية الأوروبية والهندية، لكنها هنا

(١) محمد بن خليفه بن وادى بن منشد أحد أربعة أخوة لمجد لأمه وأبيه، فهناك أخ غير شقيق لمجد اسمه محمد أيضاً.

(٢) عباس بن محمد بن خليفه بن وادى، ولد عام ١٩٣٠ م، يسكن في بغداد، منطقة الحسينية حالياً.

(٣) إنه جبر بن سلمان المشتاوى، متوفى منذ زمن طويل، هذا ما أكدته ذاكرة الرجل المسن دهيش بن نافل الحميداوى، أحد دوايق فالح بن مجيد الذى يسكن مدينة الثورة حالياً.

تبلغ حجماً استثنائياً. قست اثنين منها كمعدل، فكان عرض كتفهما سبعا وثلاثين بوصة. كم تأسفت لأنى لم أقس واحداً كبيراً بحق. فى النهار تلازم الخنازير النوم فوق أعشاش من الحشائش مشبعة بالماء، تبنها عادة على الضفاف الواطئة التى تحاذى السدود. وهذه الأعشاش، التى يصل عرضها أحيانا إلى ستة أقدام، عبارة عن أكوام عظيمة من البردى وأعشاب أخرى تقطعها وتحملها بأفواهها إلى مسافة بضعة أذرع عادة. وحين تطفى مناسب المياه فى الأهوار تتحرك الخنازير متجهة إلى خارجها لتنام، على الأغلب، فى بساتين النخيل المهملّة وفى الأراضى ذات الأشجار الخفيضة المتقاربة الشائكة التى رأيت فى إحداها أيضا ذبّا وثلاثة جراء. كُنا أنا و(فالخ)، إما أن نُكره هذه الخنازير على المشى سائرين خلفها، وهو أمر مثير لكن حفظنا فيه قليل فى الفوز بقتلها، أو نسوقها إلى الخارج، إلى الأراضى المكشوفة ونطلق عليها النار من على ظهور الخيل.

توجّبت على المغادرة أخيراً كما خططت لذلك فى الخريف إلى جبال شمالى الباكستان. كان (عمارة)، و(سبتي)، و(ياسين)، و(حسن)، الذين بدأوا يُسمّون أنفسهم رجالي، معى عند آخر ليلة لى مع (فالخ) فى قريته. وعند العصر، خرجنا خارج المضيف بحثاً عن جو لطف، وجلسنا على الحشائش. إن ريح الأربعين يوماً التى هبّت خلال حزينان (يونيو) لم يسبق لها مثيل فى حرارتها، والآن، لا أثر لأى حركة للهواء. ما إن غربت الشمس حتى عاودت الثعالب عواها الجماعى الغرب من وراء منخفض النهر. طلع البدر وطارت الخفافيش طرامها القلق حائمة فوق رؤوسنا. أكلنا بطيخاً وعنباً من بستان أحد (السادة) وشربنا (نومى البصرة). خرج (عبد الرضا) من المضيف والدلة فى يده، قال لى: "لن نشرب مثل هذه القهوة أينما ذهبنا، اشرب المزيد مادمت تستطيع".

وقال (فالخ):

"لا تمكث بعيداً عنا مدة طويلة".



## الفصل السادس عشر

### مصرع فالج

مُستباح... مُرّ فمي، عَتَمَه غُرى (الكَاهِن)  
 فى ليل الكوفيات السود، ياليل، أُخْزَنك  
 أحلك من حزن؟

هَبَّ ابن (عبد الرضا) الصغير على قدميه وهو يصيح:  
 "أهلاً وسهلاً (صاحب)، أهلاً وسهلاً".

وهزّ نائماً آخر:

"هيا، استيقظ، لقد عاد الإنكليزى، اذهب وأخبر (فالج)، أنا ذاهب لإحضار  
 والدى".

نام عدة أشخاص فى المضيف فاستيقظوا الواحد تلو الآخر مرتبين عباءاتهم  
 وكوفياتهم. وحين تقدموا نحوى مسلمين علىّ عرفت أنهم جميعاً من أتباع (فالج).  
 "أهلاً وسهلاً (صاحب)، أهلاً وسهلاً. إنه يوم عيد، لقد غبت عنا طويلاً".

كانت مغادرتى فى الأسبوع الأخير من تموز (يونيو) ١٩٥٢م، والآن وقت العصر  
 من شباط. بدت تلك الشهور السبعة طويلة، قطعت فيها ممرات مرتفعة خلال الثلوج  
 فى الهندوكوش<sup>(١)</sup> للوصول إلى البحيرة الباردة الزرقاء فى كورم بار<sup>(٢)</sup> حيث يبيع نُفَر

(١) الهندوكوش: Hindu Kush: سلسلة جبال فى قلب آسيا تمتد إلى نحو ٥٠٠ ميل من شمال وسط  
 أفغانستان إلى بامير Pamirs وكاراكورام Karakoram، أعلى قمة فيها هى (ترج مر) وتعلو نحو  
 ٢٥٢٦٣ قدماً.

(٢) كورومبار korombar: لم أعثر على أية معلومات تخص هذه المنطقة أو المدينة.

جترال<sup>(١)</sup>. لقد أشرفت على واكاند<sup>(٢)</sup> من خلال ممر بوروجل<sup>(٣)</sup> ورأيت من بعيد ومضة نور حيث الأوكسوس<sup>(٤)</sup>. لقد غمت على أنهار الجليد عند سفح (ترج مر) حيث العتمة تجلج البيوت القذرة بين بساتين التوت وحيث يعيش بقايا الكفار السود<sup>(٥)</sup> عند حدود نورستان<sup>(٦)</sup>. والآن، وأنا أعود مرة أخرى إلى المضيف (فالخ) على حافة الهور، أشعر كأني أعود إلى وطني.

ها هو (عبد الرضا) الأثرم المحدودب الظهر ينطق مسرعاً:

"ذكرك فالخ البارحة، متسانلاً عن موعد عودتك. (صدّام) كان هنا منذ بضعة أيام قادماً من (الكّباب) وهو أيضاً يسأل عنك، أهلاً وسهلاً، أهلاً وسهلاً، إن اليوم يوم عيد".

جلسنا حول موقد القهوة ونهض الجميع حين جاء (فالخ)، عانقني طويلاً وقبلني على خديّ وسألني كيف كانت أحوالي:

"لماذا تأخرت كل هذه المدة؟ لقد توقعنا قدومك في الشهر الماضي، أليس كذلك يا (عبد الرضا)؟ على كل حال، إنه لأمر رائع أن نرى عودتك الآن، سوف يُسعد المعدان عندما تصلهم أخبار عودتك. كثيراً ما يسأل (عمارة) و(سبيتي) عن عودتك، سوف يكونون هنا حال علمهم بوصولك".

(١) نهر جترال Chitral: لم أعرّ على معلومات لهذا النهر رغم الجهد.

(٢) واكاند Wakand: لم أعرّ على معلومات لهذا الإقليم أو المدينة.

(٣) بوروجاس باس Porogil Pass: لعله ممر خيبر الذي يقطع سلسلة جبال الكوش الهندية والتي تمتد إلى أفغانستان.

(٤) أوكسوس Oxus: أو Amudarya أموداريا: نهر بطول ١٣٥٠ ميلاً ينبع من سهول Pamirs بامريس المرتفعة التي تغطي معظم أراضي طاجيكستان، ماراً بجبال الهندوكوش مشكلاً الحدود الروسية الأفغانية ويعبر أوزبكستان إلى مصبه في بحر الأورال.

(٥) الكفار السود Black Kafirs: قوم منزولون غريبو الأطوار يسكنون منطقة نورستان.

(٦) نورستان Nuristan: منطقة في شمال غرب أفغانستان جبل سكنتها من الكفار السود.

بعد أن شربنا القهوة قال:

"(صاحب)، من الآن فصاعداً لم تعد ضيقاً، وعليه فلن يكون المضيف محلاً لإقامتك، أنت واحد من العائلة، وعليك أن تأتي لتسكن بيتي".

التفت إلى أحد الرجال وقال:

"(جاسم)، خذ حاجيات (صاحب) إلى هناك".

كان بيته مكوناً من طابق واحد مبني بالطابوق المخخور موضعياً، وحين وصلناه قال (فالخ):

"هذا هو بيتك، أهلاً وسهلاً، ادخل".

ولجنا إحدى الغرف، غُلِّقت على أحد الجدران صورتان مزخرفتان لفارسين هما على والحسين (عليهما السلام)، من قديسي الشيعة، مقطَّعين أعداءهما إرباً وسط برك من الدماء، وهناك صورة كبيرة أخرى لـ (محمّد) يطار ذهبي. غُلِّفت الأفرشة بنسيج حريري أحمر وأخضر مع مخدات ووسائد بمختلف الألوان حيث انتشرت في أرجاء الغرفة. كان مظهر الغرفة واسعاً ومريحاً يختلف تماماً عن (الديوانيات) التي أُحجز فيها أحياناً، وهي بيوت من الطابوق تُعد لاستقبال الضيوف بناها أثرياء الشيوخ في العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة لتلائم الموظفين العراقيين والزوار الأوربيين، تقفل عادة حين لا يحتاجها أحد فتكسو أرضيتها وأرجاءها طبقة غليظة من التراب، وتنتشر فيها ثقيلة بمساند للذراع أعقاب السجائر. ثمة كراسٍ ذات طراز عراقي تقليدي مكسوة بمخمل داكن مرصوفة بشكل ثابت مع امتداد الجدران، فصلت كل كرسيين عن الكرسيين اللاحقين منضدة صغيرة محشورة بينهما. هناك، خلف الشبايك المقفلة، يجري الشيخ حواراته الجادة مع الزوار في حين يتعد الآخرون إلى مسافة معينة لا يجروون على تخطيها.

أقام (عباس)، ابن عم (فالخ) والأثير عنده، مع (فالخ) وكان متلهفاً للعودة إلى بيت أبيه (محمد) في (النجف). التفت (فالخ) إلى وقال:

"سوف نذهب غداً للصيد، ألا ترغب في ذلك؟ سوف نجرب عند حافة الأهوار من أجل صيد البط، وربما وجدنا بعض الخنازير. والآن، (عباس) لا يمكنك الذهاب إلى البيت الآن لأن الرجل الإنكليزي وصل توأاً ويريد أن يصطاد معنا غداً. دعني أرسل أحدهم حالاً لجلب بندقيتك، بإمكانك العودة غداً مساءً إلى بيتك، لم العجلة؟ فأنت غير متزوج" (١).

ولسوء الحظ، تحايل (عباس) على نفسه كي يقتنع.  
كان إفطارنا بيضاً مقلباً وأرغفة من (السيّاح) وحليب جاموس ساخن وحلو، وانطلقنا في صباح مشرق شديد البرودة. عاينّا خيول (فالخ)، العربية الأصلية الشاحبة اللون، فألفيناها مغطاة ببطانيات مشكّلة المقادم. وبعد زيارة تقليدية للمضيف، ذهبنا إلى حيث ينتظرون رجال المشحوف بجانب طرادة (فالخ).  
قال (فالخ):

"حسناً يا (دعبر) (٢)، هل نجد بطاً في صدور (الخر)؟"

صرّ (دعبر) — وهو رجل كهل أشيب ومن أكثر الذين يثق بهم (فالخ) من أتباعه — بأسنانه وقال:

"الله أعلم، ربما وجدنا القليل، ولكن يبدو أنه غادر في الوقت الحاضر نتيجة ارتفاع مناسيب المياه. سيكون هناك الكثير من (دجاج الماي).

نزّلنا أنا، و(فالخ) و(عباس) في الطرادة بينما نزل (عبد الواحد)، ابن (فالخ)، في المشحوف وانطلقنا جميعاً إلى أسفل النهر. جلس (عباس) في وسط الطرادة بيني وبين

(١) معلومة غير دقيقة من المؤلف فقد كان عباس بن محمد حينها متزوجاً من إحدى بنات فالخ بن مجيد نفسه واسمها أمل وأمها جريّة بنت حمود، والسبب في وجود عباس ليلة الحادث في مضيف (فالخ) لمصالحه زوجته واستئذان أبيها في إرجاعها إلى بيت الزوجية.

(٢) دعبر بن موزان بن نصر الله، لا أحد يتذكر تاريخ وفاته.



(فالخ). أسقط حزام عتاده على سجادة أسفل الطرادة أمامي فلاحظت عدة إطلاقات نوع (L.G) منتشرة بعشوائية بين بقية العتاد. أوضح (عباس) أن (عبد الواحد) أعطاها إياه ليملأ بها حزامه فقلت:

"إنما فقط للخنازير، إكراماً لله لا تستعملها لصيد البط وإلا قتلت شخصاً ما".

ولكى أثبت له وجهة نظري، قطعت إحدى هذه الإطلاقات وعرضت عليه الكرات السبعة الكبيرة، ثم دسستها في جيبي. اقترحت على (فالخ) أن يحذر ابنه، ففعل.

انتقل كل واحد منا في مشحوف صغير مع رجل لقيادته عند حافة الأهوار ودخلنا في القصب. ذهبت باتجاه مطاردة الخنازير، في حين ذهب البقية للبحث عن البط. كانت مناسيب المياه مرتفعة، لذا فمن الواضح أن الخنازير قد ارتحلت عن الهور إلى الأرض اليابسة. كنت أستطيع سماع إطلاقات رفاقي، وحين عدت إلى نقطة التقائنا كانوا قد سبقوني إليها. لم يعثروا على البط لكنهم اصطادوا بعضاً من (دجاج الماي). سألتني (فالخ) عن رغبتى في الاستمرار أو الانتظار لتناول الغداء، فقلت أن لا فرق عندي. فقال:

"لقد اصطدت تسع (دجاجات ماي)، أفضل أن أتمهن عشراً. الغداء لن يكون جاهزاً في أقل من ساعة أخرى، لذا هيا بنا نستمر".

رافقتهم هذه المرة.

شكل سيرنا خطأ، يبعد كل مشحوف عن الآخر حوالى سبعين ذراعاً وكان تجديدنا قريباً من الشاطئ موازياً له خلال كتل البردى المتناثر. كان (فالخ) و(عباس) عن يميني و(عبد الواحد) عن يساري. وبشكل عرضي طارت مجموعة من (دجاج الماي) ودارت باتجاه الريح فوق رؤوسنا. لقد أصبت واحدة وتوقفت عن التقاطها حين سمعت صوتاً جليلاً واضحاً لإطلاقة باتجاهي جاءت من يمينتي، فصرخت:

"إكراماً لله، انتبه لمكان تصويبك".

وبعد قليل رأينا مشحوف (فالخ) ساكناً في بقعة ما من المياه المكشوفة على بعد خمسين ذراعاً من جزيرة قصب. لم يأخذ الأمر من رجل مشحوف سوى نظرة واحدة حتى قال: "أصيب فالخ".

وجذب باتجاهه باهتياج شديد.

كان (فالخ) ساقطاً إلى الأمام وقد سنده (دعير)، عيناه مغلقتان، مغمى عليه، وتوضحت لطحنا دم في واجهة (دشداشته) البيضاء. انخبت باتجاهه قائلاً لرجل مشحوف أن يحفظ توازنه بجانبه. تحسست رسغه، وبالكاد سمعت نبضه، فككت أزرار (دشداشته)، كان الدم يسيل من ندبة زرقاء فوق حلمة ثديه الأيسر. من الواضح أنها نتاج لكرة عتاد كبيرة. وصل (عبد الواحد) وسأل ما الذي حدث؟ قال (دعير) وقد نطق لأول مرة مشيراً إلى أقرب جزيرة قصب: "إنه عباس".

نظرت باتجاهه إشارته فلم أر أثراً لأى مخلوق.

انفجر الأربعة الباقون فجأة بتوجع وحشى مرددين بصوت يعلو أكثر فأكثر: "يا يابه... يا بويه".

بينما راحت المشاحيف الثلاثة تهتز كأنها أطواف صغيرة. التفت إليهم بغضب وصرخت:

"اخرس، لا جدوى من الجلوس هنا للعويل، يجب أن نوصله إلى الشاطئ. (دعير)، احمله أنت وسوف نجذب من كلا الجانبين وندفع مشحوفك".  
توقفوا عن العويل فجأة، فانطلقنا.

يبعد الشاطئ ثلاثمائة ذراع، كنت أستطيع رؤية قرية صغيرة<sup>(١)</sup>. سرد (دعير) ما حصل:

(١) القرية الصغيرة هي (الصخين)، أما البركة التي وقع فيها الحادث فهي (الصندلية).

"کنا بصدد الاقتراب من بعض (دجاج المای)، ولم یکن ثمة أحد نراه ثم انطلق طیر (الزرکئی) من هذا القصب، کان عباس فی الجانب الآخر من جزيرة القصب فأطلق النار بشكل أفقی باتجاهنا، لقد سمعت الإطلاقة تصیب (فالخ) فصرخ:

"عباس، قتلنی".

ثم نهض (عباس) واقفاً، فاستطعت رؤيته من فوق القصب وقال:

"والله، لا أدري إنکم هنا". "ولم أره منذ تلك اللحظة".

كانت المياه عميقة، وكان من المؤكد غرق (فالخ) بعد إصابته لو أن (دعیر) لم یحافظ على توازن المشحوف. حين وصلنا الشاطئ قابلنا رجل مشحوف (عباس)، كان وحيداً.

"أین عباس؟"

"لقد أمرنی بإیصاله إلى الشاطئ ثم فرّ هارباً".

ما زال (فالخ) غائباً عن الوعي وبالكاد كنت أسمع نبضه. توجب علينا نقله بالسرعة الممكنة إلى بيته ومن ثم إلى (الجر) ومن هناك إلى البصرة أو العمارة بالسيارة لإجراء عملية نقل الدم. أرسلت رجل مشحوف (عباس) راكضاً إلى القرية لیجلب مشحوفاً أكبر. خطر لی أن (فالخ) یجب أن یقی دافئاً لذا أرسلت رجلاً آخر إلى القرية لیجلب الأغطیة. أما (عبد الواحد) فكان متصمناً محققاً بانهار فی والده سائلاً المرة تلو الأخری:

"هل سیموت؟ صاحب، هل سیموت؟"

"إن شاء الله سيعیش، لكن إصابته خطيرة".

فانفجر (عبد الواحد) بشكل هستیری:

"أین (عباس)؟ إلى أين ولّی؟ والله إن مات (فالخ) لأقتله. (صاحب)، أنت صديق (فالخ) یجب عليك مساعدتی للعثور علیه وقتله، من أين بدأ هربه هذا البغیض؟" ثم راح فی نوبة بكاء متشنج.

لا أعرف من أين ظهر طفلان صغيران، كان الرعب بادياً عليهما. وقفنا بعيداً عنا يراقبانا. ناديت أكبرهما قائلاً له أن يذهب إلى القرية لاستعجال المشحوف فركض الاثنان معاً. لم يكن بإمكانى التفكير فى شيء آخر مطلوب عمله، فاكنتيت بالنظر إلى (فالخ) وسط يأس قاس، وإلى (دعير) الذى ما يزال يحمله. كانت الدموع تجرى على وجه الرجل العجوز.

بدأ توافد الرجال والنساء راكضين عبر الحقول. كانوا يقفون هنا وهناك مجموعات صغيرة. قال لى أحدهم إن المشحوف الكبير قد وصل إلى النهر من القرية، ولغرض كسب الوقت اقترح أن يبقى (فالخ) فى المشحوف نفسه المضطجع فيه حتى صدور النهر. تولّى دفعه اثنان متقدمين بصعوبة خائضين خلال المياه الضحلة. وأخيراً وصلنا إلى المشحوف الأكبر الذى سرّتنى رؤيته بالسجاد الذى غطى أرضيته والمخدرات. حين بدأنا برفع (فالخ) فتح عينيه وقال بوضوح: "انتبه، البندقية محشوة".

ثم أغمض عينيه مرة أخرى ووقد ساكناً جداً. نقلناه بحذر، جلس (دعير) خلفه ليتولّى إسناد رأسه ثم أحطناه بأغطية ثقيلة، عرض عدة رجال عباءاتهم. قفز رجل إلى مؤخرة المشحوف لتوجيهه بينما ربط آخر حبلاً فى مقدمته وتولّى آخران قطره ضد التيار. تبعناهما أنا و(عبد الواحد) مشياً على طول الضفة التى كستها شجيرات الشوك الميتة. كنا قد تركنا أحذيتنا فى الطرادة، إن قدمى باقيتان على صلابتهما بعد سنين من المشى حافياً فى الصحراء، لكن (عبد الواحد)، الذى ربما لم يخط بقدم حافية فى حياته، يمشى ببطء وصعوبة ويتعثر. فتح (فالخ) عينيه محاولاً الكلام أمراً الرجال بالكف عن القطر، جنّوت بجانبه فهمس:

"أين (عبد الواحد)؟"

"إنه قادم".

"قلْ له، قلْ له عني، (صاحب)، يجب أن يأخذ (عباس) إلى والده، ويجب عليه ألا يتركه حتى يوصله مأمته عند والده (محمد). بغض النظر عما سيحدث لي عليه أن يراعي أن لا شيء يمسّ (عباس). هذا أمرى، قلْ له أن يذهب هناك الآن."

أغمض عيني مرة أخرى فأومأت إلى الرجال أن يعاودوا القطر. من المحتمل أن يكون (عباس) أماننا، راكضاً بيأس إلى البيت.

انتشر خبر الحادث بين السكان في أثناء حركتنا البطيئة ضد التيار، وخفت إلينا مجاميع صغيرة من ناس يلفهم الوجوم مسرعة من قرى مختلفة، ما أن وصلوا إلينا حتى يقذفوا بأنفسهم، صارخين، في الماء، ويقفوا هنا ليضعوا الطين على رؤوسهم وعلى ملابسهم المبتلة بينما راحت النسوة يمزقن ثيابهن ويلطمن على صدورهن. كن يتحنن وهن يسرن خلفنا:

"(فالخ)، بويه... بويه."

رقد (فالخ) في قعر المشحوف بياض وجهه الشديد إزاء (دشداشة) (دعير) الداكنة. لم يمض سوى أقل من أربع وعشرين ساعة من عودتي وعلى استقباله لي في بيته. لم يع عقلى، كأنه مخدّر، ما حدث بشكل تام. الآن فقط أدركت أن ثمة حادث أصاب (فالخ) بشكل سيئ واقتنعت أنه يحتضر. وفيما يخص البقية فإن انتحاي مثلهم سيبدو مفهوماً ومثيراً لعطفهم لكن مانعاً عميق التأصل حرّم على تلك الراحة. فانا الذى شاركتهم في الكثير طواعية، لا أستطيع المساهمة الآن في التعبير عن مشاعرى في كارثتهم.

وأخيراً، وصلنا عند العصر إلى قرية (فالخ). جلبوا سريراً ووضعوا (فالخ) فوقه ونقلوه إلى بيته وسط حشد مذهول وشقوا طريقهم إلى داخل الغرفة ليقبوا هناك واجهين. كان العويل في الخارج يرتفع وينخفض موازياً لحقق كسول ثابت يشبه صوت النقر المكنوم على الطبل، كان هذا الصوت لطم النساء ذا الإيقاع المتناغم على الصدور العارية. فتح (فالخ) عينيه وحقق في السقف، كانت العلامة الوحيدة على

الحياة في وجهه الذي لاح، نتيجة كثرة النزف، شاحباً معدوم الحس كأنه قناع. استعطفني الناس أن أعطيه دواءً ورفضوا تصديق أن لا حيلة لي معه. أخذت (عبد الواحد) جانباً وناشدته أن الأمل الوحيد لنجاته يكمن في أخذه إلى حيث يمكن أن تُجرى له عملية نقل الدم، وإن أى دقيقة تأخير تضيق لفُرصة نجاته. وافقني لكنه لم يفعل شيئاً، في حين وقف الآخرون حول السرير قائلين دون أن يخفضوا أصواتهم:

"من الواضح انه مُحْتَضِر، نعم، إنه ميت تقريباً".

"والله، إن (فالخ) لا يستحق أن يموت هكذا".

وبصوت أقرب إلى الهمس، طلب (فالخ) ماءً، وحين صبوه في فمه لم يكذب يبلعه فسال عبر ذقنه ليبلل (دشداشته).

وصل أحد أبناء عمومته المدعو (حَطَّاب) <sup>(١)</sup> ولحسن الحظ كان ذا شخصية حازمة وقد اعتاد أن يُطاع فتولى أمر العناية بـ (فالخ) في الحال، فحمله إلى الخارج، إلى طرادته الخاصة وانطلق معه إلى قرية والده (حمود) <sup>(٢)</sup> في (المجر)، فبعتهم في مشحوف ثقيل وبطيء وسرعان ما سبقوني. وحين وصلت إلى (المجر) كان (فالخ) قد نقل إلى ديوانية تعود إلى (حمود) الذي ذهب يهاتف (مجيد) الموجود في بغداد. كان طبيب المنطقة ضمن الحشد في الممر فسألته ما رأيهِ، فهُزَّ الطبيب رأسه وقال إنه خائف أن يكون (فالخ) مُحْتَضِر، واتفق معي على أن الأمل الوحيد في أخذه مباشرة إلى البصرة، أقرب مكان لعملية نقل الدم.

صاح أحدهم:

"أين الرجل الانكليزي؟"

دخلت الغرفة بعد أن أُخبرت أن (فالخ) يسأل عني، وذهبت إلى حيث يرقد.

(١) حطاب بن حمود بن خليفه، يسكن حالياً منطقة الحرية من بغداد.

(٢) حمود بن خليفة بن وادي، ولد في سنة ١٩٠٠م وتوفي في بغداد سنة ١٩٦٦م شيخه مجيد بن خليفة على منطقة الوادية.

حرك عينيّه ونظر إلى لكنه لم يتكلم، لم تكن الغرفة تحوى غير عائلته. وبرغم ارتياكى بسبب إحساسى بالتطفل، بقيت واقفاً بجانب سريره. انتظرنا لمدة بدت لنا زمناً طويلاً، وبدأ حلول الظلام فجلبوا مصباحاً نفطياً فانطلق هسيسه فى إحدى زوايا الغرفة مضيقاً بوجه قاس.

عاد (حمود). يبدو أن إبلاغ (مجيد) بالواقعة قد نزل عليه كالكارثة لذا ظهر (حمود) مذهولاً شديد الاضطراب، وقال:

"يجب نقل (فالخ) إلى بغداد حالاً، هذه أوامر (مجيد)، لقد أرسلت بطلب ثلاث سيارات".

كنت على يقين أن (فالخ) لن يبقى على قيد الحياة مطلقاً محتملاً رحلة على طريق بغض وعر بطول مائتين وخمسين ميلاً فى الظلام، فناشدت (حمود) قائلاً:

"خذه إلى البصرة، وبإمكانك أن تطير به من هناك فى الصباح إذا كان (مجيد) مصراً، أتوسل إليك أن تأخذه إلى البصرة، إنها ثلاث ساعات فقط، هناك بالإمكان إعطاؤه الدواء الذى يحتاج، لا تذهب حتى للعمارة، بل إلى البصرة مباشرة".

لكن (حمود) قال ببساطة:

"سوف نذهب للعمارة أولاً، ومن ثم سوف نرى".

وصلت السيارات، وحُمل (فالخ) إلى مؤخرة إحداها، وحشر كل واحد من أفراد عائلته نفسه، رجالاً ونساءً من وجد له مكاناً فى السيارتين الأخريين وانطلقوا مسرعين. جدفت أنا و(دعير) فى الظلام عاندين إلى قرية (فالخ). تكلمنا قليلاً، لكننى أتذكر ما قاله:

"حدث كل هذا ببساطة لأنه يريد اصطياد (دجاجة ماى) أخرى. حياة (فالخ)

بـ (دجاجة ماى)!"

توقف لبرهة ثم أردف:

"مكتوبة يا (صاحب)".

ظهر الأمر لى قضاءً وقدرًا، وليس صدفة، قد رسما الحادث وإلا فما الذى دعا (عباس) أن يخلط خراطيشه ويعبئ بندقيته بحشوة لقتل الطرائد الكبيرة ويطلق، فى الوقت نفسه، باتجاه (فالح)؟ لماذا توجب على إحدى كرات الحشوة أن تصيبه من مسافة سبعين ذراعاً؟ حين خلعت ملابسى فى بيت (فالح) فى الغرفة نفسها التى نمت فيها الليلة البارحة، تحسست فى جيبي الكرات الحديدية السبعة للحشوة التى كنت فتحتها هذا الصباح.

ذهبت إلى (المجر) فى الصباح الباكر لليوم التالى، ومن هناك استأجرت سيارة إلى البصرة. سمعت هناك أن (فالح) قد نقل بالطائرة إلى بغداد. قال لى البعض إن حالته أحسن فعاودنى الأمل. أبرقت إلى صديق وركبت قطار المساء ووصلت إلى بغداد فى الصباح التالى. قابلت صديقى فى محطة القطار وطفنا بسيارة أرجاء المدينة بحثاً عن بيت (مجيد)، فأرشدنا شرطى إلى موقعه، مضيفاً، كفكرة خاطرت له متأخرة:

" لكن (مجيد) ذهب إلى النجف ليدفن ابنه الذى توفى أمس".

وهكذا سمعت نبأ وفاة (فالح).





## الفصل السابع عشر

### مراسيم الحداد

سوى أغنية... ما علمتني أنشأ أرددها... لأمنح التراب لذته الأخيرة لذّة الانحلال... تراب في تراب.

عثرنا على البيت بسهولة. كان قصراً منيفاً في ضواحي بغداد<sup>(١)</sup>. قرعت الجرس، أخذني أحدهم إلى الداخل. في غرفة صغيرة جلس كل من (عبد الواحد) و(خلف) أخو (فالخ) الأصغر منه. حيّتهم وجلسنا بانتظار (مجيد) الذي سرعان ما جاء. كانت عيناه حمراوين بسبب البكاء وكست وجهه معالم الأسى. وبعد التحيات الشكلية دعاني إلى الجلوس بجانبه على أريكة وسألني عن موعد وكيفية وصولي وهي أسئلة تقليدية مألوفة تقتضيها التقاليد العربية. عبّرت عن مواساتي فالتفت (مجيد) وقال ببساطة متناهية:

"(صاحب)، أعلم أنك صاحب".

ثم لفنا الصمت. وبعد برهة دخل خادم بالقهوة، وبعد أن شربت سألني (مجيد) مرة أخرى عن أحوالي، وخيّم الصمت مرة أخرى. أن أكون بجانب رجل عجوز محزون ومصدوم قوّض موت ابنه آماله وطموحاته أمر فوق طاقتي على الاحتمال. انتظرت برهة أخرى وطلبت منه السماح لي بالانصراف. فقال:

"اذهب بأمان الله".

(١) بيت مجيد في بغداد يقع في منطقة البتاوين في الباب الشرقي. وقد استغل البيت مرة كمبنى لمديرية الجنسية العامة قبل أن تنتقل إلى مبناها الحديث في ساحة الخلائق.

فأجبتہ:

"ابقْ بأمان الله وحفظه".

كانت قد أمطرت حين غادرت البيت واستمرت تمطر طوال اليوم.

بعد شهور قابلت طبيباً انكليزيا متخصصاً بالقلب يعمل في بغداد لصالح الحكومة العراقية<sup>(١)</sup> كان في البصرة حين نقلوا (فالخ) إليها. بعد سماعه لنبأ الحادث حضر على الفور إلى المطار، وبعد أن فحص (فالخ) أراد أن يجري له عملية على الفور ليلطف ضغط الدم الناجم عن خثرة حول القلب، لكنه أخبر أن (مجيد) أعطى أوامره بضرورة نقل ابنه إلى بغداد. حاول الطبيب أن يوضح انه طبيب أخصائي بأمراض القلب ويعالج المسؤولين الحكوميين وهو الوحيد في كل البصرة مؤكداً لهم أن الفرصة الوحيدة لإنقاذ حياته هي بإجراء العملية خالاً، لكنهم رفضوا. ثم قال لي أن لا شيء، في الحقيقة، يمكن أن ينقذ حياة (فالخ)، فقد أوضح تشريح الجثة أن الكرة الحديدية كدمت القلب وقطعت الأوتار الكبيرة وأضعفت الرئة. لقد كان منذهلاً من طول المدة التي عاشها (فالخ) بعد إصابته قاتلاً لا بد انه كان قوياً بشكل استثنائي.

بعد ثلاثة أيام عدت إلى قرية (فالخ) للمساهمة في مراسيم العزاء فوصلت قبيل العصر. ما زالت ثمة مسافة عن القرية حين تناهى إلى سمعي عويل النساء والطمم الإيقاعي هن. احتشد عدد كبير من المشاحيف على طول الضفة بينما احتشد جمع كبير خارج المضيف. بُتت عدة رايات في المدخل وراحت طياها الحمراء الطويلة وزخارفها الفضية فوق سواريتها المثبتة بموازة الجدران القصبية تلمع تحت أشعة شمس ربيعية. خيم الصمت والظلام داخل المضيف الذي جلس فيه كثيرون تلفهم عباءاتهم الداكنة بلا حركة حول الجدران. همس لي أحدهم:

(١) الدكتور الانكليزي: هو الدكتور كيرنل اوكللي، على حد لفظ الشيخ خلف بن مجيد.

"ذاك (مجید)، هناك".

خطوت فی المضيف للسلام علیه، صافحته وبحشت عن مكان. ترحزح بعض الغرباء ليفسحوا لی مجالاً. تعرفت علی عدد منهم ولكن ليسوا كثيرين. هناك سادة بكوفياتهم الخضراء، وعلماء دين من كربلاء والنجف متلفعين بالسواد بعمائم صغيرة بيضاء وسوداء ملفوفة بإحكام، وشيوخ عشائر من مناطق بعيدة كالكويت والناصرية مع أتباعهم، ورؤساء قرى ورجال مسنين ورجال من المدينة، وتجار من (البحر) والعمارة والبصرة، وكان هناك الكثير من أبناء عشيرة (مجید). وضع فتی علبة سجائر أمامی. نهض (عبد الرضا) من قرب الموقد حاملاً ذلة ذات مصب أعقف وقدم لی قهوة. قال رجل أو اثنان يجلسان بالقرب منی:

"مساکم الله بالخير، (صاحب)".

ثم سكن الالتياج الصغير الذي سببه وصولی.

تكلم بعضهم بضع كلمات مع جاره بصوت منخفض بشكل عرضی، فی حين جلس الجميع صامتين تقريباً مداعبين مسبحاتهم أو مدخنين. نهض ستة أشخاص واتجهوا الى (مجید) وودّعوه متمنين له الخير وغادروا المضيف. تقاطر آخرون، أحياناً اثنان أو ثلاثة معاً وأحياناً عشرون مرة واحدة، يسلمون علی (مجید) كما فعلت، وتقدم لهم السجائر، والقهوة وأقداح الشاي. وقبل أن تغادر أية مجموعة، يهتف الأرشد فيها أو الأكبر سناً:

"الفاتحة"<sup>(۱)</sup>.

(۱) لا يهتفون بكلمة الفاتحة منفردة، بل ترد الجملة علی الشكل الآتي "رحم الله والديه الميقره الفاتحة" أو "رحم الله والديكم الفاتحة" وهذه الصيغة تختلف اختلافات بسيطة في عموم العراق.

فيادر الآخرون إلى تلاوة آيات فاتحة القرآن الكريم وقد بسطوا أيديهم تضرعاً وابتهالاً. أستطيع سماع المشاحيف وهى ترسو أو تُدفع بعيداً عبر الجانب القصي الآخر من الجدار. فوق، وبين (الشباب) القصية العظيمة راحت العصافير تفرق، واستطالت ظلال الأشياء عند المدخل. غادر المزيّد من الناس ووصل القليل فظهرت فراغات بين الجالسين واتسعت حول الجدران.

عوّدتنى سنين الممارسة في الجزيرة العربية على الجلوس على الأرض، ولكن حين نُفض (مجيد) عند الغروب مغادراً المضيف كنت متيسماً وموجعاً. استعد الآخرون لصلاة المغرب فذهبت لأجد (دعير) وسألته عن المدة التي يمكن أن أقضيها وتكون إقامة صحيحة. فقال:

"الكل يعرف أنك صديق (فالخ) واعتقد أنهم يتوقعون امتداد إقامتك ليومين آخرين. تعال الآن واجلس مع بعض من أصدقائك".

وقادني إلى ملاذ قصي<sup>(١)</sup> طويل بُنى خلال الأيام القليلة الماضية. اتكأت الشمس، كرة برتقالية لمّاعة، على خط الأفق أمامنا، وراء بستان النخيل حيث ذهبنا أنا و(فالخ) للصيد أول مرة.

جلس عدد من أتباع (فالخ) داخل الملاذ متحلقين حول نار صغيرة وقد صبغوا كوفياتهم بلون أزرق داكن<sup>(٢)</sup> إشارة للحزن والحدا. رجّوا بي بطريقة حميمة وصبوا لي المزيّد من القهوة. إن العرب لا يضعون سوى قطرات قليلة في الفنجان لذلك شربت عدداً لا حصر له من الفناجين ذلك اليوم. من

(١) الملاذ القصي الطويل a long reed shelter يسمونه صوباو ويبنى بشكل سريع وبلا حرص على التفاصيل الكثيرة التي ترافق بناء البيوت والمضائف، أى للحالات الطارئة، يفكك ما أن ينتهي مرور إنشائه.

(٢) المادة التي يصفون بها كوفياتهم باللون النيلي الداكن هي: صيغ الدودة.

الشاطئ المطعون بجمرة الشفق من وراء النهر، انطلقت التريمة المسائية القصيرة لعواء كل الثعالب مرّة واحدة، مرتعشة، مرتفعة مرة ومنخفضة عبر الأراضي المصغية لتخفت نهائياً عبر صيحات معذبة.

سألت ما الذي حدث لـ (عباس)، فأجاب (دعير) بازدياء:  
"لقد ذهب إلى (قلعة صالح) ليضع نفسه تحت رحمة الشرطة وما يزال هناك، (طركاعة الطاحت عليه)".

"وماذا عن (محمد)، أبوه؟".  
"هو الآخر ذهب إلى (قلعة صالح) وطلب المساعدة من الحكومة. يقولون إنه وكل محامياً".

قال آخر:  
"محام؟ سوف لن ينفعه المحامي كثيراً. إن (مجيد) يتميز غيظاً لأن (محمد) ذهب إلى الحكومة. في الحقيقة انه لمخز أن يفعل ذلك".

وقال آخر:  
"نعم، يتوجّب على (محمد) جلب ولده (عباس) هنا ويسلمه بيد (مجيد)، إن فعل ذلك فسوف يعفو عنه. أما الآن فمن المؤكد أنه سيقتله".

قال (دعير):  
"إنهم حقى جداً وستكون هناك مشكلة كبيرة".  
وقال أحدهم:  
"يقول (مجيد): إن (عباس) أطلق النار على (فالح) متعمداً بسبب نزاع حول الحراثة".

فأجابه (دعير):  
"أنا أعلم أنه فعل ذلك حقاً".

ما يزال نحو ثلاثين رجلاً حين عدت إلى المضيف لا أعرف أحداً منهم،  
غير أن أحدهم سألني:

"هل أنت الرجل الإنكليزي صديق (فالخ)؟"

وحين أجبته:

"نعم".

قال:

"أهلاً وسهلاً بصاحب (فالخ)".

وسأل آخر فيما إذا كنت معه حين أطلق (عباس) النار عليه وما الذى جرى، وبينما كنت أخبرهم، جلب العشاء فأكلنا بصمت كما هى العادة. عدنا لحديثنا بعدها حتى جلب الخدم فرش النوم التى رتبت حول جوانب الغرفة.

عمّت الحركة المضيف مبكراً، فقد استيقظوا الواحد تلو الآخر متوضئين ومؤدين صلاة الفجر ثم نظموا جلستهم إلى الجدران. طوى الخدم فرش النوم ونقلوها. أعدت القهوة وشربنا وقام شاب صغير يحمل طبقاً كبيراً مليئاً بأرغفة الخبز، أسقط واحداً أمام كل منا. أكلنا الخبز مع أقذاح من الحليب الحلو الساخن. ثمضنا وما أن دخل (مجيد) بصحبة (خلف)، ابنه الأصغر و(عبد الواحد) وبقية آخرين من عائلته، حيّانا وجلس في نفس مكان اليوم السابق في حين انتظمتنا في جلستنا مرة أخرى مستندين إلى الجدران. وصل الزائر الأول بعد ذلك مباشرة وبدأ المضيف يمتلى. ظهر (مجيد)، الشاحب وغير حليق الوجه وعليه إمارات التعب الشديد وقد هذلت بطنه العظيمة أمامه، رجلاً عجوزاً كسيراً مليئاً بالمرارة، فانفجر:

"لماذا (فالخ) بالذات؟ لماذا (فالخ)؟ يا رب، لم يبق لى أحد".

فتذكرت أن أكبر أبنائه (خريط) <sup>(١)</sup> قتل قبل ثلاث سنين. فحاول الذين بجانبه طمأنته ومواساته:

"لديك (خلف) و(عبد الواحد)".

لكنه بكى:

"لا، ليس عندي أحد، لم يعد لدى أبناء، أَرْضِي، ما الذى سيحدث لأَرْضِي بعد موتي؟ ما الذى سيحدث لأَرْضِي الآن و(فالخ) قد مات؟"

وصل معزون آخرون، رد (مجيد) تحتهم ثم غاص في صمت طويل متأمل.  
انطلقت جلبة كبيرة خلفي لأصوات رجال يتصايحون واصطدام مشاحيف مع بعضها على ضفة النهر، كان مصدرها مجموعة كبيرة من الرجال المسلحين يسرون خلف رجل طويل وبيدين بعباءة من شعر الإبل الفاخر مذهبة الحافة عند الصدر. همس رجل من أهل المدن:

(١) خريط بن مجيد بن وادى بن منشد، ولد نحو ١٩٠٣م وقتل في ظروف غامضة سنة ١٩٥٠م. كان شاعراً شعبياً مجيداً. سجن مدة بسبب قتله لزوجة أبيه (شريفه بنت سلمان العلياوى المهداوى). ينسب له الأبوزية الآتية، نظمها في السجن:

إباب السجن خل أكنس وعاده      رماح بـصدر عدوان وعاده  
كل رجل عليه موتع وعاده      من أموت هـدال ما يبجن عليه  
وبعث خريط للفرجات ببداية قصيدة لغرض إكمالها من قبلهم فقال:

خريط خريطاها ولج العمارة

فأجابه ناصر بن فرج الله الشعبي الفريجي من قصيدة طويلة:

صكر وانخر على الصيده وأخذ ثاره

صكر وانخر على الصيده ولكنه العدوان

بالعذه الحكومة بسيرة النسوان

صينك وصل لندن وعكب هندستان

وعد شاه العجم هالشاعت أخباره

"مَن هذا؟"

فأجابه الذى يجلس بجانبه:

"سلمان بن مطلق" (١).

كنت قد سمعت عن (سلمان)، الشيخ الأساسى لـ (آل أزيج) (٢)، زراع الأرز، والذى تحاذى أرضه أرض (مجيد) ولكن لم يسبق لى مقابلته حين زرهم. كان وجهه شاحباً ومترهاً ويبدو ناعماً كونه يعيش حياة سهلة، ويقضى معظم وقته فى بغداد كالكثر من الشيوخ الأثرياء. جلس بجانب (مجيد) وجلس أتباعه تبعاً لمنزلتهم، فأهمهم أقربهم لـ (سلمان) و(مجيد) وهكذا. وضع كل واحد منهم، تحت عباته خنجراً فى حزامه، وملئ الحزام العريض المتقاطع الآخر بالعتاد. قدمت لهم القهوة والشاي ثم غرق المضيف بالصمت. صاح (سلمان) بعدها:

"الفاحة".

فتلا وأتباعه سورة الفاتحة (٣).

(١) مطلق بن سلمان بن منشد المذكور، وليس سلمان بن مطلق كما أشار المؤلف، أحد أبرز شيوخ آل أزيج، توفى سنة ١٩٥٤م، زعامة آل أزيج الآن لحفيده الشيخ محمد بن جثير الذى يسكن بغداد منطقة الأورفل.

(٢) آل أزيج: تنتمى هذه العشيرة إلى حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. كانت فى حلف مع المنتفك وجاءت من الغراف واستقرت على جانب دجلة الأيمن. سبب مجيئهم هو تعزيز لقوات الشيخ محمد المانع رئيس عشائر المنتفك. كانت مهمتهم عرقلة سير السفن المارة فى دجلة واحترازا من الهجوم المفاجئ الذى قد تعرض له إمارة المنتفك من بنى لام. استقروا فى الجمر الصغير (الميمونه). تنقسم أراضي آل أزيج اليوم إلى ثلاثة أقسام هى: أم كعیده، والهدام، والخمس. وتقع جميعاً ضمن محافظة ميسان.

(٣) أورد المؤلف سورة الفاتحة المباركة، ولم أجد ضرورة لذكرها.



كنت أمتي نفسي بقدوم الغداء لكي يتسنى لي تمديد ساقى حين انطلق وابل من الرصاص وأصوات عويل هستيرى<sup>(١)</sup> من مجموعة أخرى وصلت للتو. ومن فتحة الباب تحت راية إحدى العشائر وحشداً من الناس وقد لطحوا رؤوسهم وثيابهم بالوحل. قال أحدهم لـ (مجيد).  
 "هؤلاء من الكباب".

كان عددهم يتراوح بين الأربعين والخمسين من (الفريجات) من (بومغيفات) ومن (الكلاب) أيضاً. واحداً تلو الآخر يسلّمون على (مجيد) ثم ينسجون. لقد عرفت أغلبهم. بعد قليل جاء صوت إطلاقات أخرى وعويل لمجموعة كبيرة غير متوقعة وصلت من (العكر) وقد تلطحوا أيضاً بالوحل. لقد فات وقت طويل على منتصف النهار حين جاءت ثلاث مجاميع أخرى لعشائر معزية قبل أن يخبر أحد الخدم (مجيد) أن الغداء جاهز. كان عدد المدعوين إلى الغداء بين أربعين إلى خمسين رجلاً في كل مرة، يسرون بطريقة الرتل إلى الملاذ الذي كنت فيه الليلة البارحة حيث عرضت أطباق كبيرة جداً مليئة بالأرز ولحم الضأن. ما أن انتهى كل مجموعة طعامها حتى يعاد ملء

(١) لم يكن عويلاً في الحقيقة، بل أصوات ترديد (هوسه) أو رقصة الحرب dance of war كما سماها المؤلف، مع العلم أنها لا تجرى للحرب فقط، بل لمناسبات أخرى كثيرة سواء كانت سارة أم محزنة. ومن الجدير بالذكر أن أشهر مهوال للفريجات آتند هو عمير بن مكزى. لقد ارتجل قاتلاً، مخاطباً مجيد بمناسبة وفاة ولده فاح:  
 أنت الربد السفلش كل حديد      وانت دوم الدوم يسه حذك يا مجيد  
 انت كوت املس يا بعد امى الجديد      يصعد خاييف والظل حارت بيه  
 شبهه بالقلعة حديثة البناء التي لا يمكن تسلفها بسبب ملاسة جدرانها. وقال أيضاً:  
 أنت أسد وابن أسد وأنت الضيغمى      وأنت للعدوان ماعون الشرى  
 أنت صل أركط الجاسك يتلى      أنت المفتر على الكل وتلم بيه  
 شبهه بالأففى الرقطاء التي تصور على كل الكائنات وتقتلها. وقال:  
 أنت سور انه وذره وحى الدهر      وأنت بالعدوان حظيت القهر  
 أنت سن اليعنونك بالبحر      مفلش مبال التمشى وتردم بيه  
 شبهه بالسن الصخرى الذى يحطم السفن العملاقة المارة فوقه.

الأطباق مرّة أخرى وتُدعى مجموعة أخرى. أكل الجميع، المعزون داخل المضيف ورجال العشائر في الخارج<sup>(١)</sup>.

وبعد ذلك رقصوا (الهوسه)، رقصة الحرب العشائرية. يرتجل أحدهم، من كل عشيرة أو قرية تباعاً، بضعة أبيات بمدح (فالخ) بينما يهدر مستمعوه من رجال العشائر مرددين (هوسته) التي يختم بها أبياته، حاملين أسلحتهم النارية فوق رؤوسهم وهم يضربون الأرض بأقدامهم دائرين بحلقة مقلقلة حول راية قرمزية<sup>(٢)</sup>. كان الرجال الذين يحملون الرايات، وهم زعماء عائلات وعشائر تمنحهم حقوقهم العشائرية حمل الرايات في المعارك، يهزّون العصي الطويلة لها لكي تحدث الزخارف المعدنية صوتاً غير سائع في الأذن نتيجة لتصادمها مع بعضها. استمروا يضربون الأرض بأقدامهم بإيقاع ينسجم مع ما يهتفون به ثم راحوا يطلقون النار من بنادقهم إطلاقاً مبعثرة في البداية ازدادت حدتها كأنها في حرب. حرّضتهم رائحة البارود الحادة المسكرة في مناخيرهم على بذل جهد أكبر، فصاح (مجيد) أخيراً:

"يكفى".

(١) حين اكتظاظ المضيف والديوانيات بالضيوف لأية مناسبة، فإن القادم الجديد يجد مكاناً في كل الأحوال حين يقوم له أحدهم، يتخلى هذا الشخص عن مكانه بحكم الإحساس أنه أقرب شخص لصاحب المضيف أو الديوانية إلى (معزّب)، أى صاحب المكان أو المضيف. فالمنتظرون في الخارج وقفا هم من البو محمد ومن نفس البطن التي ينتمي إليها مجيد تحديداً.

(٢) لم أستطع التوصل إلى إجماع في ما يخص لون الراية، فقد كنت أعتقد أن للونها دلالة أو إشارة إلى عشيرة دون غيرها، غير أن أحداً من الذين سألتهم في هذا الشأن لم يؤكد ذلك. وعلى العموم تتكون الراية من الأجزاء التالية: عصا طويلة تصل إلى أربعة أمتار تقريباً، قطعة قماش تمتد على طول الجزء الأعظم من العصا وتمتد إلى مترين أو ثلاثة عرضاً، عادة ما توطر حواشيها بزخرفة معينة بلون مغاير، والجزء الأخير من الراية هو الواقع في نهاية العصا الطويلة العليا، وهو عبارة عن تجويف معدني ضيق من الوسط مستدق الطرف بحجم الدلة متوسطة الحجم تقريباً يسمونه (دنبوكة) تتأرجح منها قطع معدنية صغيرة بحجم العملات المعدنية يسمونها (صجاميخ) تحدث خرخرة نتيجة اصطدامها ببعض (الدنبوكة).

فاندفع أتباعه إلى وسط الحشد المتحرك دائرياً بغير انتظام قائلين:

"يكفى، الشيخ يقول يكفى".

فتزاحنا في طريقنا إلى المضيف مرةً أخرى.

بعد ساعات، وعند الغروب بعد مغادرة (مجيد) مباشرة، كنت أتكلم مع مجموعة من الناس على ضفة النهر فرأيت شاباً صغيراً يجتازنا مسرعاً صارخاً بشيء ما، كنت حذراً من احتياج عام شديد. اندفع العديد من الرجال إلى بيوتهم فسألت:

"ماذا حدث؟".

فقال لي احدهم:

"أرسل (مجيد) مجموعة لقتل (محمد)".

فاعترضت:

"لكن (محمد) لدى الحكومة الآن في قلعة صالح".

"لا، يقولون إنه عاد توأ إلى بيته في (البحر)".

تابعت مشحوفين وهما ينسلان ضد التيار خلال النور الخافت لقيبيل غروب الشمس يحملان المنتقمين لدم (فالح)، في حين راحت الثعالب تصرخ بلازمتها الموصولة من الضفة الأخرى. لكن (محمد) ما زال آمناً في قلعة صالح.



## الفصل الثامن عشر

### الأهوار الشرقية

فيروز أصابعي الأزرق، عامداً... متواطئ  
الخبث، مع ملح الروح (يلجمنى)  
فأستعيز، بطيء النبض، بمراثي الحجارة  
علّها توقف ما فاتنى، وتصلب نكيتى.

أقمت ليوم آخر كما نصحنى (دعير) ثم استأذنت من (مجيد) بشكل أصولي  
وغادرت باتجاه (الكباب) مع (عمارة) و(سبيق) اللذين التحقا بي في المضيف في الليلة  
الماضية. كانا متأثرين جداً لموت (فالخ) وكانت دموعهما تنهمر على خديهما وهما  
يجدفان بطرادتنا نحو الأهوار. قال (عمارة) من بين دموعه:  
"كان بمثابة أباً لنا، يسمّينا أصدقاء صديقى، ويرسل بطلبنا كلما جاء إلى قريتنا  
ليسألنا إن كنا بخير".

وفي السنة التالية كنت أسمع الآخرين يشيرون إلى موته بأسف في أجزاء بعيدة  
حتى نخوم إيران وباتجاه الفرات إلى الناصرية. كان الغرباء يسألوننى ويكرمون وفادتى:  
"هل أنت الصديق لـ (فالخ)؟"  
لم أكن أعلم اتساع ومقدار هيئته.

عزمتنا على تمضية الأسابيع الستة القادمة في الأهوار الشرقية، فبتنا ليلتنا في  
مضيف (صدّام) حيث تصرف ابنه الصغير كمضيف لنا بغياى والده. كانت (الكباب)  
في حداد أيضاً، فالرجال القليلون الذين جاءوا قليلاً ما تحدّثوا وسرعان ما انصرفوا.

التحق بنا (ياسين) و(حسن) في صباح اليوم التالي وذهبنا مباشرة إلى (البوخيخيت)<sup>(١)</sup> حيث أمضينا يومين مزحومين في التطيب في قراهم الصغيرة في الهور. مررنا تحت جسر ذى عوارض يمرّ فوقه طريق السيارات المتنقلة بين بغداد والعمارة والبصرة، ووصلنا إلى دجلة أسفل (العزيز) وجددنا ضد التيار متجاوزين مرقد (العزيز) وقبته المشيدة بالقرميد الأخضر والأزرق. شُيد المرقد بين النخيل وأحيط بنزل متداع للزوار. إن مدينة (العزيز) نفسها مدينة جديرة بالازدراء، اعتادت أن تكون محطة لوقوف اللوريات والحافلات، وبعد قليل من الأميال وراء القرية جثمت سلسلة من (الكور)<sup>(٢)</sup> لشى الطابوق كأنها مذابيح الكنائس لتجعل الضفة الأخرى لدجلة تبدو منقطعة. من المحتمل جداً أن تكون هذه (الكور) هي التى شوت الطابوق الذى بنيت به بابل. من المعتاد استخدام طابوق هذه (الكور) في ضواحي البصرة.

قطع (ياسين) تأملاتي قائلاً:

"يقولون أن سمكة قرش قبضت على رجل هنا في النهر وقطعت جزءاً من ساقه".  
اعلم أن سمك القرش يهاجم السباحين في البصرة، لكن (العزيز) تبعد نحو ثمانين ميلاً عن البصرة، ونحو مائة وخمسين عن الخليج العربى. وحين أعربت عن دهشتى، أكد لى الشبان أن (العزيز) منطقة معروفة بسمك القرش. وفي وقت آخر حين كنت هناك قال لى قروى إن في أيام والده اعترضت سمكة هائلة جداً تجرى النهر في موسم انخفاض المياه ولم يكن بالإمكان التخلص منها إلا بتقطيعها حيث هى. وفي أثناء التجديف سألت فيما إذا كانت أسماك القرش موجودة في الأهوار فقال (حسن) إن واحدة صغيرة منها قد اصطيدت بـ (فالة) قبل سنين. قاطع (عماره):

(١) البوخيخيت: بجيت هو أحد أبناء شدود، يكُونون مع (النوافل) و(البوغتام) قسماً مهماً من عشائر (البر محمد) هم (الشدة)، وقد اهتموا منذ البداية بتربية الجاموس وسكنى الهور.  
(٢) الكور: جمع (كورة) المعمل البدائي لصناعة الطابوق.

"هل سمعت عن الرجل الذى قتله ضبع حين كنت بعيداً عنا؟ لقد كان نائماً فى أرض مكشوفة قرب (البحر) فهاجمه ضبع بجراً، عثروا عليه ميتاً وما كادوا يتعرفون عليه إلا عن طريق ملابسه".

رأيت ضبعاً بنفسى قبل ثلاث سنوات، ضبعاً مخططاً من أكبر الأنواع المخططة الموجودة فى إفريقيا. وكانت هناك أسود قبل أربعين سنة فى تلك الأرجاء لكنها أبيدت . عندما اقضى رجال العشائر أسلحة حديثة فى أثناء الحرب العالمية الأولى. قال لى أحد عبيد (فالخ) من كبار السن ذات مرة عن رؤيته لثلاثة أسود قرب (البحر)، ووصف لى آخر عملية صيد أسد شارك فيها قرب العمارة. قتل الصياد الأسد ببنديقة تُعبأ من فوهتها. وقابلت شخصاً آخر رأى شبلين جلبهما مجموعة من المعدان إلى الشيخ، ويتذكر عدد من المسنين زئير الأسود فى أثناء الليل.

انعطفنا إلى ممر مائى واسع يقود إلى الأهوار فى الجهة الشرقية واجتزنا مركباً كبيراً بساريتين محملتين إلى ارتفاع عال بـ (البوارى) القصية، بذل طاقمه جهداً عظيماً فى دفعه باتجاه دجلة. واجتزنا بعد قليل من ذلك طَوْفاً جانحاً مصنوعاً من القصب الجاف يبلغ طوله نحو أربعين قدماً وبارتفاع عشرة أقدام وقد هُجر إلى حين. حين ترتفع مناسيب المياه تطوف هذه الكتل القصية وتنحدر مع مجرى الماء لتسير بعيداً ربما إلى البصرة حيث تفكك وتُباع قصاً.

كانت (بِدْعَةُ النوافل)، حيث أمضينا ليلتنا، وهى أكبر قرية رأيتهما فى الأهوار، تحتوى على ستمائة وأربعين بيتاً، ولكن لا مضيف واحد فيها! إن الجاميع المختلفة للبيوت كانت قد بُنيت على طول حافة لأرض يابسة يفصل بينها الماء. أحياناً، حين تنخفض مناسيب دجلة إلى درجة قصوى، يجف الماء، لذا يغادر (النوافل) قراهم ليقموا على طول النهر. يشكل (النوافل) مع جيرانهم من (البوغتام)<sup>(١)</sup> فى الشمال،

(١) البوغتام: هم ذرية غتّام بن شدّود، يكون هؤلاء مع (البوخت) و(النوافل) قسماً من عشائر (البو محمد) يُسمون (الشدة). راجع الهامش رقم (١) من الفصل نفسه.

و(البوخیث) فی الجنوب، قسماً صعب المراس یدعی (الشدة) وهم قسم كبير من القبيلة الأكبر (البو محمد). یحتفظ (النوافل) ببعض الجاموس، لكنهم یکسبون عیشهم بالاعتماد علی حیاكة (البواری) والتي تصدر بأعداد هائلة. تنقل المراكب الشراعية الكبيرة، مثل الذي رأیناه، (البواری) حین تكون المياہ عميقة بما یکفی لمرورها. كان الماء خلال هذه السنة مرتفعاً بطریقة استثنائية.

أقمنا مع رئیس العشيرة<sup>(١)</sup> هناك، الرجل الذي اطعمنا بصورة سيئة، وندمت لعلاجی عدة أشخاص من عائلته!! لقد اعتبرت سكان القرية برمتهم أفظاظاً جداً فغادرهم غیر آسف علیهم، وهو الشعور الذي شاركنی فيه رجال مشحوفی الذين دموموا أن مضینا لم یعطنا حلياً للإفطار، بل قدحی شای قليلی السكر مع الخبز، وقالوا:

"هذا ما یفک الريح".

وكانت تورى لأفهم یقولون فی اللغة العربية:

"یفک الريح" و"تريك".

وهما عبارتان بالمعنی<sup>(٢)</sup> نفسه. وعلى كل حال، كان صباحاً جميلاً وسرعان ما ابتهجوا. كان الهواء منعش البرودة ونقیاً، مع نسیم رقیق من الشمال، وكانت الشمس دافئة بشكل مبهج، وتوزعت كتل السحاب فخططت السماء الشاحبة الزرقاء. كنا ندفع طرادتنا علی طول سلسلة من القنوات الضيقة التي تشق طریقها ملتوية فی سهل مفتوح مغطی بهشیم الأعشاب المختلفة. تتحدّد الرؤية فی الأهوار الوسطی، باستثناء بعض البرك العرضية، إلى بضعة أذرع فقط فی بعض الأحيان بسبب جزر القصب الكثيفة. أما هنا فإننا نستطيع مد بصرنا إلى أمیال بسبب جفاف الأرض

(١) رئیس عشيرة النوافل فی بدعة النوافل: حاولت معرفة اسم هذا الرجل إلا أن محاولاتي أخفقت.

(٢) أثرت ترجمتهما باللهجة العامية وذلك أدعی إلى فهم التورية.

خلال الشتاء، والآن مازالت غير مغطاة بأية مياه فأصبحت من الصلابة كأنها الفخار وشاحبة في لونها. وفي أماكن أخرى، غطت المياه الأرض إلى عمق عدة بوصات فكانت النتيجة وحولاً بقوام ولون الشوكولا الذائبة.

أقبلنا متعة العديد من الطيور الخواضة، طار البعض منها بشكل منفرد بصرخات ثاقبة، وأخرى بأسراب مزدحمة محلقة فوق صفحات الماء والبردى الحائل اللون. عرفت منها (Curlews) و(Whimbrel) أحمر الساق و(red shank) والكصكص و(avocet) و(ruffs) و(الكروسوع) وأنواع مختلفة من (Plover). كان هناك أيضاً البط، ابتعد عنا كثيراً قبل أن ندخل ضمن منطقتيه، وهناك أيضاً (أبو منجل) و(الببوضي) و(المغبري). ذات مرة رأينا من بعيد سرب (Cranes). يبادر (حسن) إلى هجمات متواصلة إثر كل طير يعتبره صالحاً للأكل، لكنه لا يقترب بما فيه الكفاية للرمي، ويتلقى في كل مرة تعليقات مسفهة عن عدم أهليته بوصفه صياداً. وبينما كان (ياسين) و(سبتي) يسيران على طول ضفتي النهر لقطر الطرادة، كان مرديهما محشورين في مقدمهما. كان الجدول ضيقاً جداً في بعض أجزائه ليسع طرادة، ينعطف أحيانا بزاوية قائمة، لذا ارتأيت أن نعود أدراجنا لأن طول طرادتنا ستة وثلاثون قدماً، ولكن في النهاية يتدبر الشبان أمرها دائماً ويسهلون استدارتها.

كنت ألبس (دشداشة) عربية، فإذا ما توجّب عليّ النزول إلى الماء لمساعدتهم، ألقها حول خصري. كنت أشك دائماً بنوايا الرّحالة الذين يميلون إلى إظهار نزعاتهم عندما يرتدون الملابس المحلية بلا سبب معقول. ليس من السهل تدبر أمر الملابس العربية على وجه التحديد من قبل أى شخص لم يعتد عليها. لبست هذه الملابس مدة خمسة أعوام في جنوب الجزيرة العربية ولولا ذلك لما كنت مستساغاً من قبل مرافقي العرب. اعتاد رجال العشائر في العراق على منظر الملابس الأوربية، فكل الموظفين الحكوميين حريصون على ارتدائها ولا يرتدون غيرها في المحافل العامة. كانت ملابس



أوربية عند زيارتي الأولى للأهوار، وفيما بعد، بعد إحساسى بالقبول ارتديت الكوفية (الدشداشة) العربية الطويلة للمزيد من الملاءمة الواضحة الصريحة، وارتديت فوقها الجاكت، وهو زى تتزايد ألفتة بين المعدان أنفسهم. تسمى (الدشداشة)، حين أكون فى مشحوف أو فى بيت، ساقى من الذباب والبعوض، لكنى أستبدلها بالملابس الأوربية قبل زيارة الموظفين أو الذهاب للمدينة.

إننا نجتاز الآن قسماً من (أويسيج)، وهى امتداد أرض تُغمر عند طغيان الماء فقط. تفصل (أويسيج) دجلة عن الأهوار العظيمة فى جهة الشرق مسافة عشرين ميلاً أو أكثر. ولأن هذه الأهوار على العموم عميقة جداً فلا تكون ملائمة للجاموس. يميل المعدان إلى أبناء قراهم على طول (أويسيج) أو عند مصبى نهري الكحلأ والمشرح فى الشمال. وفى الخريف يعبر (الربيعات)، وهم قسم من (الفريجات)، دجلة مع قطعانهم العظيمة من الجاموس و يقيمون ليقضوا شتاءهم هناك. وفى الربيع يعودون ثانية عبر دجلة مقتفين أثر (الوادية) ببطء فى جهة الشمال تاركين لدوابهم فرصة الرعى فى الحقول المحصودة للحنطة والشعير فى طريقهم الى (الجر) ويُسمح لهم بهذا الإجراء كمقابل لفضلات الجاموس التى تزيد خصوبة التربة. ثم يتجهون شمالاً إلى (الجندالة) حيث يقضون الصيف هناك بمراعٍ غنية بالنباتات التى تنمو بعد انحسار مياه الفيضانات عنها. وعليهم، من أجل هذا، أن يدفعوا للشيخ رسوماً ثقيلة جداً.

ينتمى (عماره) إلى (الربيعات) من (الفريجات) فتوقع أن يجد أقاربه فى منطقة (أبو ليلة) أكبر مجمعاتهم الشتوية التى تقع أماناً. ما أن وصلناها حتى رأينا قطعان الجاموس بحراسة بعض الصبية، ومن بينها رأيت جاموسة بيضاء تقريباً، وأخرى رقطاء. كنت مندهشاً لحجم القطعان فسألت عن الرقم المألوف الذى يمكن للعائلة المتقلة امتلاكه، فقال لى (عماره):

"بين العشرين والثلاثين".

لكن (حسن) أصرّ على أن أغلبهم يمتلك أكثر من هذا بكثير، وسمى واحداً من (الربيعات) يمتلك مائة وخمسين رأساً.

"في أى عمر تضع الجاموسة وليدها الأول؟"

فأجاب (عمار):

"عادة وهي في السنة الرابعة". وأضاف:

"تحمل الجاموسة عجلها مدة أحد عشر شهراً، والجاموسة الجيدة تضع الكثير

حتى يصل إلى خمسة عشر عجلاً".

أعرف أن البدو يقتلون عادة الولادات الذكرية للإبل حين ولادتها طمعا بالاستفادة

من حليبها لأنفسهم، فسألت فيما إذا كان المعدان يفعلون الشيء نفسه مع الجاموس:

"نعم، إلا في حالة امتلاك الرجل لعدد قليل من الجاموس، فهو يحتفظ به حتى يكبر

ليبيعه. أما إذا ذبح الوليد الذكر فإنه يضع عجلاً آخر ليرضع الأنثى فضلاً عن أمه

وبذلك يحصل العجل على المزيد من الحليب وينمو بشكل أفضل. ومن ناحية أخرى

يلطّخ المعيدى عباءته بالمادة اللزجة التي ينزل الوليد الجديد مغطى بها ويلبسها حين

يحبب أمه. أما إذا مات هذا الوليد فإننا نضع جلده المخطط<sup>(١)</sup> أمام الأم قبل أن نخلبها".

"ما السعر الذي تباع به الجاموسة؟"

"(الجلّابة) يدفعون مبالغ كبيرة تصل إلى خمسين ديناراً لأنثى الجاموس الجيدة،

وخمسة وثلاثين ديناراً للذكر".

إن (الجلّابة) هم التجار المتخصصون الذين يجوبون بين المعدان لشراء أى عدد من

الجاموس يسعه مركبهم. أتذكر أن كلمة (الجلّابة) في السودان تستعمل فقط لتجار

العبيد. يشتري العطارون كذلك جلود الحيوانات النافقة في الوباء الدورى لمرض تعفن

(١) الجلد المخطط الذى يملأونه بالتبن أو (البوه) وهو بقايا أعواد الأرز، يسمونه (بُو) وهى كلمة يطلقونها أيضاً من

باب السخرية، على البلبد الغبى.

الدم النزفي الذى يهلك القسم الأعظم من الماشية، ورجال الأهوار يعرفون أن هذه الجلود تحمل عدوى هذا المرض، غير أن هذا لا يمنعهم من بيعها على الرغم من اعتراضهم واحتجاجهم المهتاج إذا جلب العطار مثل هذه الجلود إلى قريتهم. قال (حسن):

"تفشى مرض الحمى القلاعية<sup>(١)</sup> قبل عدة سنين فنفق الكثير من جاموسنا، وحتى الخنازير، فقد اعتدنا أن نجد لها غير قادرة على المشى فأرجلها مصابة بشكل سيئ". يتسع مجرى الجدول في (أبو ليله) حتى يصل إلى ثلاثين ذراعاً. وكان قسم من الجاموس غاطساً في الماء ووقف القسم الآخر على حافته وكان العديد من المشاحيف، وأغلبها كبيرة عادة، منتصبه على الشاطئ، يجدف الأطفال من حولها فوق أطواف صغيرة مصنوعة من البردى، في حين انتشر نحو مائة بيت على طول الضفتين. كانت البيوت صغيرة وأغلبها بخمسة (شباب)، زاد في صغرها منصات<sup>(٢)</sup> الجاموس الملائقة لها التي يصل طولها إلى أربعين ذراعاً. إن المنصة لا تشبه البيت في امتدادها واستطالتها وفي كونها تأخذ شكل الخيمة ولا تُسقف بـ (البواري). يوضع القصب مرزوماً إلى بعضه لتشكيل الجدران مع ميل إلى الداخل وتشد من الأعلى عند خط التقاطع إلى عمود مصنوع من مزيد من القصب. يكوم الحشيش الموطوء وفضلات الجاموس على الجدران من الخارج<sup>(٣)</sup>.

توقفنا عند أحد أبناء عمومة (عمارة)، اسمه (بدای) <sup>(٤)</sup>، كان في ريعان الشباب وطويلاً. عانق (عمارة) بدفء لأفهما صديقان هيمان وجلب (المداد) والمخدرات.

- 
- (١) الحمى القلاعية: **Foot and mouth disease** مرض فايروسي على درجة عالية من العدوى يصيب الماشية، يشخص من خلال الحمى واللعب المفرط والتقرحات في الفم والأقدام يسمونه محلياً (أبو حنيجير).
- (٢) منصات الجاموس: **buffalo shelters**: يسمونها (سَتر) مفردها (سَتره).
- (٣) إجراء وقائي الغرض منه منع احتكاك الجاموس بجدران هذه المنصات.
- (٤) بدای بن زاير بن عجب بن الجلاج الفريجي... يسكن في مدينة الشعلة حالياً.

جلسنا في الهواء الطلق في مدخل منصفه تفضي، كأنها النفق، إلى البيت. (هَبَّشَتْ) أم (بدّاي) وأخته حالاً بعض الشلب قبل سلقه لغدائنا. والد (بدّاي) متوفى منذ سنتين خلت وهو الآن رب عائلة مكونة من أمه وزوجته وأخته وأخوين أصغر منه غائبين الآن مع الجاموس.

علاقة (بدّاي) سيئة مع عائلة رجل يدعى (رضيوى) <sup>(١)</sup> الذي يسكن مجتمعاً قريباً بسبب أن (حسن) <sup>(٢)</sup> ابن (رضيوى)، يرغب في زوجة (بدّاي) ويأمل الزواج منها <sup>(٣)</sup>. لكن (بدّاي)، أقرب ابن عم لها وله حق أولى، فأصرّ على حقه وتزوجها، فأقسم (حسن) على أن يتزوج هذه الفتاة حتى لو اقتضى الأمر قتل (بدّاي). قبل عدة أسابيع من وصولنا حصل أن تلاقي الشابان بالمصادفة وتضاربا فيما بينهما لكنهما أبعدا عن بعضهما. أوضح كل من جلس معنا أن لا حق لـ (حسن) بالزواج من هذه المرأة، وقال رجل عجوز:

"إن ابن (رضيوى) يشبه أباه، وكلاهما أرعن وشريد، ألم يقتل (رضيوى) رجلين سابقاً لأنهما عارضاه؟"

أقنع (عماره) ثلاثة من كبار السن للذهاب معه إلى بيت (رضيوى) لمحاولة التأثير عليه ومحاولة تسوية الأمر وعادوا في المساء وهم يجرون أذيال الخيبة. قال (عماره) بشكل مشتمز:

"لا أحد بإمكانه أن يفعل شيئاً معهم، ولا حتى (سيد صروط) نفسه، فكل ما فعلوه هو تكرار: يجب على (بدّاي) أن يطلق زوجته أو يتحمل العواقب".

ثم أنذر (بدّاي) بقوله:

(١) رضيوى بن مجذاب الفريجي، توفي نحو سنة ١٩٦٠م.

(٢) حسن بن رضيوى بن مجذاب الفريجي، يسكن مدينة الثورة حالياً.

(٣) سوء فهم من قبل المؤلف، فقد اقتضت الأعراف أن لا يرغب رجل في امرأة متزوجة مطلقاً، وإن حصل فهو كما يسمونه (فساد) ولا يستطيع العاشق التصريح بعشقه. وخلاصة الموضوع أن (خلف)، وهو ابن عم لهذه المرأة (خليفها)، خطبها من أبيها الذي هو عمه فرفض تزويجها له لسبب ما، وفصل تزويجها لـ (بدّاي)، الأمر الذي أغضب (خلف) فاضطر إلى إعلان (نمرة) على ابنة عمه، لكن تلك (الهوة) لم تمنع (بدّاي) من إتمام زواجه.

"لا تقترب منهم، واحتفظ بينديتك قريباً منك لاسيما في الليل، إنهم ينوون شراً"  
ازدادت برودة الهواء عند غروب الشمس وتحركت آخر قطعان الجاموس  
بأشكالها الشبيهة في السهول المعتمة باتجاه القرية. كانت الغيوم الشفافة العارقة في  
ألوان دائمى التغير، تزحف عبر السماء، وكانت طيور البط، سرباً بعد آخر، تشق  
طريقها باتجاه الغرب. انتقلنا إلى داخل البيت، وامتألاً الممر الطويل بقطيع الجاموس  
الذى مد أجساده الثقيلة خلف قرون معقوفة ثخينة.

ينتمى (عمار) إلى هؤلاء (الفريجات) الرّحل، وقد تكفل بي، بالإضافة إلى تزكية  
أدويتي، فاستقبلنا في بيت آخر من مجتمعهم. كان هؤلاء (الربيعات) متغطرسين  
وشرسين بسبب عدم التصاقهم بمكان واحد ولوفرة السلاح لديهم. وليضمنوا غناءً  
جديداً طرياً لجواميسهم، يعتمد (الربيعات) إلى إضرام النار في القصب الذى يعتمد  
عليه (النوافل) في حياكة (البوارى) لذا فهم مكروهون من قبلهم. وهم دائماً في ثارات  
وعداوات مع معدان (السواعد) الخارجين على القانون هم أيضاً الذين يسكنون قرب  
الحدود الإيرانية، وكل عشيرة تسرق جواميس العشيرة الثانية ما إن تسنح الفرصة.

بعد أن غادرنا (الفريجات) توقفنا في منطقة (الترايه) وهى قرية كبيرة تشبه  
(البدعه) وتعتمد على صناعة (البوارى) لكن قاطنيها من (البوغتام). كيفت نفسى بين  
المعدان الرّحل على حية تناول الأرز و(الروبه) فقط. أما هنا، فقد اعتقدت أنهم ربما  
سيذبجون لنا دجاجة على الأقل، لكنهم لم يفعلوا! وحين أمضى مضيّفنا ليلته شائعاً  
(الفريجات)، دافعت عنهم باستماتة. وفي صباح اليوم التالى سألنا رجل من أهل  
الكحلاء أن نوصله، فكنّا سعداء لذلك لكى يرشدنا خلال جزر القصب أمامنا، فقد  
سأل (ياسين) عن الاتجاهات في الليلة الماضية، فقبل له إنكم سوف تصلون بلا دليل.  
يقع طريقنا بين قصب شاهق وبين برك صغيرة، وكان، فى الحقيقة، نادراً ما يُرى. أذكر  
من هذه الرحلة سماعى لأول مرة صوت طيور (الواغ). أمضينا أربع ساعات لكى  
نصل (الدين)، القرية التى نقصدها، عند مصب نهر الكحلاء.

كان رفاقي ماهرين في تذكر طريقهم، وفي أثناء السنوات التي قضوها معي، اكتسبوا عن الأهوار معرفة منقطعة النظير. وحتى حين يكونون في مناطق لم يمرّوا بها من قبل، تتكفل غريزتهم بمدايتهم. لاحظت ذلك بشكل خاص حين يستقصون، بين القصب والجزر الصغيرة على طول حافة بركة، عن مدخل إلى مصب صغير غير مميز من بين ما يقرب من مائة من مصبات أخرى تقود إلى المجهول. وهناك نوع آخر من المهارة يكتسبونها منذ الطفولة، فيمكنهم اقتفاء أثر خنزير (من حركة الماء)، ويخبرونك عن نوع السمكة من أثر حركتها في الماء. ومن لحة قصيرة، يستطيعون التعرف على مشحوف رأوه لمرة واحدة من قبل. لكن العجيب، مع ذلك، يأسههم من تذكر الأسماء. كنت أعاني من نفس عجزهم، وكثيراً ما أسخط حين يعجز رفاقي الأربعة عن تذكر اسم آخر مضيف لنا.

وحين كنا نحدف، يصرخ أحد رفاقي طالباً التوقف ثم ينزل بعدها إلى الماء لكي يقطع نبتة بردى صغيرة. إنهم يفضلون أكل السيقان البيضاء النضرة قرب الجذور، ولكن الواضح أن نباتات محددة من البردى صالحة للأكل<sup>(١)</sup>. وهم يمضغون كذلك بين الحين والآخر سيقان قصب معين وكأنهم يمضغون قصب السكر. وفي الربيع تجمع نساء المعدان حبوب اللقاح للبردى المتجمع عند رؤوسه لكي يصنعن منه حلوى صفراء صلبة مفضلة لديهم جداً على الرغم من أنني شخصياً وجدتها باهتة الطعم وغير مستساغة<sup>(٢)</sup> من الكمية القليلة التي ذقتها.

أمضينا عدة ليال في (الدين) منطلقين كل صباح لنجوب في أهوار (الحويزة) ووجدنا بحيرات تشبه في اتساعها بحيرة (زجري) تختفي خلف جزر القصب واسعة الاتساع لكننا لم نجروء على المضى فيها خوفاً من العواصف المباغتة. وبينما كنا متسابين

(١) ثمة نبتة من القصب يعرفونها، أما كيف فلم أستطع الاهتداء لذلك، يستلونها ويأكلون الجزء القريب من الجذور الذي يكون طرياً جداً وحلو المذاق يسمونه (محداد) جمعه (محاديد)، والشئ نفسه مع نبتة البردى التي يسمونها (عكيدة) جمعتها (عكيد).

(٢) حبوب اللقاح للبردى يسمونها (نفاش) أما الجزء الحامل لها فهو (ضربوط) وجمعه (ضرايط)، أما الحلوى التي تصنع منها فهي (الخریط).

على طول ممرات غير واضحة المعالم التي تبدو دائماً كأنها جدران مصمتة من القصب، ظل دليلاً يلح على أن أجّهز بندقيتي قاتلاً مراراً وتكراراً:  
"يستطيع قطاع الطرق قتلنا هنا ولا أحد يعلم أبداً".

إن هذه البحيرات ملاذات طبيعية للطيور الحرة، ولم أرَ مثل هذا العدد منها في أي مكان آخر، فهي تغطي وتعمّ لون الماء لمساحات واسعة جداً، وحينما يطير ولو جزء صغير منها، تسمع ما يشبه الهدير.

ولكن على امتداد الأهوار أصبحت طيور البط والتم العراقي تتناقص سنة بعد أخرى. ففي عام ١٩٥١م رأيت أسراب البط تطير عند الغروب لكي تلتقط ما خلفه حصاد حقول الأرز في (الصيكل). كانت بأعداد ذكرتني بمحشود الجراد. وحين غادرت الأهوار في عام ١٩٥٨م لم يكن هناك ما يشير إلى كثرتها. تدخل إلى العراق، في ذلك الوقت، مليون إطلاقه (سرب) سنوياً، وأغلب الذين يستعملونها يعدّون طيراً واحداً لكل إطلاقه. وتتخذ ضريبة ثقيلة على الصيد من الصيادين المحترفين الذين يصطادون بالشباك مائة طير وأكثر في كل مرة، ويدفع هؤلاء للشيوخ عن استخدام بركٍ معينة حيث يلقون الحبوب (المستخدمة طعاماً). فحول العمارة فقط يوجد الكثير من هذه البرك المخصصة لهذا الغرض.

اعتادت طيور التّم العراقي الوصول إلى الأهوار في تشرين الأول (أكتوبر)، رمادية المؤخرة بيضاء المقدم<sup>(١)</sup>، تأتي من الشمال عائدة إلى أراضي تفقيسها في سبيريا، في صراخها سحر الأرجاء البرية. تطير بتشكيلات (أسراب) لها حافات، ويتبع بعضها بعضاً، ومنظمة عبر سماء شاحبة. فكرت، وأنا أراقبها، باليوم الذي سوف تختفي فيه آخر إوزة برية، وباليوم الذي سوف تختفي فيه الأسود في أفريقيا.

(١) هناك عدة أصناف من الإوز geese، وبيضاء المقدم رمادية المؤخرة يسمونها الحويزاوية.

كل صباح، قبل انطلاقنا، كنا نستعير إناءً للشاي وأقداحاً وطبقاً من مضيقنا في (الدبن) ونشترى شاياً، وسكرًا، وملحاً ودقيقاً من العطار. ونحن نشعر بميل للتوقف، نختار بقعة ملائمة عند حافة البركة، نطأ القصب لكى نعد لنا منصة تسندنا على الماء ونطبخ وجبتنا. يشوى (حسن) ما اصطدنا من طير على نار القصب، وعلى جمره يحمص (سبقي) أقراص الخبز التى تكون رطبة ومليئة بالرماد، ثم نستمر بإعداد الشاي حتى ينتهى السكر، وفي أثناء ذلك كنت أراقب البط في الجزيرة أة (الصليكع)<sup>(١)</sup> وهو يندفع كالسهم بعيداً. وذات مرة لاحظت اثنين من (جليب الماي) يلعبان على مسافة مائة ذراع عتاً، لكن (حسن) حاول الوصول إلى البندقية فرآنا. لاحا واقفين باستقامة في الماء يحدقان فينا لثوان قبل أن يغوصا ويختفيا. أسعدتني رؤيتهما لنا وإلا فمن المؤكد أن (حسن) سيحاول إصابتهم، فسعر الجلد دينار لكل (جليب ماي). اصطاد منها عم (حسن) أربعين في شهرين.

قال لى (حسن) إن (جليب الماي) شائع جداً حول (زجرى) حيث يتناسل هناك على الجزر الطافية، مبكراً أحياناً في شهر كانون الثاني (يناير)، لكن الغالب في شهرى شباط (فبراير) أو آذار (مارس). بعد ثلاث سنين، أى في عام ١٩٥٦م رغب غافن ماكسويل<sup>(٢)</sup> وضع كتاب عن الأهوار، فجاء

(١) الصليكع: kingfisher من الطيور الصغيرة الجميلة، يهزج الأطفال حين يرونه: يا صليكع يا بوبو الرقع.... أملك سوت عصيدة.... وأبوك احتركت أيده.

(٢) غافن ماكسويل: Gavin Maxwell أديب ورسام بريطاني، زار الأهوار العراقية بصحبة المؤلف عام ١٩٥٦م ولم تدم إقامته إلا أسابيع قليلة. له مؤلف عن زيارته تلك اسمه "قصة في مهب الريح" A Reed Ring of Shakan By the Wind ترجمه صادق التميمي، وكتاب آخر سماه "حلقة في ماء لامع" Ring of Bright Water يحكي فيه قصته مع كلب ماء كان قد أخذه معه إلى بريطانيا. مات مقتولاً على يد رجل اسكتلندي عام ١٩٦٩م. فكر في الإقامة في الأهوار بشكل نهائي إلا أن طلبه جوبه برفض الحكومة العراقية.



معى إلى العراق وطفّت به فى طرادتى مدة سبعة أسابيع. كان قد رغب دائماً فى الحصول على (جليب ماى) كحيوان أليف على سبيل الاستمتاع، وأخيراً عثرت له على واحد صغير من أصل أوربى، مات لسوء الحظ بعد أسبوع إبان نهاية زيارة ماكسويل. لقد كان فى البصرة يتهاى للعودة إلى وطنه حين تدبرت أمر الحصول على (جليب ماى) آخر وأرسلته له. كان داكن اللون وبعمر ستة أسابيع تقريباً، وقد ثبت علمياً أنه نوع جديد. أخذه ماكسويل إلى بريطانيا وسُمى هذا النوع الجديد باسمه<sup>(١)</sup>.




---

(١) سُمى كلب الماء الأول (جَحَلَة) على اسم المكان الذى وُجد فيه، وسُمى الثانى (مَجِيل) ربما على اسم الشخص الذى بعته المؤلف إلى البصرة ليُسلم كلب الماء إلى ماكسويل فى مبنى القنصلية البريطانية هناك. أكّذ لى جئير بن مكزى، أن ماكسويل كان يبكى بكاءً مُراً حين ماتت (جَحَلَة) ثم امتد الأمر إلى نيسيفر فقد كان يبكى كبكائه على عزيز له. لم أكن اصدق ما يجرى غير أنى بكيت أيضاً أو تباكيت، والحقيقة أن رغبى فى الضحك وقفها فاقت كل حد.

## الفصل التاسع عشر

### بين السودان والسواعد

مقدود من (حلباب) قلب الموجة في

المشرّح متلهف لوجه الحصاد والجاموس.

في الأمسيات، حين كنا نعود إلى (الدين)، يمازحني (عمارة):

"الأحسن لك يا (صاحب) أن تنتبه، فهناك (زائرة) تنتظرك!"

كان المضيف الذى نقيم فيه فوق هضبة صغيرة محاطة بالماء، نستطيع من خلالها رؤية الخط البعيد للقرى ولأشجار النخيل على طول نهر الكحلاء التى تعود لوكيل (محمد العربى)، الرجل العجوز طريح الفراش الذى يعانى من مشاكل في كليته ومات في السنة التالية<sup>(١)</sup>. له أربعة من الأبناء الشباب لكنهم يُردون خائنين بشكل فظ في كل مناسبة من قبل (الزائرة)، أمهم المسنة ذات المهابة. كانت تندفع إلى داخل أو خارج المضيف وهى تلبس قماشاً من الجوخ الداكن بدت فيه كأنها صرة، أو تجلس لتشرف على كل شيء. لقد أوديت طبيعته المتمسكة بالأعراف بهذا السلوك الخارق للمألوف. والأدهى من ذلك أنها عجزت مفزعة لا أستطيع التخلص منها، فهى دائمة الظهور في حين كنت أطبّب مرضاى، وتعرض النصح وهو أمر يخرجنا جميعاً بين الحين والآخر.

في (الدين)، جُلب لى طفل مشلول من الوسط إلى الأسفل، كان قد عانى من بثور حول الفم العام الماضى تركته كسيحاً. لقد صادفت كثيراً من حالات مشابهة، من

(١) وكيل محمد العربى: غزير بن كوطى بن سهر الهليجى.

المحتمل أن تكون شلل الأطفال. إن رجال العشائر طيبون بشكل خاص مع المبشرين المعاقين. ربما كانت حالات الإعاقة الشديد قليلة هنا بالمقارنة مع أجزاء كثيرة من العالم. وعلى الرغم من العمى الذى ولد به طفل آخر فى (الدين)، إلا أنه كان يتنقل بحرية فى القرية وحولها، ويذهب لمسافات قصيرة بمفرده فى مشحوف ليجمع الحشيش<sup>(١)</sup>. وقابلت عدة حالات: أطفالاً ورجالاً، من الصم والبكم خلال سنين وجودى فى الأهوار، كانوا سعداء وطيبين ويعيشون بشكل مثمر ضمن حياة مجتمعهم. وذات مرة، عند العصر، بعد أيام من مغادرة (الدين)، وصلنا إلى قرية فى البر. كان الشيخ غائباً لتفقد مزروعاته، أدخلناه إلى مضيفه من قبل ففى يلبس عقلاً وعباءة وفى حزامه خنجر. يبدو فى الخامسة عشرة من عمره، ذو وجه جميل لافتاً للانتباه بمجديلتين على جانبي رقبته<sup>(٢)</sup>. كان المعدان فى الماضى يطيلون شعورهم على هذه الشاكلة، وما زال البدو يفعلون. انسحب الشاب الصغير بعد أن قدّم لنا القهوة. سألتنى (عمار):

"هل أدركت أن (هذه) مسترجلة؟"

لقد سمعت عنهن بشكل غامض، لكننى لم أقابل إحداهن من قبل. أوضح (عمار):  
"المسترجلة تولد امرأة، لكنها لا تطيق ذلك ولها قلب رجل، لذا تعيش كما يعيش الرجال".

"هل يتقبلها الرجال؟"

"بالتأكيد، فنحن نأكل معها، وتجلس فى المضيف. وحين تموت نطلق الرصاص إكراماً لها فى الوقت الذى لا نفعل ذلك مع المرأة مطلقاً. توجد واحدة فى قرية (مجيد) قاتلت بشجاعة ضد حجي (سلمات)<sup>(٣)</sup>".

(١) الطفل الذى ولد أعمى فى (لندن): لم أستطع التوصل إلى أية معلومة عنه.

(٢) لم يدلنى أحد على اسمها أو أية معلومة تخصها.

(٣) طاحه بنت مولى الأزييرجاوى، عملت مختاراً لقطاع ٥٦ فى مدينة الثورة وتوفيت سنة ١٩٩٠م تقريباً.

"هل يحتفظن بشعرهن مصفوراً دائماً؟"

"المعتاد هو أن يقصص شعرهن كالرجال".

"هل تتزوج المسترجلات<sup>(١)</sup> رجالاً؟"

"لا، إنهن يقترن مع النساء كما نفعل".

وعلى كل حال، ففى ذات مرة، كنا فى قرية لحضور حفل زفاف وكانت العروس فى الحقيقة مسترجلة مما أثار دهشة الجميع. لقد وافقت فى هذه الحالة على لبس ملابس النساء والنوم مع زوجها ولكن على شرط أن لا يُطلب منها ما يطلب من النساء! أن النساء المسترجلات محترمات جداً وأقرب مرادف لهن على ما يبدو هن الأمزونيات الموغلات فى القدم<sup>(٢)</sup>. لقد قابلت عدداً من نساء مسترجلات أخريات خلال السنوات اللاحقة. جاءنى رجل مع من حسبته ابناً له بعمر الثانية عشرة عاماً، يعانى من مغص، وحين أردت فحصه قال الأب:

"إنها مسترجلة".

وفى مناسبة أخرى، كنت أقف على خدمة رجل يعانى من كسر فى الجمجمة قاتل مسترجلة أعرفها وتغلبت عليه!

وبينما كنت جالساً مع (حمود) أخو (مجيد الخليفة) فى ديوانيته، دخلت امرأة متينة البنية، فى أواسط عمرها، تلبس (جوخ) أسود شائعاً، فطلبت علاجاً. لها وجه يوقع أثراً

(١) ثمة لبس فى سؤال المؤلف وجواب عمارة، فالؤلف يسأل عن زواج المسترجلات ولكن لم يتضح أن كمن يتزوجن باعتبارهن نساء أو بوصفهن رجالاً. وكذلك جاءت إجابة عمارة، ففى شطرها الأول يقول: لا، أى لا يتزوجن لا بوصفهن نساء ولا رجالاً، ثم يكمل بأنهن يمتن مع النساء كما نفعل، وفى ذلك إشارة كاملة إلى أنهن يرتضين تمثيل دور الرجل، وأوضح مثال لذلك هو زواج مسعود العمارتلى الفنان المعروف من امرأتين رغم كونه امرأة مسترجلة، والغريب أن عمارة لم يستشهد بمسعود رغم شهرته الواسعة فى تلك الحقبة فى الأقل كعزير لإجابته.

(٢) أمازون amazon: تزعم الأساطير الإغريقية أن الأمازونيات، وهن نساء من عرق خرافى، كن محاربات شديداً يقطعن أنداءهن اليمنى لكى تسهل عليهن عملية توتير الأقواس.

من حيرة في النفس، ذو مسحة ذكورية، رفعت طرف ثوبها كاشفة عن عضو ذكرى كامل وبالجم الطبعي<sup>(١)</sup>.

"هل لك أن تقطع هذا عنى وتحيلنى إلى امرأة تامة حقيقية؟"  
على الاعتراف أنه ناشدنى بعملية ليست بمقدورى. وحين غادر، سأل (عمارة) بما يشبه الرحمة والشفقة:

"هل يستطيعون إجراء مثل تلك العملية في البصرة؟ إنه امرأة حقيقية لولا (ذلك)، يا للبؤس<sup>(٢)</sup>!"

بعد ذلك رأيت نفس هذا الرجل يغسل الصحن على شاطئ النهر مع امرأة. يبدو أنه مقبول تماماً من النساء في البيت، فهؤلاء الناس أكثر عطفاً عليه مما نفعل نحن في مجتمعنا<sup>(٣)</sup>، لكنهم مع ذلك قساة جداً بشكل أو بآخر.

ذات مرة، كنا منطلقين في واحدة من رحلاتنا حين طُلب منا أن ننتبه لوجود جثة لشابة صغيرة غارقة في النهر، وحين عدنا في المساء رأينا الجثة الطافية للشابة، رفض

(١) هو نعيم بن غضبان من خدم بيت منشد من شيوخ ابو محمد، وأمه هى دريبييه وصفيه حريه بنت وجر بن كباشى. ولد حوالى سنة ١٩١٢م. شديد السمرة قصر القامة نوعاً. كنت أراه بكثرة في السبعينيات وهو يتصدر النساء اللواتي يتجمعن متشحات بالسواد لكي يقدمن التعازى ليتولى نعيم هيئة الأزوجة ومجموعة الأشعار التي تردد في مثل هذه المناسبات سواء كان المتوفى رجلاً أو امرأة. مازال على قيد الحياة ويسكن مدينة الثورة. يتميز نعيم بحفة دم وانعدام التحفظ بشكل طاغ على سلوكه، فقد حكى لى أحدهم ممن يعرفه انه وقف ذات يوم في باب مضيف مجيد الخليفة وحين سئل عن مرأته قال بلهجته المرحه الخفيفة الأنثوية الموغلة في جنوبيتها إنه يرجو من (مخت) المضيف وأهله أن يجبل! واغلب الظن أن طلبه هذا من المؤلف لا يعدو دعابة من دعاباته الكثيرة المنفلتة غير العابنة بشئ.

(٢) اعتاد الناس النظر إلى مثل هذه الحالة باستخفاف واحتقار واشتمزاز، أما موقف عمارة فغريب حقاً، لعله يحاكي صاحبه الإنجليزي الذي ربما أبدى ملاحظة تفيد تعاطفه معه.

(٣) يقصد المجتمع الإنكليزى أو الأوربي على العموم. أعقد أن ذلك خال من الصحة تماماً، فالعائلة أو العشيرة التي تبلى بمثل هذه الحالة تبدو منكسرة ذليلة يسألون الله أن يخلصهم منه، هذا إن لم يقوموا هم بالتخلص منه. ومن ناحية أخرى فالمجتمع الأوربي تمادى في أمر رعاية الشاذين إلى حد إنشاء الجمعيات التي تتولى الدفاع عن حقوقهم!

رفاقى لمسها أو نقلها إلى الطرادة حين اقترحت عليهم ذلك بحجة الخوف من التنجس، قال (ياسين):

"يتوجّب علينا الغسل سبع مرات<sup>(١)</sup>، وعلى أية حال هي ليست ابتناً".

أقصى ما فعلوه هو دفع الجثة إلى ضفة النهر ورفعها إلى الجرف بالمجاديف.

وفي مرة أخرى وصل (سيد) كهل مع ابنه، ابن التاسعة، الذى جرح يده جرحاً عميقاً بينما كان يقطع الحشيش. ترنح الطفل أمامى وأغمى عليه بسبب ما فقدته من دماء، وحين سألت أباه، لماذا لم يسعف الطفل، اعترض أن ذلك ربما يوقع بعض الدم على ملابسه، الأمر الذى يجعله نجساً. ولحسن الحظ تذكرت في الوقت المناسب أنه (سيد) لأنه لم يكن ليكفينى شتمه، ولكن يجب الاعتراف أن بعضاً من (السادة) أقل صرامة في هذا الشأن.

يتفرع نهر الكحلاء من دجلة بعد بضعة أميال من العمارة<sup>(٢)</sup> ليتشتت في الأهوار بعد مسيرة خمسة وعشرين ميلاً. يقطع القرى التى تقع في حوضه، حيث أمضينا عدة أيام بعد مغادرة (الدين)، الكثير من العائلات من عشائر مختلفة فضلاً عن (البو محمد) التى ينتمى إليها الشيوخ الذين يقدم الكل إليهم الولاء. ويحفظ أهالى هذه القرى بالجاموس فضلاً عن زراعة الأرز. وفي أعلى النهر يسكن (البو محمد) في سلسلة من قرى على طول فروع مختلفة للنهر وقنواته الكثيرة جداً، يزرعون الحنطة والشعير التى يبذرونها في تشرين الثانى ويحصدونها في نيسان أو مايو. تنتشر قرى الكحلاء بين بساتين النخيل وبقية أشجار الفواكه الأخرى وأشجار (القرب)، وهى في هذا، لا تشبه قرى الحجر حيث تقف البيوت بشكل مقفر على طول ضفة النهر في منظر ريفى بئس. لقد تجولنا بينهم مرتحلين في فرع للنهر لنغادره إلى آخره.

(١) المعلوم فقهيّاً أن الغسل الذى أشار إليه ياسين هو مرة واحدة يسمى غسل مس الميت، وليس سبع مرات كما

أفنى ياسين الشغانى

(٢) يتفرّع الكحلاء من ضفة دجلة اليسرى في مدينة العمارة نفسها، وليس بعد بضعة أميال كما أشار المؤلف.

وعلى كل فرع، يتحتم علينا التغلب على سدّ ترابي عظيم بناه الشيوخ ليمدّ أراضيهم بالماء لزراعتهم الشتوية. يتدفق المجرى المائي الحبيس كدوران الطاحونة خلال منفذ ضيق في الوسط مشكلاً دوامات وتيارات معاكسة تمتد إلى ثلاثين ذراعاً في مجرى النهر. كان رفاقي يشقون طريقهم قدماً أثر أخرى ومن ثم بوصة تلو أخرى فلا يزيد ارتفاع الجزء الطافي من الطرادة على بوصتين، وكنت خائفاً من جنوح الطرادة على أحد جانبيها وغرقها بالنتيجة. انحدروا ووصلنا إلى السدّ الآخر كما لو كنا في فخر سريع الجريان باندفاع مبهج سريع. غالباً، في القنوات الصغيرة، ما نجد المجرى مغلقاً تماماً وعلينا أن نواجه الانحدار الضفة الذي قد يصل ارتفاعها إلى أربعة أقدام. إن الطرادة من الثقل بحيث لا نستطيع حملها، فنعمد إلى رش الماء على الضفة لنجعلها زلقة، ثم نرفع مقدمها ونجرها بشكل يقتضى منا جهداً عظيماً إلى أن تستقر على قمة الضفة، ثم ونحذر، نسهّل عملية انزلاقها إلى الماء في الجانب البعيد.

إن (محمد العربي) هو أغنى وأقوى شيوخ (البو محمد) في الكحلاء، إنه رجل عجوز موقر جداً ويعيش تقريباً ما بين بغداد والعمارة، تاركاً أكثر أبنائه إثرة لديه<sup>(١)</sup>، الشاب الغارق في الملذات والمتفطرس، مسؤولاً عن مقاطعاته. يعيش أقاربه في مستويات مختلفة من الفقر على حصص من حقول صغيرة يختصّها لهم في اقل المناطق خصوبة. لقد أقمنا عند عدد منهم ووجدتهم مضايقين متواضعين.

في طريقنا، ونحن نغادر الكحلاء، قطعنا هوراً يعج بالخنازير وقتلت عدداً منها ودخلنا إلى فرع آخر وهو (المشراح) النهر الذي ينحدر من دجلة شمال الكحلاء في منتصف مدينة العمارة. نحن الآن بين (السودان) العشيرة الأكثر تمسكاً بالفضيلة والأكثر سوء حظ. كانت قوية ومزدهرة في الماضي، لكن (السودان) الآن مبعثرين

(١) عباس بن محمد وأمه فتنه بنت خليفه أخت مجيد الخليفة، وهو أبو محمد بن عباس الشيخ الذي يسكن مدينة العمارة حالياً ويتزعم عشائر البو محمد.

وهُجرت أراضيهم بشكل كبير ويؤكدون أن مستوى المياه المنخفض منذ بناء سدّة الكوت<sup>(١)</sup> على دجلة. نصب آخر شيوخهم المضخات، لكنه حين مات باعها ابنه لتغطية ديون القمار المتورط بها في البصرة<sup>(٢)</sup>.

في الطريق، استطعت عدّ ستين خنزيراً تأكل خارج جزيرة قصب. توصل بي (السودان) أن اقتلها بسبب تدميرها لمحاصيلهم الضئيلة من الحنطة والشعير التي توشك أن تنضج. نادراً جداً ما تدخل الخنازير إلى حقول الشعير إذا كانت حقول القمح قريبة. وفي هذا الفصل، تأكل الخنازير من هذه الحقول ليلاً وتنام فيها نهاراً. يبلغ ارتفاع المحاصيل في بعض المناطق أربعة أقدام مما يجعل عملية صيد الخنازير فيها خطيرة إلى حد بعيد لاسيما حين تحرّك الريح تلك المزروعات، فقد طرحني خنزير أرضاً في مثل هذه الظروف العام الماضي.

في تلك المناسبة قتلت اثني عشر خنزيراً تقريباً مطارداً إياها لإجبارها على مغادرة أجمات العليق على طول قنوات مياه مهجورة، مطلقاً عليها النار ما أن تلوح في الأرض المفتوحة. جاءني طفل بأنباء عن خنزير وُجد في حقل الحنطة، وأشار إلى مكان معين. كانت الفجوة الفارغة واضحة في الحقل حتى عن بعد، لكن سنابل الحنطة كانت بمستوى الصدر بحيث لا أستطيع الرؤية إلا لمسافة ذراع واحدة فقط. فجأة خفقت أذن، فقد كان هناك خنزير مضطجع في الظل ومؤخرته باتجاهي، أطلقت النار فأصيبته في رقبته فهدم في مكانه. قال مضيفي حين عدت إليه بعدها: "هيا، دعنا نرجع، أمامنا طريق طويل علينا أن نقطعه".

(١) افتتح الملك غازي ملك العراق سدّة الكويت في آذار (مارس) من عام ١٩٣٩م.

(٢) شيخ السودان الذي يعنيه المؤلف هو صيهد العجيل، أما ابنه فهو حاتم الصيهد الذي توفي سنة ١٩٦٣م. من الجدير بالذكر أن هذه المعلومة بدت لي غريبة، فالذي أعرفه عن هذا الرجل التدين والاستقامة كحال كل السودانيين.



وبينما كنا مغادرين، عاد الطفل نفسه مرة أخرى بأنباء عن خنزير آخر:  
 "تعال لتطلق عليه النار، (صاحب)، لقد أتلّف كل محاصلي".  
 حاول مضيفي نصحي بالعدول عن رأيي، لكنني قلت:  
 "هذا الخنزير الواحد فقط لأكون بعدها معك".

مشيت ثانية ببطء في الفجوة الفارغة الممتدة في الحقل التي أشار إليها الطفل  
 وحدّقت في قمم السنابل، فجاءت عيناى مباشرة في عيني خنزير كبير. ما زلت  
 اذكر تلك الومضة لأنيا به البيض. وقبل أن أستطيع التصويب وجدتني ساقطاً على  
 مؤخرتي على بعد أذرع من مكان وقوفي. انطلقت إطلاقاً من بندقيتي وأنا أترنح إلى  
 الأرض، فالفيت الخنزير فوقى ثانية. لقد تحسست ثقله فوق فخذي ورأيت خطمه  
 الطويل وعينه الصغيرتين الغاضبتين فوقى وتحسست أنفاسه على وجهي. وطأ صدرى  
 بأنيا به فاتقيت الضربة بشكل غريزي بأخص بندقيتي. ولّى الخنزير بعدها. جلست  
 ونظرت إلى بندقيتي، كانت ثمة حفرة كبيرة في زندها الخشبي وجرح غائر حد العظم في  
 أحد أصابعي كما لو كان مقطوعاً بشفرة حلاقة والماء تندفق منه. أعدت حشو بندقيتي  
 ونهضت قائماً. كان الخنزير ماشياً بهيأته الكبيرة، مبتعداً عند حافة حقل الحنطة.  
 صحت منبهاً، استدار، صوّت نحو صدره فتهاوى حيث كان يقف.

كنت آنئذ وحدي ومسؤولاً فقط عن نفسي، أما الآن فمعي رفاقي الأربعة وحشد من  
 (السودان) يقتحمون بتهور حقول الحنطة التي تشمخ سنابلها وكانوا يلحقون الأضرار  
 بالزرع بشكل أسوأ مما يفعله اثنا عشر خنزيراً! كان (عمارة) مسلحاً ببندقيتي المعبأة  
 بمخراطيش كبيرة، و(حسن) حاملاً لمسدس عيار (٩، ٠). ملم من نوع (براونك) جلبته معي  
 هذه السنة، أما (ياسين) و(سبيتي) فكانا مسلحين بمخارجهما فقط. وبعد قتل عدة خنازير،  
 والنجاة مرتين بشق الأنفس، أقفعت القرويين أن من الأفضل لنا الصيد بين جزر البردى  
 المغمورة. قتلنا هنا ستة وثلاثين خنزيراً في يومين، كنا نلاحقها بطرادتنا ونصيبها في

الرأس بمسدس (البراوننك) وهى تسبح أمامنا أو مستديرة لمهاجتنا، فهى لا حيلة لها فى إيدائنا ما دامت تسبح. قفز (ياسين) ذات مرة فى مياه عميقة بجانب خنزير ضخمة وأغرقه بيديه. أسف (السودان) حين غادرناهم لزيارة (السواعد).

فى طريقنا إلى قطع المزيد من الأهوار، اجتزنا هضبة جرداء سوداء ترتفع نحو ثلاثين قدماً عن القصب، كانت يوماً ما لمدينة طواها النسيان تُعرف الآن بين المعادن (إيشان الواجف Standing Ishan). أخذنا (السواعد) فيما بعد إلى البعيد داخل الهور، ليطلعونا على هضبة مشاهة أخرى تسمى (عُزَيَّة) التى قدرت ارتفاعها بنحو خمسين قدماً. أتذكر رؤية (أبو عرس) فاراً وملتجئاً إليها. أقمنا لمدة أسبوع بين شيوخ عديدين فى الفروع السفلى لـ (المشرح). لم يكن أحد منهم ثرياً، لكنهم جميعاً مضيفون حسنو الوفادة. أحدهم رجل عجوز له سحنة وثن صينى يُعرف بـ (أبو تريكات)<sup>(١)</sup>، سُمى بذلك بسبب أنه كان يعلق مصباحاً بعضاً طويلة على مضيفه ليهدى عابري السبيل. يفعل ذلك كل يوم جمعة، اليوم المقدس للمسلمين. هؤلاء الشيوخ طيبون وغير متكلفين مع أتباعهم، ومتى ما قدمت وجبة الطعام، يناشدون الجميع فى المضيف للبقاء والمشاركة فيها. ومع أن (عمارة) و(حسن) من (الفريجات) ولا يكتنون الحب للسواعد، إلا أنهم يعترفون بأن شيوخ (السواعد) أكثر كرمًا من غالبية شيوخ (البو محمد). ومع ذلك، فحين انتقدت، فى أحد مضاييف عشيرة أخرى، نقص حسن الوفادة والضيافة لأحد شيوخ (البو محمد)، عُنفت بقسوة فيما بعد:

(١) أبو تريكات: محمد بن موسى الساعدى أخو سعدة بنت موسى إحدى زوجات محمد بن عربى. كان يعلق الفوانيس على أطراف أعمدة من الخشب يصل ارتفاعها إلى عشرة أمتار على مضيفه ليهدى عابرو السبيل. ومن الجدير بالذكر أن أحد أحفاده لازال يحتفظ بهذه التريكات وأبعمدها إلى اليوم. طال عمر هذا الرجل المضيايف حتى ناهز ١٠٠ سنة، له ولد واحد واسمه جاسم. والحفيد الوحيد الباقي له هو جلوب بن جاسم يسكن منطقة الشعلة وقد كان تعليقه للتريكات على مدار أيام الأسبوع وليس يوم الجمعة فقط كما سيذكر المؤلف علماً أن بناء المضيف قد استبدل بالطابوق حالياً!

"قل ما تشاء عن شيوينا أمانا، فنحن نقول ذلك أيضاً، فأغلبهم بخلاء، في النزول إلى شاطئ النهر لغسل أيدينا بعد الانتهاء. لقد تبنى رفاقي الأربعة عادة بدوية، مجهولة هنا بين (السواعد) هي النهوض معاً حين خمستنا قد انتهينا، وحين يُسألون يقولون: "هذه عادتنا".

غالباً ما نتحدى الشيوخ وأتباعهم، بعد وجبات الطعام، بمنافستهم بإطلاق النار مستخدمين بندقيتي أو مسدسي، وقد أمسكنا البندقية بيد واحدة. أصبح (عمارة) رامياً ماهراً بشكل رائع، و(حسن) و(ياسين) أصبحا أفضل من غيرهما بكثير، ولكن لا تدريب على يد أمهر الرماة يمكن أن يحسن أداء (سبيتي) الباعث على الأسى! كانوا يضايقونه بالقول:

"صوبْ بندقيتك على المضيف هنا، فربما أصبت هدفك عن طريق الخطأ!".

هم أنفسهم من السهل استئثارهم، لكن (سبيتي) لا يقيم وزناً لسخرياتهم، فـ (ياسين) مشاكس محب للخصام و(عمارة) نكد منقلب المزاج، لكن (سبيتي) ألطف أفراد مجموعتي وأكثرهم مراعاة لمشاعر الآخرين. كان ذكياً ومتازاً ودمت الخلق ونحن جميعاً ندين له بالكثير. أخرج عن طورى مع الآخرين مع رفاقي أحياناً، لكن من النادر حدوث هذا مع (سبيتي)، وإن حصل، أشعر بالخجل دائماً.

عدنا إلى الشرق، بعد مغادرتنا لشيوخ (السواعد) متأسفين لذلك، باتجاه تخوم إيران مسيرين طرادتنا خلال مياه ضحلة بين البردى الذى ينمو بين جزر القصب وحافة الصحراء. يجلس (ياسين) فى المؤخرة، كما هى العادة مع (عمارة) الذى يجلس أمامه، ويحتل (حسن) المقدمة ومن خلفه (سبيتي).

وجدنا أنفسنا على مشارف قرية (السواعد) كانت بصدد الارتحال إلى موقع آخر. كانت المشاحيف الكبيرة المحملة بالبيوت المفككة وبمقتنيات أخرى. فى أصغر هذه المشاحيف، كانت مجموعة من الفتيان، الكثير منهم عراة، يصيحون بنبرات صوتية

خاصة لَحْث الجاموس السابح على المسير. هؤلاء (السواعد) ليسوا مزارعين، بل يعيشون في الأهوار مع قطعانهم. كانت كوفياتهم حمراء اللون ولا يشبهون (الفرجات) الرَّحَل في ذلك. امتدت خلفنا مشاحيف إثر أخرى تلوح من بين القصب. ذكر رجل أن ارتفاع الماء، لاسيما هذه السنة، مرتفع بشكل لا عهد لهم به، الأمر الذي أبعدهم، بشكل سابق لأوانه المعتاد، عن موقعهم الذي يشتهون فيه إلى عمق الأهوار. ثم قال: "ابقوا معنا هذه الليلة يا (صاحب)، فنحن على وشك نصب قريتنا على تلك الأرض اليابسة هناك".

أقيم أول بيت بأقل من ساعة بعد توقفنا. وضعت حزم القصب بشكل تسوازي كل حزمة نظيرتها على شكل صفيْن<sup>(١)</sup>، تميل كل حزمة إلى الخارج. تسلق رجل بعدها على ما يشبه السلم<sup>(٢)</sup> وربط الحزم مع بعضها، بمساعدة الآخرين الذين دفعوها لتكون بمثابة يده<sup>(٣)</sup>. هذه العملية سهلة مادامت حزم (الشباب) قد أستخدمت من قبل. عندما استقرت (الشباب) في أماكنها، ثبت (السواعد) الأضلاع الأفقية<sup>(٤)</sup>. رموا (البواري) فوق الهيكل وربطوها في أماكنها المخصصة لها. يكون سمك السقف أحياناً (باريه) واحدة. كانت الأربطة كلها من القصب<sup>(٥)</sup>. وبينما كنت أتجول في الأرجاء القريبة مراقباً بناء البيوت وتفريغ حمولات المشاحيف، دعاني معلّمى الجديد إلى بيته الذي رأيته وقد اكتمل تأنيثه واكتمل الشاي، في حين كان أرز الغداء على الموقد. كان أصغر أبنائه، بعمر التاسعة، عارياً تماماً إلا من عقد كبير في رقبته تدلّى منه حجر أزرق<sup>(٦)</sup>.

(١) يسمّون عملية غرس الحزم في الأرض أمام بعضهما في صفين: (ثمّعة).

(٢) تربط ثلاث حزم من القصب على نفس الشاكلة التي نرى فيها ربط الأعمدة الثلاثة الخاصة بإتزال محركات السيارات، يسمّون هذا السلم (طَزَل).

(٣) يسمون هذه العملية (حَق).

(٤) الأضلاع الأفقية يسمونها (هَطَر) مفردتها (هَطَار).

(٥) الأربطة من القصب الأخضر، يُسحق ويُقتل، يسمونها (بنود)، مفردتها (بَنَد).

(٦) يسمون هذا الحجر (خَضْرَمَه)، يعتقدون أن لها قدرة على صد عين الحاسد.

یجمع هؤلاء (السواعد) الرجل البردی والکولان ونباتات عشبية أخرى، والتي تغطي معظم الهور المؤقت، كعلف لجواميسهم. بينما كنا نراقب الجاموس وهو يأكل هذه النباتات، بین (یاسین) أن جواميسه فی (بومغیرفات) لا يمكن أن تتناول هذه الأعشاب. أراد الكثير من (السواعد) أدوية لذا أقمنا يوماً آخر، ثم زرنا قرى لهم أخرى تبعد أولاً بضعة أميال فی داخل القصب، وكانوا أقل المعدان تكلفاً، لا يعكر صحتهم سوى مذاق مائهم المالح قليلاً على طول هذه الحافة الصحراوية. يجمع (السواعد) فی البر الملح بعد تبخر الماء فی الحفر الضحلة. وأخيراً وصلنا الحدود الإيرانية التي كانت أبعد نقطة نصلها فی الأهوار الشرقية، وبعد أن قضينا ليلتنا فی مخفر صغير للشرطة، بدأنا مسيرة العودة إلى الأهوار الوسطی.



## الفصل العشرون

### عائلة عمارة

يا صُحَّين يم ينعتك العرفون و(الجلابة)؟ سمعوك تغنى حشرجة الشاطئ تقلدها وتنهد من عصف الريح، قالوا: مَيَّت الحدقتين.. ابن الماء هذا، لِمَ يغنى؟

فاضت (أويسيج)، وحين عدنا إليها كان (الفريجات) قد ارتحلوا عنها. تذكرت الكم الكبير من الطيور في شهور الشتاء حين كنّا نقحم الطراوة لولوح أرجاء معتمة من نباتات عشبية مختلفة، لم يبق فيها غير طيور عرضية رمادية المؤخرة لتفقس. على طول الفرات، كان النماء الجديد للقصب في جزره، قد ارتفع بين القصب الجاف، في حين غطى نبات **Water - crow foot** المعطر المياه المكشوفة كأنه ندف الثلج.

في (العزير)، تركنا طرادتنا واكترينا سيارة لتقلنا إلى البصرة التي أزورها، على العموم، كل شهرين لكي اجمع بریدی وللاستحمام ولشراء المزيد من الأدوية. إن قضاء أيام في مبنى مريح هو تغيير مرضٍ لاسيما أن أصدقائي في القنصلية أناس طيبون معي ومع رفاقي. قال (عماره) حين عدنا مرة أخرى إلى طرادتنا

"ما دام (فالخ) قد مات فيجب أن تبقى معي بدلاً منه، نحن لا نكسب الكثير كما تعلم، ولكن ما لدينا هو لك، سوف نترك (ياسين) و(حسن) مع عائلتهما وسنرسل بطلبهما حين نكون جاهزين لمعاودة رحلاتنا".

بعد أربعة أيام دخلنا في قناة تقود إلى (رُفَيْعَة)، قرية (عماره). كان التيار يسير بقوة، وكان الرجال، خلف الصفتين، يسوون الأرض الغائرة العمق في الهور ويغمرون مساحات

شاسعة منها لزراعتها وهم مغمورون بمياه تراوحت أعماقها ما بين الركبة والحوض. خاض شاب طويل، وقد علق (دشداشته) في عنقه، باتجاهنا وحيانا. قال (عمارہ):  
 "هذا (رشك) <sup>(١)</sup>، أخي، عمل في العام الماضي مساعداً للآخرين في أراضيهم، أما هذه السنة فلديه أرض خاصة به".

غسل الشاب الطين عن قدميه وركبتيه، نزل في الطرادة بجانب (عمارہ) وقبله ثم التقط (المردى). على الرغم مما في وجهه من حلاوة معبرة عن الحيوية، وفي الواقع عن الصفاقة، غير انه يفتقر إلى سيماء التهذيب الذي يميز أخاه. كان أصغر من (عمارہ) بسنة، وبنفس طوله تقريباً ونحلاً. من الممكن أن يكون قوياً حين يمتلي. اجتزنا البيوت الأولى وبدأ الأطفال ملاحظتهم لنا راكضين على طول الضفتين حتى شعرت كأني عازف على مزمار القرية! وبعد مدة توقفنا بينما كان حشد كبير، اجتمع لمساعدتنا على الترحل، ينتظرونا. قال (عمارہ) لأحدهم:

"(حسن) <sup>(٢)</sup>، اذهب وأخبر أبي أن (صاحب) هنا، وهو ضيفنا".

ثم قال لـ (رشك):

"تأكد أن (الفروخ) قد أنزلوا كل شيء من الطرادة، ولا تنس (المردى)".

كان (ياسين) و(حسن) قد بقيا لأيام معدودة في (بومغيرات). مشينا باتجاه البيت (عمارہ) الواقع في طرف القرية برفقة (سبيق) وشاب آخر جاء معنا. خلف القرية، تمتد حقول الشعير المحصودة، وفي البعيد كتلة معتمة من أشجار النخيل. كان (نكب)، أبو (عمارہ)، رجلاً مسناً بوجه غضنته السنون بعينين وديعتين هادئتين، لبس (دشداشته) بيضاء نقية وكوفية. استقبلنا بلطف واضح. حمل نفسه على الوقوف بحركة

(١) رشك بن نكب عمل شرطياً بعد أن ارتحل وأهله إلى بغداد. الآن متقاعد ويسكن مدينة الشطة في بغداد.

(٢) حسن بن نكب، تطوع في صفوف القوات المسلحة ... وتقاعد منها برتبة نائب ضابط يسكن مدينة الشعلة في بغداد.

بطيئة، وفي الواقع، بشكل متصلب، حين أدخلنا إلى بيته الصغير الواطئ السقف، ذى (الشباب) الخمسة قليلة القصب. فرش بساطاً ممزقاً على (بارية) بالية مع محددتين. حتى امرأة حيوية في أواسط عمرها، ذات وجه عطوف باش<sup>(١)</sup>:

"أهلاً وسهلاً (صاحب). أهلاً بك في بيتك، ألسنت أبو (عمار)؟ الله يحفظك".

وقف خلفها طفل وولدان وفتاة بعمر الخامسة عشرة كانت تحبى نصف وجهها. أرسل (عمار) (رشك) للعثور على إناء شاي، و(سبيق) إلى دكان والده ليشتري شايًا وسكرًا، حاول بعدها القبض على ديك بمساعدة إخوته الصغار وجمع من أطفال القرية. بعد أن هرب الديك من البيت، قاد هذا الجمع في رحلة حول القرية بمطاردة عاصفة، وقع أخيراً في زواية وذبح للغداء. قدم (عمار) أيضاً سمكة ليست طازجة<sup>(٢)</sup>، التي لا يكثر الناس في هذه الأرجاء من انبعاث رائحة غير مستساغة منها. خبزت أم (عمار)، واسمها (ناكه)، خبزاً في تنور طيني دائري لكي نأكله مع السمك، قاذفة أقراص الرطب على جدران التنور من الداخل. يمكن رؤية هذه التناير أمام كل بيت في قرى البر. تحبز النساء خبزهن في الأهوار على نار يعلوها طبق دائري خزفي<sup>(٣)</sup>. وصل (جليب)<sup>(٤)</sup> الأخ الآخر لـ (عمار)، عائداً من الأهوار. كان صبيّاً متواصلاً الصمت. تحمّل مسؤولية الجاموس في أثناء غياب (عمار) معي، وعلى الرغم من أنه في الثانية عشرة،

(١) أم عمار: ناكه بنت محسن بن نادم الفريجي.. توفيت في مدينة الشعلة ببغداد في عام ١٩٩١م.

(٢) يفضل بعض الناس في عموم جنوب العراق السمك العتيق ويسمونه (غاب) ومفرده (غابة). فيعد أن يصطادوا السمكة تُشقى وتُخرج أحشائها، تُملح وتُعلق تحت الشمس في الهواء الطلق، وهو إجراء الغرض منه المحافظة على السمك قابلاً للأكل نظراً لانعدام وسائل الحفظ.

(٣) الحقيقة أنه ليس خزفياً، بل طيناً عادياً يتم تجفيفه تحت الشمس يسمنونه (طابك) ولا يستخدم مع دقيق الحنطة بل مع دقيق الأرز فقط.

(٤) جليب بن ثكب، يسكن مدينة الشعلة ببغداد حالياً. وقد أصبح اسمه جلوب، فقد صحح عمارة بن ثكب لي الاسم حين نطقه أمامه.



إلا أنه يعمل من الفجر حتى الغسق في قطع وجلب الحشيش. ساعده (رشك) في نقل الحشيش من المشحوف إلى البيت. تُربط الجواميس عند المساء إلى أوتاد أمام البيت، فلا يمكن تركها سائبة في الليل لئلا تقيم في حقول الحبوب. يشتمل القطيع على فحل هائج، وثلاث جاموسات صغيرات السن، وجاموسة كبيرة مع وليدها. يحب (جليب) الجاموسات كحب (عمار) لها. قال لي بعد أن حلب إحداهن، وهو يرتب على قفا أخرى:

"انظر إلى هذه، إنها جميلة حقاً وحامل، لقد اشتريتها بالمال الذي أعطيتني السنة الماضية، قريباً إن شاء الله سنمتلك قطيعاً رائعاً".

(رشك)، من ناحية أخرى، مستمتع فقط في حقل الأرز ومتذمر دائماً من مضي الوقت مع الحيوانات. لديه فطنه، وقليل احترام لأهله الأكبر منه. وهو مستحث ومتأثر بأقرانه، الأمر الذي قد يؤهله أن يكون طائشاً لا مسؤولاً. لكنه في الحقول يؤدي مهمة الرجل باستغراق متحمس، وبحلول المساء يجلس إزاء الجدار مكتئباً قانعاً وهادئ البال. في الوقت الذي كان يجبرنا عن إنجاز في حقل الأرز، كان يحرك أصابعه كأنه لا يزال يهسي التربة. في سنين قادمة ستُغطى ساقاه بـ (الشراع)، وهو حكة تتفشى خلال الصيف في الماء حول القرى والحقول، فضلاً عن أضحل الأهوار تكثر الخنازير. لا مندوحة لمزراعي الأرز من الإصابة بها ويعانون منها بحك أرجلهم إلى حد سلخها. يدوم قيجها عادة مدة أربعاً وعشرين ساعة، وأنا على دراية بالآثار التي تتركها كأفها الجنون لأني غالباً ما أصاب بها في أثناء صيدى للخنازير.

إن الشهور العربية شهور قمرية وتأتي مبكرة عن السنة السابقة. ويعتمد الفلاحون هنا، كفلاحى حضر موت، في تعيين مواسم زراعتهم على ظهور وأفول نجوم معينة كالشريا والشعرى على سبيل المثال. وفي بداية كل موسم جديد، تُفصل الأرض على ضفتي (رفيعة) كلتاها بأوتاد قصية على شكل قطع أراض باتساعات متساوية وتجري عليها القرعة. وعلى العموم، يجد الفلاح نفسه مع عدة قطع من هذه الأراضى

في مناطق مختلفة فليجأ إلى دمجها من خلال المشاركة مع فلاحين آخرين أو يفلح حصته بنفسه في نيسان (أبريل) ويبدرون الشلب في أواسط مايو فوق الماء الساكن. إذا استمر الماء عالياً بعد هذا الموعد، عندئذ تنمو الأعشاب الضارة في هذه الأرض وتوقف نمو البذور<sup>(١)</sup>.

يعمد الفلاحون إلى غمر بذور الشلب قبل نثرها مدة خمسة أيام ثم يطرحونها على (بارية) تحت الشمس لمدة يومين آخرين إلى أن تبدأ بالتبرعم. إنهم يميزون بين طريقة (النثار) التي تعنى نثر البذور ثم تخفيفها، وبين طريقة (الشتال) التي تعنى زرع البذور ثم يعيدون زراعتها في (مروز) بعد أربعين يوماً. لا يستخدم المعدان غير طريقة (الشتال) في الأهوار، بينما يزرع (آل أزيج) أراضيهم البعيدة عن الأهوار بطريقة (الشتال)، ما عدا القليل منها بطريقة (النثار). يستخدم الفلاحون هنا في (رفيعة) الطريقتين معاً. يزرع (رشك)، الذي لا يساعده أحد، أربعة أحاس أرضه (نثار) وتتطلب منه جهداً اقل لكنها تعطي نصف الحاصل فيما لو زرعت (شتال). يُحصَد الحاصل المزروع (نثار) في أواسط تشرين الثاني (نوفمبر)، أما (الشتال) ففي الشهر التالي (ديسمبر).

زرع (رشك) في عام ١٩٥٦، التي من المفترض أن تكون سنة خير، أربع (كبايل)<sup>(٢)</sup> (نثار)، وواحدة (شتال)، و(الكبالة) تقابل (٦٢، ٠) من الاكر، وهذا يدر عليه حوالي ٣٥٠٠ كغم من الأرز. يعطى لـ (مجيد) ربع حاصله، ويحفظ بما يكفى لإطعام عائلته للسنة القادمة، ويبيع الباقي بحوالي ثلاثين ديناراً. تُجمع حصة (مجيد) نقداً، وتُجنى من القرية ككل. يأخذ (مجيد) أحياناً ثلث الحاصل المحصود، وأكثر من الربع المعتاد في حالة الحاصل المخمن، ويحدد الطريقة حال معرفته بمستوى ارتفاع الماء لتلك السنة. قيل لى أن حكمه دقيق بشكل عام.

(١) أبرز الأعشاب الضارة التي تنمو مع الرز: هي جَرْنَت. وذنان، ودهنان.

(٢) كبايل: هكذا وردت في النص qabalas جمع كبالة، قطع أراض زراعية باتساعات متساوية.

يرحب الفلاحون بزيادة مناسيب المياه كـ (آل أزيروج)، الذين يزرعون الشلب في أرض تُروى من النهر، لكنها تنزل نقمة على المعدان الذين تبقى أراضيهم، المزروعة شلباً، تحت الماء. وبشكل معكوس، فإن انخفاض مناسيب المياه يمكن المعدان من زراعة أراض بشكل واسع، في حين يُعد كارثة بالنسبة لغيرهم. في عام ١٩٥١م، عام انخفاض المياه بشكل استثنائي، زرع المعدان من (الصيكل) و(العكر) والقرى الكبيرة في الأهوار في صدور (العدل)، مساحات أوسع من المعتاد، ولكن لسوء الحظ، هطلت أمطار غزيرة في الخريف رفعت مناسيب المياه وأغرقت غالبية الحاصل قبل تمكثهم من حصاده. تزرع العشائر في لواء العمارة الأرز، فقط في الأراضي التي تُغمر بالغرين، في حين يلجأ الفلاحون إلى حرثة الأرض في أراضي الفرات أدنى سوق الشيوخ. يقومون هنا أحياناً بزراعة الشلب تحت النخيل، في الأراضي نفسها التي حصدوا حنطتها أو شعرها توأ.

جرح (حسن)، الطفل ذو السبع سنوات وأحد إخوة (عمارة) الأربعة يده في الليلة الأولى وجاعنى لأضمدها. حتى ذلك الوقت كان يبقى صامتاً في النهاية البعيدة للغرفة ولا أكاد أشعر بوجوده، على العكس من أخيه (راضى) <sup>(١)</sup> الذي جلس بجانبى يتحدث بغير ما كلفة. لقد أدهشنى وضوح فقر الدم الصريح عليه والذي قالت أمه بشأنه إنه دائماً ما يكون مرهقاً وبلا حيوية. كان لون الدم النازف من الجرح كلون الماء العكر ولا يكاد يتميز فوق الجلد الذي لوحته الشمس. أعطيت للأم قنينة من حبوب الحديد لعلاج (حسن)، وبعد مرور شهر تعرفت عليه بصعوبة، فقد كان مرحاً، طفلاً دافقاً بالحلب وشغفت به جداً.

كل طموح (ثكب) هو أداء الزيارة إلى مشهد. لقد قضى وقتاً طويلاً في الدعاء والتأمل، مقتنعاً بترك شؤون العائلة بعهدة (عماره) الذي غالباً ما يسأل أمه النصيحة.

(١) راضى بت ثكب، يسكن مدينة الشعلى حالياً.

استشاري (عماره) في العام التالي بشأن ذهاب (حسن) للمدرسة: "يجب أن يكون أحد أفراد عائلتنا قادراً على القراءة والكتابة".

اتفقت معه على الرغم من شكى الكبير. وفي الصباح التالي أرسلناه إلى المدرسة التي عقد العزم للذهاب إليها اثنا عشر طفلاً آخر من القرية التي تبعد نحو الميدين عن المجري الرئيس لـ (الوادية)<sup>(١)</sup>. ثمة مدرسة أخرى في (العدل) بعد قرية (مجيد)<sup>(٢)</sup>، لكن لا اثر للمدرسة في الأهوار. كان (حسن) سعيداً بوجوده هناك وبكر في الذهاب صباحاً برفقة أطفال آخرين. وفي المساء عرض على إنجازاته بفخر. وبعدها، حين كنت في البصرة، اشتريت له حقيبة مدرسية وكراريس، وأقلاماً ملونة، وأقلام حبر، ودواة، ومسطرة وأدوات هندسية. كان مبتهجاً وأكّد لي ألا أحد من الآخرين يملك ما لديه. وعلى الرغم من ذلك شعرت بالقلق حول النتائج لأنه سوف يمضي يومه، في السنوات الخمس أو الست القادمة، جالساً على رحلة داخل مبنى، وفي منتصف النهار يُعطى وجبة خاصة كما تصفها اليونسكو UNESCO. حياة مسترخية بالمقارنة مع حياة (جليب) بين جزر القصب أو مع حياة (رشك) في حقول الشلب. ليت جزر القصب أو لحقول الشلب حصة في حياته إذا بقي في (رفيعة) بعد التخرج من المدرسة. أتمنى فقط ألا ينجرّف آخر الأمر ليصبح إنساناً هامشياً في إحدى المدن، وهو قدر الكثيرين ممن نالوا قدراً مشابهاً من التعليم في كل مكان من الشرق الأوسط.

القليل من الشباب ممن سبق لهم الذهاب إلى المدرسة اقتنعوا بالبقاء في قراهم، فهم يتأثرون على مدى سنوات الدراسة بمعلميهم الذين يكرهون الحياة الريفية ويشجعون طلبتهم على التفكير أن الوجود المحترم الوحيد هو في المدن:

(١) المدرسة التي تبعد ميلين عن المجري الرئيس للوادية هي مدرسة أبو صبور الابتدائية.

(٢) المدرسة التي تلي قرية مجيد: هي المدرسة المجيدية وسميت على اسم مجيد الخليفة.

"خذنی معک (صاحب) إلى البصرة وجدّ لی عملاً جيداً هناك".

هذا ما یناشدنی به الشباب:

"أنا أكره الحياة هنا حيث نعيش كما تعيش الحيوانات، إنما حياة ملائمة لوالدی ولإخواتی، أما أنا فمتعلم".

أما إذا بقوا فی بیئهم، فمثل هؤلاء الشباب سیصبحون حالاً ساخطين شاعرين بالمرارة. إن اعتقادهم بأن تعلیمهم الهزیل سیتکفل بتحقیق کل ما حلموا به اعتقاد جدير بالشفقة، فهم لا يستطيعون إدراك أن هناك مئات الآلاف من الرافقین الآخرين لديهم المؤهلات نفسها. إنهم فی الحقيقة، إذا ما غادروا بیئهم، سیتتهون کبائی صحف أو الكوكاكولا فی البصرة أو بغداد أو السرقة من السیارات أو یسمسرون لسانفی سیارات الأجرة لیبقوا على حیاتهم.

جميع الآباء تقریباً قلقون بشأن إرسال أولادهم إلى المدرسة، واذکر رجلاً عجوزاً من قرية علی (العدل) قال لی:

"إن لولدی عمل حکومی جيد فی البصرة. نحن فقراء كما ترى. لقد أنفقت علیه الكثير من المال لمواصلة دراسته فی العمارة مدة عشر سنوات. اعتقدت فیما بعد أنه سوف یعتنی بنا. كنّا سعداء به حین كان طفلاً، فقد كان طفلاً الوحید، إنه الآن لا یقترب منا مطلقاً ولا یساعدنا. التعلیم شیء سئ (صاحب)، انه یأخذ منا أولادنا".

وهناك امرأة متقدمة فی العمر من (الکباب)، كان زوجها قد طلقها وارتحل لیعمل حارساً لیلیاً فی العمارة، لیس لهذه المرأة مثل تلك الشکوى، فولدها یزورها من العمارة حيث یدرس هناك. انه یلبس سترة وبنطلونا بثقب کبیر عند مقعده، یضمخ شعره بمستحضرات التلمیع ویفرقه بتسريحة أوربیه. وبعد أن یغادر بعد یومی الزیارة، تذهب أمه بنوبة فخر طائفة حول جیراتها مصرّحة:

"إن ابني متمدّن، فهو يأكل بالملعقة ويبول واقفاً"<sup>(١)</sup>.

يبول سكان الأرياف دائماً من وضع القرفصاء



في واحدة من زياراتنا الكثيرة لـ (الكباب) دعانا (داخل) لحفلة عرسه. اعتقدت السنة الماضية، حين أرسلته إلى البصرة، انه يتحضر، وما دام قد شفى فأنا أسرع إليه في عدة مناسبات بين (الفرطوس) في (العكر) وحديثاً في (الكباب) وقد شغفت بهذا الهزلي المناكد، هذا الشاب المضحك خفيف الدم. لقد شعرت بمسؤولية نحوه فساعدته مادياً، والآن دفعت معظم الخمسة وسبعين ديناراً، مهر زوجته. إنه بصدد زواج أخت صديقه (وادی) الفتاة التي أحبها دائماً.

وصلنا إلى (الكباب) عند ظهر اليوم الذي يسبق العرس وكنا سعداء بوصولنا بسبب الحر الخانق في الممرات بين جزر القصب المكدومة الحياة. فحتى عند الجلوس بسكون، يتصبّب العرق على جسدي في حين يبدو رفاقي كما لو أنهم يستحمون بـ (دشاديشهم). كان الماء الذي نغترف منه للشرب فاتراً وكانت العناكب الصغيرة تنساقط في الطرادة بأعداد لا حصر لها ويحتشد البعوض حولنا والذباب، على الرغم من انه مسالم ظاهرياً كذباب البيوت، غير أنه يعضنا بوحشية من وراء (دشاديشنا). كانت القرية، وهي ترقد خاملة كأنها مهجورة، تتميز غيظاً تحت شمس الصيف. كان (صدّام) في زيارة لـ (مجيد)، لذا أقمنا عند أحد وجهاء (الفريجات) وهو صديق لي وابن عم لـ (مجيد)، لذا أقمنا عند أحد وجهاء (الفريجات) وهو صديق لي وابن عم لـ (حسن). يسكن (داخل) في البيت المجاور مع عائلة من (الفرطوس)، كان مشغولاً

(١) المرأة هي غنيدة بنت مزبان بن محمد الفريجي، أما ولدها فهو سيد علي بن سيد جاسم من بيت سيّد همدان، متوفى كلاهما. ومن الجدير بالذكر أنّها إنّما تقول ذلك بين أهل السلف من باب السخرية والاستهزاء لما آلت إليه الأمور وليس من قبيل الفخر كما فهم المؤلف. أكّد لي ذلك الذين يتذكرون هذا السيّد وأمه.

بتوسيع البيت من خلال إضافة (شبتين) آخرين له. وحين انتهى من عمله نصب ناموسية حراء ليقى مهجع عرسه من شرّ البعوض.

سمعنا غناءً وتطيلاً صباح اليوم التالي من الجانب البعيد للقرية حيث بدأ (وادي) احتفال عرس أخته<sup>(١)</sup>. وعند العصر، انطلق اصدقاء (داخل) لجلب العروس في طرادتنا. أخذ (عماره) بندقية وأخذ (حسن) مسدساً ليطلقوا النار بالمناسبة. ترقّب (داخل) كما هي العادة، عودتهم في بيته. ولأنه لا عائلة له، فقد سألني البقاء بجانبه، فجلسنا نستمع للأصوات البعيدة. توقف الغناء، ثم بدأ من جديد مما يعنى، كما قال لى، أنهم ترجّلوا وأن (وادي) الآن بصدد استضافتهم. بعد ساعة، كانت الشمس قد مالت واطئة، ذبّ الغناء عالياً تلاه إطلاق نار مبعر، قال (داخل):

"إنهم يضعونها الآن في الطرادة، سيأخذونها مباشرة في جولة حول القرية، وستوقفون عند بيوت مختلفة في طريقهم إلى هنا".

أخيراً، رأيناهم قادمين على مهل باتجاهنا. كانت الطرادة التي جلست فيها العروس، ملفعة بملابسها الجديدة، محاطة بالمشاحيف، وقف فيها الرجال بهزجون وهم يجدفون باتجاهنا. تكوّمت المخدات أمام العروس والحشايا واللحف وأثاث آخر كان (وادي) قد جهزها لتأخذها إلى بيتها الجديد. كان محوّلًا، بوصفه رئيس العائلة، في الإنفاق سواء كان قليلاً أم كثيراً من مهر العرس حسب مشيئته. أسعدنى ظهور سخائه لأنه كان فقيراً مدقّعاً.

ما أن رسوا وترجّلوا حتى أطلقت النار من بندقيتي. قفز (عماره) و(حسن) إلى الشاطئ. وبينما كانت العروس<sup>(٢)</sup> تقاد إلى بيتها، أطلق (حسن) كل مخزن العتاد

(١) بدت لى هذه المعلومة غريبة ومخيرة، فالذى أعرفه أن أهل العروس من الرجال لا يبدون معالم الفرح مطلقاً إلا إذا كانت ستزوج ابن عمهم، بل على العكس تماماً فهم قد يكونون مسرورين في قرارة نفوسهم، إلا أنهم يظهرون الاغتمام نوعاً.

(٢) العروس وهى واجدة بنت طعيمه بن مدلول الفريجي. انظر هامش ٥ من الفصل الرابع عشر.

المكون من ثلاث عشرة إطلاقاً من المسدس، وأطلق (عمار) من البندقية بكل ما يستطيع من سرعة. ترجل الجميع متزاحمين من مشحوف إلى آخر للوصول إلى الفسحة التي تتقدم البيت. ارتجل (عجزم) أبياتا ردها مرتين، ثم ردد الحشد (هوسته) <sup>(١)</sup> وهم يدكون الأرض بأقدامهم في دائرة حولنا، ملوحين ببنادقهم وبمجازيفهم وخناجرهم فوق رؤوسهم. أطلقنا النار في الهواء عند فواصل (الهوسات) لتشجيعهم، واستمروا (يهوسون) حتى مغيب الشمس حيث ذهبوا ليوهم ليتناولوا عشاءهم <sup>(٢)</sup>. تجمّعنا مرة أخرى بعد ذلك في بيت (داخل) حيث غنى (حلو) وآخرون، ورقص شباب غيرهم، ووزع (داخل) السجائر والشاي.

عند منتصف الليل تقريباً، اقترحت على (عمار) أن (داخل) سيكون سعيداً لو فُضّ هذا الجمع لكي يتسنى له الذهاب إلى عروسه، فأجابني:

"حسناً، سيذهب (داخل) عندما يكون مستعداً".

استعار (داخل)، فيما بعد، بندقية وخرطوشة واحدة واختفى. استمرت الحفلة. وفجأة، على غير توقع، أطلقت إطلاقاً من الجانب البعيد للغرفة، فابتسم الآخرون الذين كان من الواضح أنهم بانتظارها، ابتسامة عريضة. كانت إشارة إلى أن (داخل) قد أتمّ زواجه! عاود (داخل) الظهور مرة أخرى مباشرة بعد ذلك، أشعث، وممزق (الدشداشة) وفاقد لعقاله!! سأله (ياسين) إن كانت العروس قد (أثبتت أنها أقوى منه)، فأجاب بسخط هزلي:

"ألم تسمع الإطلاق؟"

(١) هوسة عجم كما تحتفظ بها ذاكرة خريط بن سفيح بن مكنزي هي (إحنا التبارك لابن التهمل صينته) ولا أظن أن عجم قال صدقاً!

(٢) معلومة أخرى محيرة أيضاً: فالقروض أن يتوكّل العريس أصدقاءه ومعارفه وجيرانه وهو أمر لا بد منه مهما كان معوزاً. ولو ثبت عجز العريس عن أداء هذه المهمة فعلاً فلا يتردد أحد أقاربه أو أصدقائه من التكفل بأمر العشاء للضيوف. أو على الأقل للمقربين جداً من خاصة العريس.



زرت (داخل) صباح اليوم التالي، فأخذني إلى داخل ناموسية عرسه حيث، حسب العرف العشائري، لابد أن تمتك العروس فيها مدة سبعة أيام. جلستُ بجانبها على كومة مخدات ولحف جلبتها معها. كانت تشبه أخاها في ملامحه، ذات وجه جميل، فتاة ممتلئة بعمر السادسة عشرة ولم تكن خجولة على الإطلاق. رشّت ملابسي بعطر قوى بشكل خاص من زجاجة وأطعمتني حلوى دبة<sup>(١)</sup> في حين كان (داخل) يُعدّ الشاي. ما أن انتهت أيام العسل السبعة حتى بنى (داخل) بيتاً صغيراً في القرية واستقر فيه. كانت زوجة صالحة بمزاجها الهادئ وبعملها الدؤوب الشاق وباقتصادها في الإنفاق. أنجبت بيتاً في السنة الأولى، ثم ولداً في السنة التالية. متى ما زرعهم، اعتاد (داخل) على تقديمهما لي بزهو عال، يعطيني أحدهما لحمله لكني لم أكن أهتم بصغار الأطفال. توقفتنا عند قرية كبيرة للمعدان قرب صدور (العدل) في طريق عودتنا إلى (رفيعة)، حيث ترك أب طفله قبل عدة أيام مع أمه العجوز العمياء وذهب إلى دكان العطار، وعندما عاد وجد أن ابنه قد سقط في الماء وغرق. ما زالت مراسيم الحداد (٢) قائمة في بيته، قريباً من المكان الذي أقمنا فيه. كانت المشاحيف تعبر مليئة بالرجال والنساء، وليس بكليهما معاً مطلقاً، في حين كان العويل يشبّ وينخفض. توقف شابان ليحدثانا، كنّا قد اصطدنا خنزيراً معاً في الماضي. جلسا يتحدثان بغير ما كلفة إلى أن قال أحدهما للآخر:

"هيا، الأفضل لنا أن نذهب إلى هناك".

(١) أغلب الظن أنها حلوى مصنوعة داخل البيت عمادها التمر مع بعض المطيبات كحبة حلوة والهيل والأرز المخص المطحون طحناً خفيفاً يسمونها (هيس) مفردتها (هيسه)، وإن لم تكن فهي على الأرجح أصابع العروس وهي قطع أسطوانية بطول حوالى ثلاثة بوصات تلون بألوان عدة يشترونها من العطار.

(٢) من الواضح أن الطفل صغير جداً وإلا ما كان ليغرق، فالسباحة من أولى المهارات التي يكتسبها المعدان. وعليه فمراسيم العزاء في هذه الحالة يسمونها استخلاف، والاستخلاف يختلف عن الفاتحة في عدم وجود السراق أو الصواييط وتبته في معالم الحزن من لطم وبكاء وتندر فيه وجبات الطعام. يقام الاستخلاف في حالة موت الصغار وأحياناً المتخلفين عقلياً أو حين موت شخص في مكان بعيد ويعجز أحد ذويهم عن الوصول إلى هناك حيث تقام الفاتحة فيعمد إلى إقامة الاستخلاف.

نُحْضاً وودعانا، وبلا سابق إنذار انفجرا بعويل عال مستمر. وفي مناسبة، بقيت مع (الفرطوس) حين أخذني (فالخ) و(داود) و(خيال) للصيد على مبعدة من قرية (جاسم الفارس). قابلنا مشحوقاً قادماً من (الكبيبة)، وسمعنا أن شاباً صغيراً، صديقاً لهم، قد مات هذا الصباح، فانخرط الثلاثة في بكاء هستيري إلى أن قال (فالخ) على نحو مفاجئ: "يكفى هذا".

فتوقف البكاء بشكل أبت، والتقطوا مجاذيفهم<sup>(١)</sup>.

نحن نعرف الأب المفجوع بابه، فذهبنا لتقديم التعازي تستمر (الفاخرة) ستة أو سبعة أيام، تتولّى القرية في أثنائها تقديم وجبات الغداء تبعاً متضمنة اللحم<sup>(٢)</sup>. يشرب أهل القرية القهوة في (الفاخرة) ولكنهم لا يشربون الشاي ولا يأخذون السجائر لأنهما مخصصان للضيوف. اقترح عليّ (عماره) أن أصبح الفاخرة، لكنني رفضت قائلاً له أن يتولاها عني، فغالباً ما يكون صعباً معرفة أى عبارة دينية يجب استخدامها من قبل غير المسلمين وأيها لا تستخدم. فالكثير منها هي كلمات متداولة في الأحاديث اليومية، على سبيل المثال: الحمد لله، وبسم الله، وفي أمان الله، وفوق الكل، إن شاء الله. فلا أحد يتكلم العربية بلا هذه التعابير. أما بقية العبارات الدينية فالأفضل تركها للمسلمين. فعلى سبيل المثال، بعد ذكر اسم النبي (ﷺ) يضيفون الكلمات: "عليه الصلاة والسلام"، فأشير إليه عادة بالقول، نبيكم. في الأيام العشرة الأولى من المحرم، حين يندب الشيعة مقتل الحسين

(١) يريد المؤلف من سرده هاتين الواقعتين الصغيرتين إيراد حقيقة مفادها الانتقال الوجداني المفاجئ الذي يتسم به سكة الأهوار وعموم سكة الجنوب العراقي. فلا يكفي صاحب العزاء أحياناً بالتعزية التقليدية التي يقدمها له بعضهم إن لم تكن مسبوقة ببكاء بصوت عال جداً عند باب المضيف أو السرايق الذي يقام فيه المأتم، دليلاً على الحميمة أو الرابطة النسبية.

(٢) لا تقتصر مساعدة القرية على تقديم وجبة الغذاء بل العشاء أيضاً، أما الإفطار فيتولاها صاحب المحنة. وهي من الطقوس التي توضح حقيقة المازرة، فالفاخرة لا تصيب البيت وحده بل يشترك (السلف) كله بتحمل تبعاتها، أما لأهل الميت فليس عليهم سوى البكاء واستقبال ضيوفهم المعزين.

بجدة انفعالية متحمسة، غالباً ما أجد نفسي في المضيق لغرض سماع (قراءة) بعد العشاء. أتصرف طبعاً مثل الآخرين، انفض حين ينهضون، التفت يمينا أو شمالاً كما يفعلون. كانت الغرفة، حيث ذهبنا إلى هناك، مزدهجة جداً. سلمنا على الأب، الرجل العجوز ذى الرجل الكسيحة نتيجة جرح إطلاقه نارية، فدعانا إلى الجلوس إلى جانبه حيث شربنا قهوة، وشايًا ودخنا سجائر. قبل اثني عشر عاماً، أحرز هذا الرجل سمعة طيبة في المعركة بين (محمّد) وأبي زوجته (حجي سلمان). لم أسمع مطلقاً عن السبب الحقيقي لهذه المعركة لكنني عرفت أن ابنة (حجي سلمان) كانت قد قُتلت حين كانت زوجة لـ (محمّد). قُتل (خريبط) وهو أكبر أبناء (محمّد)، بعد عدة سنين، وقد قيل إن لمقتله علاقة بنفس العداوة والثأر. قام رجال (محمّد)، في هذه المعركة بالمجوم عبر حقول الأرز المكشوفة واستولوا على قرية (حجي سلمان) وأحرقوها. قُتل وجرح مائة وأربعون رجلاً في يوم المعركة ذاك قبل أن يصل (سيد)<sup>(١)</sup> ويفرض هدنة. كان أبو الطفل<sup>(٢)</sup> قد عجز عن حمل راية العشيرة تحت جدران الحصن الذي عجزوا عن الاستيلاء عليه.

جلسنا بجانبه قرابة نصف ساعة، وخزت (عمارة) بعدها ليصبح بدوره (الفاتحة)، وغادرنا. من المعتاد المساهمة في النفقات لذا حين رأنا الأب عند الباب، أعطيته نصف دينار.



(١) هو السيد صروط — رحمة الله عليه.

(٢) لم يستطع الشيخ خلف بن محمّد الخليفة تذكر هذا الرجل رغم ترددي على مسامعه كل أوصافه التي ذكرها المؤلف. اكفى بالقول: لقد كانوا كثيرين.

## الفصل الحادى والعشرون

١٩٥٤... الفيزان

دافئ رحم الأرض، وشهوانى حد  
الثورة. فوح الماء يا هذا المتلصص خلف  
الضفة متنّ سدّ الفخذين ولا تسدل ستار  
التوقير فاللذة ماء... يتلوّه الماء

كان متجهماً بشكل استثنائى شتاء ١٩٥٣ م — ١٩٥٤ م. فعلى الرغم من أن الثلوج المتراكمة على جبال إيران وتركيا لم تذوب لحد الآن، كانت دجلة فى ما يشبه الطوفان نتيجة الأمطار الثقيلة التى هطلت فى الشتاء حين عدت إلى العراق فى أواسط شباط. قابلى (عماره) و(سبى) فى البصرة، وبعد أيام فيها اشترينا فى أثنائها أدوية، وعتاداً وملابس، عدنا إلى قريتهم. أقمنا ليلة واحدة فى الطريق مع (عبد الواحد) ابن فالخ، الشاب الفاتر الذى ظهر وكأنه لا يجد ما يقوله. انه مسلم قياده إلى أمه، المرأة الفضولية شديدة البخل<sup>(١)</sup>. فضّل أتباع (فالخ) القدامى الوقوف إلى جانب ولده (عبد الواحد)، لكن أمه تخلصت منهم لتوفر أجورهم. فقد غادر (دعير)، وقال لى (عبد الرضا) إنه أيضاً ينوى المغادرة. حضر القليل من الناس إلى المضيف فى تلك الأثناء وجلسنا أغلب الوقت فى صمت أخرق.

(١) جربة بنت حمود الخليفة زوجة فالخ بن محمد الخليفة وابنة عمه. توفيت فى بغداد فى مدينة الحريرة فى مطلع الثمانيات.

لقد تركنا طرادتنا هنا، فوجدناها وقد خُرقت. قلبناها رأساً على عقب وأحكمنا سدَّ الشقوق بتسخينها بمشعل قصي، لكن بها حاجة إلى إعادة طلاء بالقار، لذا قررنا التوغل في الأهوار باتجاه (الهوير) لكي ينجز (حجي حميد) هذه المهمة بنفسه. كان تيار الماء قوياً جداً، وقد وصل مستوى الماء في النهر إلى حافة ضفتيه مهدداً، في عدة مناطق، بكسرهما ليغمر حقول الخنطة والشعير التي تكون هنا، كما في أماكن أخرى، أدنى من النهر. اجتزنا عدة مجموعات من الرجال كانوا يمتنون الضفاف قبل أن نصل (رفيعة) حيث أقمت كالعتاد مع (عماره). لقد أعاد بناء البيت فأصبح رحباً الآن وأكثر تنظيمًا، ولاحظت وجود (مَدّة) جديدة وعدة مخدات. أثرت جهود (رشك) مع محصول الأرز، ووضعت الجواميس عجولاً، فهناك جاموستان غزيرتا الحليب الآن. أهيئني عودتي وبدا الجميع سعداء لرؤيتي. واكبنى كل الأطفال الصغار في القرية من مكان رسوّي إلى بيت (ثكب) حيث طالب الكبار (عماره) قائلين:

"اطرد هؤلاء (الفروخ) لنتمكن من رؤية صديقنا".

لكن القول أسهل من الفعل دائماً! صاح أحدهم، بعمر السابعة، بوقاحة:

"دعونا وشأننا، إنه ضيفنا وليس ضيفكم".

لم أرَ مطلقاً رجلاً يضرب طفلاً أو يقسو عليه، ولم أرَ أطفالاً يتقاتلون إلا ما ندر. إن (رشك) يستغيث الآن بالأطفال لكي يمسكوا بعض الدجاج، الأمر الذي يُعدّ إغراءً لا يقاوم، فاندفعوا في ملاحقة كاثم قطع جراء. إن مالكة هذا الدجاج هي (مطيّرة) <sup>(١)</sup> أخت (عماره)، وقد هلك القسم الأعظم منها بالذبح كلما قدمت لأقيم معهم. تبع من هذا الدجاج في بعض الأحيان للمشتريين الذين يأتون من المدن ليطوفوا حول القرى.

اشترت لـ (مطيّرة) ثوباً من قماش أخضر لَماع في أثناء وجودي في البصرة، اختاره (عماره)، لذا كان شعوري بالذنب، بسبب دجاجاتها أقل هذه المرة. كانت فتاة

(١) مطيره بنت ثكب وهي أكبر من عمارة بقليل، تسكن محافظة البصرة حالياً.

حیّة وصامته ونخيلة، وحلوة الشمائل بوجه عذب. سألت (عمارہ) ذات مرّة، ما الذى يمكن أن نفعله هو أو (ثكب) إذا طلب الشيخ يدها للزواج؟ فقال إنهم سوف يرفضون:

"إذا تزوجها الشيخ، سأصبح بلا حول ولا قوة لأحييها<sup>(١)</sup>".

يامكان الشيخ الزواج من أية امرأة تعجبه، لكن ابنته لا تتزوج إلا شيخاً، ونفس الشيء حصل مع (السادة)<sup>(٢)</sup>. يامكان المسلمين الزواج من أربع نساء، لكن في (رفيعة)، كان هناك ثلاثة رجال فقط محتفظين بزوجتين ولا أحد لديه أكثر. نفس الشيء في (الكباب)، فـ (صدّام) فقط، واثنان آخران لديهم زوجتان.

افترضت في البداية، أن نسبة كبيرة من الأطفال يموتون وهم رضع. وفي واحدة من قرى (الفرطوس) التي زرتها مبكراً، مات خمسة أطفال بالسعال الديكى خلال أسبوع. لكن عدد الوفيات من الأطفال، في الحقيقة، قليل نسبياً، فلدى (ثكب) تسعة أبناء كلهم أحياء عدا واحد، ولـ (سبيق) سبعة أخوة وأخوات، كلهم أحياء. اخترت عشر عائلات في (الكباب) عينة عشوائية، لها ثمانون طفلاً، مات منهم ثلاثة عشر دون سن الخامسة عشرة. كنت أتساءل كيف يمكن مقارنة ذلك مع بريطانيا الفكتورية؟

أقمنا في (رفيعة) ليوم آخر قبل التوجه إلى (بومغيفات). لقد أمطرت بغزارة خلال الليل، وفي الصباح، كانت السماء مظلمة بغيومها ومكفّهرة. هطل المطر مرّة أخرى ما أن وصلنا إلى مرأى بيت (حسن). نقعنا في الماء قبل التمكن من إنزال أشيائنا إلى داخل البيت الذى بنى بشكل جديد بتسقيف سميك بـ (البوارى). كان (حسن)

(١) إنه لشرف كبير جداً أن يتقدم أحد الشيوخ للزواج من ابنة أية عائلة ويُعدّ مدعاة للفخر بحق، أما كلام عمارة فربما كان ناتجاً عن تجربة شخصية لا يمكن عدّها معياراً يمكن تعميمه، أو رغبة منه في إعطاء الإجابة التي يمتناها المؤلف.

(٢) ثمة عائلات من السادة المعتدلين غير المتطرفين تزوّج بناتها لكل من يرتضون دينه وسمعته الطيبة من (العوام) وهي تسمية غير السادة مفردتها (عامى).

خارج البيت للصيد، لكن (عفرة)<sup>(١)</sup>، أمه، رحبت بنا وأوقدت ناراً لتجفيف ملابسنا. كانت امرأة ضخمة بعينين ذواتي خضرة شاحبة تباعدتا فيما بينهما في وجه مربع بعض الشيء. كانت امرأة ذات نفوذ في القرية، ناذرة نفسها لولدها، تنحدر من عائلة تعرف بيت (مكنزي Makenzie). حين سمعت الاسم لأول مرة، توقعت أني سأقابل فرعاً من جماعة اسكتلندية تلبس قمصانا من قماش صوفي مقلّم<sup>(٢)</sup>! ولكن في الحقيقة إن بيت (مكنزي) سلالة لا يرقى إليها الشك من (الفرجات). لقد سمى جد (عفره) ابنه (مكنزي) تيمناً وإطراءً لرجل اسكتلندي قابله وأعجب به في الحرب العالمية الأولى. جاء (حسن) وقد تقع بالماء تماماً وامتلاً مشحوفه الصغير بماء المطر، جالباً معه أربعة من طيور (البريش) اصطادها في رمية واحدة. قال إن هذه الطيور حذرة جداً، فاقترب منها عبر حمل كتلة صغيرة من القصب أمامه خائضاً في الماء حد الرقبة.

عاد (ياسين) بسرعة بعد ذلك من جزر القصب. كان كل من (ياسين) و(حسن) قلقين من إمكانية الذهاب معي مرة أخرى. بعد أن أصلحنا الطرادة في (الهوير) خططنا لعبور دجلة في القرنة والارتحال شمالاً خلال جزء من الأهوار الشرقية التي لم يرها أحد منا حتى الآن. نصحنى (صحين):

"لا تقترب من (زجرى) في مثل هذا الجو، اهبط حتى الفرات خلال قرى (البو بخيت) وانظر هناك إن كان بإمكانك الاستعانة بـ (طاهر بن عبيد)<sup>(٣)</sup> دليلاً لك. إنه يعيش على التهريب ويعرف كل مجرى مائي في الأهوار الشرقية. وقال (ياسين):

(١) عفرة بنت مهيوس بن محسن الفرجي، ولدت سنة ١٩١٠م اجتمعت لها عدة خصال منها الكرم والجمال واعتدال البنية ومناحتها، تحظى بإعجاب واحترام كل من رآها، لها نزعة قيادية مهيمنة. تعرف إليها الرحالة البريطاني الراحل غافن يونغ ونشر لها صورة جميلة في كتابه العودة إلى الأهوار بنسخه الانكليزية. توفيت سنة ١٩٨٨م.  
(٢) الزى الاسكتلندي الفلكلورى.  
(٣) طاهر بن عبيد البختاوى. قتل بـ (فالة) ابن أخيه زغير بن داغر بن عبيد سنة ١٩٥٥م تقريباً.

"نعم، لقد قابلته السنة الماضية في (العزير). إن رافقنا فيامكاننا الذهاب إلى أى مكان".

في اليوم التالى تناولنا غداءنا في (الدوب)، عند الرجل الذى آذى الكلب ابنه قبل ثلاث سنوات. رفض الأب وابنه سماع عذرنا في مغادرتهم عند العصر، فأمضينا الليل عندهم. قبل أيام، سرق اللصوص جواميس من القرية في أثناء الليل. أعطت الكلاب تنبيهاً، فطورد اللصوص وأطلقوا عدة إطلاقات جاءت إحداها في صدر طفل فقتلته<sup>(١)</sup> قبل أن يهربوا. كنت قد عرفت الطفل القتل فذهبت إلى (الفاخرة). تكلم (صحين) في (بومغريفات) عن الحادث، وأعرب عن شكوكه أن اللصوص من (الفريجات) من منطقة (اويسيج). سمعنا الآن أنهم (سواعد). لقد عرفوهم من لكتهم، فيامكان رجل الأهوار معرفة عشيرة الغريب من لكتته.

كان (طاهر) في البيت حين وصلنا في الليلة التالية. رجل قوى البنية في نحو الثلاثين من عمره، يمكن تمييزه من وجود ورم بحجم الجوزة فوق عينه اليمنى. وافق على المجيء معنا ما أن اقترحت عليه ذلك.

كان أكبر أبناء (طاهر) قد مات قريباً وله الآن طفلان صغيران فقط. ساعده ابن أخيه<sup>(٢)</sup>، الولد الوسيم ذو الاثنى عشر عاماً والذى يسكن في الجوار، في استضافتنا. كان أبوه، الأخ الأصغر لـ (طاهر) الذى يشبهه في هيأته، يعيش على التهريب أيضاً. تدهشنى دائماً سرعة انتشار خبر وصولى إلى قرية ما، فكان على البقاء مع (طاهر) يوماً آخر بسبب وصول المزيد من المرضى بشكل أكثر من الاعتيادى. كان البعض منهم قادمين من مناطق بعيدة، وكان أحدهم ولد سىء الحظ، اختبأ (ذكره) تحت كيس الصفن.

(١) سألت عن هذه الواقعة فلم يتذكرها أحد.

(٢) زغير بن داغر بن عبيد البختيارى، يسكن مدينة العمارة حالياً.



فی الطريق إلی (الهویر)، قال لنا (طاهر) إن مغامرته الأخيرة لم یُکتب لها النجاح، فقد أُلقي القبض علیه من قبل الشرطة الإيرانية التي صادرت سِکرةً وشایةً وحققت معه بشأن اختفاء شرطیین قبل شهور. بعد یومین من الضرب سمحوا له بالذهاب بعد أن حذروه أنه سَیقتل حال وقوعه بأيديهم مرةً أخرى. ابتسم (طاهر) وقال:

"كان بودی أن أریهم أين يمكن إيجاد شرطیئهم، كنت قد دفعتهما تحت جزيرة عائمة فی الهور. لقد فاجأنا بینما کنا نُهرَب جملاً من الحبوب وطرطانا فی الظلام. توقف اثنان منا فی الخلف، وکمنّا لهما. استلم کل واحد منا مائة دینار عن بندقیتهما. أما الآن فاعتدت أن أكون بعيداً عن ایران".

تقع (الهویر) على مسافة قصيرة من جدول شمالی الفرات، تتصب البيوت والعدد الوافر من المضایف تحت أشجار النخيل على جزيرة من أرض مرتفعة مطوقة بالهور. أقمنا مع (حجی حمید) نفسه فی مضيئه الصغير الجوار لورشته، رجل نشیط، متوسط العمر. أرسل الأطفال فی الحال للبدء فی تقشير الطرادة فی حین أخذنی فی جولة حول القرية. ظهر أن للجمیع علاقة مباشرة أو غیر مباشرة بصناعة المشاحيف. تكدست ألواح الخشب وجذوع الأشجار وأعمدة الخيزران فی الأفنية خلف الدكاكين التي یبيع التجار فیها الأدوات وعلب المسامير فضلاً عن الحاجيات الاعتيادية. تحت أشجار النخيل، كان الرجال يضعون اللمسات الأخيرة لسفينة كبيرة بساريتين قبل تسيرها وإنزالها إلی الماء على جذوع الأشجار. یعمل أغلب الحرفیین فی أفنیئهم الخاصة خلف أسجية قصية، یقشرون وיעیدون طلاء أبلام صغيرة ومشاحيف ویصلحون الهياكل المكسورة أو ینون مشاحيف جديدة. راقبنا رجلاً طاعناً فی السن كان فی بداية بناء المشحوف. وضع بداية للقرع من خلال شرائح خشبية مستعرضة طويلة بین کل شريحة وأخرى فاصلة بعرض بوصة أو نحوها، ثم سمر ألواحاً

طويلة منفردة أسفل مركز المشحوف. بينما كنا نشرب الشاي شكل الأضلاع، مختاراً لذلك قطعاً مناسبة من الخشب من كوم بجانبه. كانت كل آلاته، التي لم تتعد فأسا ومنشارا صغيرا ومثقبا مقوّساً، موضوعة على (باريه) بجانبه مع كمية كبيرة من المسامير. انساقت إلينا رائحة القار الدافئ من الفناء المجاور في الوقت الذي تأرجحت فيه أشعت الشمس من خلال سعف النخيل فوقنا، في حين جلس غرابان أبقعان هناك يراقبان كل حركة لنا.

قال (حجي حميد) أخيراً:

"الأفضل لنا أن نعود، سوف ينهون تقشير طرادتك، سأضع قاراً جديداً عليها بعد الغداء. ابق معنا هذه الليلة وستكون صلبة إلى حد بعيد في الصباح".

صنع لنا مجاذيف جديدة وطينا راحاتها<sup>(١)</sup> بالأحمر كي لا تُسرق بسهولة لأن الكل سعداء باقتناء مجاذيف (حجي حميد). أصبح لون مجاذيفنا الحمراء، من الآن فصاعداً، علامة مميزة لنا. تيقنت من روعتها وهي تنغمس في الماء معاً ونحن ننزلق مع التيار في صباح اليوم التالي عبر ضفاف محفوفة بأشجار النخيل. احتل (طاهر) مكان (حسن) في المقدمة واستبدل (حسن) (عماره) الذي جلس قبالي كأنه مسافر. اجتزنا اثنين أو ثلاثة من المراكب البخارية قبل أن نصل إلى القرنة. كان جسر العوامات<sup>(٢)</sup> على الفرات، حيث يتصل بدجلة، مفتوحاً وكان الماء في دجلة يجري سريعاً فرسونا عند مضيف في الجانب البعيد. اليوم هو الرابع من آذار (أبريل) واستمرت إقامتنا في الجهة الشرقية للنهر مدة خمسة أسابيع.

(١) المجذاف، يسمونه (القرافة)، أما الجزء العريض فيه فيسمونه (مشط).

(٢) جسر العوامات يسمونه (أبو الدوب) وهي جمع مفرد لها (دوبة)، عبارة عن هيكل معدني كبير مجوف ومغلق، تربط (الدوب) مع بعضها مستعرضة في النهر لتمر عليها السابلة والسيارات غير الثقيلة.

زرناء، في البداية، عشائر لم يسبق لى اللقاء بها من قبل مثل (الدخينات)<sup>(١)</sup> و(الهلجية)<sup>(٢)</sup>، واسم العشيرة الأخير اسم لأحد الطيور المائية المهمة<sup>(٣)</sup>. عدنا فيما بعد إلى أصدقاء قدامى من (اليو محمد) و(الفريجات) الرحل و(السواعد). كانت غالباً ما تظفر عند الليل مع عواصف رعدية مدوية لتجرف المياه باتجاه الأهوار. القليل من البيوت التي أقمتنا فيها كانت بسقوف ثنائية (البارية)، والكثير منها بـ (بارية) واحدة، فيضيف أصحاب البيوت أحياناً (بوارى) الأرض إلى السقف، لكن هذا الإجراء نادراً مع يمنع عنا الماء، لنجد أنفسنا نرقد على الأرض. نمنا بشكل أزواج لتتقاسم البطانيات بسبب برودة الجو الشديدة، وكان الماء يرتفع بمرور الوقت.

ذات عصر، كنّا نصطاد حين تكتلت غيوم سوداء بسرعة منذرة بعاصفة مروعة.

قال (ياسين) بقلق:

"يارب... آمل أن ليس فيها حالوب".

وردد الآخرون دعاءه. انقضت العاصفة قبل أن نصل إلى البيت وقد بذلنا جهداً وعناءً لكى نبقى على سطح الماء. يرعب الحالوب رفاقي، لهم الحق في ذلك، ففي السنة التالية قطعت عاصفة حالوب مساحات كبيرة من المزروعات عبر النصف الشمالى من الأهوار محطمة حتى القصب الكبير وقتلت عدداً لا حصر له من (نعيج المائى) والبط وطيور أخرى مبعثرة جثثها في كل مكان، وقتلت أيضاً عدداً من عجول الجاموس، وحاصرت رجلاً وابنه حتى الموت في (الديمه).

قال (عمارة):

(١) الدخينات: بذلت جهداً لغرض الحصول على تعريف لهذه العشيرة لكى عجزت.

(٢) الهلجية: من عشائر قبيلة السراى أحد أثلاث إمارة ربيعة، وجاء لقب العشيرة من حادثة مفادها أن جداهم الأقدم (درياش) قتل أحد أبناء عمومته فزح من وسط وسكن أهوار العمارة مع قبيلة السواعد، فقالوا عنه (هلك درياش) يلفظونها (هلج درياش)، فأصبح أبنائه، بعد أن تزوج وأنجب بمرور الوقت، (هلجية). ولا علاقة لهم باسم الطائر المعروف وهو ما يخطئ به المؤلف حين ينسبهم إلى طائر (الهلجى).

(٣) الطير هو (الهلجى) Cormorant.

"سوف نقتل الكثير من الخنازير مع ارتفاع الماء هذا".

وكان فعلاً ما قال، فقد قتلت مائتين وخمسة خنازير قبل أن نعبر دجلة مرة أخرى. إنه عمل مثير دائماً، وأحياناً ما يكون خطراً، لكني لا أصطادها لمجرد المتعة الرياضية، بل لأنها العدو الطبيعي لابن الأهوار، وتوجب على خياطة عدد كبير جداً ممن شقت الخنازير مواقع في أجسادهم. وهذا ما يجعلني في حل من وخز الضمير لقتلها، هذا على الرغم من مقتي لرؤية فنائها هنا كما فيت الأسود من قبل. إن أشكالها الداكنة بشدة وعملية تغذيتها عند حافات جزر القصب عند المساء، تعد بالنسبة لي جزءاً متمماً لمنظر الهور. ستفقد الحياة الكثير من إثارتها لولا المخاطرة بعزم في مواجهة الخنازير.

جراً الخنزير وشجاعته مدهشان. ففي ذات مرة، عند منطقة العمارة، أكد لي القرويون قدوم خنزير إلى القرية مع الجاموس ليقضى ليلته في بيوت خالية. لم أصدقهم حتى رأينا اثنين يسيان خلال المياه الضحلة باتجاه القرية عند الغروب. طاردناهما وقتلناهما، وحين عدنا إلى القرية في الظلام، قالت لنا إحدى العائلات، تجلس خارج بيوتها عند موقد، بشكل عرضي:

"يوجد المزيد من الخنازير هناك".

مشيرين إلى البيت المجاور الذي لا يبعد سوى أذرع قليلة. اعتقدت أنهم يمزحون، ومع ذلك رسونا على (دبن) وكدنا أن نصد بمخمسة خنازير وهي تهجم مندفعة بعنف نحو الماء.

انعطفنا بالطراوة إلى الشمال يقودنا (طاهر) إلى (اويسيج)، السلسلة الطويلة من الأرض ذات الارتفاع الطفيف التي تسير بموازاة دجلة. غمر معظمها بسبب طغيان الماء غير الاعتيادي وأوت إليها أعداد كبيرة من الخنازير راقدة فيها خلال النهار. إن رفاقي قادرون، وبسهولة، على جعل الطراوة تنزلق في الوحل بأى اتجاه في أثناء الاصطياد. قتلت عصر أحد الأيام عشرة خنازير كانت تسير بعيداً أمامي على شكل

رتل. كانت مهاراتي في الرماية جيدة بشكل استثنائي ذلك اليوم، فكنت أسقط الأخير في كل رمية بإطلاقة واحدة. وجدنا أربعة غيرها، وبعد أن قتلنا الأول، تجمع الثلاثة الآخرون حوله فيما كان يرفس بتشنج على الأرض، ولسبب غريب بقيت هناك حتى قتلها جميعاً.

أما الخنزيران الآخران اللذان رأيناها فكانا كبيرين جداً. وقفنا يراقبنا على بعد مائتي ذراع أماناً. أدار (طاهر) والآخرون المشحوف على جانبه وجلسوا خلفه. ومن موضع الجلوس في المشحوف، أطلقت النار وأصبت أكبرهما الذي استدار وعدا بسرعة نحو عشرين ذراعاً، ثم انحرف وجاء باتجاهنا مباشرة بصحبة الخنزير الآخر خلفه. أطلقت مرة أخرى وسمعت وقع الرصاصة تصفعه لكنه لم يتداع مطلقاً، فأطلقت مرة أخرى والخنزير يتقدم. لقد أصبح، في الحقيقة، قريباً جداً، وفي هذه المرة تهاوى. أربع إطلاقات.... بقيت لي واحدة، حررت مسمار البندقية، صوّيت لمواجهة الخنزير الآخر الذي كان سيوهن عزيمتي بقفتين أخريين. أطلقت آخر إطلاقاتي، فتردى ساقطاً بقوة فوق الطرادة تماماً. أعدت تعبئة البندقية، لم يتحرك أحد منهما. انخبت، تحسست الخنزير الأقرب في حين كان الآخر على مبعده قدم أو نحوه بعيداً عن متناولي. كنت من الانشغال بحيث أني لم أخف. لابد أن عبث المضاعف وفشلى الظاهري في الرماية قد أفزعا رفاقي الخمسة العزل، فقد كانت البندقية والمسدس في الطرادة بجانبى. التفت لأجدهم جائعين يخوف وخناجرهم بأيديهم. سألت:

"ماذا ستفعلون إن صعد إلى الطرادة؟"

فأجاب (عماره):

"سوف نقفز فوقه ونقتله بخناجرنا".

في اليوم التالي، طاردنا خنزيراً كبيراً آخر في مياه بعمق ثمان عشرة بوصة. لم يكن يبعد عنا أكثر من أربعين ذراعاً وكدنا نصله حين استدار مهاجماً بسرعة شديدة عبر سحابة من رذاذ. فشلت في إيقافه بسبب حركة الطرادة المستمرة التي أصبح الخنزير جنباً إلى

جنب معها قبل أن أطلق النار ثانية. استعار (طاهر) (فالة) هذا الصباح، يرفعها الآن مستقيمة بوجه الخنزير. لحتته، بطرف عيني، يغادر الطرادة رافعاً عصا (الفالة) من نهايتها. أطلقت النار مرة أخرى، وفي هذه المرة انهار الخنزير دافعاً الطرادة إلى الجانب. انتصب (طاهر) واقفاً وهو يغمغم ويقطر الوحل من رأسه إلى قدميه. سأله (ياسين) ببراءة: "لماذا قفزت من الطرادة؟ فوجودك فيها أكثر أمناً لك، ألم تر (صاحب)، وهو يستعد لإطلاق النار؟"

كان (طاهر) مغتماً. علق (عماره):

"قدم آخر وتُشطر طرادتنا شطرين كالمشحوف الذي رأيناه يوماً وقد هشمه خنزير".

هذا الخنزير من أكبر الخنازير التي قتلتها، له شعر يمكن صفه، بلون بني داكن. كان لون شعر البعض من الخنازير أسود، والبعض الآخر ضارب إلى الحمرة بينما القطيع الذي رأيناه ذات مرة كان باهتاً تماماً في لونه حتى ظننا للحظة أنها خراف. الكثير منها، على أية حال، لها شعر صلب خشن على جلودها العارية. تولد الخنازير بين آذار (أبريل) ومايو، وعادة ما يكون عددها خمسة، مخططة، وجذابة وضعيفة. لقد اكتشفت أنه من غير المجدي، على العموم، التقدم نحو الخنزير وجها لوجه، فللخنزير قوة إبصار جيدة، لكنها تبدو ثقيلة السمع عندما تنام. ذات مرة، كنت أطاردها من على صهوة جواد في أرض مشجرة، صرخ في بعض الخيالة من (بني لام) أن أذهب إلى حيث يشخر خنزير كبير في منطقة شائكة الأشجار ضمن حظيرة مجموعة خيول نافرة. يؤكد المعدان أن الخنزير يأكل الجيف. ففي (أويسيج) رأيت بأم عيني جثة خنزير قتلته قبل بضعة أيام وقد أفتست أجزاء منه، لكن من السهولة تفسير ذلك على أنه ألتهم من قبل الثعالب الكثيرة هناك. أخشى من أن الثعالب ربما غرقت كلها ذلك العام بسبب شحة الأراضي التي لم تغطيها الفيضانات التي ستستمر بالارتفاع لشهرين قادمين على الأقل.

غالباً ما كنا ننام في قرى صغيرة حيث يُحفظ كل بيت من المياه إلى تحيطه بمسار هش من الطين ينهار بسهولة. كنت أتوقع دائماً الهياره في أثناء نومنا ليسمح بدخول الماء بعلو قدمين. هناك عواصف عنيفة أغلب الليالي، مصحوبة بالكثير من الرعد والبرق، وكنا سرعان ما ننقع بالماء الراشح علينا من السقف. وفي صباح صحو جفّفنا بلنا وواصلنا طريقنا، مرتعشين برداً بقسوة، عبر امتداد واسع من ماء موحل تحت سماء عابسة.

كانت القرى في صدور (الكحلاء) مغمورة حين وصلنا هناك. ففي واحدة منها، المهرج الحاجز الطيني المحيط بها أثناء الليل فتجمعت العائلات هنا وهناك خائضة في الماء لغرض انقاذ ممتلكاتها. دمرّ النهر ضفتيه على طول الكحلاء وتدفقت مياهه إلى حقول الحنطة والشعير غير المحصود. وعندما أعدنا عبور دجلة أخيراً، لم تكن بنا حاجة للبحث عن جسر لكي نغزّ من تحت الطريق الرئيس لأن المياه تساوت مع قمة السدّ. رششنا الماء على الطريق الترابي وزلّقتنا الطرادة عبره.

هنا أصرّ (طاهر) على مغادرتنا لمساعدة عائلته، قائلاً:

"سيكون الماء هذه السنة عميقاً جداً فلا تستطيع الجمواميس الأكل في الهور، فيتوجب قطع الحشيش الكافي لها".

لقد أصبح واحداً منا، يوجهنا إلى الأغوار البعيدة الواسعة من جزر القصب على طول الحدود الإيرانية خلال طرق يعرفها القليل غيره. وكان دائماً، حت تحت أحوال مرهقة شاقة، يحتفظ بمزاج هادئ، وميال للمساعدة، ومتقاسماً العمل مع رفاقي السدين كانوا من الصغر بحيث يمكن أن يكونوا أولاد. لقد عاهدني على أن يأتي مرة أخرى، ولكن حين سألت عنه السنة التالية، قال لي رجل بدهشة:

"لم تسمع أن طاهر قد مات؟ قتله ابن أخيه الشهر الماضي".

من الواضح أن (طاهر) وأخاه قد فقدوا هدوءهما بسبب مبلغ تلفسه فيضارباً، فاندفع الطفل نفسه ذو الاثني عشر عاماً، الذي رأيناه العام الماضي، لنجدة أبيه.

أمسك (فالة) وغرزها في ظهر (طاهر) فاخترقت رؤوسها الشائكة كليته ومات في نوبة ألم فظيع بعد ساعات. وقال الرجل:

"كان أخوه شديد الالتهاب حزناً للكارثة ولعن ابنه. الطفل أيضاً، كان محباً لـ (طاهر) جداً كأب له، إنها في الواقع مأساة".

في الأهوار، كنا بانقطاع كامل عن بقية العالم، ولا فكرة لدينا عن الكارثة التي أصابت العراق. فقد فاضت مناطق واسعة جداً، وبغداد نفسها تحت خطر جاد، لكن الفيضان لم يقطع الطريق إلى البصرة بعد، حين ذهبنا هناك في زيارة قصيرة في نيسان (مارس). استأجرتنا سيارة تارकिन الطراوة في (العزير). قبل قدومي إلى العراق، اشترت بنديقية مستعملة عيار (٢٧٥، ٠) من نوع (ركبي) حرصاً مني على ألا أجلب بنديقية أخرى من العيار نفسه. كانوا قد صنعوها لي خصيصاً قبل الحرب. وفي عام ١٩٥٤م جلبت بنديقتي المفضلة تاركاً الأخرى في البصرة، أهديتها الآن إلى (عمارة) وجلبت بنديقية إلى كل من (سبيتي) و(ياسين) و(حسن). بعد شهرين، حين كنا في زيارة للبصرة للمرة الثانية، دفعنا طرادتنا في الطريق الرئيس حتى القرنه حيث استأجرتنا زورقاً بخارياً ليقلنا أسفل النهر.

حتى بعد عودتنا إلى (الكباب) في نيسان، اكتشفنا أن الماء قد انخفض قدماً واحداً فقط أسفل مدخل مضيف (صدّام). كان أدنى من ذلك مسافة ستة أقدام حين زرت المضيف أول مرة في سنة استثنائية في انخفاض مستوى الماء. توجب على (صدّام) إحاطة مضيفه بمجدار. من المؤكد أن ارتفاع المياه بهذا الشكل الهائل أمر غير ملائم للمعدان تماماً، لكن الحياة استمرت كالعتاد. فكل ما فعلته العائلات إضافة المزيد والمزيد من القصب إلى أرضية بيوتهم لينتشلوا أنفسهم من الماء. ومن (الكباب)، انطلقنا لزيارة عشائر (المتفك) على طول أسفل الفرات، ومن هناك، ارتحلنا باتجاه الشمال إلى نهر (الغراف). توقفنا ليومين عند (جاسم الفارس) في طريقنا إلى هناك. في هذا الوقت من السنة تكون الأرجاء الواقعة إلى الغرب من قرى (الفرطوس) مغمورة



دائماً، وكنا على وشك الغرق في السنة الماضية حين عبرنا من (العويديّة) إلى (الحمار). لذلك أصّرَ جاسم على إرسال ابنه (فالح) واثنين آخرين من (الفرطوس) معنا في (بلم). غادرنا قريته في ٢٩ من/ نيسان. هبّت رياح شمالية غربية قوية فتلاطمت الأمواج العالية في المياه المكشوفة. انتقلنا أنا و(عمار) و(سبيق) مع أمتعتنا إلى (البلم) تاركين (ياسين) و(حسن) لتدبر أمر الطرادة التي خفّ وزنها والتي ركبت الأمواج بشكل رائع، تنزلها موجة وترتفع بها أخرى.

فاق مستوى ارتفاع الماء في هذا الفيضان كل سنة اعتيادية وسيبقى محتفظاً باطراد زيادته مدة شهر آخر على الأقل. أدركت خطورة الموقف الحقيقية فقط حين رأيت أغلب قرى (الحمار) غارقة. كان بإمكاننا الذهاب إلى حيث نشاء دافعين الطرادة و(البلم) الكبير عبر حقول المحاصيل غير المحصودة بين جذوع لا عدّها من النخيل، قرى كاملة قد هُجرت. وبينما كنا نجتاز، كانت الكلاب الضالة تعوى بيأس فوق سقوف البيوت، وبشكل عرضي، رأينا بقرة على سدة وقد غمرها الماء حتى بطنها، حيث كانت تأكل ما تطاله من سعف النخيل. القليل من المضايغ والبيوت، التي كانت على أرض مرتفعة أو على السدود الصامدة، ما زالت مسكونة. ومتى ما تبادلنا التحية مع شاغلي هذه البيوت، صاحوا باتجاهنا راجين التوقف عندهم، وإذا ما فعلنا، قدّموا لنا القهوة والشاي، وذبخوا الدجاج لوجبتنا، متحدثين معنا بمرح وكأن شيئاً لم يكن. كنت قد قابلت البعض منهم في زيارات سابقة، في حين سمع جلهم عن رجل انكليزي يعيش مع المعدان. وحتى لو لم أكن معروفاً لهم، فهم يقابلوني بالترحاب نفسه لأننا ضيوف.

دخلنا الجرى الرئيسي للفرات متجهين إلى الناصرية، منجرّفين مع التيار المنطلق بأقصى سرعة. وفي واحد من الأماكن، شكّلت بقايا سدّ طبقة ينهمر الماء فوقها كأنه السيل مكوّناً دوامة مروّعة. ما زلنا نحمل صناديقي الثقيلة في (البلم)، التي استقرت

الطراة بدونها بخفة فوق الماء. اعتقدت للحظة، أنا متقلبون تماماً لا محالة، لكن (ياسين) يعرف بالضبط ما يفعله فقادنا برشاقة بينما كان الباقون يجدفون بكل ما لديهم من طاقة. (سوق الشيوخ) كانت نصف مغمورة بالماء حين اجتزناها.

بعد يومين قضيناهما مع (آل جوير) <sup>(١)</sup> عدنا إلى (الحمار) وراقبنا سكة سوق (الفهود) وهم يرتحلون، فما أن يرتقى أصحاب الحوانيت مشاحيفهم حتى تنهار الجدران الطينية لحوانيتهم من خلفهم. ثم انحدروا مع مجرى (الغراف) الذي تقع عليه (الشرطة) بعد عدة أميال. صدع الماء ضفته في عدة أماكن، في حين ما زال صامداً في أخرى، والرجال يعملون بلا راحة لإنقاذ محاصيلهم. أقمنا مع (محسن) في خيمة ضيافة عظيمة بين (البو صالح). حتى في مثل هذه الظروف، ترك (محسن) باب بيته مفتوحاً بنفس الكرم الذي ورثه عن أبيه (بدر). أقمنا مع آخرين من شيوخ (المنتفك)، لكن قضينا أغلب ليالينا مع رعاة أو فلاحين، في خيم سود بعض الأحيان، وفي أكواخ قصية أو بيوت طينية صغيرة في أحيان أخرى، وكانت كلها معزولة وسط مياه محيطية. انفصلنا عن (فالخ) ورقيقه في (العويدية) وانطلقنا في زيارة إلى (البزون). قبل خمس سنوات غادرنا أنا و(دوكالد ستوارت) خيام (البزون) ممتطين جوادين مستجهين إلى الجنوب عبر صحراء مغبرة للوصول إلى خيام (العيسى)، والآن، ها نحن نعود إليهم عبر الصحراء نفسها، ولكن بطراة.



(١) آل جوير: يشكل آل جوير إحدى عشائر بني خيكان ويسكنون منطقة سوق الشيوخ على ضفتي نهر (المراك) و(عكيكة) ويسيطرون تقريباً على كل الضفة الغربية من هور (الحمار).

## الفصل الثاني والحشروء

١٩٥٥م... الجفاف

أضعتُ (حرثتي) كانت عند الفجر صقيلة  
تحاذى النهر، فأين النهر؟

ومن الناحية الأخرى، كان عام ١٩٥٥م، عام قحط، فقد ذاب القليل من الثلج على الجبال في الشمال، ولم يكد يصل دجلة مستواه في الشتاء. لقد دمر فيضان عام ١٩٥٤م محاصيل الحنطة والشعير في (الغراف) والقرات وفي أماكن أخرى. أما في الأهوار، فقد حال الفيضان دون زراعة الفلاحين الرز في مناطق واسعة بين (الصيكل) و(ذنايب) (العدل). في حين إن عشائر أخرى، كـ (آل أزيروج) الذين تقع أراضي زراعة الأرز لديهم خارج الأهوار، كانت قادرة، حين ترسب المياه، على زراعة وجنى محاصيل غزيرة جداً من مناطق واسعة لم تعتد الانغمار، لكنها تغطت ذلك العام بطبقة سميكة من الطمي. أما الآن فانحسار المياه إلى مستوى استثنائي في انخفاضه، سيمنح سكة الأهوار من تسوية التربة وزراعتها أكثر من المعتاد، وفي المقابل سيتضرر (آل أزيروج) يشدة.

إن (آل أزيروج) عشيرة من زراع الشلب، يصل تعدادهم إلى أربعين ألفاً ويسكنون أسفل (البيرة) الذي يتفرع من دجلة مسافة عشرة أميال شمال العمارة. ينقسم (البيرة) إلى ثلاثة فروع رئيسة<sup>(١)</sup> تتلاشى في الأهوار شمال (الصيكل). اجتزنا أراضي (آل أزيروج) في منتصف نيسان. كانت القرى المزدهرة تتوالى الواحدة بعد

(١) الفروع الثلاثة للبيرة هي: (أم كعيدة)، و(الهذام)، و(الخمس).

الأخرى على طول ضفتى النهر بلا أدنى إعاقة. تأخذ (الربعة) عندهم، بصفة خاصة، شكل حرف T ويُستخدم أحد الذراعين داراً لسكن العائلة ويخصّص الآخر للضيوف. شُيّدت صوامع حول بيوت الوجهاء من (البوارى) يُحكم غلق سقفها بفضلات الجاموس<sup>(١)</sup>، ليخزن فيها الشيوخ حصته من حاصل العام الماضى. ومن عدد هذه الصوامع وحجمها تمكن من معرفة ثراء الحصاد.

ومع ذلك، كانت القرى نصف خالية. أعرف أن الكثير من (آل أزيرج) قد ارتحل في الربيع لحصاد الحنطة والشعير في (الغراف)<sup>(٢)</sup>. ومن النظرة الأولى، افترضت أن عدد الذين ذهبوا هناك كان أكثر من المعتاد لأنهم يتوقعون سنة سيئة من محصول الأرز عندهم. وعندما أقمنا بينهم، لاحظنا أن الكثير من البيوت الكبيرة المبنية بشكل أفضل من غيرها، كانت خالية، فقد ذهب ساكنوها، على مضض، للحصاد في (الغراف)، وهى مهنة الفقراء. واكتشفت حالاً أن عدداً أقل من المعتاد من (آل أزيرج) ذهب للحصاد هذه السنة، فسألنا عن السبب، فقبل لنا إن أعداداً كبيرة من الفقراء والموسرين قد ارتحلت إلى بغداد والبطرة. كانت تلك بداية الظاهرة في لواء العمارة، ظاهرة التشبه بالنمط القديم في السعى وراء الذهب التى تستوجب ترك الكثير من القرى مهجورة بشكل كليّ أو جزئى، وقد تأثر بها الفلاحون كلهم وليس فلاحى (آل أزيرج) فقط، فقد شملت (البو محمد) و(السواعد) وتركزت أثراً بين (السودان). المعدان فقط والقبائل الرعوية مثل (العيسى) هم الذين لم يتأثروا بها.

(١) تسمى هذه الصوامع (محارز) مفرداً (محرز) إذا كانت كبيرة جداً، أما إذا كانت عبارة عن (بارية) واحدة ملفوفة بشكل أسطوانى ومحكمة الغلق فيسموها (بارية) أما إذا كانت باريتين مشدودتين إلى بعضهما فيسموها (مطبك). مع ملاحظة أنها لا تُغلق بفضلات الجاموس بل بالطين. أما ما رآه المؤلف بسبب ضيق مساحة البيوت مما يضطر النسوة إلى وضع (المطال) الرطب على هذه الصوامع لكى يجف.

(٢) تسمى عملية ارتحال الفلاحين إلى قرى أخرى لغرض عرض خدماتهم من حصاد ونقل و(دوس) وغيرها (نيسان) ويقولون عن الفلاح الواحد (راح يتنسن). قد يكون لشهر نيسان علاقة بالعملية، إذ تتم فيه.

حين زرت العراق أول مرة عام ١٩٥٠م، لم تكن حقول البصرة النفطية قد افتتحت بعد، وبحلول عام ١٩٥٥م كانت بكامل طاقتها الإنتاجية، والأموال تنهال على البلد. هُدمت أحياء كاملة في بغداد وأعيد بناؤها. وشُقت الطرق الحديثة في كل مكان وشُيّدت الجسور. الطلب على الأيدي العاملة الوقتية كان ملحاً وانتشرت أنباء المردودات المادية المبالغ فيها التي يمكن كسبها بين العشائر. ارتحل المزارعون من لواء العمارة مع عائلاتهم بعشرات الآلاف. عندما كانوا يغادرون للحصاد في (الغراف) أو أى مكان آخر، كانوا ينتقلون مع حيواناتهم وكامل حاجياتهم. أما الآن، فهم يبيعون مشاحيفهم وجواميسهم، وحيوبهم، وفي الحقيقة، كل شيء عدا ما يمكنهم معهم في الحافلات أو اللوريات، لأنهم لا نية لهم بالعودة.

لم يجبرهم العوز على ترك أراضيهم، لاسيما (آل أزيج) الذين ارتحلوا بأعداد كبيرة أكثر من أى عشيرة أخرى، فقد حصدوا محصولاً جيداً من الأرز في شهر تشرين الثاني (نوفمبر). لقد واجههم، وهذه حقيقة، فشل أكيد في محاصيلهم في السنة التالية، لكن لديهم الكثير ليتجاوزوا به محتهم، فهؤلاء الذين بقوا من خلفهم لم يعانون من مشاق حقيقة. كان عام ١٩٥١م أيضاً عام مياه منخفضة المناسب جداً، لكنى لاحظت علائم تافهة للإملاق بين (آل أزيج) و(البو محمد). إن الحقيقة هى أن انخفاض مناسيب المياه في عام ١٩٥٥م عجل في نزوح هائل إلى المدن، لكنه لم يسببه.

هاجرت، خلال السنوات الحالية، أعداد صغيرة من (آل أزيج) و(البو محمد) إلى بغداد والبصرة حيث يعيشون معاً في أحيائهم الخاصة ويحتفظون بتواصل مع أقاربهم في القرى. خطط بعضهم ليعمل صاحب حانوت أو في تجارة صغيرة ونجح في ذلك. إن قصص نجاحهم لا تُخسر شيئاً عند سردها، بالإضافة إلى أنه من المعروف والشائع أن أى رجل ذا قدرة بدنية، بإمكانه الآن أن يجد عملاً في بغداد ويحصل على خمسة دراهم في اليوم. إن هذا الرقم وحده يبدو ثروة للقرويين.

السبب الآخر المهم للنزوح هو السخط المترتب على التعليم. فهناك الكثير من بين الفلاحين أكثرهم من الشباب الأكثر إقداماً، ذهبوا للمدرسة وبالنتيجة تعلموا أن يكونوا منتقدين للقيم المقبولة في حياة القرية، وهم أيضاً يستاءون من سلطة الشيوخ ويتذمرون علانية من ابتزازهم. إنهم يحلمون بالهرب إلى بغداد، إلى عالم الفرص والجوائز العظيمة مع الكثير من التنوع والإثارة. إن الآباء يحترمون التعليم الذي يفقدونه هم في ركب التصور. في عام ١٩٥٥م، حين رأى الشباب أن هناك قطعة أرض صغيرة فقط يمكن زراعتها، أعادوا على كبرائهم ضغوطاتهم قائلين:

"لماذا نبقي هنا ونرهق أنفسنا محاولين زراعة المحاصيل للشيوخ؟ لماذا يتوجب علينا العمل من أجلهم؟ نحن أحرار، لسنا عبيداً، ورغم ذلك يعاملوننا كالكلاب. أى حق لهم في الأرض؟ إن أية حكومة حقيقية لابد أن تصادرها وتعطينا إياها. لن تكون هناك زراعة هذه السنة، فلا ماء هناك بأى حال، فإن بقينا هنا، فلنستوف نتصور جوعاً. أما إذا ذهبنا إلى بغداد، فيمكننا كلنا العمل، وخلال شهور سنصبح أثرياء. ها هو (واوى)، لقد ذهب قبل سنتين ولم يكن معه غير (دشداشته)، (واوى) الآن يمتلك سيارة وبيتاً. (على)، و(ياسين)، و(عباس) و(زابير جاسب) كلهم ذهبوا. و(غانم) أيضاً، باع جاموساته وارتحل. هيا يا أبى، قريباً، سنصبح الوحيديين هنا وسيجبرنا الشيوخ على أداء كل الأعمال، لنذهب قبل أن يرسلوا بطلبنا لبناء السد الكبير في (أبو فحل) (١)".

الشيوخ أنفسهم قلقون بشكل جاد لأن الهجرات الجماعية لرجال العشائر قددهم بأن لا تترك أحداً يعمل في حقولهم، لاسيما وأن سلطتهم على أولئك الذين بقوا بدأت تضعف وربما زالت قريباً. نظم القرويون، قبل انطلاقهم إلى بغداد، (هوسة) أمام مضيف أحد شيوخ (آل ازيرج)، فهزجوا:

(١) السد الكبير في (أبو فحل): سد ترابي بُدئ العمل به في أواسط الخمسينيات في منطقة الهذام ضمن أراضي آل ازيرج، الغرض منه التحكم بكمية المياه التي تلي السد لغرض زراعتها.

(حمال ولا عند نكال (Hamal We la and Inkal) <sup>(١)</sup>

والتي تعنى: أى عمل فى المدينة أفضل من العمل لدى (نكال).

لا يلومنّ الشيوخ إلا أنفسهم فى بعض المواطن، لأنهم متكبرون بشكل لا يُطاق. فى سنة ١٩٥٣م قام أحد عبید (مجيد) بضرب شقيق (كليط الشغابنة) <sup>(٢)</sup> فى (العكر)، فهاجمه القرويون المغتاظون، لان (الكليط) وعائلته محترمون جداً، وتركوه نصف قتيل، فأرسل (مجيد) وكيله الذى جَلَدَ عدّة من أكابر القرية. وعلى أثرها، ترك أغلب (الشغابنة) (العكر) وذهبوا إلى (الصيكل). وعندما سمع (مجيد) بذلك صرّح علانية:

"ذهبت الكلاب، سأجد كلاباً أخرى لتسكن مكاهم".

ولكن بحلول عام ١٩٥٥م، لم يجد (مجيد) ذلك سهلاً، فحين سأله فيما بعد، فيما إذا كان نصف الفلاحين قد غادر، فكّر لحظة ثم أجاب مؤمناً بالقضاء والقدر:

"لا، لا أعتقد بمثل هذه الكثرة حتى الآن".

سأله ما الذى سيفعله إذا هاجر المزيد، فقال انه سيختلّى عن زراعة الأرز ويكتف زراعة الحنطة والشعير مستعيناً بالآلات. إن أرضه هى شغله الشاغل، وليس عشيرته. تذكرت بكاءه المكروب فى مآتم ابنه (فالخ):

"أرضى، حين أموت الآن، ما الذى سيحصل لأرضى؟"

أعتقد أنه من الحزن أن يضع أرضه قبل عشيرته فى كل مرة.

(١) هكذا وردت فى النص وتعنى أن أعمل حمالاً فى موانئ البصرة خير لى من الامتثال لأوامر (نكال). والشيخ الذى (هوّس) آل ازيرج قرب مضيفه هو نكال المهارى أحد كبار شيوخ آل ازيرج توفى إما أواخر عام ١٩٥٦م أو بداية ١٩٥٧م على حد ذاكرة الشيخ محمد بن جثري بن مطلق السلطان. ومن الجدير بالذكر أن نكال هذا كان على جانب كبير من الاعتداد بنفسه. مع ملاحظة أن موسيقى (الهوسة) مضطربة قليلاً، تستقيم إذا استبدلنا نكال بنكالة.

(٢) حمود بن مهاوى بن شجر الذى توفى فى سنة ١٩٩٨م وخلفه أخوه محمد بن مهاوى بن شجر لزعامه عشيرته.

اضمحت العلاقة، لدى (البو محمد) و(آل ازيرج)، بين الشيخ ورجال عشيرته، لذا باتت العشيرتان بائستين نتيجة لذلك. أما بين العشائر الرعوية، فالعلاقة ما زالت متينة. فيها هو (مزید) زعيم (العيسى) يشجع عشيرته على مر سنوات، على زراعة الشعير في البر، لكن الظروف غير ملائمة. في بعض الأحيان، هناك وفرة في المياه، وأحياناً أخرى هناك شحة فيها. لقد كانت مغامرة قامت بها العشيرة، لكن (مزید) هو الذى يفرق دائماً في ديون للحكومة. مع ذلك، في الساعات التى يحتاج فيها، لا تتوانى عشيرته عن جمع المال فيما بينهم لإسقاط ديونه. ومن ناحية أخرى، طلب منى (محسن بن بدر) شيخ (البو صالح)، ذات صباح، أن آخذه بطرادتى إلى مديرية الناحية التى تبعد ساعتين عن (الغراف). حين رسونا، سار بخطى سريعة متباعدة إلى الدائرة، حيث كان المدير ينظر في قضية، وبعد أن سلم عليه قال لسجين<sup>(١)</sup>:

"اذهب واجلس في الطرادة في الخارج".

وقال للمدير:

هذا ليس من شأنك، إن عاندية هذا لعشيرتى، وسأسوى الأمر معه.

ثم جلس وتحدث بغير ما كلفة لبرهة قبل أن يستأذن للانصراف.

بحلول ربيع عام ١٩٥٦م، انتهى النزوح الجماعى إلى المدن على الرغم من أن العائلات استمرت في الهجرة إلى بغداد والبصرة، فقد فقدت الإشاعات قدرتها التحميسية، وعاد القليل ممن هاجروا، متحررين من أوهامهم، فبيع الدينار في اليوم بدا أجراً عظيماً من قبل، وعندما ذهبوا هناك وجدوا أنه، بالكاد، يكفي لرجل وعائلته مهما عاشوا مقتصدتين، هذا فضلاً عن أن العمل قد يتوقف أسبوعاً أو أكثر في الأحوال الجوية السيئة، عندها، لا أجر هناك البتة، وكل شيء بضمن، يقول البعض، حتى الماء.

(١) تجدر الإشارة إلى أن الرجل لم يكن سجيناً بل موقوفاً وإلا لما كان في مديرية الناحية، هذا من جهة ومن جهة أخرى أن المؤلف لم يُشر إلى سبب توقيفه، وأظنه على الأرجح ذا طبيعة عشائرية وإلا لما استجاب المدير لطلب محسن بن بدر.



ما الغرض من الارتحال؟ فالفلاح الذى بقى فى أرضه وعمل على فلاحه حوله أرزاً، بإمكانه أن يحصد ما يكفى من غلة لإطعام عائلته مدة عام. وبعد أن يعطى للشيخ حصته، سيوفر خمسة وثلاثين ديناراً نقداً فى اليد، والتي بعد كل شيء، تساوى درهمين يومياً على مدار السنة، يستطيع كسبها فى ستة أشهر عمل فقط. فى فصل الكساد، بإمكانه الذهاب للحصاد مع عائلته ليكسب غلة تمكنه من بيع المزيد من أرزه. بإمكانه اقتناء جواميس تدر عليه حليباً، ودجاج للحم. الوقود، ومواد البناء، وعلف حيواناته كلها بمتناوله مجاناً، وهناك فى الأنهار والبرك وطيور حرة فى الأهوار.

هذا فضلاً عن الفارق الضئيل فى هذه القرى بين الحياة التى يعيشها الأثرياء والفقراء. فالشيخ يعيش بنفس الطريقة التى يحياها أفراد عشيرته لكنها أفضل فقط. أما فى بغداد والبصرة، فإن الفارق كبير ساحق، فجناب الفنادق الغالية والقصور ثمة أحياء فقيرة ليست أكثر من (صريفه) قصب جدرة بالازدراء بصفيحها الفارغ والقناني المهشمة والورق المبثر، وبما أنه لا وجود لأرجاء مفتوحة قريبة، أقدر بكثير من أية قرية.

من السهل جداً مغادرة الحياة العشائرية والذهاب إلى المدينة، لكنه من المحال على الأغلب للفقراء والبائسين العودة إلى عشائرتهم. ففي عام ١٩٣٦م حين كنت فى المغرب، زرت حياً فقيراً كبيراً فى ضواحي مدينة الدار البيضاء، يُعرف بالفرنسية بـ (بدونفايل) حيث يكثُر فقراء البربر<sup>(١)</sup> فى أكواخ مبنية من صفائح البترول المسطحة. قدموا بالأصل من قراهم الجبلية إلى الدار البيضاء فى أثناء سنوات دوى المدافع بعد الحرب العالمية الأولى حين كان هناك طلباً متزايداً على العمالة. ثم، فى الثلاثينات، حل الكساد وهبوط الأسعار.

(١) البربر: شعب يسكن صحراء البحر المتوسط من مصر إلى المحيط الأطلسي. ذوو مظهر جميل بشعورهم الفاحشة السوداء وعيونهم البنية. وعلى الرغم من طول سكانهم مع العرب إلا أنهم لم يندمجوا معهم أو مع غيرهم من الأقوام. يتحدثون اللغة الحامية.

كان هؤلاء البربر، في أثناء زيارتي، يبحثون عن فئات الطعام حول قنوات تصريف المياه ليقفوا على أنفسهم أحياءً وكانوا يموتون جوعاً بأعداد كبيرة.

الكثير من المهاجرين في العراق يتركون قراهم للهرب من الحكم الاستبدادي للشيوخ، ويصطدمون في بغداد والبصرة بالشرطة. فهم يتراصون في صرائفهم القصيبة في الفوضى والركام الذي يعوزه النظام، على أرض خربة في المدينة. وما أن يشعروا بالتوطن والتعرف على طرقهم حول المكان الجديد حتى تصل الشرطة بأوامر لتطيف الموقع.

"أين يمكن أن نذهب؟"

"إلى أى مكان، ولكن لا تبقىوا هنا. عودوا إلى قراكم إذا لم يعجبكم المكان هنا. هيا، هدم ذاك البيت، أسرع، نحن مشغولون".

وهكذا يتوجب عليهم نقل أشياءهم بصعوبة إلى موقع آخر لتعود الشرطة وتنقلهم مرة أخرى. وإذا ما استقروا في ضواحي المدينة، يتوجب عليهم صرف أموال اكتسبوها بمشقة أجوراً للنقل من وإلى عملهم. إن السلطات المرعوبة من هذه المهجرات الجماعية قلقة بشأن إيقافها وتشجع أفراد الشرطة، الذين يعدون هؤلاء القرويين لعبة مشروعة لهم، على مضايقتهم باستمرار:

"أرني أوراقك الثبوتية... لم تحصل على أى منها؟ إذا تعال معي إلى مركز الشرطة".

من المفروض على كل رجل في العراق أن يخدم مدة سنتين في الجيش، لكن القليل من النازحين أدى ذلك الواجب. كنت ذات مرة مقيماً مع (فالح بن مجيد) حين وصل نقيب جرى، متوسط العمر إلى المضيف، بصحبة رقيب وجنديين مع حزمة من أضاير. أعلم (فالح) بهذه الزيارة وطلب منه قميص المجندين. كان ذلك في تموز والجو حار، فقبل النقيب بامتنان ما عُرض عليه من (شربت) و(نومي بصرة). كانت بدلة

النقيب ضيقة وغير مناسبة للجلوس على الأرض، فنهض وذهب حيث هُئى له كرسى ومنضدة فى أقصى المضيف. جُلِبَ المجندون، فكانوا ستة عشر غلاماً دون سن الحلم عدا اثنين منهم، اصطفوا أمام المنضدة فيما جلس آبأؤهم والضيوف الآخرون مع امتداد جدران المضيف. راجع النقيب الأضابير، وجهه يوحى بالاستغراق، وضع نظارته وقرأ:

"علوان بن شنته"؟

لا جواب، فأعاد الاسم. أجاب رجل يجلس إلى الجدار:

"ذهب مع عائلته إلى البصرة العام الماضى".

تحسس النقيب قائمته بغير ما هدف وكتب ملاحظة وقرأ:

"جليب بن حسن"؟

وجاء الجواب فورياً:

"لقد مات السنة الماضية".

"مزيد بن على"؟

دُفع صبيُّ فى الثانية عشرة من العمر للأمام! كرّر النقيب الاسم بشك

مشيراً الى قوائمته:

"هل أنت مزيد بن على"؟

فقال الصبي بمزید من التأكد:

"نعم، أنا مزيد بن... ابن على".

"لكنك بعمر أقل مما فى قائمتى، ثمانية عشر، ارفع (دشداشتك) يا ولد".

قطّب النقيب وجهه بشكل أكبر من ذى قبل ثم التفت إلى (فالخ):

"لابد أن ثمة خطأ ما، فهذا لا يمكن أن يكون هو مزيد بن على".

أجاب (فالخ) بلطف:

"يعانى هؤلاء الناس من حياة عسيرة، فيبطئ الأولاد فى نموهم".  
لذا دون ملاحظة أخرى فى قائمته وقال:  
قل له أن يأتى السنة القادمة".

بعد غداء دسم، رحل النقيب مع مجموعته بصحبة ضحيتين أُختيرا منذ  
البداية من بين كل أقرانهم، وكان من الواضح أن الاثنين والثلاثين الآخرين فى  
الأضابير إما أن يكونوا ماتوا أو ارتحلوا إلى أماكن أخرى أو ما زالوا صغاراً.  
تمت المقابلة مع الشيخ بمزاج طيب، وذلك لكى يساند الشيخ أتباعه  
القرويين، لكنها قضية تختلف تماماً حين يُطلب من الرجل أوراقه فى مركز  
شرطة فى بغداد لأن الشرطى الذى ينوى إثارة الرعب فى نفسه ومتهين  
لاستخدام القسوة، لا غرض لديه إلا ابتزاز المال!



## الفصل الثالث والعشرون

### البربرة والمضاييف

من غيش النسغ وهذا (الكطان) يخاتلنى ويقلد (الحرش) عربى والريح ... تعوى تحت إبطى. يا عالم الزرقة والزرقة سأنشر شبابكى وأنام. فى الأسبوع الأخير من نيسان، خلفنا قرى (آل أزيج) وراءنا، وكدنا نرى، ونحن نقرب من (الصيكل)، مضيف (عبد الله) عبر البحيرة. عند الصباح، أفرعنا عدة طيور من (الحذاف) التى جاءت هنا فى الربيع لتفقس. كنت مدهشاً لعدد طيور (الروية) لأنى توقعتها قد غادرت الآن. أصرّ (ياسين) على ضرورة محاذاتنا لجزر القصب خوفاً من العواصف المفاجئة. فقبل عدة أيام عرّى إعصار مصحوب بمطر ورعد الكثير من البيوت بعد أن أزاح (البوارى) حيث كنّا نقيم. فى السنة الماضية، وفى مثل هذا الفصل، ألزمتنا بالبقاء مدة أكثر من ساعتين فى جزر القصب هذه نفسها، مطوقين بظلمتها المخيفة.

كان (البربرة) فى أقصى البحيرة يصطادون السمك فى مراكبهم، وكنّا نسمع نقرهم على الصفائح<sup>(١)</sup> وآثار (مراديهم) فى الماء وهم يسوقون السمك باتجاه شبابكهم. للمعدان ازدراء صعب الفهم لـ (لبربرة)، باستثناء إمكانية الأكل معهم، يحتقروهم جداً ولكن بدرجة أقل مما يحتقرون بها الصابئة الذين يأتون فى آخر المقياس الاجتماعى. هذا على الرغم أن لا أحد من رجال العشائر أبداً أوحى إلى أن (البربرة) من أصل

(١) ينقر البربرة على الصفائح الفارغة بعدد كبير منها لغرض حث السمك على التوجه لشباكهم المنصوبة فى الماء.

مختلف. يأتي هذا الإجحاف الكامل ضد (البربرة) بسبب مهنتهم فحسب. يظهر هذا الإجحاف للوهلة الأولى، غير منطقي مادام المعدان أنفسهم يصيدون السمك — (الفالة) لغرض الطعام. بدأ المعدان، وهذه حقيقة، بيع السمك في السنوات الأخيرة، لكن ذلك كان شذوذاً عن القاعدة. ففي الماضي لا يجزؤ أحدهم على بيع السمك أو الحليب، أما الآن، فإن الظروف أجبرتهم على بيع الاثنين. فعلى سبيل المثال، تباع نساء (الفريجات) الرجل الحليب والزبدة في (قلعة صالح) و(الاجر) حين يقيمون قرب تلكما المدينتين. إن الإجحاف الكامل والأساسي ضد (البربرة) لبيعهم السمك متأات من طرقهم في صيده. فشئ مماثل لهذا سيكون:

"اللعة، يا سيدى قد يضطر الرجل النبيل إلى بيع صيده، لكنه لا يطلق النار على الطيور وهو جالس<sup>(١)</sup>".

لا وجود لـ (البربرة) بين (الفرطوس)، و(الشغانية) و(الفريجات)، لكن هناك الكثير منهم بين (البو محمد) وأيضاً (آل ازيرج). وفي (الجبايش) بين (بنى أسد)، هناك آخرون من الذين يصطادون على طول الحافة الغربية للأهوار مقيمون لمدة شهور فوق الجزيرة قرب قرية (جاسم الفارس). إن المشتري، الذى يُعرف بـ (صفاط)، يشتري سمكهم، يملّحه وينقله إلى البصرة. يصطاد (البربرة) على العموم بشباك صيد ضخمة، لكنى رأيته أيضاً يستخدمون شبك (الكرف) في الأنهار، وشباك طويلة مركوزة مربوطة إلى أعمدة قصبية في المناطق المغمورة خارج الأهوار.

أحياناً، يستعمل الصبية في (الاجر) سنارة يلقونها في الماء على ضفاف الأنهار في المدينة، لكنى لم أرَ مثل هذه الوسيلة في أى مكان آخر، عدا البصرة. يضع فلاحو (السواعد) في الأهوار الشرقية، أحياناً، قطعة شبك عبر القنوات سريعة الجريان،

(١) جملة داخل أقواس تنصيص، يبدو أنها تجرى مجرى المثل أو القول المأثور أو لعلها من الأدب العالمى، غير أن المؤلف لم يشر إلى قائلها أو مناسبة إدراجها.

ورأيت مرةً اثنين منهم وقد خاضا حد الفخد في المجرى ومعهما شبكة (كرف) تشبه النقالة<sup>(١)</sup> وبالجم نفسه تقريباً. ينصب القرويون الذين يسكنون على ضفاف الأنهار غالباً (بوارى) صغيرة في الماء أدنى بيوتهم لتخفيف حركة التيار، فيكون ما بعد (البارية) شبيهاً بالملاذ للسماك، ويركزون عدداً من القصب في مجرى النهر مباشرة. وحين تمر السمكة تحرك القصب وبذلك تعطى فرصة اصطيادها لدى (الفالة) الذى ينتظرها.

قبل ارتفاع الماء في الربيع، يتجمع المعدان بمجاميع مكونة من أربعين أو خمسين مشحوفاً وينساقون مع أو ضد التيار في (البركة) مصطفين على طول الخط يفصل بين المشحوف والأخر نحو أربعة أو خمسة أذرع، بينما يحاول الرجال ذوو (الفالات) تطويق السمك وهو يشق طريقه تحت المشاحيف. وفي الصيف يصطادون السمك بـ (الفالة) في الليل من خلال ضوء مشاعل القصب، لكن اصطياد السمك عن طريق (زهر الباتورة) يعطى نتائج أفضل.

قلت لرفاقى ونحن نجدف باتجاه مضيف (عبد الله)، إلى رأيت، مرةً، سمكة بطول خمسة أذرع اصطيدت في دجلة قرب (كر كوك)، وسألت إلى أى حجم يصل (الكطان) و(البني) في الأهوار؟ فأجاب (ياسين):

"نحن نصطادها بطول ذراعى، والشبوط على الأرجح مثل ما رأيت. إنها تعيش في المياه الجارية، يصل بعضها إلى أكثر من ضعف ذلك. هناك سمكة أخرى نسميها (جصّانه) تشبه (الكطان) العملاق تتواجد تحت الجزر الطافية، نفوس هناك ونمسكها بأيدينا بعد أن نربط حبلًا بإحدى أرجلنا يمسك طرفه الآخر رجل في المشحوف. أخطأ أحدهم، ذات مرةً، وطعن رجلاً في بطنه بـ (الفالة) بدل السمكة وحاول رفعه خارج الماء. توجب علينا قطع فروع (الفالة) الشائكة بخناجرنا. كان عملاً رهيباً لاسيما وان الرجل لم يكن يضطجع ساكناً".

(١) يقصد بالنقالة تلك المستخدمة في المستشفيات والتي نسميها (سدّية).

إن الشبوط سمك من فصيلة الشبوطيات وكذلك (الجصان) ما داماً يشبهان (الكطان) الذى هو نوع آخر من الشبوطيات. علق (ياسين):  
 "إن شاء الله، ستكون هذه السنة كسنة (البنى). المياه الآن أكثر مما كانت عليه.  
 لقد اصطدت في يومين من السمك ما جلب لى أربعة دنانير. والله، لو لم يتدخل (مجيد) لجمعت ثروة".

وافقه (حسن) قائلاً:

"نعم، لقد ذهبت إلى (أم البنى) مع عمى قبل أن يغلق (مجيد) البحيرة في وجه الجميع، عدا (البربرة). لقد رأيتك هناك مع بعض من (الفرطوس). كنتم جميعاً تقيمون مع (البربرة)، لم أكن أعرفك حينها وأعطيت لرفيقى دواءً لمعدته".

تذكرت المناسبة الجيدة، كانت في ١٩٥١م في سنتى الأولى في الأهوار. في الأسبوع الأخير من تشرين الأول، كنت أنا وثلاثة من (الفرطوس) قد وصلنا إلى (العكر) لنجد القرية وقد هُجرت بشكل واضح. كانت المياه منخفضة بشكل شاذ تلك السنة، ولكن، نتيجة للأمطار في الشمال، ارتفعت خلال الأيام القليلة الماضية وهددت بإغراق حقول الرز التي كانت في دور الحصاد، وكان معظم القرويين في الخارج لإنقاذ محاصيلهم، في حين ذهب الكل، رجالاً وصبياناً لاصطياد السمك في (أم البنى) حيث سمعنا عن ظاهرة صيد حقيقى جارية هناك، فذهبنا نحن أيضاً. شقّ مرور الكثير من المراكب والمشاحيف طريقاً واسعاً خلال قلب جزر القصب الذى بلغ سمك سيقان بعضه، الذى طُرح ووُطئ في الوحل، سمك رسقى. وجدنا صعوبة، في بعض الأحيان، في تسيير مشحوفنا لشحة المياه، ورغم ذلك، قابلنا بلمين كبيرين وثقلين حُملاً لآخرهما بالسمك، يجرها طاقم من ستة أشخاص بمشقة. سمعت فيما بعد أن التجار عرضوا مبلغاً كبيراً وصل إلى دينار لكل واحد من أفراد الطاقم في اليوم، مقابل هذا العمل المرهق.



بعد ثلاث ساعات من مغادرة (العكر) وصلنا إلى بقعة صغيرة خالية، حيث أقام أحد التجار تحت (صريقة) خرقاء من القصب. كان اسمه (ملاً جبار) <sup>(١)</sup> وكان يشتري السمك مع اثنين آخرين ليرسلهما إلى سوق بغداد. مضى على إقامته ستة أيام ونصحنا بالبقاء معه تلك الليلة مادام لا أمل لنا في الوصول إلى (أم البني) قبل حلول الظلام. كان يدفع ثلاثة دنانير لكل مائة سمكة بصرف النظر عن حجمها، وكان يشتري السمك بالآلاف. قال (ملاً جبار) إن أعداد السمك تناقصت بشكل ملحوظ حديثاً. إنهم يرسلون السمك بالإبلام إلى البئر، حيث تنتظر اللوريات، لتقله إلى بغداد محفوظاً بالثلج.

نمنا بجانب صريفته فوق كومة من قصب حمتنا من الماء. سيئاً كان البعوض، لكن الجو فيه برودة، فتغطيت ببطانياتي. أقامت مجاميع أخرى حولنا في طريقها إلى (أم البني)، جلس أفرادها حول نيران يفتون في وقت متأخر من الليل. مرت ثلاثة أبلام في الظلام وتفحص التأخر حولهما على ضوء مشاعل القصب.

في الصباح، تطلب منا الوصول إلى (أم البني) ثلاث ساعات أخرى من الجهد. كانت البحيرة بطول ميلين وبعرض نحو ميل ونصف، مطوقة بجزر قصب متعذر اجتيازها، ولم يزرها أحد إلا ما ندر. أقام (البربرة) فوق منصات من قصب موطوء على بعضه في بداية الطريق. كانت الشباك الاحتياطية منشورة لتجف تحت الشمس وقد تخلف شاب أو اثنان للحراسة في كل موقع إقامة. كانت مراكبهم، التي يصل عددها إلى خمسة عشر مركباً، تصطاد في بحيرة، فجدفنا عبرها لمراقبتهم. كانوا موزعين أمامي في الماء أو على ظهور المراكب وقد خلع أغلبهم (الدشاديش) وعملوا عراة. كانوا يجمعون غنائم الصيد الوفيرة من الشبوطيات، وكانت كلها تقريباً من سمك البني، معدل وزنها أربعة أرطال <sup>(٢)</sup> مستخدمين شباكاً بقطر أربعين ذراعاً تقريباً. قال لي رجل عجوز أشيب، صاحب أول مركب وصل إلى البحيرة:

(١) ملة جبار أبو ماجد الغراوى الساعدي، يسكن مدينة العمارة حالياً.

(٢) أى ما يعادل ١,٨ كم.

"طوال عمرى وأنا صياد، لكنى لم أرَ أبداً شيئاً كهذا، فقد اصطدنا فى محاولتنا الأولى تسعمائة سمكة. الحقيقة، لم أكن أعتقد أن بإمكاننا تحميلها فى مركبنا. لكنه الآن أقل".

انطلق ما يقارب من مائتى مشحوف، تعود إلى (الفرطوس)، و(الشغابنة)، و(الفرجات) و(البو محمد) بحثاً عن الأسماك حول حافات البحيرة، وكان فى كل مشحوف اثنان، يجدف أحدهما، والآخر فى المقدمة يطعن بشكل متواصل فى الطحالب. من المعتاد أن يعدّ المعدان أنفسهم محظوظون إذا اصطادوا اثنتى عشرة سمكة فى اليوم، ما لم يستخدموا السم لذلك. أما هنا، فهم يحصلون على سمكة كل ثلاث أو أربع طعنات، وكانت أغلب هذه الأسماك (كطان)، النوع الآخر من الشوطيات.

انضمنا إلى مجموعة من (الفرطوس)، متحمسة للإثارة، وهم يغمدون (فالاقم) فى الماء ثم يرفعونها ليلقوا بالسمك اللامع فى المشاحيف. كانوا يصيحون: "لايمكنك أن تخطئ، فالأسماك، ترقد الواحدة بجانب الأخرى".

احتشدوا لبرهة فى بقعة واحدة وقد اصطفت مشاحيفهم إلى بعضها ليقروا أية بقعة أفضل لينطلقوا إليها بأقصى سرعة، حاثين المجدفين على الإسراع. حين يقترب بعض (البربرة)، يندفع (الفرطوس) باتجاههم، تاركين حافة البحيرة بضجة، دافعين مشاحيفهم فوق أعلى الشباك العملاقة لـ (البربرة) ليصطادوا فيها. يبدأ (البربرة) بالثتم فيقابلهم رجال العشائر بالضحك والسخرية. لابد أن البعض من (البربرة) ذهب شاكياً إلى (مجيد)، لأن البحيرة أغلقت بعد يومين بوجه المعدان، وسُمح لـ (البربرة) فقط بالاصطياد فيها.



من (الصيكل)، واصلنا سيرنا بالطرادة، توقفنا لبضعة أيام مع (جاسم) فى (العويديّة). من المألوف فى هذا الفصل، أن تكون كل الأراضي بين الحافة الغربية للأهوار وبين نهر (الغراف) تحت مالا يقل عن أربعة أقدام من الغمر، ولكن فى سنة

١٩٥٥م توجّب علينا الذهاب جنوباً بسبب الجفاف فوجدنا ما يكفى من الماء لتعويم طرادة خارج الأهوار.

أقمنا في (الحمار)، في قرية (البو شامة) <sup>(١)</sup> بين أشجار النخيل أسفل (الغراف). تعيش البطون الأخرى للعشيرة نفسها كمعدان رُحَل، مررنا ببعض منهم وهم يرتحلون إلى أراضي الحنطة ليرعوا جواميسهم على ما يبقى من الحصاد <sup>(٢)</sup>. وأقمنا كذلك مع (العُميرة) <sup>(٣)</sup> على (الغراف) التي يعيش قسم منها في (مبرد) وفي قرية أخرى للمعدان، يكسبون رزقهم عن طريق تسير المراكب الشراعية المحملة بالقصب الجاف إلى سوق الشيوخ. يفعل جيرانهم (الفرطوس) الشيء نفسه، لكن حمولات هذه المراكب تكون على الأغلب (بوارى).

في شهر مايو، يكون الجو صحوّاً مشمساً كالعادة، ولكن في بعض الأحيان تتلبّد السماء بالغيوم لأيام متتالية، ويكون هناك ثلاث أو أربع عواصف ماطرة مصحوبة بالبرعود. تهب الرياح بقوة، على العموم، من الشمال والغرب مثيرة الغبار، يكون الجو محتمل البرودة ولطيفاً مع هذه الرياح، أما بدونها فتكون الأيام حارة ودبقة. أمضينا الشهر مع (آل جوير) و(آل حسن) وعشائر أخرى من (المنتفك) منحدرين على طول الفرات، وقمنا برحلات متواصلة إلى القنوات التي اصطفت على جوانبها أشجار (الغرب)، بالغين حدّ الأهوار لكي نقيم في المضاييف التي تُدعى إليها. طوال هذا الوقت، كنّا على أرض مليئة بالنخيل الذي ينمو على شكل صفوف محتشدة على أية أرض لا تغمرها المياه سنوياً، وحتى على الجزر بين أجهات البردى. ويغطى النخيل أيضاً

(١) البو شامة: إحدى عشائر بنى خيكان تسكن في الجهة الشرقية من هور (الحمار) وتوجد بعض حاميلها في الناصرية والديوانية.

(٢) بقايا الحصاد يسمونها (جل).

(٣) العُميرة، لم أعثر على عشيرة بهذا الاسم، بل هو اسم لمكان، لذا يكون من المرجح أن المؤلف يقصد (العمارة) لاسيما إن كتابة الاسمين بالانكليزية يمكن أن يفودا للاسم نفسه Amaira أنظر هامش ١ من الفصل التاسع.

صف الجزر باتجاه الجنوب عاكساً عتمة ضد تألؤ مياه هور (السناف). إن العلامات الوحيدة للكارثة التي حلت بهذه العشائر في السنة الماضية كانت آثار الفيضانات التي يمكن رؤية آثارها بوضوح على جذوع أشجار النخيل وجدران المضاييف.

كانت بساين النخيل القليلة على دجلة بشكل أجمات متشابكة ووجدنا طريقنا عبرها بصعوبة ونحن نظارد خنزيراً برياً، أما هنا فيعتنى بأشجار النخيل جيداً وتقشر جذوعها التي ترتفع من أرض معدة للفلاحة. زرنا الجزر الواقعة على طول حافة هور (الحمار) المفصول عن الأهوار في الشمال بمياه مكشوفة تغطي في فصل معين بأوراق مسطحة من زنايق الماء المهدبة (كعبية Kaiba) <sup>(١)</sup> وزهور صفراء وبضياء مشرقة لاتعد ولا تحصى. وفي شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، رأيت الجاموس يرعى، وهو غاطس إلى البطن، على هذه النباتات مقحماً رؤوسه تحت الماء ليقطع النباتات المنتشرة تحت سطح الماء.

تبدو من بعيد كأنها قطع أغنام ترعى في مرج الأعشاب ذات زهر أصفر. في الخريف يكون هناك نوع آخر من (الكعبية) في الأهوار، بعضه أبيض، وبعضه الآخر بنفسجي زاه.

لا تعيش عشائر (المتفك) في قرى، بل تعيش كل عشيرة في أرض خاصة بها، وهي عشائر مضيافة وتكثر المضاييف فيها ككثرة بيوت السكن، منتشرة بين أشجار النخيل. شيدت كثير من هذه العشائر حصوناً ذات فتحات بجانب بيوتها لأنها في حروب وعداوات كثيرة حيث يضع كل رجل وشاب خنجراً ويمتلك غالبيتهم بنادق وكثيراً من العتاد. وعندما يكون هناك عرس، الأمر الذي يكاد يقع كل ليلة، يستمر إطلاق النار حتى الفجر.

نوضع أشياءنا — بعض الأحيان — في (صريقة) قبل أن نقاد إلى المضيف. (والصريقة) بناء مستطيل صغير بجدران معرشة ذات منحدر مغطى بـ (البوارى)

(١) كعبية Kaiba هكذا وردت هذا النص. الجدير بالذكر أن لهذه الزهور الجميلة ثماراً تؤكل يسمونها (كنكل).

يستند على دعامتين من القصب. يكون التقاطع الأعلى لدى (المنتفك) جذعاً لنخلة صغيرة. وتعدّ (الصريفه) البناء المفضل للعطارين في الأهوار يستخدمونها مخزناً، لكن حزم القصب تكون بديلاً عن جذوع النخل. يكون مدخل (الصريفه) عند أحد جوانبها. يسعدني دائماً أن أخلو بنفسى فيها لمدة، هرباً من الحياة الاجتماعية المشاعة في المضيف. لقد اكتشفت، بعد أن عشت مدة سنين مع العرب، إن الافتقار الكامل للخصوصية أمر مرهق جداً. فبعد صباح طويل من التعامل مع حشود المرضى الصالحين، أشعر بالإرهاك غالباً، لاسيما حين يصبح الجو حاراً. إذا شعر مرافقى بالتعب حين يصلون الى مضيف ما، ينهضون من أماكنهم ما أن يشربوا فجاجين القهوة التقليدية، ويذهبون الى نهاية المضيف، يلفون أنفسهم بعباءاتهم ويغطون في النوم، يوقظهم مضيفوهم حين يُجهز الطعام. إن هذا إجراء عادى جداً، لكنى أشعر بسلوكى أخرق لو فعلت الشيء نفسه. أن أخلو إلى نفسى أمر فوق ما أحلم، ولكن على الأرجح، يتبعنى رفاقى فقط واثان أو ثلاثة من الآخرين إلى (الصريفه) حيث أستطيع احتلال زاوية مع كتاب أو في نوم خفيف.

لا تشبه المضاييف على الفرات تلك التى على دجلة حيث تبني بتسع (شباب) أو إحدى عشرة (شبة)، في حين تأخذ تلك التى على الفرات عدداً أكبر. فأكبر مضيف رأيته، على الرغم من أنه مكون من خمس عشرة (شبة)، كان بطول أربعة وثمانين قدماً، وخمسة عشر قدماً عرضاً ومثلها ارتفاعاً. كان الكثير منها بسبع عشرة (شبة)، ورأيت آخر بتسع عشرة، وكان بطول تسع وستين قدماً وبعرض خمسة عشر قدماً، وقد قُصّر، فارتفاعه لا يزيد على اثني عشر قدماً. الاتساع المعتاد للمضاييف على دجلة هو ثمانية عشر قدماً. إذا ظهرت على المضيف أى علامات انهيار فإن صاحبه وأصدقائه ينقصون ارتفاعه بالطريقة التالية: يحفرون شقاً بعمق قدمين في الأرض بجانب (الشبة) من الخارج ليكشفوا التراب عن الجزء المدفون منها، ثم، بعد أن يربطوا (الشبة) بالحبال، يسحبونها إلى الشق، ثم ينظفون الحفرة، ثم يعيدونها إلى الحفرة بعد قطع مسافة

قدمين من أسفل (الشِّبَّة) ثم يردمون الشق. تكرر هذه العملية مع كل (شِبة) بآدئين بجانب من المضيف، وبعد أن يكملوا، ينتقلون إلى الجانب الآخر.

يمكن أن تجرى هذه العملية مرتين على كل من مضاييف الفرات، لكنها غير معروفة في مضاييف دجلة بسبب سهولة الحصول على القصب المناسب، لذا دائما ما يعيدون بناءه بالكامل. من المؤلف إعادة بناء المضيف كل عشر سنوات، لكن طول هذا الوقت يعتمد على حالة الأرض. ففي ظل ظروف جيدة قد يدوم إلى خمس عشرة سنة. يتطلب بناء عمل مائة رجل لعشرين يوماً، والبناء الرئيس هو الوحيد الذى يُدفع له، أما بقية العاملين فيتوقعون وجبة دسمة عند الظهيرة، ويتوجب على صاحب المضيف أن يذبح حيوانا كل يوم ليزودهم باللحم. يحتوى لب كل حزمة من التى تشكّل (الشِّبَّة) على قصب سبق استخدامه لكى يجعل الحزمة مرنة. يُغطى وجه (الشِّبَّة) بالقصب النحيف ليعطى شكلاً جميلاً. تكون وفرة القصب فى أراضي (المتفك) للقصر منه فقط الذى لا يغطى ارتفاع (الشِّبَّة)، لذا يعمدون إلى دمجها، ونتيجة لهذا تميل (الشباب) إلى الامتداد بدل أن تأخذ شكل حدوة الحصان ولا تخضع لنفس الإجهاد لدى مضاييف (البو محمد) الذين يستخدمون أطوالاً واحدة من القصب. جرت العادة، حين ينتهى بناء المضيف، أن يسموا كل (شِبة) بكف مغموس بالحناء، تُجدد هذه الوسمة غالباً كل عيد. وفى السنة الجديدة أو (النيروز) يزِنون (الشباب) بباقات صغيرة من قصب اخضر.

إن أسوأ ما يمكن أن يتعرض له المضيف هو التآكل الذى يصيب الجزء المدفون من الشِّبَّة فى الأرض حيث يلى القصب ويتهرأ. هذا فضلاً عن حوادث الحريق العريضة أو المقصودة. وعندما يكون إضرار النار فى المضيف مقصوداً فهو إهانة جسمية جداً تجر إلى مشاكل غاية فى التعقيد. ومن الجدير بالذكر أن أشهر الصنّاع المهرة فى بناء المضاييف هم: جاسم بن محمد البهادلى — طلال بن حنّيته الدهامى — شدّاد بن ختاجه الكعبى — الغابشى الزيداوى — مريوش بن بدن بن شاطى الدهامى — إسماعيل بن حجي عطيه الماجدى. هذا ما يذكره محمد بن داخل الفيصلاوى.

تتمايز المضايف بين (البو محمد) و(آل ازيرج) وبقية العشائر الأخرى على دجلة قليلاً في عموم مظهرها. يُعدّ السقف، كما هو الحال في كل المضايف، من (البوارى) المتراكبة، ومن (باريه) واحدة للطبقة السفلى مشتملة على (باريه) عملاقة واحدة تغطي كل السقف. وتشتمل الجدران السفلى على (بوارى) منفردة تُعلق كالحواشى المتدلّية قريباً من الأرض خلف (الشباب) يمكن إبقاؤها مرفوعة للأعلى في حالة الجو الحار وتخفيض في حالة البرد. للنهية الجنوبية الغربية للمضيف المواجهة لمكة المكرمة ثلاثة مداخل مفتوحة بين الأعمدة العملاقة مع شبابيك تُهَيَأ من خلال قطع (البوارى) فوق المداخل. أما نهاية المضيف الأخرى التى تواجه الشمال الغربى فحالية من أى فتحة.

إن تصميم المضايف بين العشائر على الفرات يكون أكثر اتقاناً وأكثر تنوعاً، فالطول الكامل للجدران السفلى يحتوى تشبيكات زخرفية بالقصب تتصل (بالشباب) من الخارج وتربط بـ (باريه) طويلة وضيقة حتى السقف، وهناك حاجز أمام هذه التشبيكات الزخرفية من الداخل لغرض الحماية، يقل ارتفاعه عن قدم واحد لكى يتكى المقيم في المضيف عليه. وفي مركز النهاية الجنوبية الغربية، هناك مدخل مدد بشكل ثابت بين (شبتين)، محاط بشبابيك من التشبيكات الزخرفية. أما تصميم النهاية الشمالية الغربية فمشابه للنهية الأخرى ولكن عادة بدون مدخل. يتنوع تصميم نموذج الشبابيك المزخرفة تبعاً لميل ورغبة البناء. وهناك، فوق المدخل، على العموم زخرفة من نفس الحجم والشكل، على جانبه، مطوقة بشباكين أصغر مزخرفين. كان هناك شباك دائرى منفرد، في أحد المضايف، ثقب النصف العلوى للجدار. وفي هذه الحالة، ينقسم النصف السفلى للجدران إلى ثلاثة أقسام بشكل أفقى مع قسم قصوى خال من أية زخرفة بين التشبيكات العليا والسفلى، ويكون الشكل العام مقسوماً بشكل عمودى بواسطة الأعمدة المركزية.

دائماً يعتربنى انطباع ، حين أكون جالساً في مضايف الفرات، أنى داخل كاتدرائية رومانيسكية<sup>(١)</sup> أو قوطية<sup>(٢)</sup> زادها جمالاً الوهم البصرى من خلال السقف والشبابيك المزخرفة في كلا النهايتين اللتين تدخل الأشعة الساطعة عبرهما خارقة العتمة الداخلية. تمثل المضايف، سواء كانت على الفرات أو دجلة، إنجازاً معمارياً رائعاً من مواد غاية في البساطة. إن تأثير البذخ الذى تعطيه النماذج القصصية، يأتي تماماً من الطرائق العملية الوظيفية للتشييد. والمضايف مهمة من الناحية التاريخية أيضاً، فالألفة الطويلة لبيوت كهذه ربما منحت الإنسان فكرة تقليد أشكالها المقوسة بقطع الطابوق، كما خلد الإغريق أخيراً أنماطاً خشبية قديمة بالحجر<sup>(٣)</sup>. إن أبنية مشابهة بهذه المضايف كانت جزءاً من المنظر في جنوب العراق قبل خمسة آلاف سنة وأكثر. ومن المحتمل، في غضون عشرين السنة القادمة، والمؤكد في الخمسين سنة، اختفاء هذه المضايف إلى الأبد<sup>(٤)</sup>.



- 
- (١) رومانيسك: **Romanesque**: طراز في فن العمارة راج في أوروبا في أوائل القرون الوسطى بين عهدي فن العمارة الرومان والقوطى.
- (٢) قوطى **Gothic**: من فنون العمارة، نشأ في شمال فرنسا وانتشر في أوروبا الغربية في منتصف القرن الثاني عشر إلى أوائل القرن السادس عشر الميلادى.
- (٣) يشير المؤلف هنا إلى اللقى الأثرية السومرية التى تصوّر أبنية قصية لها شكل المضيف الحالى نفسه.
- (٤) هناك للأسف الكثير من البوادر تشير إلى صحة تكهنات المؤلف في هذا الشأن.



## الفصل الرابع والعشرون

### الثامن عمارة

من فجر النطفة وأبى يعلمني فنّ الطاعة،  
وتأويل الهزيمة، فنبذتُ بوصلي، وعمتُ وجهي  
شطر... المدى

أقضي حزين (يونيو)، وغالبًا تموز من كل سنة، بين العشائر الساكنة على طول  
دجلة شمالي العمارة، واتبعت النهر مرتين مبتعدًا حتى الكوت، باستثناء عام ١٩٥٤م  
حين مررنا خلال هذه الأراضي بطرادتنا قاطعين صحراء مغمورة بالماء من (الصيكل)،  
كان (عمارة) و(سبتي) مرافقيّ الوحيدين فيها. كنا نرتحل دائمًا على ظهور الخيل حيث  
يعبرنا مضيفونا خيولاً حتى القرية أو المخيم التالي. لم يسبق لأحدهما أن امتطى ظهر حصان  
من قبل. وفي المرة الأولى التي ركبا فيها سار حصاناهما في الطريق المعكوس! ولكن مع  
المران، أصبحنا ماهرين بشكل معقول. كنت عاجزاً أمام المشحوف، لذا سرّني استعراض  
قدرتي على ظهر جواد على الرغم من أننا نمضي دائماً بأدنى درجات السرعة لأني أحمل  
أدويتي في حقيبة السرج. مع حلول منتصف النهار، تصل الحرارة حدًا لا يُطاق، ولكن في  
حزيران تبقى درجة الحرارة لطيفة خلال الليل وكنت مبتهجاً بزواج بطانياتي. تهب الرياح  
الشمالية الغربية غالباً بطريقة هوجاء خلال الشهر كله فضلاً عن عواصف غبار تصل حد  
انعدام الرؤية لأكثر من ذراعين. تركد هذه الرياح خلال تموز وعندها، حتى في الليل، لا  
راحة من الحرارة الرطبة التي قد تصل إلى ١٢٦ فهرنهايت<sup>(١)</sup> في الظل.

(١) فهرنهايت تعادل ٥٢،٢ °م.

من بین رفاقی الأربعة شديدي الإخلاص، أجد (عمارة) و(سبيتي) مفضلين لديّ. وبعيداً عن رجال العشائر من أتباعهما، وعن الأعراف المألوفة في الأهوار، نثير نحن الثلاثة الإعجاب بحميميّتنا لبعضنا خلال السفريات. ومنذ عام ١٩٥٦م ألفت نفسي مهتماً بشؤونهم تزوج (ياسين) و(حسن) السنة الماضية، أما (عمارة) و(سبيتي) فخاطبان الآن. قالاً إنهما لن يتزوجا قبل مغادرتي لأنهما راغبان بالبقاء معي حتى ذلك الوقت. بعد اتفاقي مع أحد الناشرين حول نشر كتاب عن جنوبي الجزيرة العربية، لم يعد بإمكانني العودة للعراق في السنة القادمة.

خطب (عمارة) أخت (سبيتي). قبلها بخمسة أشهر، ذهبنا أنا و(صحّين) إلى (لازم) أبي (سبيتي). لابدّ من أخذ رأي أخي (لازم) لأن ابنه، وفقاً للعرف، صاحب القدر المعلن في الزواج من الفتاة. بعدها، وافق على خطبة فقط لـ(عمارة) بعد مناقشة طويلة جداً. حددنا المهر بـ(٧٥) ديناراً. سرّ كل من (عمارة) و(سبيتي)، وأقمنا تلك الليلة حفلة بالمناسبة في (بومغیرفات) تضمنت رقصاً وغناءً وإطلاق نار.

لم يكن لترحالنا في تلك السنة، وكما هو دائماً، أية غاية. فنحن نعرف أنهم سيرحبون بنا ويستضيفوننا في أية قرية صغيرة أمامنا ما دمنا نتجه شمالاً. نتوقف أينما نرغب، ونعود أدراجنا متى ما أحسّسنا بميل لذلك. استضافنا (البو دراج)، العشيرة المنسجمة التي تزرع الشلب على طول الجداول التي تتشتت في هور معزول، لمدة من الزمن. استعزنا منهم مشاحيف لزيارة (الكولبة) و(عكيل) <sup>(١)</sup> العشيرتين اللتين ترعيان الجاموس بين القصب الواطئ أو في قطع من أراض مغمورة بالمياه شائكة الإعشاب. اجتزنا مرة أخرى حقول الشلب لـ(البوعلي) <sup>(٢)</sup>، العشيرة المتفرعة

(١) عكيل: أبناء عقيل بن كعب الذي ينتهي نسبه بمعد بن عدنان. كانوا يسكنون الجزيرة العربية ثم سكنوا البصرة والكوفة في العهد الإسلامي.

(٢) البوعلي: هم أولاد علي بن عبود بن محمد بن سعد الزبيدي. يكوّنون مع أخوتهم البوحسين والبو معلّى أو الأبيض والبوخليفة والمصاليخ ركناً من البومحمد هم البو عبود.

من (البو محمد) الذين تبعوا (حجي سلمان) شمالاً بعد معركته مع (مجدد)، وصلنا بعدها إلى (بني لام).

جرى النهر الموحد المياه عبر أراض مغرة، وارتفعت شمس برتقالية منتصبة فوق الأفق المنبسط عبر سهل خال. عند الفجر فقط، قرب مرقد (علي الغربي)<sup>(١)</sup>، أستطيع أحياناً رؤية المعالم الخارجية الباهتة لجبال البشتكوة. ننام أحياناً مع الرعاة في خيام سود صغيرة حيث تطأنا الأغنام والماعز ويحتشد الذباب فوقنا من الفجر حتى الغسق. لكنني أجد متعة دائماً حين أكون مع هؤلاء البدائيين. هناك سحر في المساء حين يزمر الرعاة بنيايقهم، جالسين حول نيران قلقة. وفي أوقات أخرى ننزع السروج عن خيولنا<sup>(٢)</sup> في قرى متناثرة على طول ضفة النهر حيث الكثير من الشيوخ صغار السن يبتون أنهم مضيفون رائعون ورفقتهم مناسبة لطبيعتنا. كانت الريح، عند الظهيرة، تسفع بحرارها اللاذعة في الخارج، ولكن ثمة برودة عذبة داخل البيوت الطينية الصغيرة بسبب الشبايك المغطاة بأكوام الشوك المشبعة بالماء.

أعطتني هذه الأرض المقفرة إحساساً بالحرية كنت قد استشعرته من قبل جامعاً في الصحراء. فها هي الأرجاء اللانهائية الخالية نفسها، والبيوت القليلة التي لا تحوي سوى الضروري للحياة. كان هناك الكثير من العمل الطبي الذي يعني دائماً ويمنحني إحساساً واضحاً بالقدرة على الإنجاز. لقد أحببت (بني لام) أيضاً، وأصبح الكثير منهم، بعد زيارتي السابقة، أصدقائي.

رأينا ذئاباً مرات عدة، وقال لي رجل إنه تغلب على ضبع وقتله وهو على ظهر جواد. يستلزم أمر اللحاق بالضبع فرساً جيدة، كما تعلمت ذلك قبل عشرين سنة في السودان.

(١) الإمام علي الغراب بن يحيى بن علي بن محمد بن أحمد بن زيد بن علي بن محمد بن أبي عبد الله جعفر بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب — عليهم السلام. يقع ضمن مدينة سُميت باسمه تقع على مسافة ٤٥ كم إلى الشمال من مدينة العمارة على الضفة الغربية لدجلة..

(٢) نزع السرج في مكان إشارة إلى الحلول به .

وحكى لى رجل آخر عن كيفية حفرة، هو وصديق له، واستخراجه حيوان (الغريري)<sup>(١)</sup>. لقد هاجمهم وعض اثنين منهم. ظهر عليه أنه غير متأثر بضرباتهم حتى ضربه أحدهم على خطمه. نرى أحيانا قططا بريّة، ثمّة واحدة كانت بنية اللون مختلفة تمامًا عن البقية. لا وجود للغزلان هنا، لكن الكثير منها موجود إلى الشرق على طول الحدود الإيرانية، حيث لسوء الحظ يهلك القسم الأعظم منها بواسطة فرق تطاردها بالسيارات. هذه الممارسة محرّمة من الناحية القانونية، ولكن في الحقيقة، إن موظفي الدولة، غالبًا هم المتهمون. حين اتخذت طريقي هابطًا من كردستان على ظهر جواد رأيت قطعانًا من خمسين غزالًا وأكثر، لكنها حالًا سوف تمحى في العراق كما سبقتها الحمر الوحشية والأسود.

نحن نصطاد الخنازير فقط التي تزرع بها أشجار الطرفاء على طول الجداول والأنهار، وفي المناطق الكثيرة الآجام التي ترتفع فيها أشجار السبخ إلى ثلاثة أقدام وتغطي مساحات واسعة على جانب دجلة. هذه هي البيئة المثالية لاصطياد الخنازير. لم أبرع في استخدام (الفالة)، لكني بارع مع بندقيتي، مطلقًا النار منها كما أطلق من مسدس ممسكًا بها بيد واحدة وأنا على ظهر جواد جنبًا إلى جنب مع خنزير. كنت أستمع وأبتهج بعدو الفرس، ولكن من ناحية أخرى كنت مشمئزًا من قتل الخنازير، وكنت أسمح لـ (عمارة) بإطلاق النار عليها حين كنا نصطادها سيرًا على أقدامنا. كان نادرًا ما يخطئها وقد اكتسب سمعة صياد متفوق تنفعه وقت الحاجة.

حين عدنا إلى (الجزر) في نهاية حزيران، استقبلتنا أنباء قتل (بدّاي) - ابن عم (عمارة) - لأحد أبناء (رضيوي) وأخي (حسن) نفسه الذي يرغب في زوجة (بدّاي) والذي حاول تحطيم هذا الزواج. تذكرت اليوم الذي أمضيناه مع (بدّاي) في (أويسيج) قبل ثلاث سنوات وكيف ذهب (عمارة) إلى (رضيوي) محاولاً حسم الموضوع... أما الآن فقد أريق دم.

(١) الغريري: honey - badger : حيوان لبون يسمونه أيضا (الكرطه) .

سبق لـ (عمارة) أن أخبرني أن زوجة (بدای) قد هجرته وعادت إلى أبيها. بإمكان الرجل تطليق زوجته بمجرد القول: أنت طالق<sup>(١)</sup>، لكن ليس من حقه في هذه الحالة، المطالبة بالمهر الذي قدّمه. ومن الناحية الأخرى، لا تستطيع الزوجة تطليق زوجها تستطيع مغادرة بيت زوجها إلى ملاذ أبيها أو أخيها. إذا بقيت مسترسلة في عنادها، سوف يحاول أهلها إقناع زوجها بتطليقها من خلال عرض إرجاع جزء أو كل المهر الذي قدّمه. في هذه الحالة، رفض (بدای) تطليق زوجته بحيث يستطيع (حسن) الزواج منها وويح به بشدة لخلقه المشاكل بينهما.

علمنا الآن أن (بدای)، في الوقت الذي كان يقيم على قناة قرب (الواديّة)، توجه إليه كل من (حسن) وأخوه الأصغر (خلف)، وواحد من أبناء عمومتهما<sup>(٢)</sup> لغرض قتله. كان مكان إقامتهم عبارة عن تجمع لصرائف قصية يقع قرب قلعة صالح. توافق أن كان (بدای) متغيّباً في أثر جاموسة مسروقة، لذا كمنوا له منتظرين عودته التي جاءت في اليوم الثالث. اقتربوا من كوخه في ساعة متأخرة من تلك الليلة، لكنهم شوهدوا من قبل أحد جيرانه، فاستوقفهم لغرض التأكد منهم وقال لهم بصوت عالٍ : "لماذا تأتون كل ليلة لتبحثوا عن (بدای)؟ إنه لم يقتل أحداً من أهلكم".

وأطلق رصاصة فوقهم. وبينما كانوا ينسلّون هاربين اندفع كلب (بدای) في إثرهم وطاردهم يتبعه (بدای) نفسه. قاده نباح الكلب في إثرهم فأدركهم حين توقفوا ليشعلوا سيجارة، سمع (حسن) يقول: "دعنا نقتل كلبه".

فأطلق (بدای) النار وأخطأ فبعضر الثلاثة في هروبهم. أطلق مرّة أخرى فهوى أحدهم، وحين أشرف على الرجل الساقط عرف فيه (خلف) وكان مصاباً في فخذه وقد تحطم العظم:

(١) ثمة اختلافات بين المذاهب الإسلامية حول كيفية الطلاق خاصة فيما يخص عدد الطلقات وتفاصيل أخرى كما لا يخفى.

(٢) ابن عمهما الذي ساهم معهما هو عدل بن مناتي، ما زال حياً يسكن منطقة الجندالة في محافظة ميسان.

"تريد سفك دماء؟ إذا ، خذها!"

قال ذلك وأطلق ثانية، خلال الرأس هذه المرة.

في هذه الأثناء كان (حسن) وابن عمه قد التحقا ببعضهما واكتشفا أن لا أثر لـ(خلف) ، فعادا للبحث عنه، وأخيرًا وجدا جثته. عادا في الحال إلى كوخ (بدّاي) مصممين على الثأر. وقفا في الضفة المقابلة للقناة، صرخ (حسن) بكلمات تحدّ قلبها (بدّاي). كان القمر قد أفل والظلمة دامسة. لم يكن أحد منهم مستعدًا لوضع نفسه تحت رحمة الآخر عبر الخوض والعبور للضفة الأخرى. لذا، استمر تبادل إطلاق النار بينهما مستعينين بوميض البنادق. قبيل الفجر أقع (حسن) من قبل الجيران (الفرجيات) بالانسحاب بعد إلحاح طويل قائلين له، إن الشيخ سيلقى القبض عليه في الصباح إذا استمر وجوده وسوف تسجنه الحكومة حتى يسلم والده نفسه لأنه مطلوب بتهمتي قتل. حمّل (حسن) وابن عمه جثة (خلف) وابتعدا بها. أصيب (بدّاي) إصابة طفيفة، لكنه فكك بيته مع الضياء الأول، وحمّل كل شيء في زورقه واختفى مع عائلته وحيواناته في الأهوار، لا أحد يعلم أين ذهب؟

حين سمعنا الأخبار لاح (عمارة) وقورًا متكدرًا. نويت أن أصرف النظر عن هذه الأنباء وكأنها قتلاً آخر بين هؤلاء البدائيين الخارجين على القانون، إلى أن قال (سبيتي)، ألا تدرك أن (عمارة) هو أقرب الناس لـ(بدّاي)، وأن (رضيوي) وعائلته ربما حاولوا قتله الآن ؟

عزمت أمري على قضاء ثلاثة أشهر في (نورستان) المنطقة الجبلية على الحدود من كترال التي لا يعرف عنها إلا القليل ، ومنها ، مطلوب التوجه إلى أفغانستان خلال عشرة أيام. يتوجب عليّ قبل التوجّه إلى هناك فعل ما بمستطاعي للاطمئنان على (عمارة). سألت (ثكب) إن كان هو و(رشك) في خطر أيضًا ، فقال:

"لا، ولكن إن عجز (رضيوي) عن قتل (بدّاي) فمن المؤكد أنه سيقتل (عمارة)".

واقترح عليّ وجوب الطلب من (مجيد) تدبر أمر (عطوه) <sup>(١)</sup> لـ (عمارة) :  
 "إذا أستطعت فقط أخذ (عطوة) لمدة ستة أشهر <sup>(٢)</sup> فإن (رضوي) ربما يفتّر  
 خلاها، بعدها قد يكون ممكناً قبوله بالدية" <sup>(٣)</sup>.

وافقت على الذهاب إلى (مجيد) في الصباح لأرى ما يمكنني فعله.  
 أعرف ألاّ شيخ، مهما كان ذا سطوة، ولا (سيد) مهما كان موقراً مبعجلاً  
 بإمكانه حسم الثأر. (الكليط) فقط بإمكانه أن يقرر نهائياً معاهدة من خلال ربط كوفية  
 حول قصبه، ليعطى كل طرف إلى أحد الفريقين المتخاصمين <sup>(٤)</sup>. إن مكانة (الكليط)

(١) عطوة: atwa : هكذا وردت في النص وتعني اتفاقاً على هدنة بين طرفين متنازعين بكفالة طرف آخر أو  
 أكثر تبعاً لأهمية موضوع النزاع .

(٢) لا تمنح مثل هذه المدة الطويلة مرة واحدة وإلاّ غدّ الأمر قاتواً من ذوي القتل ودلالة على عدم وجود الجدّة  
 في الأخذ بالثأر، إلا في حالة (العطوة) لأطراف ليست مسئولة مسؤولية مباشرة جداً مع القاتل كما في حالة  
 (عمارة)، فهو على ما يبدو ليس ابن عم مباشر لـ (بداي) وإلاّ كان مطلوباً، مثله في ذلك مثل (بداي)..

(٣) سماها المؤلف blood money أي نقد الدم أو سعره، وأرى أنها ليست تسمية دقيقة لأن (الفصل) لا  
 يحسم مادياً بالضرورة، فالكثير من النزاعات التي لا تكون فيها دماء مراقبة يكفون فيها بالتراضي والصلح.  
 أما دية القتل فقد تكون بالنساء وقد تكون بالمال وقد تكون بالاثنتين معاً. علماً أن تغيرات كثيرة طرأت على  
 هذه التفاصيل أخرجتها عن كهها النبيل كمحاولة لرأب الصدع وإيقاف النزف.

(٤) تأخذ مجريات (الفصل) السياق الآتي:

يذهب وفد من عشيرة الجاني يحوي (الكليط) ووجهاء العشيرة وعشائر أخرى فضلاً عن سيد مبجل أو أكثر  
 ويحلّون ضيوفاً لدى عشيرة المجني عليه ويجلسون متقابلين عادة. افتتاح المراسم يقع على عاتق السيد الذي  
 يذكر الفريقين بضرورة تقوى الله حاثاً على السلوك الطيب الذي يتلاءم وسيرة الرسول ﷺ وأهل بيته ومذكراً  
 إياهم بالعواقب التي تترتب على التماادي ومجانبة العقل والحكمة. يليه بالحدث (كليط) الجاني الذي يعترف  
 بدوره بالجريمة وأنه جاء وأفراد عشيرته لغرض حسم هذا النزاع عارضاً كل ما من شأنه إرضاء الطرف  
 المجني عليه. يقول بعدها مخاطباً (كليط) المجني عليه: اطلبْ نحن بمخدمتك. يأتي بعدها دور (كليط) المجني عليه  
 بالحدث فيستعرض إنجازات عشيرته في جهها للخير والسلام ثم يستعرض الظلم الذي وقع على ابن عشيرته  
 مضحماً إياه أو عارضه كما هو تبعاً لما يتمتع به من مقدار (البحث) الذي هو عليه. يعبّر بعدها عدد النساء أو  
 المبلغ الذي يراه عدلاً للضرر الذي لحق ابن عشيرته. فيبادر (الكليط) والوجهاء بالمقابل إلى القول: (تستاهل)  
 أو (إلك) أو (إجتك) أي جاءتك وهي بحكم المنتهية. ثم تبدأ مفاوضات هي أطول جزء في تلك المراسيم،

ورائية حتى لو كان شيخاً خرفاً أو بنصف عقل. وفي حالة كونه طفلاً فقط يتولى عندها أقرب أقاربه الذكور مهامه بالنيابة عنه. سألت (ثكب) فيما إذا كنا نحتاج (صحين) (الكليط) لحمولة معينة بالأمر من (الفريجات)، للذهاب معنا كي يقود مفاوضات الهدنة بوصفه إجراء احتياطياً للاتصال بـ (رضوى) فأكد لي، أن (العطوه) على أية حال، يمكن أن يأخذها شيخ أو أى شخص آخر ولا داعى لحضور (الكليط).

أعرت (عماره) مسدسى ونصحته أن يستعين بكلب حراسة جيد وأن يغير مواطن مبيته في البيت كل ليلة. يمتلك (عماره) أيضاً بندقية (٢٧٥، ٠) التي أعطيتها له قبل سنتين والكثير من الذخيرة، واشترى منذ عهد قريب بندقية لـ (رشك) على رغم قدمها إلا أنها جيدة كغالبية البنادق. أثناء مروري به ذاهباً للنوم، قال (ثكب): "سأبقى ساهراً للمراقبة، فأنا رجل عجوز وحاجتي للنوم قليلة وبإمكانى الراحة فهاًراً".

قال (رشك) ضاحكاً:

"أصطد لنا ذئباً، صاحب، وأعطنا إحدى عينيه. سنخيطها على قلنسوة<sup>(١)</sup>، وأى شخص يلبسها سوف يجافى النوم عينه".

=

الغرض منها تخفيض الرقم المطلوب إلى أدنى حد ممكن. فإن قررت عشيرة الجاني أن الرقم كبير مبالغ فيه وأصر طرف الجاني عليه على ما طلبوا عندها يطلب (كليط) الجاني (عطوه) جديدة لبذل المزيد من الجهد لغرض توفير هذا المبلغ أو تفضيل الاقتال من جديد حين يشعرون أن المطلوب أكثر من طبيعة الجريرة. أما إن كان المطلوب معقولاً عندها يصار إلى (شد راية العباس) الممثل بربط طرف قطعة قماش، عادة ما تكون بيضاء، على أى عصا من قبل (كليط) الجاني أولاً، يليه بربط طرفها الآخر (كليط) الجاني عليه، ثم تُعطى للسيد لكى يفك عقدي الراية مع خصم جديد لما اتفق عليه الطرفان وبذلك يكون الطرفان ملزمين بتنفيذ ما اتفقا عليه لاسيما وأنهما أشهدا عليهما الإمام العباس رضى الله عنه.

(١) سماها المؤلف skull - cap أي القلنسوة، يسمونها (عركشين)، غطاء يغطي الجزء الأعلى من الرأس، كانت تصنع ملونة أحياناً بخطوط مستقيمة، أما الآن فهي بيضاء دائماً، مهمتها منع انزلاق الكوفية عن الرأس وتثبيت العقال فوقها.



لم تمر بنا أى مخاطرة تلك الليلة. نمت بين (حسن) الصغير و(عماره) وكان (رشك) وراءه. اتخذت و(عماره) بندقيتنا بجانبنا، بينما جلس (ثكب) عند الباب واضعاً بندقية (رشك) على ركبتيه المتصالبتين، وراحت (مطيرة) تدندن لنفسها بهدوء وهى ترتب أشياءً مبشرة<sup>(١)</sup>. كان أصغر الأطفال نكداً مضطرباً فتعهدته (ناكه) أمه بالرعاية بعد أن احتضنته قرب الموقد. من مكان، كنت أستطيع رؤية الجواميس مربوطة وقطيعاً من جواميس كبيرة الحجم وهى تأكل تحت ضوء القمر أكوام علف جمعها (جليب) من الهور. ضغط (حسن) على يدي إشارة إلى سعادته بعودتي، جلب قبلها حقيبته المدرسية التى أهديتها له ليريني كتبه. كل شيء يسير على ما يرام لعائلة (عمارة) حتى الآن، فقد بذر (رشك) أرضاً أوسع من ذي قبل، وفي السنة الماضية حصد غلة جيدة على الرغم من شحة المياه. أما الآن، فعلى الرغم من أنهم لم يرتكبوا خطيئة، قد يتسلل رجل ببندقية محشوة، هناك بين الأستار في الخارج منتظراً فرصته. وما لم أحصل على (عطوه)، فلن يجروء أحد منهم على النوم. انقضت الليلة، يرفع (عمارة) رأسه كلما نبج كلب في القرية.



(١) من المؤكد أن مطيرة لم تكن تغني، بل كانت (تنعى)، فوضع العائلة المهتدة بالقتل لا يسمح لها إطلاقاً بالغناء، هذا إذا استثنينا اعتبارات الحياة لوجود رجل غريب تماماً عنها. وقد سمى المؤلف (النعي) غناءً لأنه يشبهه في خاصية واحدة فقط كونه كلاماً منقماً. أما مضامين (النعي) فهي دائماً ذات لواعج ومكابدات غاية في الحزن.

## الفصل الخامس والحشرون

### عامي الأخير في الأهوار

عن ظهر قلب أردد ترنيمة

الخلود، - دورة في رحم -

غصًا لا أرى لي نهاية

في الصباح الباكر لليوم التالي، ذهبت لرؤية (مجيد) في بيته الجديد الذي بناه قرب (الجر)، فأرسلني في سيارة مع ممثله الشخصي مع رسالة إلى الشيخ الذي يقيم (رضيوي) ضمن أراضي قرب (قلعة صالح). طلبت من هذا الشيخ أن يثبت لي هدنة لـ (ثكب) وعائلته، فقال:

"إن (رضيوي) مستسلم لحزنه وأساه وغاضب بشدة ولا أعتقد أنه سيقبل بـ(العطوة) أبدًا. في الوقت الحاضر، لن يقبل إذا شملت (العطوة) (بدأي)".

"إن (بدأي) سيهتم بنفسه، وهو لا يهمني. أريد (عطوة) لعائلة (ثكب)".  
 "سأبذل جهدي، لكنني لا أعتقد أننا سننجح، ابق هنا في المضيف وسأذهب مع ممثل (مجيد)".

أرسلت (سبتي) معهم ممثلًا عني. تأخروا لساعات فاعتراضي الخوف من أنهم فشلوا، لا سيما بعد قول (القهوجي):

"لن يوافق (رضيوي) على (عطوة) مطلقًا وقد أقسم على إراقة دم بدل دمه المراق. والله، لا أحد في هذه العائلة إنسان جيد".

عادوا أخيرًا بأخبار تقول، بعد نقاشات طويلة جدًا، أنهم نجحوا بإقناع (رضيوي) في منح هدنة مدّة ستة أشهر لـ(عمارة) وأبيه وأخوته ولم أكن آمل بأكثر من هذا.

بعد ثلاثة أشهر، في أيلول عام ١٩٥٦م توقفت لمدة أسبوعين في الأهوار في طريق عودتي من (نورستان) وأقمت عدة أيام أخرى في (رفيعة). تزوج (عمارة) أخت (سبيتي) لكنه ما زال يعيش مع أبويه كما هو المألوف. كانت زوجته، الفتاة النحيلة المهذبة بعينها السوداوين الواسعتين، تحب نفسها لعائلته وكانت هي و(مطيرة) متلازمتان. قال لي (ثكب) ذات يوم ونحن نراقب ذهابهما إلى الجدول لجلب الماء:

"الحمد لله ، نال ابني زوجة صالحة، ولولا فضلك سيكون (عمارة) أفقر من أن يتزوج حتى بعد سنين، أود أن أشكرك لما عملته من أجلنا".

كنت منشغلاً إلى الحد الذي منعي من الرجوع إلى العراق مرةً أخرى حتى بداية سنة ١٩٥٨م. وفي أثناء تحليق الطائرة استطعت رؤية الأهوار تحتي وتطلعت بلهفة إلى الشهور الست القادمة. قابلي (عمارة) و(سبيتي) في مطار البصرة وأسرعاً باتجاهي لمعانقتي كلما عدت سالماً حسب عادتهم. سألت عن صحة عائلاتهم وعن أصدقائي الآخرين فكانوا يعطوني الإجابة التقليدية لكل سؤال :

"يسلم عليك".

لم يبدَ علي (سبيتي) ، المتزوج الآن ، أى تغيير، لكنني استشعرت في الحال أن ثمة تبدل في (عمارة)، كان أكثر نضجاً ومتحفظاً بشكل لم أعهده فيه.

لم يدم الأمر حتى وصولنا إلى القنصلية حين أخذني (سبيتي) إلى جانب وأخبرني أن كلا من أبي (عمارة) وزوجته قد توفيا. فسألت في الحال إن كان (رضيوي) هو الذي قتل (ثكب)، لكن (سبيتي) قال إنه مات في الصيف بمرض في معدته بعد عناء طويل والم قاس. ومما قاله لي (عمارة) فيما بعد، كنت شبه متيقن أنه سرطان:

"لو كنت معنا (صاحب)، لأعطيته دواءً لإيقاف ألمه، لم يكن بيدي ما أفعله وهو والذي".

بعد وفاة (ثكب) بأسبوعين، ذهبت زوجة (عمارة) إلى بيت والدها لتضع وليدها هناك حسب العادة<sup>(١)</sup>. ماتت بعد دقائق من ولادتها. كان المولود الذكر عليلاً. أخبرني (عمارة) أن والدته التي رزقت بطفل هي نفسها قبل سنتين هي التي ترضعه: "لكنها قليلة الحليب وكل جواميسنا جافة في الوقت الحاضر".

بعد أن استشرت العديد من الناس في البصرة، اشترينا (فاريكس) <sup>(٢)</sup> (Farex) وأطعمة أخرى للرضع لأخذها معنا، ولكن حين وصلنا (رفيعه) واجهنا بعض المشاكل بإقناع (ناكه) باستخدامها:

"ربما كانت هذه الأطعمة ملائمة لأبناء الشيوخ، لكن الطعام الملائم لأطفالنا هو مغلي الأرز"<sup>(٣)</sup>، وإذا لم يكن هناك حليب فماء مع قليل من طمي النهر"<sup>(٤)</sup>.

استفدنا من استعداد (مطيره) لمساعدتنا فقد كرّست نفسها للطفل وشرعت بإطعامه مثل ما نشر عليه. زاد وزن الطفل أخيراً نتيجة لهذا الغذاء الجديد. لقد كان على وشك الموت جوعاً حين رأيته أول مرة، وكنت على يقين أنه ميت لولا هذا الإجراء. أُرعبنا ذات مرة حين كنا بعيدين عنه مدة شهرين في طرادتنا وعدنا لنجده يعاني من إسهال وتقيؤ شديدين. كان (عمارة) على يقين من أن ابنه صائر إلى الموت، لكنه استعاد عافيته في الصباح التالي بعد أن أعطيته إبرة بنسلين.

(١) لا يجري مجرى العادة والعرف ذهاب المرأة إلى بيت أهلها لتلد هناك، ولكن إن رأى زوجها وأهله أن مداراتها ستكون أفضل في بيت أهلها بحكم وجود أمها أو أخواتها، ذهبت هناك وإلا فالكان الطبيعي لولادتها هو بيت زوجها. ومن الجدير بالذكر أن ابن عمارة هذا على قيد الحياة الآن واسمه حميد.

(٢) Farex على الرغم من كثرة الأسئلة للعديد من الصادلة غير أن أحداً منهم لم يتعرف على هذا الاسم.

(٣) مغلي الأرز: الماء الناتج عن سلق الأرز، يسمونه (فوج).

(٤) اقترح ناكه هنا جاد جداً، فطالما سمعت عن حكايات أطفال رضع فقدوا أمهاتهم استعانوا بالفوح وظمي النهر.

انضم إلينا (حسن) في (بومغيرات) وقد جلب معه ابن عمه (جثير)<sup>(١)</sup> لينوب عن (ياسين) الذي استقر مع عائلته. أعدنا زيارة كل القرى تقريباً، كنت عبرها نشطاً في حركتي وأنا أرى سعادة الناس بعودتي. قال الكثير منهم: "ظننا أن طيبنا غادرنا وذهب ليعيش في وطنه. الله يحفظك يا (صاحب). الآن، وقد عدت، سنكون على ما يرام".

شعرت حينها أي نلت أكثر من جائزة عن خيبي وغمضي وإرهاقي الذي غالباً ما يحدثونه في. مازال موظفو الدولة يعتقدون أي جاسوس على الرغم من صعوبة تصور ماهية الأسرار العسكرية التي أستطيع كشفها في الأهوار. لكن القرويين الذين يأتون معولن على يعرفون ببساطة أي هناك لإمتاع نفسي ولمساعدهم ما استطعت. ما زال الثار يتوعد. حذروني عدة مرات أن (رضوي) قد تخلى عن محاولاته قتل (بداي) وعزم على قتل (عمارة) بدلاً منه. كانت مجموعتنا مسلحة تسليحاً جيداً ولنا سمعة مرعبة جداً بوصفنا رماة ماهرين تمنع (رضوي) وعائلته من محاولة قتل (عمارة) في أثناء وجودنا معاً، لكني خائف بشأن ما يمكن أن يفعلوه حين أغادر. (بداي) آمن بين (الفرطوس) في المغرب، حيث يُعرف (رضوي) ويُميز غريباً في الحال، ولكن (عمارة) يبدو غير محصن أبداً في (رفيعة) التي تبعد ساعة أو ساعتين عن محل إقامة (رضوي). كنت أعرف أن (رضوي)، عاجلاً، سوف يقوم بهجوم. اقترحت ضرورة انتقال (عمارة) إلى (الصيكل) لكنه، كما توقعت، رفض:

"لن أُجبر على الاختيار، إن فضل (بداي) ملازمة الفراش بين (الفرطوس) فذلك شأنه. أنا باق هنا حيث أصدقائي وحيث أرض (رشك)، معي بنديقي والمسدس

(١) جثير بن مكسزي بن معيوس بن محسن الفريجي، ولد سنة ١٩٣٧م، رافق المؤلف مدة سنتين تقريباً ١٩٥٧م - ١٩٥٨م، يسكن الآن منطقة أرياف قضاء قلعة صالح تسمى الجوهري على ضفة دجلة اليمنى. يتمتع بذاكرة ذهبية، أعاني كثيراً في الحصول على المعلومات.

الذي أعرتني. أنا لا أريد المتاعب، فعائلة (ثكب) لا تريد سوى العيش بسلام، ولكن إن جاء (رضيوي) باحثاً عني سأقتله".

ذهب (سيد صروط) بنفسه، عبثاً، إلى (رضيوي) ليطلب منه قبول الدية. أغضب (السيد) جداً من قبل (رضيوي) حتى أنه ضربه بخيزرانتة<sup>(١)</sup>. عقدت عزمي على أن أجد (رضيوي) بنفسه لأجبره. على إعطاء (عمارة) وأخوته هدنة أخرى، ولمدة سنة هذه المرة وسيساعدهم هذا في محنتهم حين عودتي مرة أخرى.

المشكلة هي تعيين مكان (رضيوي). ذهبنا للبحث عنه مرتين، وفي كل مرة نجد معلوماتنا خاطئة. ثم، وفي نهاية مايو، سمعنا أنه قرب (العزيز) في أراضي شيخ من شيوخ (البو محمد) اسمه (شنته)<sup>(٢)</sup>. وصلنا إلى هناك عند العصر ووجدنا (شنته)، الرجل الكهل، في مضيقه. وبعد الشكليات الاعتيادية قلت:

"جئت لأخذ (عطوة) لـ(عمارة) من (رضيوي) وأريد جلبه هنا الآن، إلى هذا المضيق".

فتساءل (شنته) مدعيًا الجهل:

"أين هو؟"

"هناك في تلك البيوت عند حافة الأرض اليابسة".

استدعي (شنته) أحد رجاله:

"اذهب إلى (رضيوي) وقل له إنني أريده، اجلبه معك".

انتظرنا في الخارج على العشب عند ظل المضيق لأن الجو كان حارًا جدًا. بعد نصف ساعة عاد الرسول وحده.

(١) تحتاج عملية رد (سيد صروط) أو أي سيد ميجل خاتبا دون تلبية طلبه للكثير من الجراءة أو حتى الوقاحة، لذلك يعتم ذوو القتل على محل إقامهم لكي لا يخرجوا مع (سيد) ما أو أي (خير) آخرين يطالبهم بتسليمهم (عطوة).

(٢) شنته بن طاهر بن حاتم بن صهود أحد شيوخ البو محمد في منطقة (الجمشة) القريبة من ناحية العزيز. تولى في بغداد عام ١٩٧٩ م.

"(رضيوي) يرفض المجيء".

"نظرت إلى (شنته) الذي هز كتفيه وقال:

"ما الذي يمكن أن أفعله أكثر من هذا إذا كان يرفض المجيء؟ غداً ، سوف أطرده من أرضي".

كان واضحاً جداً أن لا نية لديه لمساعدتنا. فقلت بغضب:

"ما أعظم ما فعلت لي! (سييتي)، (حسن)، (جثير) هيا، سوف نذهب ونجلبه بأنفسنا".

وحملت بندقيتي.

فحض (شنته) على قدميه:

"لا تذهب، (صاحب) ، إن (رضيوي) رجل شرير".

"إذا لم تجلبه هنا، سأجلبه أنا".

"لا ، سأذهب أنا وابني، ابق أنت ورفاقلك هنا".

ذهب (شنته) باتجاه البيوت البعيدة بصحبة حشد من أتباعه. مرت ساعة وتلتها

أخرى والوقت يمرّ ثقيلًا. وأخيراً رأيناهم عائدين. حين أصبحوا قريين، قال (عمارة) بهدوء<sup>(١)</sup>:

"(رضيوي) وابنه معهم".

فحضنا وتبادلنا التحايا، جلس (رضيوي) وجماعته قبالتنا. كان رجلاً أعرج،

بخصلة شعر قامت مقام لحية، عيناه قاسيتان. أما (حسن) ابنه، ففي العشرين من عمره

(١) إن وجود الشخص المنوي أخذ (عطوة) له ضمن الوفد الذاهب لهذا الغرض أمر غير جائز البتة وفيه من الجراءة غير المبررة الشيء الكثير، وحتى إن حصل وذهب فعليه ألا يواجه خصومه بل يذهب إلى أي بيت قريب إلى أن يعرف نتيجة المفاوضات، ولا أعرف كيف برز عمارة بن ثكب وجوده في نفس المكان الموجود فيه الرجل الموتور (رضيوي). إنه أحد أمرين لا ثالث لهما: إما أن عماره يشعر أنه برىء من خلال صلته البعيدة نوعاً بالقاتل، أو لإحساسه بالأمم برفقة الرجل الإنجليزي الذي كان الناس البسطاء لا يفصلونه عن الحكومة.

تقريباً، قصير وبدين وفض. كان معهم ثمانية آخرون من (الفريجات). لم يكونوا مسلحين إلا بالخنجر، لذا كان لابد من طرح مسدسي على البارية بجاني.

قال (شنته):

"صاحب، هذا رضوي، جاء لأنه سمع أنك ترغب بالحديث معه".

قلت:

"أريد (عطوة) مدة سنتين لـ (عمارة) وإخوته ولا شأن لي بـ (بداي)<sup>(١)</sup>".

أجاب (رضوي) بشكل محدد صريح:

"أبدًا، لن أعطي (عطوة) مدة أخرى".

فكررت دون أن أحول عيني عنه :

"لمدة سنتين".

"أبدًا".

راقب أحداً الآخر بصمت ولم نتفوه بحرف. قال (سبيقي) أخيراً:

"نحن نطلب (عطوه) لعائلة (تكب) فقط".

"أبدًا، لن أعطي (عطوة) لأي مخلوق، لا الآن ولا مستقبلاً".

خيم الصمت من جديد. كان (عمارة) بجاني يداعب مسبحة. مرّ رتل من

الجاموس عائداً إلى البيوت من الهور والشمس تميل نحو الغروب وقد تألقت السماء

بوهج الألوان. طنّ البعوض حولنا. كرر (رضوي):

"أبدًا".

ملت إلى الأمام:

"اسمع (رضوي)، واسمع جيداً، إما أن تعطيني (عطوة) الآن أو لأذهب في

الصباح لمقابلة الحكومة، وأنت مطلوب، لأنه سبق لك قتل اثنين. إذا ألقى القبض

(١) لابد أن جملة المؤلف تلك قد أعقت بعاصفة من الضحك، فليس من المعروف إعطاء مثل هكذا مدة طويلة.



عليك ستمضي بقية عمرك في السجن، ساعدك ابنك (حسن) في القتل الأخير وسيلقى عليه القبض أيضاً".

توقفت لوهلة، ثم واصلت:

"سأعرض جائزة بقيمة مائة دينار لإلقاء القبض عليك، عندها سيفتش عنك كل شرطي والكثير من الناس أيضاً. كَمَلْ عقلك لأني والله يا (رضيوي) أعني ما قلت، أقسم على ذلك بحياتي. والأكثر من هذا، إذا حصل وقتلت (عمارة) في أثناء غيابي، فسأبدل جهدي لأن تُقتل أنت أيضاً مهما كلفني ذلك".

استقمت في جلستي. بعد لحظات قال له الرجل (الفريجي) ذو اللحية الرمادية الذي كان معه:

"هيا، دعنا نفرّد جانباً كي نناقش الأمر".

انسحبوا جميعاً مسافة مائة ذراع وجلسوا هناك<sup>(١)</sup>. أكاد أسمع، بفضول، دمدمتهم وصوت (رضيوي) الحاد الذي يرتفع بغضب. حلّ الظلام، فجلب الخادم فانوساً، وأخبره (شنتّه) أن يجلب قهوة. بعد ساعة، التحق (الفريجات) بنا. تكلم الرجل ذو اللحية الرمادية:

"إن (رضيوي) رجل طيّب فوافق هو وابنه على إعطاء بيت (ثكب) (عطوة) لمدة سنة واحدة، فليس من العادة إعطاء أكثر من سنة. أما ما يخص (بداي) فإن (رضيوي) لن يمنحه (عطوة) لا الآن ولا لاحقاً".

فاستحثني (شنتّه):

"اقبل يا صاحب، فالحقيقة ليس من عادة العشائر إعطاء (عطوة) لأكثر من سنة، وحين تنتهي مدتها بإمكانك تجديدها، اقبل (صاحب)".

(١) عملية الانسحاب المؤقت من المضيف إلى مسافة معينة لغرض التشاور بتفاصيل لا يرغبون لغيرهم الاطلاع عليها يسمونها (تطلاع).

"مَن يضمنها؟ أريد أربعة رجال من عشائر مختلفة"<sup>(١)</sup>.

قال (شنته):

"سوف أتدبر هذا الأمر".

استشرت الآخرين وقلت:

"حسنًا، نحن نقبل".

وحين اكتملت الشكليات، غادر (الفريجات)، وأرسل (شنته) بطلب العشاء. تحتمت مغادرتي إلى لندن قريبًا، فما زال أمامي ستة أشهر عمل في كتابي<sup>(٢)</sup> قبل أن أكون حرًا في العودة إلى العراق. بإمكانني الآن، على أقل تقدير، الذهاب بنفس مطمئنة، ولو أنني لم أكن أعلم حينها، أنني لن أرى أو أسمع (عماره) مرة أخرى.

حضر (عمارة) و(سبيتي) مغادرتي البصرة. ستغادر طائرتي عند منتصف النهار، لذا انتظرنا في فندق المطار. كان ثمة ملصق ممزق على الجدار المقابل يَصوِّر مضيقة طيران غريبة وهي تقدم الطعام لشاب رشيق، كُتب تحته: "شاهد العالم وأنت على كرسيك المريح".

حطَّت الطائرة. ظهر حشد من المسافرين المرهقين في الصلاة في أثناء تزودها بالوقود وجلسوا مستقرين باستسلام. ناولهم النادل قناني الكوكاكولا. لقد غادروا هذا الصباح أو الليلة البارحة من بانكوك أو سديني. انضممت إليهم الآن، وفي غضون ثماني ساعات سوف أكون في لندن، وهو وقت كاف للارتحال من (الكباب) إلى القرنة مع تناول غداء عند (البوخبخت) في الطريق.

(١) من الواضح جدًا فهم المؤلف للكثير من التفاصيل العشائرية ولا أعرف كيف فاتته عملية المطالبة بـ (عطوة) لأكثر من سنة.

(٢) كتاب المؤلف الذي يعنيه هو **Arabian Sands** "رمال عربية". وقد ترجم إلى العربية، يستعرض فيه قصة قطعه للربع الخالي من البحر الأحمر حتى الخليج العربي في عقد الأربعينيات من القرن العشرين.

استطعت فهم بضع كلمات مبتورة من مكبر الصوت الهادر .. مسافرين،  
BIAC ... رقم الرحلة ... روما ... لندن ... جوازات سفر ... سيطرة جوازات  
السفر. كان الضجيج يلف المكان. نهضت ولملمت أشيائي. قلت لرفاقي:  
"يجب أن أذهب الآن".

قبلني (عمارة) و(سيتي) قبلة وداع. قال (عمارة) :  
"عُدْ سريعاً".

أجبت وأنا أنضم إلى الرتل:  
"السنة القادمة، إن شاء الله".



بعد ثلاثة أسابيع كنت أشرب الشاي مع أصدقاء لي في إيرلندا حين دخل  
أحدهم:

"هل سمعتم أخبار الساعة الرابعة؟ هناك ثورة في بغداد وقتلت العائلة المالكة  
وأحرق سواد الناس السفارة البريطانية..".

أدركت أنه لن يُسمح لي بالعودة مطلقاً، وبذلك أغلق فصل آخر في حياتي.



## أسماء الطيور التي وردت في الكتاب

ت	الاسم بالإنجليزية	الاسم بالعربية	الاسم المحلي للمفرد
١	pied flycatcher	صائد الذباب	-----
٢	kite	الحدأة	الحدية
٣	rook	الغداف	-----
٤	partridge	حجل	حجّلة
٥	cattle-egret	أبو قردان	البيوضي
٦	heron	مالك الحزين	منه الزركي والرخيوي والرخيوي الجبير
٧	coot	دجاجة ماء	دجاجة ماي
٨	Pigmy cormorant	غراب البحر	الهليجي
٩	darter	الزقة - الورد	الوردة
١٠	Warbler	الشادي طائر يغرد	-----
١١	Duck	بط	منه الحضري وأم جامل والصيني
١٢	Mallard	حضري	حضري
١٣	eagle	نسر	نسر - حوم
١٤	Shoveller	أبو مجرف	بريش
١٥	Teal	الحذف الشوي	حذافة
١٦	garganey	الحذف الصفي	حذافة
١٧	Pelican	البجع	نعيجة ماي
١٨	Ibis	أبو منجل	صائدة
١٩	crane	كركي	-----
٢٠	Strok	اللقلق	درويش على

-----	الغفّاس الصغير	dabchick	٢١
منه البريزجي - الفوصة - البريزجي الجير	الغفاس	Grebe	٢٢
نسر - حوم	نسر	vulrure	٢٣
-----	الزرقاق	plover	٢٤
صكر	المهار	Pallid harrier	٢٥
الجهلول	الجهلول	Snipe	٢٦
-----	الطائر المخوض	wader	٢٧
-----	الطائر المطوق	Ruff	٢٨
كصكص	الليموزية	Godwit	٢٩
-----	الكروان	curlew	٣٠
-----	طيّطوى	Redshank	٣١
مغيري	أبو ملعقة	Spoonbill	٣٢
منه البطّة - الحويزاوي - الحرسة	الأوزة	goose	٣٣
-----	السحنون	Purple gallinule	٣٤
-----	الحُرْشَنَة	Grey tern	٣٥
عصفور	العصفور	sparrow	٣٦
الزيطة	السنونو	swallow	٣٧
-----	الفَيّوب	whimbrel	٣٨
-----	النكّات	Avocet	٣٩
كرسوع	الطَوَل	Stilt	٤٠
الواغ	الواق	bittern	٤١
الصليكع	القاوند - الرفراف	Halcyon kingfisher	٤٢
رويّة	الحمراوي	pochard	٤٣

أسماء النباتات في الهور وعلى جوانبه التي ورد ذكرها  
في الكتاب والتي لم ترد

١	قصب	٢٥	سلهو
٢	بردي	٢٦	شبلان
٣	جريح	٢٧	شويجه
٤	جولان	٢٨	نُعيمه
٥	كُبر	٢٩	حَوّ
٦	كوك الله	٣٠	فجيله
٧	علكه	٣١	خَلَيَان
٨	مُرير	٣٢	خويصة
٩	إذان الفار	٣٣	بطنج
١٠	خَلَبَلاب	٣٤	مُرَان
١١	كاظ	٣٥	ثِيل
١٢	نعنان	٣٦	شُرِب
١٣	كعبيه	٣٧	حند كوك
١٤	غزيري	٣٨	وطيوطه
١٥	لسان الثور	٣٩	رجيحة
١٦	كوبان	٤٠	سلج
١٧	أبو ركيه	٤١	طكعه
١٨	مخرب لكاع	٤٢	حمّض
١٩	جيجاب	٤٣	حرفش
٢٠	الزأمرأ	٤٤	بَسَة
٢١	هوسان	٤٥	سَمِينه
٢٢	تابلك	٤٦	دوسر
٢٣	بريجه	٤٧	شويل
٢٤	عَسَاف	٤٨	طرطيع

## أنواع البناء من القصب

يمكن بناء الأشكال التالية تبعاً لأمرين مهمين هما الحاجة إلى هذا البناء والتمكن

المادي :

١ - المضيف

٢ - الربعة

٣ - الصوبات

٤ - الصريفة

٥ - السترة

٦ - البيت

٧ - الشكص

وسكان الأهوار أحرار في بناء هذه الأشكال عدا المضيف والربعة فلا حق لأي

كان بناء مضيف أو ربعة إلا لمن توارث زعامة عشيرته .

## مراجع الترجمة والهوامش

### المراجع العربية :

- ١ - البعلبكي، منير، المورد ، قاموس إنكليزي عربي، بيروت، ١٩٨٧م، دار العلم للملايين.
- ٢ - تيسفیر ، ولفرید، المعدان، محاضرة في الجمعية الملكية البريطانية، ترجمة باقر الدجيلي، بغداد، ١٩٥٦م، مطبعة الرابطة.
- ٣ - الجويراوي، جبار عبد الله، سلاماً أيتها الأهوار، بغداد، ١٩٩٢م، دار الشئون الثقافية العامة.
- ٤ - الجويراوي، جبار عبد الله، عشائر الفرات الأوسط والجنوبي في الحلة والديوانية والسماوة والناصرية، بغداد، ١٩٩٢م، مطبعة الأديب البغدادية.
- ٥ - الجويراوي، جبار عبد الله، تاريخ ميسان وعشائر العمارة، بغداد، ١٩٩٠م، مطبعة الأديب البغدادية.
- ٦ - حسك، عامر، أهوار جنوب العراق، بغداد، ١٩٧٩م، مطبعة المعارف.
- ٧ - دانيال، كلين، موسوعة علم الآثار، ترجمة ليون يوسف، ج ١ ، ج ٢ ، بغداد ، ١٩٩٠ م، دار المأمون للترجمة والنشر.
- ٨ - سليم، شاکر مصطفى، الجياش، بغداد ١٩٦٥م.
- ٩ - العامري، ثامر عبد الحسن، معجم القبائل والأسر والطوائف في العراق، ط ١ ، بغداد، ٢٠٠١م، مطبعة الوفاق.
- ١٠ - عبد الله، عبد على سلمان، المجتمع الريفي في العراق ، بغداد، ١٩٨٠م، دار الرشيد للنشر.
- ١١ - فلانين ، الحاج ریکان، تعریب د. جمیل سعید و د. إبراهيم شریف، بغداد، ١٩٦٦م.



- ١٢ - اللوس ، بشر، الطيور العراقية ، بغداد ، ١٩٦٢م، مطبعة الرابطة.
- ١٣ - ماكسويل، غافن، قصة في مهب الريح، ترجمة صادق التميمي ، بغداد، بلا تاريخ.
- ١٤ - مهدي، شفيق، الطيور المائية في العراق والوطن العربي، بغداد، ١٩٨٢م، دار الرشيد للنشر.
- ١٥ - النجفي ، حسن، معجم المصطلحات والأعلام في العراق القديم، عربي إنجليزي، ج ١ ، ط ١ ، بغداد، ١٩٨٣م، مطابع دار آفاق عربية.
- ١٦ - يونغ، غافن، العودة إلى الأهوار، ترجمة فريد ضياء شكارا، بغداد، ١٩٩٠م، دار الشؤون الثقافية.

### المراجع الأجنبية :

1. Little, William and others, The Oxford Universal Dictionary on Historical Principles, 3 rd Edition 1955, U.S.A.
2. Martin, Ruth, E., and others, Encyclopedia Britannica international Atlas, 1965, Italy.
3. Webster, New Webster's Dictionary and Thesaurus of the English language, 1992, U. S. A.

# الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	كلمة الناشر .....
٨	تعريف بالمؤلف .....
١٠	مقدمة المترجم .....
١٧	شكر .....
١٩	مقدمة المؤلف .....
٢٣	الفصل الأول : نخة عن الأهوار .....
٣١	الفصل الثانى: الرجوع إلى الأهوار .....
٤٥	الفصل الثالث: صيد خنزير برى .....
٦١	الفصل الرابع: الوصول إلى الكباب .....
٧٥	الفصل الخامس: الانطباعات الأولى عن المعدان .....
٨٥	الفصل السادس: فى مضيف صدام .....
٩٥	الفصل السابع: بومغرفات: قرب الهور .....
١١٣	الفصل الثامن: عبور الأهوار الوسطى .....
١٢٧	الفصل التاسع: فى قلب الهور .....
١٣٧	الفصل العاشر: الخلفية التاريخية .....
١٤٩	الفصل الحادى عشر: الفوز بالقبول .....
١٦١	الفصل الثانى عشر: بين الفرطوس .....

الصفحة	الموضوع
۱۷۱	الفصل الثالث عشر: ضغائن في الأهوار.....
۱۸۱	الفصل الرابع عشر: العودة إلى الكباب.....
۱۹۵	الفصل الخامس عشر: فالخ بن مجيد.....
۲۰۷	الفصل السادس عشر: مصرع فالخ.....
۲۱۹	الفصل السابع عشر: مراسيم الحداد.....
۲۳۱	الفصل الثامن عشر: الأهوار الشرقية.....
۲۴۵	الفصل التاسع عشر: بين السودان والسواعد.....
۲۵۷	الفصل العشرون: عائلة عمارة.....
۲۷۱	الفصل الحادي والعشرون: ۱۹۵۴ ... الفيضان.....
۲۸۷	الفصل الثاني والعشرون: ۱۹۵۵ ... الجفاف.....
۲۹۷	الفصل الثالث والعشرون: البريرة والمضايف.....
۳۰۹	الفصل الرابع والعشرون: الثأر من عمارة.....
۳۱۹	الفصل الخامس والعشرون: عامي الأخير في الأهوار.....
۳۲۹	أسماء الطيور التي وردت بالكتاب.....
۳۳۱	أسماء النباتات في الهور.....
۳۳۲	أنواع البناء من القصب.....
۳۳۳	مراجع الترجمة والهوامش.....
۳۳۵	الفهرس.....



# عرب الشهور

وليفريد ثيسينغر

ترجمة الدكتور  
سلمان عبد الواحد كيوش

للكتاب  
المراقي



طبع - نشر - توزيع

مؤسسة  
مصر  
مرنضى

E-mail : misr\_mrttda@yahoo.com - ahadi88@yahoo.com

Tel. : 4154574 - Mobile : 07902632131 - 07702697982